المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله _صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً_ أما بعد:

فإن علم العقيدة أشرف العلوم، وأجلها قدراً، وإن تعلُّم العقيدة، والدعوة إليها لأهم المهمات، وأوجب الواجبات.

فلا صلاح، ولا عز، ولا فلاح للأفراد والجماعات إلا بفهم العقيدة الصحيحة، وتحقيقها.

ولا أدل على ذلك من حال الأمة الإسلامية في ماضيها وحاضرها؛ فلما كانت متمسكة بدينها، محققة لتوحيد ربها _ عزَّ شأنُها، وهِيْبَ جنابها، وعلت بين الأمم رايتها.

ولما رقَّ دينها، وخفَّ وزنُ العقيدة في نفوس أهلها _ هبطت من عليائها، وهوت من شامخ عزها، فلقيت صغاراً بعد شمم، وخمولاً بعد نباهة، وجهلاً بعد علم، وبطالة بعد نشاط.

وإن مما يعين على فهم العقيدة أن تبين معالمها، وأن تنشر محاسنها، وأن يقرب للناس فهمها.

ولقد يسر الله أن كتبتُ في فترات متباعدة بعضَ الرسائل في العقيدة؛ لأستعين بها على إلقاء بعض الدروس في الجامعة أو غيرها، ثم خرجت تلك الرسائل مفردة كل واحدة منها على حدة.

وبعد أن خرجتْ أُشِيْرَ عليَّ كثيراً أن تُجمع؛ فكان أن نُقِّحت، وجُمعت في كتاب واحد حوى عدداً من الرسائل، ثم أُعيد طبعه مرة ثانية، ونُقِّح، وزِيد فيه عدد من الرسائل، ثم أُعيد طبعه ثالثة، ونُقِّح، وزيد فيه، وحُذف منه.

وهذه الرسائل ليست على وتيرة واحدة من جهة العرض، والاستيعاب، والتفصيل؛ إذ بعضها مفصَّلٌ، وبعضها مُجْملٌ، وأكثرها مشتمل على العزو والتخريج، وقليلٌ منها جاء غُفْلاً من ذلك؛ لكونها اختصاراً لأحد الكتب المطولة التي كتبتها في العقيدة كـ (اليوم الآخر) و(الإيمان بالقضاء والقدر) و(عقيدة أهل السنة والجماعة) أو لكون الرسالةِ كُتبت حينها مختصرة جداً، فجاءت كما كُتبت في الأصل.

وهذا الكتاب مشتمل على الرسائل التالية:

١ـ مختصر عقيدة أهل السنة والجماعة؛ المفهوم والخصائص.

٢ـ الإيمان بالله.

٣ـ لا إله إلا الله: معناها ـ أركانها ـ فضائلها ـ شروطها

٤ـ توحيد الربوبية.

٥ـ توحيد الألوهية.

٦ـ توحيد الأسماء والصفات.

٧ــ الإيمان بالملائكة.

٨ــ الإيمان بالكتب.

٩ــ الإيمان بالرسل.

١٠ــ خلاصة الإيمان باليوم الآخر.

١١ــ مختصر الإيمان بالقضاء والقدر.

١٢ــ مسائل في المحبة، والخوف، والرجاء.

١٣ــ نبذةٌ مختصرة في الشفاعة، والشرك، والتمائم، والتبرك.

١٤ــ السحر بين الماضي والحاضر.

١٥ــ الطِّيَرَة.

١٦ــ الإيمان: حقيقته، وما يتعلق به من مسائل.

١٧ــ معالم في الصحابة والآل.

١٨ــ الإمامة والخلافة.

وبهذا يكون مجموع الرسائل تسع عشرةَ رسالةٍ؛ فأسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

د. محمد بن إبراهيم الحمد
الزلفي: ص.ب: ٤٦٠
ط٣: ١٤٣٠/٦/٧هـ
جامعة القصيم ــكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ــ
www.toislam.net
alhamad@toislam.net

الرسالة الأولى

مختصر عقيدة أهل السنة والجماعة
المفهوم والخصائص

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فلقد يسر الله تعالى أن كتبت كتاباً بعنوان:

عقيدة أهل السنة والجماعة

مفهومها ـ خصائصها ـ خصائص أهلها

وقد حظي ذلك الكتاب بتقريظ سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله ابن باز×.

وقد جاء ذلك الكتاب في مجلد، وطبع عدة مرات، ولقي قبولاً ولله الحمد.

ولهذا رأت بعض الجهات الخيرية اختصار ذلك الكتاب؛ ليتسنى طبعه، وتوزيعه على نطاق أكبر؛ فكان أن اختصر في هذه الرسالة التي جاءت حاملة العنوان التالي:

(مختصر عقيدة أهل السنة والجماعة المفهوم والخصائص)

وقد حذف من هذه الرسالة أكثر الحواشي والهوامش، والتفصيلات؛ فمن أراد الاستزادة فليراجع الأصل، والله المستعان وعليه التكلان.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

مقدمة سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز لأصل الكتاب

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده نبينا محمد وآله وصحبه، أما بعد:

فقد اطلعت على ما كتبه أخونا الكريم صاحب الفضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، وما خصهم الله به من العلم النافع، والعمل الصالح، والخصال الحميدة، والأخلاق الكريمة.

وقد سماه: (عقيدة أهل السنة والجماعة مفهومها _ خصائصها _ خصائص أهلها)

فألفيته كتاباً قيماً ومفيداً وموضحاً لعقيدة أهل السنة والجماعة وأخلاقهم؛ فجزاه الله خيراً، وضاعف مثوبته، وزادنا وإياه من العلم النافع والعمل الصالح.

وإني أنصح كل من اطلع عليه بقراءته، والاستفادة منه؛ لعظم فائدته، وشرحه لأحوال أهل السنة.

والله المسؤول أن يوفقنا وجميع المسلمين للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يصلح ولاة أمور المسلمين، ويمنحهم الفقه في الدين، وأن يعيذ الجميع من مضلات الفتن؛ إنه سميع قريب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

حرر في: ٩/ ١١/ ١٤١٥هـ

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

مفتي عام المملكة العربية السعودية

ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء

مفهوم العقيدة الإسلامية

أولاً: تعريف العقيدة في الاصطلاح العام: هي الإيمان الجازم، والحكم القاطع الذي لا يتطرق إليه شك، وهي ما يؤمن به الإنسان، ويعقد عليه ضميره، ويتخذه مذهباً وديناً، بغضِّ النظر عن صحته من عدمها.

ثانياً: العقيدة الإسلامية: هي الإيمان الجازم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبكل ما جاء في القرآن الكريم، والسنة الصحيحة من أصول الدين، وأموره، وأخباره، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم لله ـ تعالى ـ في الحكم، والأمر، والقدر، والشَّرع، ولرسوله" بالطاعة والتحكيم والاتباع.

ثالثاً: موضوعات علم العقيدة: العقيدة ـ بمفهوم أهل السنة والجماعة ـ اسم عَلَم على العِلْم الذي يُدرس ويَتَناول جوانب التوحيد، والإيمان، والإسلام، وأمور الغيب، والنبوات، والقدر، والأخبار، وأصول الأحكام القطعية، وما أجمع عليه السلف الصالح من أمور العقيدة، كالولاء والبراء، والواجب تجاه الصحابة، وأمهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ.

ويدخل في ذلك الرد على الكفار، والمبتدعة، وأهل الأهواء، وسائر الملل والنحل، والمذاهب الهدامة، والفرق الضالة، والموقف منهم، إلى غير ذلك من مباحث العقيدة.

رابعاً: أسماء علم العقيدة عند أهل السنة والجماعة:

١ ـ العقيدة والاعتقاد، والعقائد.

٢ ـ التوحيد. ٣ ـ السُنة. ٤ ـ الشريعة.

٥ــ الإيمان. ٦ــ أصول الدين، أو أصول الديانة.

خامساً: أهل السنة والجماعة: هم من كان على مثل ما كان عليه النبي" وأصحابه، وهم المتمسكون بسنة النبي" وهم الصحابة، والتابعون، وأئمة الهُدى المتَّبِعون لهم بإحسان، وهم الذين استقاموا على الاتباع، وجانبوا الابتداع في أي مكان وزمان، وهم باقون منصورون إلى يوم القيامة.

وسُموا بذلك لانتسابهم لسنة النبي" واجتماعهم على الأخذ بها ظاهراً وباطناً، في القول، والعمل، والاعتقاد.

سادساً: أسماء أخرى لأهل السنة والجماعة: لأهل السنة والجماعة أسماء أخرى يعرفون بها، منها:

١ــ أهل السنة والجماعة. ٢ــ أهل السنة.

٣ــ الجماعة. ٤ــ السلف الصالح.

٥ــ أهل الأثر. ٦ــ أهل الحديث.

٧ــ الفرقة الناجية. ٨ــ الطائفة المنصورة.

٩ــ أهل الاتباع.

خصائص العقيدة الإسلامية
عقيدة أهل السنة والجماعة

للعقيدة الإسلامية _**عقيدة أهل السنة والجماعة**_ خصائص عديدة، لا توجد في أي عقيدة أخرى، ولا غرو في ذلك؛ إذ إن تلك العقيدة تُستَمد من الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن تلك الخصائص مايلي:

١_ سلامة مصدر التلقي: وذلك باعتمادها على الكتاب والسنة، وإجماع السلف الصالح، فهي مستقاة من ذلك النبع الصافي، بعيداً عن كدر الأهواء والشبهات.

وهذه الخصيصة لا توجد في شتى المذاهب والملل والنحل غير العقيدة الإسلامية _عقيدة أهل السنة والجماعة_.

٢_ أنها تقوم على التسليم لله _تعالى_ ولرسوله ": وذلك لأنها غيب، والغيب يقوم على التسليم.

فالتسليم بالغيب من أعظم صفات المؤمنين التي مدحهم الله بها، كما في قوله _تعالى_: [ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ] (البقرة: ٢_٣).

ذلك أن العقول لا تدرك الغيب، ولا تستقل بمعرفة الشرائع؛ لعجزها وقصورها؛ فكما أن سمع الإنسان قاصر، وبصره كليل، وقَوَّتَه محدودة _ فكذلك عقله؛ فَتَعَيَّن الإيمان بالغيب والتسليم لله _عز وجل_.

٣_ موافقتها للفِطرة القويمة، والعقل السليم: فعقيدة أهل السنة والجماعة ملائمة للفطرة السليمة، موافقة للعقل الصريح، الخالي من الشهوات والشبهات.

٤_ اتصال سندها بالرسول" والسلف الصالح قولاً، وعملاً، واعتقاداً: وهذه الخصيصة قد اعترف بها كثير من خصومها؛ فلا يوجد _بحمد الله_ أصل من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ليس له أصل أو مستند من الكتاب والسنة، أو عن السلف الصالح، بخلاف العقائد الأخرى المبتدعة.

٥_ الوضوح والسهولة والبيان: فهي عقيدة سهلة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، فلا لبس فيها، ولا غموض، ولا تعقيد؛ فألفاظها واضحة، ومعانيها بينة، يفهمها العالم والعامي، والصغير والكبير؛ فهي تستمد من الكتاب والسنة، وأدلة الكتاب والسنة كالغذاء ينتفع به كل إنسان، بل كالماء الذي ينتفع به الرضيع، والصبي، والقوي، والضعيف.

٦_ السلامة من الاضطراب والتناقض واللبس: فلا مكان فيها لشيء من ذلك مطلقاً، كيف لا وهي وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟.

فالحق لا يضطرب، ولا يتناقض، ولا يلتبس.

بل يشبه بعضُه بعضاً، ويصدِّق بعضُه بعضاً [وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً](النساء: ٨٢).

٧_ أنها قد تأتي بالمحار، ولكن لا تأتي بالمحال: ففي العقيدة الإسلامية ما يبهر العقول، وما قد تحار فيه الأفهام، كسائر أمور الغيب؛ من عذاب القبر ونعيمه، والصراط، والحوض، والجنة والنار، وكيفية صفات الله _عز وجل_.

فالعقول تحار في فهم حقيقة هذه الأمور، بل تعجز عن إدراك كيفياتها، ولكنها

لا تحيلها، بل تسلِّم لذلك، وتنقاد، وتذعن؛ لأن ذلك صدر عن الوحي المنزل، الذي لا ينطق عن الهوى.

٨ــ **العموم والشمول والصلاح**: فهي عامة، شاملة، صالحة لكل زمان ومكان، وحال، وأمة، بل إن الحياة لا تستقيم إلا بها.

٩ــ **الثبات والاستقرار والخلود**: فهي عقيدة ثابتة، مستقرة خالدة، فلقد ثبتت أمام الضربات المتوالية التي يقوم بها أعداء الإسلام؛ من اليهود، والنصارى، والمجوس، وغيرهم.

فما إن يعتقد هؤلاء أن عظمها قَدْ وَهَن، وأن جذوتها قد خبت، ونارها قد انطفأت حتى تعود جذعة ناصعة نقية؛ فهي ثابتة إلى قيام الساعة، محفوظة بحفظ الله ــتعالىــ تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل؛ ورعيلاً بعد رعيل، لم يتطرق إليها التحريف، أو الزيادة، أو النقصان، أو التبديل

كيف لا، والله ــعز وجلــ هو الذي تكفل بحفظها، وبقائها، ولم يكل ذلك إلى أحد من خلقه.

قال ــتعالىــ: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] (الحجر:٩).

١٠ــ **أنها سبب للنصر والظهور والتمكين**: فذلك لا يكون إلا لأهل العقيدة الصحيحة، فهم الظاهرون، وهم الناجون، وهم المنصورون كما قال": =**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**+ أخرجه مسلم.

فمن أخذ بتلك العقيدة أعزه الله، ومن تركها خذله الله.

وقد عَلِم ذلك كلٌّ من قرأ التاريخ، فمتى حاد المسلمون عن دينهم ــ حاق بهم

ما حاق، كما حدث لهم في الأندلس وغيرها.

١١ــ أنها ترفع قدر أهلها: فمن اعتقدها، وزاد علماً بها، وعملاً بمقتضاها، ودعوة للناس إليها ــ أعلا الله قدره، ورفع له ذكره، ونشر بين الناس فضله، فرداً كان أو جماعة؛ ذلك أن العقيدة الصحيحة أفضلُ ما اكتسبته القلوب، وخير ما أدركته العقول؛ فهي تثمر المعارف النافعة، والأخلاق العالية، والبركات المتنوعة.

١٢ــ السلامة والنجاة: فالسنة سفينة النجاة، فمن تمسك بها سلم ونجا، ومن تركها غرق وهلك، وكان السلف يسمون السنة سفينة نوح ــعليه السلامــ.

١٣ــ أنها عقيدة الألفة والاجتماع: فما اتحد المسلمون، وما اجتمعت كلمتهم في مختلف الأعصار والأمصار ــ إلا بتمسكهم بعقيدتهم، وأخذهم بها، وما تفرقوا واختلفوا إلا لبعدهم عنها.

١٤ــ التميز: فهي عقيدة متميزة لا تشتبه بها العقائد الأخرى، ولا الأهواء المتفرقة.

١٥ــ أنها تحمي معتنقيها من التخبط والفوضى والضياع: فالمنهج واحد، والمبدأ واضح ثابت لا يتغير، فيسلم معتنقها من اتباع الهوى، ويسلم من التخبط في توزيع الولاء والبراء، والمحبة والبغضاء، بل تعطيه معياراً دقيقاً لا يخطىء أبداً، فيسلم من التشتت والتشرد والضياع، فيعرف من يوالي، ويعرف من يعادي، ويعرف ما له وما عليه.

١٦ــ أنها تمنح معتنقيها الراحة النفسية والفكرية: فلا قلق في النفس، ولا اضطراب في الفكر؛ لأن هذه العقيدة تصل المؤمن بخالقه ــعز وجلــ فيرضى به رباً مدبراً، وحاكماً مشرعاً، فيطمئن قلبه بقدره، وينشرح صدره لحكمه، ويستنير

فكره بمعرفته.

١٧ـ سلامة القصد والعمل: بحيث يَسْلَمُ معتنقها من الانحراف في عبادة الله ـعز وجلـ فلا يعبد غير الله، ولا يرجو سواه.

١٨ـ تؤثر في السلوك والأخلاق والمعاملة: فهي تأمر أهلها بكل خير، وتنهاهم عن كل شر، فتأمرهم بالعدل والاعتدال، وتنهاهم عن الظلم والانحراف.

١٩ـ تدفع معتنقيها إلى الحزم والجد في الأمور.

٢٠ـ تبعث في نفس المؤمن تعظيم الكتاب والسنة: لأنه يعلم أن الكتاب والسنة حق وصواب، وهدى ورحمة؛ فينبعث بذلك إلى تعظيمهما، والأخذ بهما.

٢١ـ تَكْفُل لمعتنقيها الحياة الكريمة: ففي ظل العقيدة الإسلامية يتحقق الأمن والحياة الكريمة؛ ذلك أنها تقوم على الإيمان بالله، ووجوب إفراده بالعبادة دون من سواه، وذلكـبلا شكـسبب الأمن والخير والسعادة في الدارين؛ فالأمن قرين الإيمان، وإذا فقد الإيمان فقد الأمن، قال ـتعالىـ: [الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢٨)](الأنعام).

فأهل التقوى والإيمان لهم الأمن التام، والاهتداء التام في العاجل والآجل، وأهل الشرك والمعصية هم أهل الخوف وأولى الناس به، فهم مهددون بالعقوبات والنقمات في سائر الأوقات.

٢٢ـ تعترف بالعقل وتحدد مجاله: فالعقيدة الإسلامية تحترم العقل السوي، وترفع من شأنه، ولا تحجر عليه، ولا تنكر نشاطه، والإسلام لا يرضى من المسلم أن يطفىء نور عقله، ويركن إلى التقليد الأعمى في مسائل الاعتقاد وغيرها.

٢٤ـ تعترف بالعواطف الإنسانية، وتوجهها الوجهة الصحيحة: فالعواطف

أمر غريزي، ولا يتجرد منه أي إنسان سوي، والعقيدة الإسلامية ليست عقيدة هامدة جامدة، بل هي عقيدة حيَّة، تعترف بالعواطف الإنسانية، وتقدرها حق قدرها، وفي الوقت نفسه لا تطلق العنان لها، بل تُقوِّمها، وتسمو بها، وتوجهها الوجهة الصحيحة، التي تجعل منها أداة خير وتعمير بدلاً من أن تكون معولَ هدمٍ وتدمير.

٢٥ـ العقيدة الإسلامية كفيلة بحل جميع المشكلات: سواء مشكلات الفرقة والشتات، أو مشكلات السياسة والاقتصاد، أو مشكلات الجهل والمرض والفقر، أو غير ذلك؛ فلقد جمع الله بها القلوب المشتتة، والأهواء المتفرقة، وأغنى بها المسلمين بعد العَيْلَة، وعلّمهم بها بعد الجهل، وبصّرهم بعد العمى، وأطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف.

خصائص أهل السنة والجماعة

كما أن لعقيدة أهل السنة والجماعة ميزاتٍ تمتاز بها عن غيرها من العقائد ــ فكذلك لأهل السنة خصائص وميزات يمتازون بها عن غيرهم من أهل الملل والنحل، ويجدر بكل من انتسب إليهم أن يأخذ بها، ويأطر نفسه عليها، حتى ينال ما ناله أسلافه من خير وفضل.

فمن تلك الخصائص التي تميز بها أهل السنة والجماعة ما يلي:

١ــ الاقتصار في التلقي على الكتاب والسنة: فهم ينهلون من هذا المنهل العذب عقائدَهم، وعباداتهم، ومعاملاتهم، وسلوكَهم، وأخلاقهم، فكل ما وافق الكتاب والسنة قبلوه وأثبتوه، وكل ما خالفهما ردوه على قائله كائناً من كان.

٢ــ التسليم لنصوص الشرع، وفهمها على مقتضى منهج السلف: فهم يسلِّمون لنصوص الشرع، سواء فهموا الحكمة منها أم لا، ولا يعرضون النصوص على عقولهم، بل يعرضون عقولهم على النصوص، ويفهمونها كما فهمها السلف الصالح.

٣ــ الاتباع وترك الابتداع: فهم لا يقدمون بين يدي الله ورسوله، ولا يرفعون أصواتهم فوق صوت النبي"ولا يرضون لأحد كائناً من كان أن يرفع صوته فوق صوت النبي".

٤ــ الاهتمام بالكتاب والسنة: فهم يهتمون بالقرآن حفظاً وتلاوة، وتفسيراً، وبالحديث دراية ورواية.

بخلاف غيرهم من المبتدعة الذي يهتمون بكلام شيوخهم أكثر من اهتمامهم

بالكتاب والسنة.

٥_ احتجاجهم بالسنة الصحيحة وترك التفريق بين المتواتر والآحاد: سواء في الأحكام أو العقائد، فهم يرون حجية الحديث إذا صح عن رسول الله"ولو كان آحاداً.

٦_ ليس لهم إمام معظم يأخذون كلامه كله، ويدعون ما خالفه إلا الرسول": أما غير الرسول "فإنهم يعرضون كلامه على الكتاب والسنة، فما وافقهما قُبِل، وما لا فلا، فهم يعتقدون أن كلَّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُرَدُّ إلا الرسول ".

أما غيرهم من الفرق الأخرى، ومن متعصبة المذاهب _ فإنهم يأخذون كلام أئمتهم كله حتى ولو خالف الدليل.

٧_ هم أعلم الناس بالرسول": فهم يعلمون هديه، وأعماله، وأقواله، وتقريراته؛ لذلك فهم أشد الناس حباً له، واتباعاً لسنته.

بخلاف غيرهم من أهل البدع الذي يعرفون عن أئمتهم ما لا يعرفونه عن رسول الله".

٨_ الدخول في الدين كله: فهم يدخلون في الدين كله، ويؤمنون بالكتاب كله؛ امتثالاً لقوله _تعالى_: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً] (البقرة: ٢٠٨).

بخلاف الذين فرقوا دينهم، وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون.

وبخلاف الذين نسوا حظاً مما ذكروا به، والذين جعلوا القرآن عضين؛ فآمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعض.

٩_ تعظيم السلف الصالح: فأهل السنة يعظمون السلف الصالح وهم أهل القرون المفضَّلة، ومن تبعهم بإحسان، ويقتدون بهم، ويهتدون بهديهم، ويرون أن طريقتهم هي الأسلم، والأعلم، والأحكم.

١٠_ الجمع بين النصوص في المسألة الواحدة، ورد المتشابه إلى المحكم: فهم يجمعون بين النصوص الشرعية في المسألة الواحدة، ويردون المتشابه إلى المحكم؛ حتى يصلوا إلى الحق في المسألة.

١١_ الجمع بين العلم والعبادة: بخلاف غيرهم، فإما أن يشتغل بالعبادة عن العلم، أو بالعلم عن العبادة، أما أهل السنة والجماعة فيجمعون بين الأمرين.

١٢_ الجمع بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب: فهم لا ينكرون الأسباب، ولا تأثيرها إذا ثبتت شرعاً أو قدراً، ولا يَدَعُون الأخذ بالأسباب، وفي الوقت نفسه لا يلتفتون إليها.

ولا يرون أن هناك تنافياً بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب؛ لأن نصوص الشرع حافلة بالأمر بالتوكل على الله، والأخذ بالأسباب المشروعة أو المباحة في مختلف شؤون الحياة، فقد أمرت بالعمل، والسعي في طلب الرزق، والتزود للأسفار، واتخاذ العدد في مواجهة العدو.

١٣_ الجمع بين التوسع في الدنيا والزهد بها: فأهل السنة والجماعة لا ينكرون على من يتوسع في الدنيا، ويسعى في كسب الرزق، بل يرون أنه ينبغي للإنسان أن يكفي نفسه ومن يعول، ويستغني عن الناس، ويقطع الطمع مما في أيديهم، على ألا تكون الدنيا أكبر همه، ولا مبلغ علمه، وعلى ألا يكتسب المال من غير حله، كما لا يعيبون على من آثر الكفاف، ورضي بالقليل من متاع الدنيا،

لأنهم يرون أن الزهد إنما هو زهد القلب، وهو أن يترك الإنسان ما لا ينفع في الآخرة.

أما إذا توسع العبد في الدنيا، وجعلها في يده لا في قلبه، يرفد بها الإخوان، ويتصدق على الفقراء والمساكين، ويعين بها على نوائب الحق ــ فذلك من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء؛ كما هو حال الصديق، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم من أثرياء الصحابة من المهاجرين والأنصار ــرضي الله عنهمــ.

وكحال ابن المبارك × فلقد كان من أغنى أهل زمانه، وهو في الوقت نفسه من أزهدهم إن لم يكن أزهدهم.

١٤ــ الجمع بين الخوف والرجاء والحب: فأهل السنة والجماعة يجمعون بين هذه الأمور، ويرون أنه لا تنافي ولا تعارض بينها.

قال الله ــسبحانه وتعالىــ في وصف عباده الأنبياء والمرسلين: [إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ](الأنبياء:٩٠).

وقال في معرض الثناء على سائر عباده المؤمنين: [تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ](السجدة:١٦).

وهناك مقولة مشهورة عند السلف، وهي قولهم: =من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف فهو حروري[١] ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء، ومن عبده بالخوف، والحب، والرجاء فهو مؤمن موحِّد+.

١ـ نسبة إلى حروراء مدينة في العراق وهي موطن الخوارج الأوائل.

١٥ـ الجمع بين الرحمة واللين والشدة والغلظة: بخلاف غيرهم ممن يأخذ جانباً من هدي السلف ويدع الجانب الآخر، فيأخذون بالشدة في جميع أحوالهم، أو باللين في جميع أحوالهم.

أما أهل السنة فيجمعون بين هذا وهذا، وكل في موضعه، حسب ما تقتضيه المصلحة، ومقتضيات الأحوال، وإن كان الأصل في معاملتهم لزوم الرفق، والأخذ باللين.

١٦ـ الجمع بين العقل والعاطفة: فعقولهم راجحة، وعواطفهم صادقة، ومعاييرهم منضبطة، فلم يغلِّبوا جانب العقل على العاطفة، ولا جانب العاطفة على العقل، وإنما جمعوا بينهما على أكمل وجه وأتمه، فمع أن عواطفهم قوية مشبوبة إلا أن تلك العواطف تضبط بالعقل، وذلك العقل يضبط بالشرع.

[نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ] (النور:٣٥).

١٧ـ العدل: فالعدل من أعظم المميزات لأهل السنة والجماعة، فهم أعدل الناس، وأولاهم بامتثال قول الله ـعز وجلـ: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ](النساء:١٣٥).

وقوله: [وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى] (الأنعام: ١٥٢).

حتى إن الطوائف الأخرى إذا تنازعت احتكمت إلى أهل السنة.

١٨ـ الأمانة العلمية: فالأمانة زينة العلم، وروحه الذي يجعله زاكي الثمر، لذيذ المطعم، وأهل السنة لهم القِدحُ المعلى في ذلك الشأن.

ومن مظاهر الأمانة العلمية عندهم ـ الأمانة في النقل، والبعد عن التزوير، وقلب الحقائق، وبتر النصوص، أوتحريفها، فإذا نقلوا عن مخالف لهم نقلوا كلامه

تامّاً، فلا يأخذون منه ما يوافق ما يذهبون إليه، ويدعون ما سواه؛ كي يدينوا المخالف لهم، وإنما ينقلون كلامه تامّاً، فإن كان حقاً أقرّوه، وإن كان باطلاً ردّوه، وإن كان فيه وفيه، قبلوا الحق وردّوا الباطل، كل ذلك بالدليل القاطع، والبرهان الساطع.

ومن مظاهر الأمانة العلمية عندهم أنهم لا يحمّلون الكلام ما لا يحتمل، وأنهم يذكرون ما لهم وما عليهم، وأنهم يرجعون للحق إذا تبيّن، ولا يفتون ولا يقضون إلا بما يعلمون.

كما أنهم أحرص الناس على نسبة الكلام إلى قائله، وأبعدهم من نسبته إلى غير قائله.

١٩ـ الوسطية: قال ـ تعالى ـ: [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً](البقرة:١٤٣).

فالوسطية من أعظم ما يتميز به أهل السنة والجماعة.

فكما أن أمة الإسلام وسط بين الأمم التي تجنح إلى الغلو الضار، والأمم التي تميل إلى التفريط المهلك ـ فكذلك أهل السنة والجماعة؛ فهم متوسطون بين فرق الأمة المبتدعة التي انحرفت عن الصراط المستقيم.

وتتجلى وسطية أهل السنة والجماعة في شتى الأمور؛ سواء في باب العقيدة، أو الأحكام، أو السلوك، أو الأخلاق، أو غير ذلك.

٢٠ـ عدم الاختلاف في أصول الاعتقاد: فالسلف الصالح لا يختلفون ـ بحمد الله ـ في أصل من أصول الدين، وقواعد الاعتقاد؛ فقولهم في أسماء الله وصفاته وأفعاله واحد، وقولهم في الإيمان وحقيقته ومسائله واحد، وقولهم في القدر واحد، وهكذا في باقي الأصول.

٢١_ ترك الخصومات في الدين، ومجانبة أهل الخصومات: لأن الخصومات مدعاةٌ للفرقة والفتنة، ومجلبةٌ للتعصب واتباع الهوى، ومطيةٌ للانتصار للنفس، والتشفي من الآخرين، وذريعة للقول على الله بغير علم.

أخرج الآجري × بسنده عن مسلم بن يسار × أنه قال: =إياكم والمراءَ؛ فإنه ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته+.

وأخرج أن عمر بن عبدالعزيز × قال: =من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل+.

وقال جعفر بن محمد ×: =إياكم والخصوماتِ؛ فإنها تشغل القلب وتورث النفاق+.

٢٢_ الحرص على جمع كلمة المسلمين على الحق: فهم حريصون كل الحرص على وحدة المسلمين، ولمِّ شعثهم، وجمع كلمتهم على الحق، وإزالة أسباب النزاع والفرقة بينهم؛ لعلمهم أن الاجتماع رحمة، وأن الفرقة عذاب؛ ولأن الله _عز وجل_ أمر بالائتلاف، ونهى عن الاختلاف كما في قوله _تعالى_: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِموا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا] (آل عمران:١٠٢، ١٠٣).

بخلاف الذين يسعون للفرقة بين المسلمين، ويبذرون بذور الشقاق في صفوفهم، فيفرقونهم عند أدنى نازلة، ويحزبونهم، ويؤلبون بعضهم على بعض، ويُغْرُون بعضهم ببعض.

٢٣_ سعة الأفق: فهم أوسع الناس أفقاً، وأبعدهم نظراً، وأرحبهم بالخلاف صدراً، وأكثرهم للمعاذير التماساً.

وهم لا يأنفون من سماع الحق، ولا تحرج صدورهم من قبوله، ولا يستنكفون من الرجوع إليه، والأخذ به.

ثم إنهم لا يُلزمون الناس باجتهاداتهم، ولا يضللون كل من خالفهم، ولا تضيق أعطانهم في الأمور الاجتهادية، التي تختلف فيها أفهام الناس.

ومن مظاهر سعة الأفق عندهم بعدهم عن التعصب المقيت، والتقليد الأعمى، والحزبية الضيقة.

٢٤ـ حسن الخلق: فأهل السنة أحسن الناس خلقاً، وأكثرهم حلماً وسماحة وتواضعاً، وأحرصهم دعوة إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال.

٢٥ـ هم أهل الدعوة إلى الله: فهم يدعون إلى دين الإسلام، بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ويسلكون في ذلك شتى الطرق المشروعة والمباحة؛ حتى يعرف الناس ربهم، ويعبدوه حق عبادته.

فلا أحد أحرص منهم على هداية الخلق، ولا أحد أرحم منهم بالناس.

٢٦ـ هم الغرباء: الذين يُصْلحُونَ ما أفسد الناس، ويَصلُحون إذا فسد الناس.

٢٧ـ هم الفرقة الناجية: التي تنجو من البدع والضلالات في هذه الدنيا، وتنجو من عذاب الله يوم القيامة.

٢٨ـ وهم الطائفة المنصورة: لأن الله معهم، وهو مؤيدهم وناصرهم.

٢٩ـ لا يوالون ولا يعادون إلا على أساس الدين: فلا ينتصرون لأنفسهم، ولا يغضبون لها، ولا يوالون لِعُبِّيَّة جاهلية، أو عصبية مذهبية، أو راية حزبية، وإنما يوالون على الدين، فولاؤُهم لله، وبراؤهم لله، ومواقفهم ثابتة، لا تتبدل ولا تتغير.

٣٠ـ سلامتهم من تكفير بعضهم لبعض: فأهل السنة سالمون من ذلك،

فهم يردون على المخالف ولو كان منهم، ويوضحون الحق للناس، فهم يُخطِّئون، ولا يكفرون، ولا يبدعون، ولا يفسقون إلا من استحق ذلك.

بخلاف غيرهم من الطوائف الأخرى كالخوارج الذي يكثر فيهم الاختلاف والتضليل والتكفير؛ ولهذا تجدهم يكفر بعضهم بعضاً عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها.

٣١ـ سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب الرسول": فقلوبهم عامرة بحبهم، وألسنتهم تلهج بالثناء عليهم، فأهل السنة يرون أن الصحابة خير القرون؛ لأن الله ـ عز وجل ـ زكاهم وكذلك رسوله".

٣٢ـ سلامتهم من الحيرة والاضطراب، والتخبط والتناقض: فأهل السنة والجماعة أكثر الناس رضاً ويقيناً، وطمأنينة، وإيماناً، وأبعدهم عن الحيرة والاضطراب، والتخبط والتناقض.

حتى إنه ليوجد عند عوام أهل السنة من بَرْدِ اليقين، وحسن المعتقد، والبعد عن الحيرة ـ ما لا يوجد عند علماء الطوائف الأخرى من أهل الكلام وغيرهم ممن اضطربوا في تقرير عقائدهم فحاروا وحيَّروا، وتعبوا وأتعبوا.

٣٣ـ يدينون بالنصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولائمة المسلمين وعامتهم: منطلقين بذلك من قول النبي ":=**الدين النصيحة**+ قالوا: لمن يا رسول الله؟ **قال**: =**لله ولكتابه، ولرسوله، ولائمة المسلمين، وعامتهم**+.

فهم ينصحون لله إيماناً به، وقياماً بحقه، وعبودية له ظاهراً وباطناً.

وينصحون لكتاب الله بالإقبال عليه تلاوة وحفظاً وتدبراً وتعلماً لألفاظه ومعانيه، وعملا به، ودعوة للناس إليه.

وينصحون للرسول"بمحبته، وتعظيمه، وتوقيره، والإقتداء به، والاهتداء بهديه، واتباع سنته، والذب عنه، ونصرة دينه، وتقديم قوله على قول كل أحد من البشر.

وينصحون لأئمة المسلمين ــ من الإمام الأعظم إلى من دونه ممن لهم ولاية خاصة أو عامة ــ باعتقاد ولايتهم، وبالسمع والطاعة لهم بالمعروف، وببذل المستطاع لإرشادهم، وتنبيههم على ما فيه صلاحهم وصلاح الأمة جمعاء، وتحذيرهم مما فيه ضرر عليهم وعلى الأمة.

٣٤ــ التثبت في الأخبار، وعدم التسرع في إطلاق الأحكام: بخلاف الذين يسارعون في إطلاق الأحكام، ويتهافتون على إلصاق التهم بالأبرياء، فَيُفَسِّقُون، ويبدعون، ويكفرون بالتهمة والظنة، من غير ما برهان أو بينة.

٣٥ــ حصول البشرى عند الممات: وذلك لإيمانهم بالله، واستقامتهم على أمره، قال ــ تعالى ــ: [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ] (فصلت: ٣٠).

٣٦ــ مضاعفة الحسنات، ورفعة الدرجات: فمن أسباب مضاعفة الحسنات، ورفعة الدرجات ــ بل هو أساسها وأصلها ــ صحةُ العقيدة، وقوة الإيمان.

وأهل السنة والجماعة أصح الناس عقيدةً، وأقواهم إيماناً؛ ولذلك فأعمالهم تضاعف مضاعفة كبيرة، ودرجاتهم ترفع وتعلو عُلواً لا يدانيه أحد، ولا يشاركهم فيه إلا من كان على مثل ما هم عليه من العقيدة والإيمان.

ولهذا كان السلف يقولون: =أهل السنة والجماعة إن قعدت بهم أعمالهم قامت بهم عقائدهم، وأهل البدع إن كثرت أعمالهم قعدت بهم عقائدهم+.

هذه مآثر أهل السنة والجماعة، وهذه بعض خصائصهم التي تميزوا بها على غيرهم، وتلك هي الخصال التي طبقها سلفنا الصالح ــرحمهم الله ورضي عنهمــ فنالوا الخيرات، وحصلوا على البركات.

وليس معنى ذلك أن أهل السنة معصومون؟ لا، بل إن منهجهم هو المعصوم، وجماعتهم هي المعصومة.

أما آحادهم فقد يقع منه الظلم والبغي، والعدوان، وارتكاب المخالفات.

ولكن ذلك قليل بالنسبة إلى غيرهم، ولا يُقَرُّ من فعل ذلك منهم، بل يبتعد عن السنة بقدر مخالفته.

ثم إن ما عند أهل السنة من مخالفات وأخطاء فعند غيرهم أكثر مما عندهم، وما عند غيرهم من فضل وعلم وكمال فعند أهل السنة أكمله وأتمه.

فما أجدرنا ــمعاشر المسلمينــ أن نأخذ بمنهج أهل السنة، وأن نوطن أنفسنا على ذلك، وما أحرانا ــنحن أهل السنةــ أن نقوم بالسنة حق القيام، وأن نقتدي بسلفنا الصالح في كل أمورنا؛ لنرضي ربنا ــجل وعلاــ ولنعطي صورة مشرقة عن الإسلام الصحيح النقي؛ ليقبل الناس عليه، ويحرصوا على الدخول فيه، ولئلا نصبح فتنة لغيرنا من الكفار والمبتدعة، فإذا رأوا ما عليه بعض أهل السنة من بعد عن المنهج ــ قالوا: إذا كان خاصة المؤمنين بهذه المثابة فلا لوم علينا ولا تثريب، وبذلك تندرس معالم الحق، وتنطمس أنوار الهدى.

وأخيراً: نحمد الله أن جعلنا من أهل السنة، ونسأله أن يتم علينا النعمة والمنة، وأن يرزقنا لزوم السنة، والعمل بالسنة، وأن يتوفانا على السنة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين، والله أعلم،

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الرسالة الثانية

الإيمان بالله

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد.

فإن علم العقيدة أشرف العلوم، وأجلها قدراً، وأهمها على الإطلاق.

وأشرف وأجل وأهم ما في هذا العلم مبحث الإيمان بالله _عز وجل_.

فالإيمان بالله أصل الأصول، وهو أول وأهم ركنٍ من أركان الإيمان الستة، بل إن جميع الأركان راجعة إليه، متفرعة عنه.

والإيمان بالله _عز وجل_ رأس كل فلاح وخير؛ فما أنزلت الكتب، ولا أرسلت الرسل إلا لأجل تقريره وتثبيته في النفوس.

وفيما يلي من صفحات سيكون الحديث عن الإيمان بالله وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم الإيمان بالله، وثمراته، وأدلته.

المبحث الثاني: دلالة الفطرة، والشرع، والعقل على الوحدانية.

المبحث الثالث: دلالة الحس على الوحدانية.

المبحث الرابع: مضادة الإيمان بالله.

فهذه المباحث، وما يندرج تحتها هي مدار الحديث فيما يأتي من صفحات، والله الهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول: مفهوم الإيمان بالله، وثمراته، وأدلته

أولاً: مفهوم الإيمان بالله وما يتضمنه

للإيمان بالله وتوحيده عدة تعريفات، تتفق في المعنى وربما اختلفت ألفاظها، فمن تلك التعريفات مايلي:

١ــ هو إفراد الله بما يستحق.

٢ــ هو إفراد الله بحقوقه.

٣ــ هو التصديق الجازم بوجود الله ــتعالىــ وتوحيده بألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته[١].

٤ــ هو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه، وأنه الخالق وحده، المدبر للكون كله، وأنه هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وأن كل معبود سواه فهو باطل، وعبادته باطلة، وأنه ــسبحانهــ متصف بصفات الكمال ونعوت الجلال، منزه عن كل نقص وعيب.

من خلال ما مضى يتبين أن الإيمان بالله يتضمن أموراً أربعة:

١ــ الإيمان بوجود الله: وذلك باعتقاد وجوده وجوداً كاملاً لم يسبق بعدم، ولا ينتهي بفناء.

٢ــ الإيمان بربوبيته: وذلك باعتقاد انفراده ــعز وجلــ بأفعاله، وأنه لا شريك له في خلقه، وملكه، وتدبيره، وغير ذلك من مقتضيات الربوبية.

١ـ انظر أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة للشيخ حافظ الحكمي ص٥٠.

٣ـ الإيمان بأسمائه وصفاته: وذلك باعتقاد أن له الأسماء الحسنى، والصفات العلى من غير تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف.

٤ـ الإيمان بألوهيته: وذلك بإفراده ـعز وجلـ بأفعال العباد؛ فلا يُصْرَفُ أيُّ نوعٍ من أنواع العبادة لغيره ـتبارك وتعالىـ.

ثانياً: ثمرات الإيمان بالله

للإيمان بالله ثمرات جليلة، وفوائد جمة، وفضائل كثيرة، منها:

١ـ الأمن التام والاهتداء التام: فبحسب الإيمان يحصل الأمن والاهتداء في الدنيا والبرزخ والآخرة قال ـعز وجلـ: [الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ] (الأنعام: ٨٢).

٢ـ الإيمان بالله طاعة لله ـعز وجلـ: فالله أمرنا بالإيمان به، وطاعتُه واجبةٌ، وهي أصل كل خير، قال ـتعالىـ: [قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ] (البقرة: ١٣٦).

٣ـ حصول الاستخلاف في الأرض والتمكين والعزة: قال ـعز وجلـ: [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً] (النور: ٥٥).

٤ـ دخول الجنان والنجاة من النيران: قال ـتعالىـ: [إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ] (محمد: ١٢).

٥ـ الحياة الطيبة: فالحياة الطيبة الحافلة بكل ما هو طيب إنما هي ثمرة من

ثمرات الإيمان بالله ـعز وجلـ [مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً] (النحل: ٩٧).

قال ابن كثير × في شرح هذه الآية: =وهذا وعد من الله ـتعالىـ لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله ـتعالىـ وسنة نبيه " من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا المأمور به مشروع من عند الله ـ بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الآخرة.

والحياة الطيبة تشتمل على وجوه الراحة من أي جهة كانت+[1].

٦ـ حلول الخيرات ونزول البركات: قال الله ـتعالىـ: [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ] (الأعراف: ٩٦).

٧ـ الهداية لكل خير: قال الله ـتعالىـ: [وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ] (التغابن: ١١).

وقال: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ] (يونس: ٩).

٨ـ زيادة الإيمان والثبات عليه: فالمؤمنون يتقلبون من نعمة إلى نعمة، وأعظم نعمة يجدونها من الإيمان بالله هي أن يثبتهم الله على الحق، ويزيد إيمانهم، فالثبات على الإيمان سبب لزيادته قال ـتعالىـ: [وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ] (محمد: ١٧).

٩ـ الفوز بولاية الله ـعز وجلـ: وأكرم بها من ولاية، قال ـتعالىـ:

١ـ تفسير ابن كثير ٢/٥٦٦.

[ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ (١١)] (محمد).

١٠ـ السلامة من الخسارة: قال ـتعالىـ: [وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣)] (العصر).

١١ـ الإيمان بالله سبب لدفاع الله عن أهله: قال ـعز وجلـ: [إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا] (الحج: ٣٨).

١٢ـ تكفير السيئات: قال ـتعالىـ: [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ] (محمد: ٢).

١٣ـ الرفعة والعلو: قال ـتعالىـ: [يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ] (المجادلة: ١١).

١٤ـ إخلاص العمل: فلا يمكن للعبد أن يقوم بالإخلاص لله، ولعباد الله، ونصيحتهم على وجه الكمال إلا بالإيمان.

١٥ـ قوة التوكل: فالإيمان بالله يوجب للعبد قوة التوكل على الله، [وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ] (الطلاق: ٣).

١٦ـ الشجاعة: فالإيمان بالله يبعث على الشجاعة والإقدام؛ لأنه يملأ قلب المؤمن بالخوف من الله، والخشية له، وتعظيمه، وإجلاله.

وإذا كان كذلك ذهب خوف الخلق من قلبه كليةً؛ فالجزاء من جنس العمل؛ فمن خاف الله آمنه من كل شيء، وجعل مخاوفه أمناً والعكس.

١٧ـ حسن الخلق: فالإيمان يدعو إلى حسن الخلق مع جميع طبقات الناس، وإذا ضعف الإيمان أو نقص أو انحرف أثَّر ذلك في أخلاق العبد انحرافاً بحسب

بُعْده عن الإيمان.

١٨ــ الإعانة على تحمل المشاق: فالإيمان أكبر عون على تحمل المشاق، والقيام بالطاعات، وترك الفواحش والمنكرات.

١٩ــ الذكر الحسن: فالإيمان يوجب لصاحبه أن يكون معتبراً عند الخلق أميناً.

٢٠ــ عزة النفس: فالإيمان يوجب للعبد العفة، وعزة النفس، والترفع عن إراقة ماء الوجه؛ تذللاً للمخلوقين.

٢١ــ أن الإيمان هو السبب الوحيد للقيام بذروة سنام الإسلام وهو الجهاد البدني والمالي والقولي في سبيل الله.

هذا شيء من ثمرات الإيمان، وبالجملة فخير الدنيا والآخرة كله فرع عن الإيمان، ومترتب عليه، والهلاك والنقصان إنما يكون بفقد الإيمان، أو نقصه[1].

ثالثاً: الأدلة على وحدانية الله ــسبحانه وتعالىــ

الأدلة على وحدانية الله كثيرة جداً، ويكفي منها شهادته ــعز وجلــ لنفسه حيث قال: [شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)] (آل عمران).

وصدق من قال:

وفي كــــلِ شـــــيءٍ لـــــهُ آيـــــةٌ ... تَـــدُلُ علـــــى أنـــــهُ الواحـــــدُ

فــوا عجبــاً كيــف يُعصــى الإلــهُ ... أم كيـــــف يجحـــــده الجاحـــــدُ

١ـ انظر تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، لابن سعدي، ١٣٠ـ١٣٤.

وللهِ في كـــــــــل تحريكـــــــــةٍ وتســـــــكينةٍ أبـــــــداً شـــــــاهدُ

ولقد دلَّ على وحدانية الله، وعلى تفرده بالخلق والرزق، وأنه وحده المستحق للعبادة _ **الفطرة، والشرع، والعقل، والحس.**

وهذه الأدلة بمجموعها تدل على وجود الله، وتدل على أنواع التوحيد الثلاثة؛ ذلك أن أنواع التوحيد الثلاثة وهي: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات متلازمة، ومن أشرك في واحد منها فهو مشرك في البقية.

مثال ذلك: من دعا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فدعاؤه عبادةٌ صَرَفَهَا لغير الله، وهذا شرك في الألوهية.

وهذا الدعاء لغير الله متضمن لاعتقاد الداعي أن المدعو متصرف مع الله، وقادر على قضاء ذلك، وهذا شرك في الربوبية.

ثم إنه لم يدعُه إلا لاعتقاده أنه يسمعه، وهذا شرك في الأسماء والصفات؛ لاعتقاده أن للمدعو سمعاً محيطاً بجميع المسموعات لا يحجبه قرب ولا بعد، ومن هنا نجد أن الشرك في الألوهية مستلزم الشرك في الربوبية والأسماء والصفات[١].

هذا وسيرد تفصيل لأدلة الوحدانية في المباحث التالية.

١ـ انظر أعلام السنة المنشورة، ص٧٧، السؤال رقم (٧٣).

المبحث الثاني: دلالة الفطرة، والشرع، والعقل على الوحدانية

أولاً: دلالة الفطرة على الوحدانية

الفطرة في اللغة: هي الخِلْقة.

أما في الشرع: فهي الإسلام على القول الراجح كما رجح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم[(١)] ــرحمهما الله تعالىــ.

قال ابن القيم ×: =وذكروا عن عكرمة، ومجاهد، والحسن، وإبراهيم، والضحاك، وقتادة في قوله ــعز وجلــ: [فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا] (الروم: ٣٠) قالوا: (**فطرة الله**): دين الإسلام (**لا تبديل لخلق الله**): قالوا: لدين الله+[(٢)].

=وكل مخلوق قد فُطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه+ [(٣)].

قال النبي ": =**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه+.**

١ـ انظر شفاء العليل لابن القيم، ص٥٧٢ـ ٥٧٥ ، وانظر درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٧١/٨ .

٢ـ شفاء العليل ص ٥٧٢ـ٥٧٣ ، وانظر درء تعارض العقل والنقل ٣٧٦/٨.

٣ ـ نبذة في العقيدة الإسلامية ، للشيخ محمد بن عثيمين ص١١.

وفي رواية: =**إلا على هذه الملة+** وفي رواية =**إلا على الملة+**[1].

وفي حديث عياض بن حمار ÷ قال: قال رسول الله ": يقول الله _تعالى_ في الحديث القدسي: =**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم+**[2].

ثم إن الإنسان مفطور على اللجوء إلى ربه _تبارك وتعالى_ عند الشدائد، فإذا ما وقع الإنسان _أي إنسان_ حتى الكافر الملحد في شدة، أو أحدق به خطر _ فإن الخيالاتِ والأوهامَ تتطاير من ذهنه، ويبقى ما فطر عليه؛ ليصيح بأعلى صوته، ومن قرارة نفسه، وعميق قلبه، منادياً ربه؛ لِيُفَرِّجَ كربته وهمه، ويلجأ إليه وحده دون سواه [3].

وصدق الله _تعالى_ إذ يقول: [فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ] (العنكبوت: ٦٥).

وليس المراد بأنه يولد على الفطرة أنه يولد عالماً بأمور الإسلام؛ فالله _سبحانه وتعالى_ يقول: [وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً] (النحل:٧٨).

وليس المراد _أيضاً_ أنه يولد ساذَجاً لا يعرف شركاً ولا توحيداً؛ لأن الرسول" قال: =**إلا ويولد على الملة+** وفي رواية: =**على هذه الملة+**.

بل المراد أن كل مولود يولد على محبته لفاطره، وإقراره له بربوبيته، وادعائه له

---

١ ـ رواه البخاري ٩٧/٢، ومسلم (١٢٥٨).

٢ـ مسلم (٢٨٦٥).

٣ـ مستفاد من مذكرة للشيخ عبد الله الجاسر.

بالعبودية، فلو خُلِّي وعدمَ المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره، كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية، والأشربة، فيشتهي اللبن الذي يناسبه ويغذيه [١].

ولذلك قال ": =**فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**+.

ولم يقل يسلمانه؛ لأنه باقٍ على الأصل، فاعتناق غير الإسلام يعد خروجاً عن الأصل والقاعدةِ بأسباب خارجة.

ثانياً: دلالة الشرع على الوحدانية

أما دلالة الشرع على الوحدانية فواضحة معلومة؛ فما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب يدل دلالة قاطعة على وحدانية الله، فالكتب السماوية كلها تنطق بذلك، وما جاءت به من الأحكام المتضمنة لمصالح العباد في دنياهم وأخراهم؛ كالصلاة، والزكاة، والحج، وغيرها، وما جاءت به من الأخبار الكونية، والمغيبات التي شهد الواقع بصدقها ـ كل ذلك يدل على أنها من ربٍّ حكيمٍ عليمٍ مستحقٍ للعبادة وحده لا شريك له[٢].

والأدلة على ذلك لا تكاد تُحصى، وسيرد ذكر لذلك في كثير من مباحث هذه الرسالة.

ثالثاً: دلالة أسماء الله وصفاته على الوحدانية [٣]

١ـ انظر شفاء العليل ص٥٧٨ـ٥٧٩.

٢ ـ انظر نبذة في العقيدة الإسلامية ص١١ـ١٢.

١ـ شرح العقيدة الطحاوية، ص ٩٥ـ٩٦.

وهذه هي طريقة الخواص يستدلون بالله على أفعاله، فإن قيل: كيف يُسْتَدل بأسمائه وصفاته على استحقاقه للوحدانية، فإن ذلك لا يعهد في الاصطلاح؟

فالجواب: أن الله قد أودع الفطرة التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل، ولا بالتشبيه والتمثيل أنه _سبحانه_ الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بما وصف به نفسه، ووصفه به رسلُه، وما خفي عن الخلق من كماله أعظمُ مما عرفوه منه.

ومِنْ كماله المقدس شهادتُه على كل شيء، واطِّلاعه عليه؛ بحيث لا يغيب عنه ذرةٌ في السموات ولا في الأرض باطناً وظاهراً.

ومن هذا شأنُه كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، وأن يعبدوا غيره، ويجعلوا معه إلهاً آخر؟!

وكيف يليق بكماله أن يُقِرَّ مَنْ يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك، ويؤيده، ويعلي شأنه، ويجيب دعوته، ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر، وهو مع ذلك كاذب عليه مفترٍ؟!

فأنت ترى من خلال ما مضى أن الاستدلال جرى باسم الله (الشهيد) لتقرير الوحدانية وصدق الرسل.

أما تقرير الوحدانية فإن الإيمان باسم الشهيد يقتضي المراقبة الدائمة لله _عز وجل_ فكيف يليق بالعبد أن يعصي الله وهو يعلم أن الله مطلع عليه في كل أحواله؟

وهذه المراقبة هي أعلى مراتب الدين؛ لأنها مرتبة الإحسان.

أما صدق الرسل من خلال الإيمان بهذا الاسم (الشهيد) فَوَجْهُه أنَّ مِنْ كمال الله _سبحانه_ أنه لا يَعْزُبُ عنه شيءٌ، فكيف يليق بمن هذا شأنه أن يقر من يكذب عليه؟ بل ويؤيده وينصره ويهلك عدوه، بل ويعلي ذكره ودعوته؟!

هذا لا يليق، فلو كان الرسل كاذبين لأخذهم الله كما أخذ الدجالين في الماضي والحاضر كمسيلمة الكذاب وأحمد القادياني وغيرهما.

ومن هنا نعلم صدق الرسل من خلال الإيمان باسم (الشهيد).

ولهذا قال بعض أهل العلم: إن إنكار رسالة الرسول " جحد للرب بالكلية.

وهذا باب من أبواب الاستدلال على وحدانية الله.

والقرآن مملوء من هذه الطريق، ومن الأمثلة على ذلك قوله _تعالى_: [هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ] (الحشر: ٢٣).

رابعاً: دلالة العقل على الوحدانية

أما دلالة العقل على وحدانية الله فلأن المخلوقاتِ جميعَها لابد لها من مُوجِد وخالق؛ إذ لا يمكن أن توجِد نفسَها بنفسِها، ولا يمكن أن توجَدَ صدفة؛ فهذه المخلوقات لا يمكن أن تُوجِد نفسها بنفسها؛ لأن الشيء لا يخلق نفسه؛ لأنه قبل وجوده معدوم، فكيف يكون خالقاً؟

كذلك لا يمكن أن توجد صدفة؛ لأن كل حادث لابد له من مُحدِثٍ، ولأن وجودها على هذا النظام المتسق البديع المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب والمسببات وبين الكائنات بعضها مع بعض _ يمنع منعاً باتاً أن يكون وجودُها

صدفةً[١].

أضف إلى ذلك ما تجده من افتقار المخلوق الشديد؛ فالافتقار وصف ذاتي للمخلوق ملازم له؛ مما يدل على أنه لابد من وجود خالق، كامل، غني عما سواه، وهو رب العالمين.

وقد ذكر الله ـسبحانه وتعالىـ هذا الدليل العقلي والبرهان القاطع في سورة الطور، حيث قال: [أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ] (الطور:٣٥).

يعني أنهم لم يُخلقوا من غير خالقٍ، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم، فتعين أن يكون خالقهم هو الله ـتبارك وتعالىـ.

ولهذا لما سمع جبير بن مطعم ÷ رسول الله " يقرأ سورة الطور فبلغ قوله ـتعالىـ: [أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ... الآية] ـوكان يومئذٍ مشركاًـ قال: =كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي+ رواه البخاري مُفَرَّقاً[٢].

ولهذا فإن الله ـسبحانه وتعالىـ يحثُّ كثيراً في كتابه على التعقل والتبصر ولا أدل على ذلك من كثرة الآيات التي تُخْتَمُ بمثل قوله: [أَفَلا تَعْقِلُونَ] [لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] لأن الإنسان إذا تفكر تذكر، وعرف الحق، وإذا تذكر خاف واتقى وانقاد.

ولهذا نجد أن العقلاء الجادين الباحثين عن الحق ـ يصلون إليه، ويوفقون له،

---

١ ـ انظر الرياض الناضرة لابن سعدي ص١٩٤ ، ونبذة في العقيدة الإسلامية ، ص١١ـ ١٥.

٢ ـ انظر صحيح البخاري (٧٦٥ و٣٠٥٠ و٤٠٢٣ و٤٨٥٤) ورواه مسلم (٤٦٣).

وليس أدل على ذلك من حال العقلاء في الجاهلية أمثال قُس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل والد سعيد بن زيد وعم عمر بن الخطاب÷ فنجد في غضون كلامهما الإقرار بوحدانية الله ــعز وجلــ مع أنهما يعيشان في مجتمع يعج بالجهل والشرك.

يقول قُس في خطبته المشهورة التي ألقاها في سوق عكاظ: =أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تُزهر، وبحار تزْخَر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا في المقام فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟

يقسم قُسٌّ بالله قسماً لا إثم فيه أن لله ديناً هو أرضى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً، ثم أنشأ يقول:

في الـــــذاهبين الأوليـــــ ـــن مـــن القـــرون لنـــا بصـــائر
لمــــا رأيـــت مـــواردأ للقـــوم لـــيس لهـــا مصـــادر
ورأيـــت قـــومي نحوهـــا يمضـــي الأكـــابر والأصـــاغر
لا يرجـــع الماضـــي إلـــ ـــيَّ ولا مـــن البـــاقين غَـــابر
أيقنـــت أني لا محالـــة حيـــث صـــار القـــوم صـــائر[1]

ويقول زيد بن عمرو في شعره المشهور:

وأســـلمت وجهـــي لمـــن أســـلمت لـــه الأرض تحمـــل صـــخراً ثقـــالا
دحاهـــا فلمـــا اســـتوت شـــدَّها جميعـــاً وأرســـى عليهـــا الجبـــالا

١ـ انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/٣٠٨ـ٣٠٩.

وأســـلمتُ وجهـــي لمـــن أســـلمت … لــــه المــــزنُ تحمــــل عـــــذباً زلالا

إذا هـــــي ســــــيقت إلى بلـــــدةٍ … أطاعـــت فصـــبت عليهـــا ســـجالا[١]

ويقول:

أربـــــاً واحـــــداً أم ألـــــفَ ربٍّ … أديـــــن إذا تقســـــمت الأمــــورُ

هجـــرت الـــلات والعـــزى جميعـــاً … كـــذلك يفعـــل الجلـــدُ الصـــبورُ

بل إن كثيراً من كبار المفكرين الغربيين اهتدوا إلى الحق بسبب إجالتِهم أفكارَهم، وبحثهم عن الحق.

ومن نظر في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ــ وقد كتبه ثلاثون من علماء الطبيعة والفلك ممن انتهت إليهم الرياسة في هذه الأمور ــ ومثله كتاب (كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك (الإنسان لا يقوم وحده) وترجم إلى العربية تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) ــ يدرك أن العالِمَ الحقيقيَّ لا يكون إلا مؤمناً، وأن العاميَّ لا يكون إلا مؤمناً، وأن الإلحاد والكفر لا يكون إلا من أنصاف العلماء وأرباع العلماء؛ ممن تعلم قليلاً من العلم، وخسر بذلك الفطرة المؤمنة، ولم يصل إلى العلم الذي يدعو إلى الإيمان[٢].

---

١ ـ وتنسب هذه الأبيات لأمية ابن أبي الصلت.

٢ ـ مستفاد من مذكرة للشيخ د. ناصر القفاري، وانظر كتاب (الله يتجلى في عصر العلم)، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض، أشرف على تحريره: جون كلوفرمونسيما، ترجمة د.الدمرداش عبدالمجيد سرحان، راجعه وعلق عليه. د. محمد جمال الدين الفندي، وانظر كتاب العلم يدعو للإيمان، تأليف: كريسي موريسون، ترجمة محمد صالح الفلكي، والكتابان من منشورات دار القلم، بيروت.

وبهذا يتبين لنا أن العقل يدل على وحدانية الله ـعز وجلـ.

أما إذا أنكر العقل ذلك فإن الخلل في العقل نفسه، وصدق من قال:

إذا ادعـــى عقلـــك إنكـــاره فـــأنكر العقـــل ودعـــواه

ومن هنا يتبين لنا بطلان قول من قال: إن هذا الكون نشأ بالصدفة، أو أن الطبيعة هي الخالق؛ إن هذه الدعاوى ليست إلا مكابرةً وعناداً لما هو متقرر بالمعقول والمنقول، فمن قال: إن هذا الكون نشأ عن طريق الصدفة يقال له: كيف نشأ هذا الكون الفسيح العظيم المتسق المتناسق عن طريق الصدفة؟!

وخذ هذا المثال الذي نقله وحيد الدين خان عن العالم الأمريكي (كريسي موريسون) يبين فيه استحالة القول بوجود الكون مصادفة قال: =لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة، ثم رميتها في جيبك وخلطتها جيداً، ثم حاولت أن تخرج من الواحد إلى العشرة بالترتيب العددي، بحيث تلقي كل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى، فبإمكانك أن تتناول الدرهم المكتوب عليه واحد في المحاولة الأولى هي واحد في المائة، وإمكان أن تخرج الدراهم (١ـ٢ـ٣ـ٤) بالترتيب هو واحد في عشرة آلاف، حتى إن الإمكان في أن تنجح في تناول الدراهم من (١ـ١٠) بالترتيب واحدٌ في بلايين من المحاولات+[1].

وعلى ذلك فكم يستغرق بناء هذا الكون لو نشأ بالمصادفة والاتفاق؟.

إن حساب ذلك بالطريقة نفسها يجعل هذا الاحتمال خيالاً يصعب حسابه فضلاً عن تصوره.

١ـ انظر العقيدة في الله، للشيخ عمر الأشقر ص٧٤ـ٧٥.

إن ما في هذا الكون يحكي أنه إيجاد موجد حكيم عليم خبير، لكن الإنسان ظلوم جهول [قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ] (عبس) [١].

أما القول بأن الطبيعة هي الخالق فتلك فرية عظيمة لا دليل عليها، وتهافتها واضحٌ بيِّن لا يحتاج إلى أي رد، بل إن تصور ذلك كافٍ في الرد على أصحابه [٢].

ومن تلك الدعاوى نظرية (دارون) التي حاول أصحابها أن يعللوا بها وجود الأحياء، وتزعم هذه النظرية أن أصل الإنسان حيوان صغير نشأ من الماء، ثم أخذت البيئة تفرض عليه من التغييرات في تكوينه، مما أدى إلى نشوء صفات جديدة في هذا الكائن، وأخذت هذه الصفات المكتسبة تورَّث في الأبناء حتى تحول مجموع هذه الصفات الصغيرة الناشئة من البيئة عبر ملايين السنين إلى نشوء صفات كثيرة راقية جعلت ذلك المخلوق البدائي مخلوقاً أرقى، واستمر ذلك النشوء للصفات بفعل البيئة والارتقاء في المخلوقات حتى وصل إلى هذه المخلوقات التي انتهت بالإنسان.

هذا هو ملخص تلك النظرية، وعوارها وزيفها واضح بيِّن [٣].

١ـ انظر العقيدة في الله ص٧٤ـ٧٥.

٢ـ انظر تفصيل ذلك في المرجع السابق، ص٧٤ـ٩٨، وانظر إلى كتاب: العلم يتبرأ من نظرية دارون، لزياد أبو غنيمة.

١ـ انظر العقيدة في الله ص(٧٩ـ٩٢) ففيه تفصيل الرد على تلك الدعوى، وانظر العلم يتبرأ من نظرية دارون.

وقد ثبت بطلانها حتى عند أهلها.

ومما يقال في ذلك: أنه على فرض صحتها فمن الذي أنشأ ذلك الحيوان الصغير؟ ومن الذي جعله يتطور حتى وصل إلى ما وصل إليه؟!

المبحث الثالث: دلالة الحس على الوحدانية

فالحس يدل بوضوح على وحدانية الله _سبحانه وتعالى_.

والأدلة الحسية على ذلك كثيرة جدَّاً، ومنها ما يلي:

أولاً: إجابة الدعوات

ويُعْنَى بها إجابة دعوات الملهوفين والمكروبين وغيرهم، ممن يدعون الله _سبحانه وتعالى_ فيستجاب لهم، ويحصل مقصودهم.

والأمثلة على ذلك لا تحصى ولا تحصر، سواء كان ذلك في حق الأنبياء _عليهم السلام_ أو في حق غيرهم.

ومن ذلك ما قاله الله _سبحانه وتعالى_ عن نوح _عليه السلام_: [فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)] (القمر).

وما قَصَّهُ الله _سبحانه_ عن يونس _عليه السلام_: [فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ] (الأنبياء: ٨٧) فاستجاب الله دعاءه، ونجَّاه من بطن الحوت.

وقال عن أيوب _عليه السلام_: [وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ(٤٣)] (ص).

وفي صحيح البخاري عن أنس ÷ قال: =**إن أعرابيَّاً دخل يوم الجمعة والنبي**

" يخطب فقال: يا رسول الله هلك المال، وجاع العيال، فادع لنا، فرفع النبي " يديه، فدعا، فثار السحاب كأمثال الجبال، فلم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته.

وفي الجمعة الثانية قام ذلك الأعرابي أو غيره فقال: يا رسول الله تهدم البناء، وغرق المال؛ فادع الله لنا، فرفع يديه وقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فما يشير إلى ناحية إلا انفرجت+ [(١)].

وما زالت إجابة الداعين أمراً مشهوداً إلى هذا اليوم لمن أتى بشرائط الإجابة، وكثيراً ما نسمع أن الناس ذهبوا للاستسقاء وقبل أن يخرجوا من المسجد إذا هم يمطرون؛ فإجابة الدعاء دليل قاطع على وحدانية الله ـعز وجلـ.

ثانياً: صدق الرسل ـعليهم السلامـ

وهذا دليل حسي واضح، فالرسل ـعليهم السلامـ هم أكمل البشر، وقد بلَّغوا عن الله رسالاته، وقد اصطفاهم الله، واختارهم من بين الخلق، وأيَّدهم بالآيات البينات، ونصرهم، وجعل الغلبة لهم، والدولة على أعدائهم.

فالإنسان إزاء الأنبياء لا يملك إلا أن يقطع بصدقهم؛ إذ إن دعوى النبوة أعظم الدعاوى، ولا يدعيها إلا أصدق الناس أو أكذبهم؛ فالأنبياء هم أصدق الناس على الإطلاق؛ فظهور المعجزات على أيديهم، وتأييد الله لهم، وخذلانه لأعدائهم، وما جبلوا عليه من كريم الخلال، وحميد الخصال ـ كل ذلك يدل على صدقهم، وبالتالي نعلم أنهم مبعوثون من عند الله، وأنه ـسبحانهـ حق،

١ـ انظر البخاري (١٠٣٣).

وعبادته حق.

ثالثاً: دلالة الأنفس

فلقد صور الله الإنسان على أحسن صورة، وخَلَقَهُ في أحسن تقويم؛ كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ: [وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ](التغابن: ٣).

وكما قال ـ عز وجل ـ:[لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ](التين: ٤).

ولو أن الإنسان أمعن النظر في نفسه وما فيها من عجائب صنع الله، ونظر ظاهره وما فيه من كمال خلقه، وأنه متميز عن سائر الحيوانات ـ لأدرك أن وراء ذلك رباً خالقاً حكيماً في خلقه، ولعلم أن هذا الخالق هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه[1].

يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي × في تقرير هذا المعنى عند قوله ـ تعالى ـ:[وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا](الشمس:٧): =وعلى كلٍّ فالنفس آيةٌ كبيرة من آيات الله التي يحق الإقسام بها؛ فإنها في غاية اللطف، والخفة، سريعة التنقل، والحركة، والتغير، والتأثر، والانفعالات النفسية من الهمة، والإرادة، والقصد، والحب.

وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثالٍ لا فائدة فيه، وتسويتُها على ما هي عليه آيةٌ من آيات الله العظيمة.

والمقصود أن نفس الإنسان من أعظم الأدلة على وجود الله وحده، ومن ثم

١ ـ انظر كتاب: الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، د.عبد الرزاق العباد البدر ص٧٠ـ٧٢.

تفرده بالعبادة+[١].

رابعاً: هداية المخلوقات

وهذا مشهد من مشاهد الحس الدالة على وحدانية الله _عز وجل_ فلقد هدى الله الحيوان: ناطقه وبهيمه، وطيره ودوابه، وفصيحه وأعجمه إلى ما فيه صلاحُ معاشه وحاله.

ويدخل تحت قوله _تعالى_: [رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى] (طه: ٥٠) من العجائب والغرائب ما لا يحيط به إلا الله _عز وجل_.

فَمَن الذي هدى الإنسان ساعة ولادته إلى التقام ثدي أمه؟ ومن الذي أودع فيه معرفة عملية الرضاع؟ تلك العملية الشاقة التي تتطلب انقباضاتٍ متواليةً من عضلات الوجه، واللسان، والعنق، وحركاتٍ متواصلةً للفك الأسفل، والتنفس مع الأنف، كل ذلك يتم بهداية تامة، وبدون سبق علم أو تجربة، فمن الذي ألهمه ذلك؟ إنه [رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)].

ثم إن هدايته بعد أن يكبر إلى السعي في مصالحه من الضرب في الأرض، والسير فيها، كل ذلك من الهداية التامة العامة للمخلوقات.

أما هداية الطير، والوحش، والدواب _ فحدث ولا حرج، فلقد هداها الله إلى الأفعال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان.

وقد ذكر العلامة ابن القيم × في كتابه (شفاء العليل) أموراً عجيبة من هذا القبيل، فقد تحدث عن هداية النحل بما يأخذ بالألباب، ويزيد الإيمان برب

---

١ ـ المرجع السابق ص٧٠-٧٢.

الأرباب[1].

حيث تحدث عن اتخاذها اليعسوبَ أميراً، وعن طريقة ولادتها، ورعيها، ودقة تنظيمها، وتوزيعها المهام على فرق شتى، فمنها فرقة تلزم الملكة ولا تفارقه، ومنها فرقة تهيئ الشمع وتصنعه، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل.

وإذا رأت النحل بينها نحلةً مهينةً بطالةً قطَّعَتْها، وقتلتها؛ حتى لا تُفْسِدَ عليهن بقيةَ العمال، وتُعْديهِنَّ ببطالتها ومهانتها.

ثم تحدث × عن طريقة بنائها البيوت، فقال: ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية، كأنها سككٌ ومحالٌّ، وتبني بيوتها مسدسةً متساويةَ الأضلاع، كأنها قرأت كتاب =إقليدس+ حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها؛ لأن المطلوب من بناء الدُّور هو الوثاقة والسعة.

والشكلُ المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلاً مستديراً كاستدارة الرحى، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضاً حتى يصير طبقاً واحداً محكماً، لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر، فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناءَ المحكمَ.

ثم تحدث ابن القيم عن طريقة خروجها إلى المرعى، وادخارها للكسب، فقال: =وفي النحل كرامٌ لها سعيٌ وهمةٌ، واجتهادٌ، وفيها لئامٌ كسالى قليلةُ النفع مؤثرةٌ للبطالة؛ فالكرام دائماً تطردها وتنفيها عن الخلية+.

١ـ انظر شفاء العليل ص ١٤٤ـ١٦٤.

وفي ختام حديثه عنها قال: =ولما كانت النحل من أنفع الحيوانات وأبركها، قد خُصت من وحي الرب _تعالى_ وهدايته بما لم يَشْرَكْها فيه غيرُها، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام _ كان أكثر الحيوان أعداءها، وكان أعداؤها من أقل الحيوانات منفعة وبركة، وهذه سنة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم+.

ثم تحدث _أيضاً_ عن هداية النمل[1] **قائلاً:** =وهدايتها من أعجب شيءٍ؛ فإن النملةَ الصغيرةَ تخرج من بيتها وتطلب قُوْتَها، وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته، وساقته في طرق معوجة بعيدةٍ ذاتِ صعودٍ وهبوطٍ في غاية التوعر، حتى تصلَ إلى بيوتها، فتخزنَ فيها أقواتها وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين؛ لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فَلْقِهِ باثنتين فَلَقَتْه بأربع، فإذا أصابه بلل، وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوماً ذا شمس، فخرجت به، فنشرته على أبواب بيوتها، ثم أعادته إليها.

ولا تتغذى منه نملةٌ مما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما قاله الله _سبحانه_ في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها [يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ](النمل: ١٨).

فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه مَنْ خاطبته، ثم بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس؛ إرادة للعموم، ثم أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم

١ـ انظر شفاء العليل، ص١٤٧ـ١٥١.

فيتحصنوا من العسكر، ثم أخبرت عن سبب الدخول؛ خشية أن تصيبهم معرةُ الجيش، فَيَحْطِمَهُمْ سليمانُ وجنودُه، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك.

والنمل من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل، ولها صدق الشَّمِّ، وبُعْد الهمة، وشدة الحرص، والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها.

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائداً يطلب الرزق، فإذا أوقف عليه أخبر أصحابه، فيخرجن مجتمعاتٍ، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحَبِّ شيئاً لنفسها دون صواحبها.

وهذا الهدهد من أهدى الحيوان، وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، ولا يراه غيره.

ومن هدايته ما قصه الله عنه في كتابه؛ مما قاله الهدهد لسليمان _عليه السلام_ وقد فقده، وتوعده، فلما جاءه بادره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هَيَّجه به على الإصغاء إليه والقبول منه فقال: [أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ] وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفْتُهُ بحيث أَحطتُ به، وهو خبر عظيم له شأن؛ فلذلك قال: [وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ] (النمل: ٢٢).

والنبأ هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لاشك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ اسْتَفْرَغَتْ قَلْبَ المخبَرِ لتلقي الخبر، وأَوْجَبَتْ له التشوقَ إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال، وخطاب التهييج.

ثم أخبر بباقي القصة عن بلقيس وقومها، وبَيَّن بطلان ما هم عليه من عبادة

الشمس.

وهذا الحمام من أعجب الحيوان هدايةً، قال الشافعي: أعقل الطير.

وبُرُدُ الحمامِ هي التي تحمل الرسائل والكتب، وربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد؛ فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره.

وهداية الحمام على قدر التعليم والتوطين، وهو موصوف باليُمْنِ والإلف للناس، ويحب الناس ويحبونه، ويألف المكان، ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه وإن أساء إليه، ويعود إليه مسافات بعيدة، وربما صُدَّ؛ فترك وطنه عشرَ حججٍ وهو ثابت على الوفاء حتى إذا وجد فرصة واستطاعةً عاد إليه.

أما طريقة سِفاده وجمعه عِشَّه، واعتنائه ببيضه وصغاره ـ فهي من أعجب العجب، وقد ذكر ابن القيم في كتابه (شفاء العليل) أوجُهَ شبهٍ كثيرة بين الإنسان والحمام.

ومن عجيب هداية الديك الشاب أنه إذا أُلْقِيَ له حبٌّ لم يأكلْه حتى يفرِّقه بين دجاجاته، حتى إذا هرم وشاخ أكله من غير تفريق، كما قال المدائني: إن إياس بن معاوية مَرَّ بديك يَنقُر حبَّاً ولا يفرقه، فقال: ينبغي أن يكون هرماً؛ فإن الديك الشاب يفرق الحب؛ ليجتمع الدجاج فتصيب منه، والهرم قد فنيت رغبته؛ فليس له همةٌ إلا نفسَه.

ومن عجيب أمر الثعلب أن ذئباً أكل أولاده وكان للذئب أولاد، وهناك

زبية[١] فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها، وحفر فيها سرداباً يخرج منه، ثم عمد إلى أولاد الذئب، فقتلهم وجلس ناحية ينتظر الذئب، فلما أقبل وعرف أنها فَعْلَتُه هرب قُدَّامه وهو يتبعه فألقى نفسه في الزبية، ثم خرج من السرداب، فألقى الذئب نفسه وراءه، فلم يجده ولم يطق الخروج، فقتله أهل الناحية.

ومن عجيب أمره _أي الثعلب_ أنه رأى رجلاً ومعه دجاجتان، فاختفى له، وخطف إحداهما، وفَرَّ ثم أعمل فكره في أخذ الثانية، فتراءى لصاحبها من بعيد، وفي فمه ما يشبه الطائر، وأطمعه في استعادتها بأن تركه وفر، فظن الرجل أنها الدجاجة، فأسرع نحوها، فخالفه الثعلب إلى أختها فأخذها وذهب.

ومن هداية الحمار _وهو من أبلد الحيوان_ أن الرجل يسير به، ويأتي به إلى منزله في البعد في ليلة مظلمة، فيعرف المنزل، فإذا خُلِّي جاء إليه.

ثم إنه يُفرِّق بين الصوت الذي يُسْتَوْقَفُ به، وبين الصوت الذي يُحث به على السير.

ومن عجيب أمر الفأرة أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الجرة فَنَقَصَ، وعَزَّ عليها الوصولُ إليه _ ذهبت وحملت في أفواهها ماءاً وَصَبَّتْهُ في الجرة؛ حتى يرتفعَ الزيت فتشربَه.

وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أموراً تنفعه في معاشه وأخلاقه، وصناعته، وحربه، وحزمه، وصبره.

١ـ الزبية: هي الحفرة التي تحفر للأسد، أو الذئب، فيُصطادان بها، ولا تحفر إلا في مكان عالٍ، وتطلق على الحفرة التي يستتر فيها الصائد. انظر لسان العرب ١٤/٣٥٣.

وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس، قال _تعالى_: [أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً] (الفرقان:٤٤).

قال أبو جعفر الباقر: =والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلاً منها+.

قيل لرجل: مَنْ علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل به؟

قال: **مَنْ علَّم الطير** تغدو خماصاً كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها لا تسأم ذلك، ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض.

وقيل لآخر: مَنْ عَلَّمك السكونَ، والتحفظ، والتماوت حتى تظفر بإربك، فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته؟

فقال: **الذي علَّم الهرة أن ترصد جحر الفأرة**، فلا تتحركَ، ولا تتلوى، ولا تختلج، حتى كأنها ميتة، حتى إذا برزت الفأرةُ وَثَبَتْ عليها كالأسد.

وقيل لآخر: مَنْ عَلَّمك حسن الإيثار والبذل والسماحة؟

قال: **مَنْ علَّم الديك** يصادف الحبة في الأرض وهو يحتاج إليها ولا يأكلها، بل يستدعي الدجاج، ويطلبهن طلباً حثيثاً حتى تجيء الواحدةُ منهن، فتلقطها وهو مسرور بذلك طيب النفس به، وإذا وُضِعَ له الحبُّ الكثيرُ فَرَّقه ها هنا وها هنا وإن لم يكن له دجاج؛ لأن طبعه قد ألف البذل والجود؛ فهو يرى أنه من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام.

ومَنْ علَّم الأسد إذا مشى وخاف أن يُقْتَفَى أثره ويُطلب؟ عَفَّى مِشْيَته بذنبه؟!

ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها، وإذا مر

بفريسة غيره لم يدن منها ولو جهده الجوع؟!

ومن علَّم الأنثى من الفيلة إذا دنا وَقْتُ ولادتها أن تأتي إلى الماء، فتلدَ فيه؛ لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة؛ لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، وهي عالية، فتخاف أن تسقطه على الأرض، فينصدعَ، أو ينشقَّ، فتأتي ماءً وسطاً تضعه فيه يكون كالفراش اللين والوطاء الناعم؟!

ومَنْ علَّم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر؟!

ومَنْ علَّم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نُوَباً بين عينيه، فينامَ بإحداهما حتى إذا نعست الأخرى نام بها، وفتح النائمة حتى قيل فيه:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

وهذا باب واسع جدَّاً، ويكفي فيه قوله _سبحانه وتعالى_: [وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ] (الأنعام: ٣٨).

قال مجاهد: =**أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**+ أصناف مصنفة تُعْرف بأسمائها.

وقال الزجاج: =**أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**+ في أنها تبعث، وقال بن قتيبة: =**أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**+ في طلب الغذاء وابتغاء الرزق وتَوَقِّي المهالك.

وقال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من البهائم؛ فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو كعدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقي إليها الطعام الطيب لَعَافَتْهُ، فإذا قام الرجل من رجيعه ولغت فيه؛ فلذلك

تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمةً لم يحفظ منها واحدة، وإن أخطأ رجلٌ تروّاه وحفظه.

وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها _سبحانه وتعالى_ وعلى إتقان صنعه، وعجيب تدبيره، ولطيف حكمته؛ فإن فيما أودعها من غرائب المعارف، وغوامض الحيل، وحسن التدبير، والتَّأتي لما تريده _ ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملأ القلوب من معرفته، ومعرفة حكمته، وقدرته، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق عبثاً، ولم يترك سدىً، وأن له حكمةً باهرةً، وآيةً ظاهرة، وبرهاناً قاطعاً، يدل على أنه رب كلِّ شيءٍ ومليكُه، وأنه المنفرد بكل كمالٍ دون خلقهِ، وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم[1].

خامساً: دلالة الآفاق

فالآفاق يراها كل أحدٍ؛ العالم والجاهل، المؤمن والكافر، فلو تأمل الإنسان بعين البصيرة والتدبر والتفكر _ لأدرك عظمة مَنْ أنشأها، ولَدَعاه ذلك إلى عبادته وحده لا شريك له.

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي × عند قوله _تعالى_: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ] (فصلت:٥٣): =وقد فعل _تعالى_ فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، الخاذل لمن يشاء+[2].

١ـ انظر شفاء العليل ص١٤٧ـ١٦٤.

٢ ـ الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في العقيدة ص٧٢ـ٧٣.

وقال × في موطن آخر _أيضاً_: =كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع الكائنات _ علم أنها خلقت للحق بالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب براهين، ودلالات على جميع ما أخبر به عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر، وأنها مدبرات، مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها، فتعرف أن العالَمَ العلويَّ والسفلي كلَّهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا هو ولا رب سواه+ [1].

وقال × في موطن آخر: =فهذا خبره _تعالى_ عن أمور مُسْتَقْبَلَةٍ أنه يُري عباده من الآيات والبراهين في الآفاق وفي الأنفس ما يدلهم على أن القرآن حق، والرسول حق، وما جاء به هو الحق+[2].

وفي كل عصر من العصور يُطلع الله عباده على أمور عظيمة في هذا الكون الفسيح.

وفي العصور المتأخرة ظهر العديد من الاكتشافات والمخترعات والحقائق العلمية، ولا يزال الباحثون يكتشفون في كل يوم سراً من أسرار هذا الكون العظيم، مما جعلهم يقفون حائرين واجمين معترفين بالتقصير والعجز، وأن هناك عوالمَ أخرى مجهولةً، وأخرى لم تُكتشف بعد.

وخلاصة القول في هذا أن كل ما في الآفاق يدل دلالة قاطعة على وجود مدبر حكيم، رب عليم، مستحق للعبادة، ولكن:

١ـ المرجع السابق ص٧٢ـ٧٣.

٢ ـ المرجع السابق ص٧٢ـ٧٣

إذا لم يكـــن للمـــرء عـــين صـــحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

سادساً: عبودية الكائنات [١]

فالله ـ سبحانه ـ قد خلق جميع الكائنات: إنسِها، وجنِّها، وملائكِها، وحيوانها، وجمادها، ونباتها، وغيرها من الكائنات؛ لعبادته ـ سبحانه ـ وفطرها على توحيده، والاعتراف بألوهيته، والإقرار بفقرها وحاجتها وخضوعها وصمودِها له ـ جل وعلا ـ.

فكل هذه الكائنات تقوم بعبادة الله ـ عز وجل ـ ولا يُخِلُّ بذلك إلا الإنسان المعاند الزائغ عن شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ المخالف لنظام هذا الكون المحكم البديع؛ الذي ما قام إلا على عبودية الله.

هذا وتختلف العبوديات من مخلوق إلى مخلوق.

فمن تلك العبوديات: عبودية الإنس، فهي أشرفها وأفضلها.

وأشرف ما فيها عبوديةُ الأنبياء لربهم، وقيامهم بالدعوة والجهاد وغير ذلك، ثم عبودية أتباعهم وأتباع أتباعهم.

ومن ذلك: عبودية الملائكة، والجن وهذا ليس بمستغرب.

أما الغريب حقّاً فهو عبودية الجمادات والحيوانات، التي يعتقد كثير من الناس أنها لا تعقل ولا تدرك، وليس لها أيُّ عبودية لله.

إن هذا الكون الواسع بما فيه من الكائنات كلّه يخضع لخالقه وبارئه، ويؤدي عبودية له ـ سبحانه وتعالى ـ فلقد ثبت لهذه الكائنات في الكتاب والسنة

١ـ انظر عبودية الكائنات لرب العالمين، للشيخ فريد التوني، دار الضياء، ص٢٣٤، و٢٤٥.

طاعاتٌ كثيرةٌ كالسجود، والتسبيح، والصلاة، والاستغفار، والإسلام، والإشفاق، وغيرها.

فعن سجود هذه الكائنات يقول الله _عز وجل_: [أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ] (الحج: ١٨).

وليس بالضرورة أن يكون هذا السجود مثل سجود الآدميين من المسلمين؛ فسجود كلٍّ أحدٍ بحسبه.

وأما عن تسبيح الكائنات فذلك كما في قوله _تعالى_: [تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً] (الإسراء: ٤٤).

فالكائنات كلها تسبح خالقها تسبيحاً لا نفقهه نحن البشر، وعدم معرفتنا به ليس دليلاً على نفيه؛ فلقد خص الله بعض خلقه بالاطلاع على تسبيح بعض الكائنات، وأفهمه تسبيحها كداود _عليه السلام_.

أما صلاتُها فقد قال الله _تعالى_: [أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ] (النور: ٤١).

فكلها يصلي، ويسبح لله، وليس بالضرورة أن نفهم ذلك.

أما عن استغفارها ففي حديث أبي الدرداء ÷ قال: سمعت رسول الله " يقول:

=وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في

الماء+[١].

أما عن إسلامها لله ـــتعالى ـــ فقد قال ـــعز وجل ـــ: [أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ] (آل عمران: ٨٣).

إلى غير ذلك من العبوديات المتنوعة التي لا يتسع المقام لذكرها [٢].

وهناك كتاب بعنوان (**عبودية الكائنات لرب العالمين**)[٣] حيث تكلم مؤلفه على عبودية الكائنات بالتفصيل، ومن ضمن ما تكلم عليه: سجود الدواب، وإشفاقها من يوم القيامة، وراحتها من موت الفاجر، وعن كلام الدواب، كالبقرة، والجمل، والحيتانِ، والديك، والذئب، والفرس، والنمل، والهدهد.

كما تحدث عن عبودية الشجر، وسجودها، وسماعها لأذان المؤذن، وتلبيتها في الحج أو العمرة، وعن ولاء الشجر وبرائه، وعن موقف الشجرة من النبي " وسلامها عليه، وانقيادها له، وحنينها إليه، وشهادتها لله بالتوحيد، ومواقفها مع المسلمين، كما تحدث عن عبودية الجبال، وسجودها لله، وتسبيحها له، وعن تلبية الحجر، وسماعه للأذان، وعن خشية الجبال، وخوفها، وعرض الأمانة عليها، وسرورها، وفرحها بمن يذكر الله عليها، وعن مواقف الجبال مع بعض الأنبياء ـــعليهم السلام ـــ.

كما تحدث عن عبودية السموات والأرض وتسبيحها لله، وإنكارها قول

---

١ ـ أخرجه ابن ماجه (٢٢٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٠٧٩/٢ رقم ٦٢٩٧.

٢ ـ انظر جامع الرسائل لابن تيمية تحقيق د. محمد رشاد سالم، ١/١ـ٤٥.

٣ ـ الكتاب لفريد التوني، وهو رسالة علمية.

النصارى: إن المسيح ابن الله، وبكائها على فراق المؤمنين الصالحين.

وتحدث _أيضاً_ عن عبودية الملائكة والإنس والجن، كل ذلك مقرون بالأدلة من الكتاب والسنة.

ومن هنا يتبين لنا أن المخلوقاتِ مفتقرةٌ إلى الله _سبحانه وتعالى_ =وأن فقرَها وحَاجَتَها إليه وصفٌ ذاتيٌ لهذه الموجودات المخلوقة، كما أن الغنى وصف ذاتي للرب الخالق+[1].

فصمود الكائنات كلها وفقرها إلى الله يدل دلالة واضحة على وحدانيته _سبحانه وتعالى_.

سابعاً: اختلاف الطعوم والألوان والروائح في النبات

وهذا دليل حسي على وحدانية الله؛ فالماء ينزل من السماء عديم اللونِ والطعمِ والرائحةِ، ينزل على الأرض الجرداء، ثم يَخْرُج _بإذن الله_ من جَرَّاء ذلك نباتاتٌ مختلفة في اللون، والطعم، والرائحة، فبعضها حلو، وبعضها حامض، وبعضها مُزٌّ، وبعضها أخضرُ، وبعضها أصفرُ، وبعضها أسود.

بل إن النوع الواحد من بعض الثمار متنوع تنوعاً عجيباً؛ ومن ذلك على سبيل المثال (العنب) فمنه جنات معروشات وغير معروشات، ومنه الحلو، ومنه الحامض، ومنه الحامض الحلو، ومنه الأخضر، ومنه الأحمر، ومنه الأسود، ومنه الطويل، ومنه المدور إلى غير ذلك.

وقل مثل ذلك في النخل؛ فمنها ما يكون حلاوته بسراً أكثرَ من حلاوته رطباً والعكس، ومنه الأسود، ومنه الأصفر، ومنه الطويل، ومنه المدور، كل ذلك وهو

١ـ مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/٩.

يسقى بماء واحد.

فمن الذي فضَّل بعضها على بعض في الأكل؟ ومن الذي أودعها هذه المزايا من الألوان والأطعمة؟

إنه الله [الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)] (الأعلى).

ثامناً: اختلاف الألسن

فنحن نرى اختلاف الألسن واللغات من شعب إلى شعب، ومن إنسان إلى إنسان، فمن الذي علم الإنسان البيان؟ ومن الذي يعلم تلك اللغات جميعاً، ويحصي ما يقولون فلا تختلط عليه؟ إنه الله الواحد الأحد؛ فاختلاف الألسن آية عظيمة تدل على وحدانيته ـ سبحانه وتعالى ـ [1].

١ ـ انظر تفاصيل ما مضى في الجزء الأول من مفتاح دار السعادة لابن القيم.

المبحث الرابع: مضادة الإيمان بالله

يضاد الإيمان بالله ـسبحانه وتعالى ـ الكفر به ـعز وجل ـ أو الكفر بأي نوع من أنواع التوحيد، أو أن يرتكب الإنسان أيَّ ناقض من نواقض الإسلام.

وفي هذا الموضع سيكون الحديث عن ظاهرة خطيرة تنافي الإيمان بالله، وتعارضه معارضة كلية، ألا وهي ظاهرة الإلحاد، تلك الظاهرة القديمة الجديدة.

فما معنى الإلحاد؟ وما أسبابه؟ وكيف دخل بلاد المسلمين؟ وما آثاره؟

أولاً: معنى الإلحاد[1]

الإلحاد في لغة العرب: هو الميل.

وفي الشرع: هو الميل عما يجب اعتقاده أو عمله.

المقصود بالإلحاد هنا: الكفر بالله، والميل عن طريق أهل الإيمان والرشد، والتكذيب بالبعث، والجنة، والنار، وتكريس الحياة كلها للدنيا فقط، وتكذيب الرسل، وإنكار وجود الرب ـتبارك وتعالى ـ.

ثانياً: ظاهرة الإلحاد

الإلحاد اليوم أصبح ظاهرة عالمية، فالعالم الغربي في أوربا وأمريكا ـوإن كان وارثاً في الظاهرة للعقيدة النصرانية التي تؤمن بالبعث والجنة والنار هو ـفي الأغلب ـ قد ترك هذه العقيدة، وأصبح إيمان الناس هناك بالحياة الدنيا فحسب،

---

١ ـ انظر الإلحاد أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها، للشيخ عبدالرحمن عبد الخالق، ص٨ـ٩.

وأصبحت الكنيسةُ مجردَ تراثٍ تافهٍ جداً؛ وصار الإلحادُ هو الدينَ الرسمي المنصوص عليه في كل دساتير البلدان الأوروبية والأمريكية، ويعبر عن ذلك بالعلمانية تارة، وباللادينية تارة أخرى.

أما في الشرق فقد قامت أكبر دولة على الإلحاد، وهي الدولة الروسية، التي تحمل العقيدة الشيوعية، التي تتضمن بنودُها رفضَ الغيب، والنظرَ إلى الحياة كلها، وفي جميع الجوانب من منظور مادي بحت.

ثالثاً: أسباب انتشار الإلحاد[1]

لقد انتشر الإلحاد ومد رواقه في كثير من بلدان العالم، ومنذ مائتي عام لم تكن مشكلة الإلحاد بهذه الحدة والانتشار، ولكن في القرنين الأخيرين ظهرت عوامل عديدةٌ جعلت من الإلحاد والكفر ديناً عامَّاً منتشراً.

وتلك العوامل منها ما يعود إلى المجتمع الذي عاشت فيه، ومنها ما يعود إلى شخصيات مؤسسيها المنحرفة.

وفيما يلي ذكرٌ لشيء من تلك الأسباب بإجمال؛ إذ المقام ليس مقامَ بَسْطِها، فمن ذلك:

١ـ أنها كانت ردة فعل للطغيان الكنسي، الذي حارب العلم، وحارب

١ـ انظر المرجع السابق، ص١٠ـ١٨، وانظر كتاب: بعض أسباب الإلحاد وأثر الإيمان بالله تعالى، للدكتور عبد الحليم أحمدي، وانظر: نقد أصول الشيوعية، للشيخ صالح بن سعد اللحيدان، ص٤٠، والشيوعية خلاصة ضروب الكفر والموبقات، لأحمد عبد الغفور عطار، ص٣١ـ٣٢، وحكم الاشتراكية في الإسلام، للشيخ عبد العزيز البدري، ص٥٨، وانظر الشيوعية للكاتب.

العقل، وأعان الحكام الظلمة، ومَكَّنَ للخرافة، وفرض على الناس الضرائب والعشور، وما إلى ذلك مما قامت به الكنيسة الأوروبية.

٢_ **مظالم النظام الرأسمالي**، فكان أن قامت الحركة الإلحادية الشيوعية كردة فعل _أيضاً_ للرأسمالية.

٣_ **كثرة المشكلات في المجتمع الأوروبي**، وفقدان التوازن فيه اجتماعياً واقتصادياً خصوصاً في القرنين السابعَ عشرَ والثامنَ عشرَ.

٤_ **غياب المنهج الصحيح**: وهو دين الإسلام عن الساحة التي نشأ فيها الإلحاد، وتقصير المسلمين في أداء رسالتهم في قوامة المجتمع البشري، وانتشاله من الهاوية، وتعريفه بدين الإسلام.

٥_ **كثرة الاتجاهات، والنظريات، والمبادىء** التي وجدت في المجتمع الأوروبي.

٦_ **الخواء الروحي لدى أوروبا**؛ إذ الكنيسة لا تقدم منهجاً يزكي النفس، ويجلب السعادة والطمأنينة للأفراد والمجتمعات؛ مما جعل النفوس تتعلق بخيط العنكبوت، وتتشبث بعود الثمام؛ لتنجو مما هي فيه من الحيرة، والاضطراب، والقلق.

٧_ **الاستعمار وما خلَّفه من دمار**؛ فله أثره الواضح في انحطاط الشعوب المستعمرة، وذلك عن طريق الكتب، وقفل باب الحرية، الأمر الذي أفسح المجال للإلحاد.

٨_ **المكر اليهودي على العالم كله**، وتآمره عليه لإفساده؛ تمهيداً للسيطرة عليه، حيث استغلوا هذه المذاهب ومكنوا لها.

٩_ **الانقلاب الصناعي**، وما يقوم به الشيوعيون من بحثٍ علميٍّ جادٍّ مستندٍ

على أدلةٍ مغريةٍ تقول: بأن الدين خرافة.

١٠ـ ملذات الحياة، ومباهج الحضارة، ونسيان الخالق؛ فلقد فتح العلمُ الماديُّ أبواباً عظيمةً من أبواب الرفاهية والترف، فالمراكب الفارهة الفخمة؛ من سيارات، وقطارات، وبواخرَ وطائراتٍ.

كذلك الملابس، والمطاعم، ووسائل التسلية، كل ذلك جعل الغفلة تستحكم على النفوس، ولا تشعر بالعاقبة، مما فتح المجال لترويج أي مبدأ.

١١ـ انحراف مؤسسي الشيوعية، وشذوذهم؛ فهذا ماركس اليهودي ـعلى سبيل المثالـ كان حبراً يهودياً، وكان مُخففاً في شؤون حياته الخاصة، وكان ذا طبيعة ميالة للهدم والفساد.

أضف إلى ذلك ما كان عليه من فسادٍ خلقي وسلوكي، كذلك موت ابنتيه منتحرتين، كل هذه العوامل تحركت في نفس هذا المجرم، فأخرجت أكلَها النتنَ القبيحَ.

وقل مثل ذلك أو أشد في شأن زعماء الشيوعية كـ: لينين، وستالين، وخرتشوف، وغيرهم.

و بالجملة فأقل ما يقال عن الإلحاد أنه عقوبةٌ إلهيةٌ للبشرية بسبب تماديها في الغواية والضلال.

رابعاً: دخول الإلحاد بلاد المسلمين

لقد دخل الإلحاد كثيراً من بلاد المسلمين وما كان له أن يدخل، إلا أن هناك أسباباً عديدة مكنت لدخوله منها:

١ـ انحراف كثير من المسلمين عن دينهم، ونسيانهم حظَّاً مما ذُكِّروا به،

وإلا فإن الصبر والتقوى كفيلان برد كل باطل [وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً] (آل عمران: ١٢٠).

٢_ هزيمة العالم الإسلامي أمام الهجمة الأوروبية، فما كاد الأوروبيون يمتلكون القوة المادية، ويستخدمون الآلة، ويبنون المصانع _ حتى اتجهوا إلى دول العالم الثالث؛ بحثاً عن الأسواق لبيع منتجاتهم الصناعية، وجلباً للمواد الخام اللازمة للصناعة.

ولما كانت هذه الدول تطمع في الحصول على ما تريد بأبخس الأثمان، أو بلا ثمن أصلاً _ فإنها استخدمت قوتها العسكرية.

ولما كان العالم الإسلامي في غاية التخلف عسكرياً، وسياسياً وصناعياً _ لم يصمد أمام تلك الهجمة، وكان للهزيمة العسكرية أثرُها في زعزعة العقيدة، ووجود الشعور بالنقص، وتقليد الغالب، والتشبه بأخلاقه؛ ظناً منهم _لفرط جهلهم_ أن أوروبا لم تتطور إلا عندما اعتنقت الإلحاد، ورفضت الدين.

٣_ الاستعمار الغربي لكثير من بلاد المسلمين؛ فلقد عانى المسلمون من الاستعمار وويلاته، حيث امتص الغرب دماء المسلمين، وخيراتهم، وأوطانهم.

٤_ تركيز الغرب على إفساد التعليم، والإعلام، والمرأة، وتشويه صورة علماء المسلمين، مع الحرص على نشر الفوضى الجنسية، والإباحية والعري، حيث غرق كثير من الشباب في هذا المستنقع الآسن، والإلحادُ لا يُفَرَّخ إلا في مثل هذا الجو.

٥_ انتشار المذاهب الهدامة، والفرق الضالة، والطرق الصوفية المخذلة؛ التي تقوم على الدجل، والخرافة، وعبادة القبور والمبالغة في قصص الكرامات، كل ذلك استغله الملاحدة، ونفذوا من خلاله إلى الطعن في الدين.

٦ـ الابتعاث وما فيه من مفاسد؛ حيث يذهب إلى بلاد الكفر مَنْ هو خالي الوفاض في الغالب، فلا علم لديه، ولا ورع يزمُّه، ولا تقوى تردعه، فيعيش في تلك البلاد ويتأثر بما فيها من أفكار وأخلاق، وربما رجع بشهادة الدكتوراه بعد أن يفقد شهادة أن لا إله إلا الله[1].

خامساً: الآثار المترتبة على الإلحاد

للإلحاد والكفر آثار سيئة، وثمرات منتنة على الأفراد والجماعات.

فالأمم الكافرة تعيش حياة صعبة معقدة، ولا يجدون حلاً لمشكلاتهم، فهم يعاقبون في هذه الدنيا أشد أنواع العقوبات بالإضافة إلى ما سيلقونه يوم القيامة من النكال والعذاب والخلود في النار ــإن ماتوا على كفرهمــ.

وفيما يلي إجمال للآثار المترتبة على الإلحاد:

١ــ القلق النفسي، والاضطراب، والحرمان من طمأنينة القلب، وسكون النفس.

قال ــسبحانه وتعالىــ: [وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى](طه:١٢٤).

كيف لا يصيب الملاحدةَ الهمُّ والغمُّ والقلقُ وفي داخل كل إنسان أسئلة محيرة؟ مَنْ خَلَق الحياة؟ وما نهايتها؟ وما بدايتها؟ وما سر هذه الروح التي لو خرجت لأصبح الإنسان جماداً؟

١ـ انظر السرطان الأحمر، د. عبد الله عزام، من ص٩٩ـ١٠٦، والإلحاد أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها للشيخ عبد الرحمن عبدالخالق، والشيوعية للكاتب.

من يجيب عن تلك التساؤلات؟ آلشيوعية؟ أنى لها؟

ثم إن هذه الأسئلة قد تهدأ في بعض الأحيان بسبب مشاغل الحياة إلا أنها ما تلبث أن تعود، وما نراه اليوم من كثرة الانتحارات، وإدمان المخدرات دليل على ذلك.

٢ـ **الأنانية والفردية**؛ نظراً لاشتغال كل فرد بنفسه؛ فلا رحمة ولا شفقة ولا عطف ولا حنان؛ أين ذلك كله من الرحمة في الإسلام؟

كما قال النبي ـعليه الصلاة والسلامـ: =**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**+[1].

٣ـ **حب الجريمة**؛ وهذا لا يحتاج إلى دليل؛ فَوَاقِعُ الحياة في الغرب، ومعدلات السرقة والخطف شاهد على ذلك.

٤ـ **هدم النظام الأسري**؛ وذلك أن الأسرة الكافرة تعيش في تفكك وتشرذم وضياع.

٥ـ **فساد المجتمع**؛ إذ إن فساده من فساد الأسرة.

٦ـ **الرغبة في الانتحار**؛ تخلصاً من الحياة.

والغريب في الأمر أن أكثرية المنتحرين ليسوا من الفقراء حتى يقال بسبب فقرهم، بل من الأغنياء المترفين، ومن الأطباء، بل ومن الأطباء النفسانيين الذي يظن بهم أنهم يجلبون السعادة للناس!

والغريب أن الانتحار في بعض بلدان الغرب له مؤيدون، وهناك كتب تعين

١ـ رواه البخاري رقم (١٣)، ومسلم رقم (٤٥).

الذين يريدون الانتحار، وتبين لهم الطرق المناسبة! [١].

٧ـ إرادة الانتقام، والظمأ النفسي للتشفي من كل موجود.

٨ـ شيوع الكراهية والبغضاء.

٩ـ انعدام الثقة بين الناس؛ فكل شخص يخاف من أقرب الناس إليه، ولا أدل على ذلك مما حصل في ألمانيا الشرقية عندما انهارت فيها الشيوعية، حيث ذهب الناس إلى أقسام الشرطة؛ لينظروا ما كتب عنهم من تقريرات من خلال العمليات التجسسية، فوجد كثير منهم أن الذي كتب عنه التقرير أمُّه أو أختُه أو زوجتُه أو صديقُه، كل ذلك بقوة النظام.

١٠ـ شيوع الأوهام والمخاوف.

١١ـ الإجرام السياسي: وهو من أعظم آثار الإلحاد؛ ذلك أن الأخلاق المادية الإلحادية التي جعلت قلب الإنسان يمتلىء بالقسوة ـ دفعته إلى تطبيق ذلك عملياً؛ لذلك رأينا الدول الكبرى كيف تفعل بالدول المسْتَعْمَرة من الإهانة، والإذلال، والقتل، والتشريد.

ولا أدل على ذلك مما فعله ستالين إبَّان فترة حكمه؛ حيث قتل في تلك المدة أكثر من ثلاثين مليوناً.

هذا شيء من آثار الإلحاد المدمرة.

ومن خلال ذلك يتبين لنا مدى ما تصل إليه البشرية عندما تبتعد عن وحي السماء، ويتبين لنا ـأيضاًـ مدى حاجتها إلى المنهج الصحيح الذي يقودها إلى

١ـ انظر إلى كتاب: التوبة وظيفة العمر للكاتب، ففيه تفصيل لذلك.

سعادة الدارين.

ولا يتم ذلك إلا بالجد، والاجتهاد في الدعوة إلى الله، وبيان محاسن الإسلام، والتصدي لشبهات الملاحدة، مع العناية بتربية الناس على العقيدة الصحيحة، والأخلاق القويمة المستمدة من مشكاة الوحي، فيهدي الله بذلك من شاء هدايته ممن سبقت له الحسنى[1].

١ـ انظر الكيد الأحمر للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص٥٥٣ وما بعدها، والإلحاد أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها للشيخ عبدالرحمن عبدالخالق، ص٢٠ـ٣٣.

الرسالة الثالثة

لا إله إلا الله

معناها _ أركانها _ فضائلها _ شروطها

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن كلمة التوحيد _لا إله إلا الله_ هي أساس الدين، وحصنه الحصين، وطريقه القويم، وصراطه المستقيم.

ولهذه الكلمة المكانةُ العظمى في دين الإسلام؛ فهي أول ركن من أركان الإسلام، وأعلى شعبة من شعب الإيمان، وهي أول واجب على المكلف، وآخر واجب عليه، وقبول الأعمال متوقف على النطق بها، والعمل بمقتضاها.

وفيما يلي من صفحات سيكون الحديث عن هذه الكلمة وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: معنى لا إله إلا الله، وأركانها.

المبحث الثاني: فضائل لا إله إلا الله.

المبحث الثالث: شروط لا إله إلا الله.

فإلى تلك المباحث، وما يندرج تحتها، وصلى الله وسلم على نبينا ومحمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول: معنى لا إله إلا الله، وأركانها

أولاً: معنى: لا إله إلا الله

أما معناها الحق الذي لا يجوز العدول عنه فهو:

لا معبود حق إلا الله

ولا يجوز أن يُقال:إن معناها لا خالق إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، أو لا موجود إلا الله، وذلك لأمور منها:

١ــ أن كلمة =إله+ عند العرب فِعالٌ بمعنى مفعول، كغِراس بمعنى مغروس، وفِراش بمعنى مفروش، وكتاب بمعنى مكتوب؛ فإله: فِعال بمعنى مفعول: أي مألوه، والتأله في لغة العرب معناه التنسك والتعبد، فمعنى مألوه: معبود، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

لِلّـــــهِ دُرُّ الغَانيـــــاتِ المـــــده ... ســبَّحْنَ واسْــتَرَّجَعْنَ مــن تــألهي[1]

وقد سمَّت العرب الشمس لما عبدوها إلهةً، وقالت مية بنت أم عتبة ابن الحرث:

تروحنـــا مـــن اللعبـــاء عصـــراً ... فأعجلنـــا الإلهـــة أن تؤوبـــا[2]

٢ــ أن كفار قريش والمشركين في الجاهلية لا ينكرون أنه لا خالق إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، قال ــتعالىــ في شأنهم:[وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ](لقمان:٢٥).

١ـ انظر لسان العرب ٤٦٩/١٣.

٢ ـ لسان العرب ٤٦٩/١٣.

وأشعارهم مليئة بالإقرار بهذا الأمر ــأعني توحيد الربوبيةــ ومن ذلك قول زهير ابن أبي سلمى:

فــلا تكــتُمُن الله مــا في نفوســكم ليُخْفَــي ومهمــا يُكْــتمِ اللهُ يعلــمِ

يُــؤخر فيُوضَــعْ في كتــاب فيُــدَّخَر ليــوم الحســاب أو يعجــل فيــنقمِ [١]

ومنه قول حاتم الطائي:

أمــا والــذي لا يعلــم الســرَّ غــيرُه ويحيــي العظــامَ البــيضَ وهــي رمــيم[٢]

٣ــ أن كفار قريش لما قال لهم الرسول ": =**قولوا: لا إله إلا الله**+ قالوا كما أخبر الله ــتعالىــ عنهم: [أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ] (ص: ٥).

فما الذي فهمه كفار قريش عندما أمرهم النبي"أن يقولوا لا إله إلا الله؟

هل فهموا من لا إله إلا الله أن معناها لا خالق أو لا قادر على الاختراع إلا الله؟

الجواب لا؛ لأنهم لا ينكرون ذلك، إنما أنكروا أن تكون العبادة كلها لله وحده لا شريك له.

إذاً فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود حق إلا الله، وتُقَدَّر كلمة =حق+ لأن المعبودات كثيرة، ولكن المعبود الحق هو الله وحده لا شريك له.

قال ــتعالىــ: [ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ] (الحج: ٦٢).

ثانياً: أركان: لا إله إلا الله

للشهادة ركنان:

١ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٢٥.

٢ـ شرح ديوان حاتم الطائي، ص٤٧.

١_ نفي في قول: =لا إله+ .   ٢_ إثبات في قول: =إلا الله+ .

ف: (**لا إله**) نفت الألوهية عن كل ما سوى الله، و: (**إلا الله**) أثبتت الألوهية لله وحده لا شريك له.

وهذا الأسلوب يعرف بأسلوب القصر، وهو أسلوب عربي معروف، وجملة القصر في قوة جملتين، إحداهما مثبتة، والأخرى منفية.

وهذا الأسلوب من أقوى الأساليب التي يؤتى بها؛ لتمكين الكلام، وتقريره في الذهن؛ لدفع ما فيه من إنكار أو شكٍّ.

وطريقُ القصر في كلمة التوحيد:النفي والاستثناء.

ولا إله إلا الله في قوة قوله _تعالى_: [إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ](الفاتحة:٥) وقوله:[قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا] (الملك:٢٩).

فطريق القصر في الآيتين تقديم ما حقه التأخير؛ ففي آية الفاتحة قدم المفعول به (**إياك**) على الفعل (**نعبد**).

وفي آية الملك قدم الجار والمجرور (**وعليه**) على الفعل (**توكلنا**).

ثالثاً: هل يكفي مجرد النطق بـ:لا إله إلا الله [(١)]

كما مر بنا أن معنى الشهادة هو لا معبود حق إلا الله، فلا يعبد إلا الله، ولا يجوز أن يُصرف أيُّ نوع من أنواع العبادة لغير الله؛ فمن قال هذه الكلمة عالماً بمعناها، عاملاً بمقتضاها؛ من نفي الشرك، وإثبات الوحدانية، مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته والعمل به فهو المسلم حقاً، ومن عمل بها من غير اعتقاد فهو المنافق، ومن عمل بخلافها من الشرك فهو المشرك الكافر وإن قالها بلسانه.

١ـ انظر تيسير العزيز الحميد ص٧٤ـ ٨٠.

ومن هنا يتبين لنا أن مجرد النطق بهذه الكلمة العظيمة لا يكفي، بل لابد من العلم بها، والعمل بمقتضاها.

المبحث الثاني: فضائل:لا إله إلا الله [١]

لقد اجتمع لكلمة الإخلاص (**لا إله إلا الله**) فضائلُ جمةٌ، وثمراتٌ عديدة، ولكثرة فضائلها كثرت أسماؤها، وما ذلك إلا لعظم ما تحمله تلك الكلمة في طياتها من عمق في المعنى والمدلول؛ فشأنها عظيم، ونفعها عميم، وفضائلها يقصر دونها الحصر والعد.

غير أن هذه الفضائل لا تنفع قائلها بمجرد النطق بها فقط، ولا تتحقق إلا لمن قالها مؤمناً بها، عاملاً بمقتضاها ـ كما مر ـ.

وفيما يلي ذكر لبعض ما هو مثبوت في كتب أهل العلم في فضل تلك الكلمة، وبيان أهميتها.

١ـ **أنها أعظم نعمة أنعم الله بها** ـ عز وجل ـ على عباده؛ حيث هداهم إليها؛ ولهذا ذكرها في سورة النحل، التي هي سورة النِّعم، فقدمها على كل نعمة فقال:[يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ] (النحل:٢).

٢ـ **وهي العروة الوثقى**:[فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ

١ـ انظر: كلمة الإخلاص لابن رجب الحنبلي حققه بشير محمد عيون، وانظر إلى كتاب التوحيد للإمام المُجدد محمد بن عبدالوهاب خصوصاً باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، وباب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، وانظر إلى شرح هذين البابين في تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان ابن عبدالله وفتح المجيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن والقول السديد لابن سعدي وغيرها من الشروح، وانظر إلى كتاب معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي في الحديث عن فضائل كلمة الشهادة الجزء الأول.

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] (البقرة:٢٥٦).

قاله سعيد بن جبير والضحاك.

٣ــ **وهي العهد الذي ذكره الله** ــعز وجلــ إذ يقول:[ولا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً] (مريم:٨٧) .

قال ابن عباس ــرضي الله عنهماــ: =العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول و القوة إلا بالله، ولا يرجو إلا الله ــعز وجلــ+[1] .

٤ــ **وهي الحسنى** التي ذكرها الله في قوله:[فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى] (الليل:٥ــ٧).

قاله أبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك عن ابن عباس ــرضي الله عنهماــ[2] .

٥ــ **وهي كلمة الحق** كما في قوله ــتعالىــ:[إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ](الزخرف:٨٦).

٦ــ **وهي كلمة التقوى** التي ذكرها الله في قوله:[وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا](الفتح:٢٦).

٧ــ **وهي القول الثابت،** قال ــتعالىــ:[يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ] (إبراهيم:٢٧).

٨ــ **وهي الكلمة الطيبة** المضروبة مثلاً في قوله ــتعالىــ: [أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ] (إبراهيم:٢٤).

فأصلها ثابت في قلب المؤمن، وفرعها ــفي العمل الصالحــ صاعدٌ إلى الله

١ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٣/٣.

٢ـ انظر تفسير القرآن العظيم ٥١٩/٤.

ــعز وجلــ.

فالكلمة الطيبة هي كلمة الإخلاص، والشجرة الطيبة هي النخلة.

وقد شبه الله ــسبحانه وتعالىــ كلمة الإخلاص بالنخلة لأمور منها:

أــ أن النخلة لابد لها من ثلاثة أشياء:عرقٍ راسخ، وأصلٍ قائم، وفرعٍ عالٍ.

كذلك الإيمان لابد له من ثلاثة أشياء:تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح.

بــ أن النخلة لا تنبت في كل أرض، كذلك كلمة التوحيد لا تستقر في كل قلب، بل في قلب المؤمن فقط.

جــ أن النخلة عرقها ثابت بالأرض، وفرعها مرتفع، كذلك كلمة التوحيد أصلُها ثابت في قلب المؤمن، فإذا تكلم بها، وعمل بمقتضاها عرجت، فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله ــعز وجلــ.

قال ــتعالىــ:[إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ] (فاطر:١٠).

دــ أن النخلة يؤكل ثمرها ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، تمراً، أو بسراً، أو رطباً.

كذلك عمل المؤمن يصعد أولَ النهار، وآخرَه، وبركةُ إيمانه لا تنقطع أبداً، بل تصل إليه في كل وقت[1] .

٩ــ **وهي سبيل الفوز بالجنة**، والنجاة من النار [فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ](آل عمران:١٨٥).

وكما في الحديث المتفق عليه =**من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه،**

١ـ انظر تفسير البغوي معالم التنزيل ٤/٢٤٧.

والجنة حق، والنار حق ـ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل+[١] .

١٠ـ **أنها سبب مانع للخلود في النار لمن استحق دخولها**؛ كما في حديث الشفاعة =**أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه مثقال ذرة من إيمان**+[٢] .

فأهل لا إله إلا الله وإن دخلوا النار بتقصيرهم في حقوق: لا إله إلا الله فإنهم لابد أن يخرجوا منها كما في الصحيحين: =**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزنُ شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال:لا إله إلا الله وفي قلبه وزنُ بُرَّةٍ من خير، ويخرج من النار من قال:لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذَرَّة من خير**+[٣] .

١١ـ **أن من قالها يبتغي بذلك وجه الله ـ فإن الله يحرمه على النار**، كما في حديث عتبان المتفق عليه =**فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**+[٤] .

١٢ـ **ولأجلها خلقت الجن والإنس**:قال الله ـعز وجلـ: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ](الذاريات:٥٦).

١٣ـ **وهي سبيل السعادة في الدارين**: قال الله ـعز وجلـ:[الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

١ـ البخاري ١٣٩/٤ ، ومسلم ٥٧/١.

٢ـ أخرجه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٣)، والنسائي١١٣/٨ ، والترمذي (٢٥٩٨)، وابن ماجه (٦٠).

٣ـ البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣).

٤ـ البخاري (١١٨٦) ومسلم (٢٦٣).

يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ] (الأنعام:٨٢).

١٤_ **وهي أول واجب على المكلف** قال ": =**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله**+(١).

١٥_ **وهي آخر واجب على المكلف**: فمن كانت آخر كلامه من الدنيا _ دخل الجنة كما جاء في حديث معاذ ÷ =**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**+(٢).

١٦_ **وهي التي لأجلها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب** [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ](الأنبياء:٢٥).

١٧_ **وهي مفتاح دعوة الرسل**: فالرسل _عليهم السلام_ دعوا إليها جميعاً، فكلهم يقول لقومه [اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ](الأعراف:٧٣).

١٨_ **وهي أفضل الحسنات**: قال أبوذر ÷ قلت يا رسول الله: علمني عملاً يقربني من الجنة، ويباعدني من النار؛ قال: =**إذا عملت سيئة فاعمل حسنة؛ فإنها عشر أمثالها**+ .

قال: قلت يا رسول الله: أمِنَ الحسنات لا إله إلا الله؟

قال: =**هي أفضل الحسنات**+(٣) .

١٩_ **وهي الحسنة**: قال الله _تعالى_: [مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ

١- رواه البخاري رقم (٢٥)، ومسلم (٢٠).

٢- رواه أبو داود (٣١١٦)،والحاكم في المستدرك ٣٥١/١، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

٣- رواه الإمام أحمد في المسند ١٦٩/٥ ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٧٣)، وصحيح الجامع (٦٩٠).

أَمْثَالِهَا](الأنعام: ١٦٠)؛ إذ هي أفضل الحسنات كما مر.

٢٠ــ **وهي أفضل ما ذكر الله به ــعز وجلــ**: كما قال النبي ": =**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له+** [1] .

٢١ــ **وهي أثقل شيء في الميزان**: كما في المسند عن عبدالله بن عمر ــرضي الله عنهماــ عن النبي "أن نوحاً ــعليه السلامــ قال لابنه عند موته: =**آمرك**

ب: لا إله إلا الله؛ فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع، والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله+[2] .

٢٢ــ **وهي تطيش بسجلات الذنوب**، وترجح بصحائفها، وتثقل الميزان، كما في حديث صاحب البطاقة، قال رسول الله": =**إن الله سيخلِّصُ رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فَيَحْشُرُ عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجلٍّ مثل مدِّ البصر، ثم يقول:أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول:لا يا ربِّ، فيقول:أَفَلَكَ عذر؟ فيقول:لا يا ربِّ.**

فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنةً؛ فإنه لا ظلم اليوم، فتخرج بطاقة فيها:أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول:أحضر

١ـ رواه مالك في الموطأ ٤٢٢/١ وقال الألباني: وهذا إسناد مرسل صحيح، وقد وصله ابن عدي والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً. انظر الصحيحة (١٥٠٣).

٢ـ رواه أحمد ١٧٠/٢ ، وسنده صحيح، قاله الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٣٤).

وزنك.

فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟

فقال: إنك لا تُظْلم.

قال: فتوضع السجلات في كفةٍ، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء+[١] .

٢٣ـ **وهي أعلى شعب الإيمان:** وذلك لما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة÷ قال: قال رسول الله ": =**الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة؛ فأفضلها قول لا إله إلا الله+** الحديث[٢].

٢٤ـ **وهي أفضل الأعمال والأذكار، وأكثرها تضعيفاً، وتعدل عتق الرقاب، وتكون حرزاً من الشيطان:** كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة ÷ عن النبي" أنه قال: =**من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة ـ كانت له عَدْل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه+**[٣].

١ـ رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وابن حبان (٢٥٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٧٧٦) .

٢ـ البخاري (٩) ومسلم (٣٥).

٣ـ البخاري (٦٤٠٥، ٦٤٠٣، ٣٢٩٣) ومسلم (٢٦٩١).

وفي الصحيحين _أيضاً_ عن أبي أيوب الأنصاري ÷ عن النبي ": **=من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل+**[1] .

٢٥_ **أنها تفتح لقائلها أبواب الجنة الثمانية**:كما جاء في صحيح مسلم: **=ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ _أو فيسبغ_ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء+**[2] .

٢٦_ **وهي التي يكون السؤال عنها يوم القيامة**: قال _تعالى_: [فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ] (الحجر:٩٢، ٩٣).

وقال _تعالى_: [فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ] (الأعراف:٦).

٢٧_ **وهي المَثَلُ الأعلى**: الذي ذكره الله _عز وجل_ في قوله:[وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ] (الروم:٢٧).

فالمثل الأعلى هو الوصف الكامل، وأعظم وصف لله هو أنه لا إله إلا هو؛ كما جاء ذلك في آية الكرسي:[اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ](البقرة:٢٥٥).

٢٨_ **وفي شأنها تكون السعادة والشقاوة.**

٢٩_ **وبها تؤخذ الكتب باليمين أو الشمال.**

١ـ البخاري (٦٤٠٤) ومسلم (٢٦٩٣).

٢ـ مسلم (٢٣٤) .

٣٠ـ **ولأجلها يفرّق بين القريب والقريب** [لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ] (المجادلة:٢٢).

٣١ـ **ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار.**

٣٢ـ **وهي أصل الدين،** وأساسه، ورأس أمره، وساق شجرته، وعمود فسطاطه، وبقية الأركان والفرائض متفرعة عنها، متشعبة منها، مكملات لها، مقيدة بالتزام معناها، والعمل بمقتضاها.

٣٣ـ **وهي الأمان من وحشة القبور، وهول المحشر.**

٣٤ـ **أن قبول الأعمال متوقف عليها وعلى تحقيقها.**

٣٥ـ **وهي أعظم سبب للتحرر من رق المخلوقين**:فلا يتعلق العبد بهم، ولا يخافهم ولا يرجوهم، ولا يعمل لأجله.

وهذا هو العز الحقيقي، والشرف العالي، الذي به يتم فلاحه، ويتحقق نجاحه.

٣٦ـ **وهي أصل كل خير ديني أو دنيوي**:[تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ] إبراهيم:٢٥.

٣٧ـ **وهي سبب لصفاء النفس،** والبعد عن الأثرة: قال ـتعالىـ في وصف أهلها:[وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ] (الحشر:٩).

٣٨ـ **وهي أعظم سبب لتحرير العقل من الخرافات والأوهام والأباطيل.**

٣٩ـ **وهي كلمة السواء**:قال ـتعالىـ:[قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً] آل عمران:٦٤.

٤٠ـ **وهي سبب للشجاعة والإقدام**: فكلما ازداد الإنسان علماً بها، وعملاً

بمقتضاها ــ ازداد بذلك شجاعة وإقداماً في الحق.

ولا أدل على ذلك من حال الأنبياء ــصلوات الله عليهم وسلامهــ وكذلك حال أتباعهم من الصديقين، والشهداء، والصالحين، والمجاهدين في كل زمان ومكان.

٤١ــ **أنها أعظم سبب لعلو الهمة:** فأعلى الهمم الوصولُ إلى رضا الله ودخول الجنة.

وصاحبها القائم بها أعظَمُ همِّه هو ذلك الأمر.

٤٢ــ **وهي أعظم مصدر للعزة والكرامة:** قال ــتعالىــ: [وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ] المنافقون:٨.

٤٣ــ **وهي الصدق:**كما في قوله ــتعالىــ:[وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ] الزمر:٣٣.

٤٤ــ **وهي التي لأجلها جردت سيوف الجهاد:** قال الله ــتعالىــ:[وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ] الأنفال:٣٩.

٤٥ــ **وهي مشتملة على نوعي الدعاء:** دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

٤٦ــ **تفريج الكربات:** فمن فضائلها أنها السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة، ودفع عقوبتهما، ولذا لما كان يونس ــعليه السلامــ في بطن الحوت، [فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ] (الأنبياء:٨٧) استجاب الله له، وفرج كربته.

٤٧ــ **أنها أعظم سبب لحسن الخلق:** ولين الجانب، وكرم النفس، والارتفاع عن الدنايا، ومحقرات الأمور.

٤٨ــ **أنها هي كلمة التوحيد:** والتوحيد هو السبب الأعظم لنيل رضا الله وثوابه قال ــتعالىــ: [وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ]

(البقرة:١٦٣).

٤٩_ **أن أسعد الناس بشفاعة محمد " من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه:** فعن أبي هريرة ÷عن النبي " قوله: =**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**+[1] .

٥٠_ **أن من كَمُلَ التوحيد في قلبه، وعرف معنى الشهادة،** وعمل بمقتضاها _ سهل عليه فعل الخيرات، وترك المنكرات، وهانت عليه المصيبات؛ فالمخلص لله تخف عليه الطاعات؛ لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي؛ لما يخشى من سخطه وأليم عقابه، ويتسلى عند المصائب؛ لعلمه أنها من عند الله، وكل ما يصيبه من الله فهو خير له في دينه ودنياه، علم حكمة ذلك أو لم يعلم.

٥١_ **أنها إذا اكتملت المعرفة بها،** والعمل بمقتضاها حبَّب الله لصاحبها الإيمان، وزَيَّنه في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.

٥٢_ **أن التوحيد إذا كمل وتم في القلب، وتحقق تحققاً كاملاً بالإخلاص التام_** صار القليل من عمله كثيراً، وتضاعفت أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب.

٥٣_ **أن الله تكفل لأهلها بالفتح والنصر في الدنيا،** والعز والشرف وحصول الهداية والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال والتسديد في الأقوال والأفعال.

١- رواه البخاري (٩٩).

٥٤ــ **أن الله يدفع عن أهلها شرور الدنيا والآخرة:** قال ــتعالى ــ:[إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا] (الحج:٣٨).

٥٥ــ **وهي حبل الله المتين:** قال ــتعالى ــ: [وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً] (آل عمران:١٠٣).

٥٦ــ **الحياة الطيبة:** فالحياة الطيبة إنما هي لأهل الإيمان والتوحيد الخالص.

قال ــعز وجل ــ:[مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً] (النحل:٩٧).

٥٧ــ**حصول البشرى عند الممات:** فمن استقام عليها حصلت له البشرى عند الممات.

قال ــتعالى ــ:[إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ] (فصلت:٣٠).

٥٨ــ **وهي شعار المؤمنين الموحدين:** فهم أهل لا إله إلا الله.

٥٩ــ **وهي الرابطة بين المؤمنين:** فبمجرد الإيمان بها ينتسب الإنسان إلى أشرف نسب؛ فيصبح إبراهيم ــعليه السلام ــ أباك، وأزواجُ النبي أمهاتِك، وباقي المؤمنين إخوةً لك.

قال ــتعالى ــ:[مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ](الحج:٧٨).

وقال ــتعالى ــ: [النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ] (الأحزاب:٦) وقال:[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ] (الحجرات:١٠).

٦٠ــ **وهي سبب استغفار الملائكة:** فالملائكة تستغفر للمؤمنين ــأهل لا إله إلا الله ــ قال ــتعالى ــ:[وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا] (غافر:٧).

٦١ــ **وهي سبب استغفار المؤمنين**: قال ــتعالىــ: [فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ] (محمد:١٩).

فكل مؤمن يستغفر للمؤمنين ينالك أيها الموحد نصيب من بركة ذلك الاستغفار.

٦٢ــ **وهي كلمة الإخلاص**: لأن عمل القلب هو الأصل.

٦٣ــ **وهي كلمة الإحسان**: قال ــتعالىــ: [هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ] (الرحمن:٦٠)، وقال ــتعالىــ: [لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ](يونس:٢٦).

يعني: قالوا: لا إله إلا الله[١] .

٦٤ــ **وهي دعوة الحق**: قال ــتعالى ــ: [لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ] (الرعد:١٤).

قال ابن عباس: =هي لا إله إلا الله+[٢].

وتقديم الخبر يفيد الحصر أي لا يقال لا إله إلا الله إلا في حقه ــتعالىــ.

٦٥ــ **وهي كلمة العدل**:التي قال ــتعالىــ: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ] (النحل:٩٠).

قال ابن عباس: =العدل: شهادة أن لا إله إلا الله+ [٣].

٦٦ــ **وهي الطيب من القول**:قال ــتعالىــ: [وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنْ الْقَوْلِ] (الحج:٢٤).

أي هُدوا إلى كل طيب، فلا أطيب ولا أطهر من هذه الكلمة.

١ـ انظر تفسير القرآن العظيم ٢٨٠/٤.

٢ـ انظر تفسير القرآن العظيم ٤٨٨/٢.

٣ـ تفسير القرآن العظيم ٥٦٥/٢.

٦٧ــ **وهي الكلمة الباقية:** فالتوحيد لا يزول بكل معصية، ولكن كل معصية تزول بسبب التوحيد وتفنى، قال تعالى عن إبراهيم ــعليه السلامــ:[وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ](الزخرف:٢٦ــ٢٨).

فذكرها ــعز وجلــ بعد ذكر معنى الشهادة فقوله:[بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ] بمعنى لا إله، [إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي] بمعنى إلا الله.

٦٨ــ **وهي كلمة الله العليا:**قال ــتعالىــ: [وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا] (التوبة:٤٠) .

فكلمة الله عليا على الدوام؛ ولهذا لم يَعْطِفْها على ما قبلها.

٦٩ــ **وهي النجاة:** كما في قول مؤمن آل فرعون [وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ] (غافر:٤١).

والنجاة هي لا إله إلا الله، ولا تكون النجاة إلا بها.

٧٠ــ **وهي كلمة الاستقامة:**[إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا] (فصلت:٣٠).

٧١ــ **وهي سبب الاجتماع والألفة:** فكلمة التوحيد هي أساس توحيد الكلمة، ولا يكون الاجتماع إلا عليها، فلقد امتن الله على المؤمنين بها، فجمع بها شملهم بعد الشتات، ولَمَّ شعثهم بعد التفرق.

قال ــتعالىــ: [وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً] (آل عمران:١٠٣).

٧٢ــ **وهي القول السديد:** كما في قوله ــتعالىــ: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا

اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً] (الأحزاب: ٧٠).

٧٣_ **وهي البرُّ**: قال _تعالى_:[لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ](البقرة:١٧٧).

٧٤_ **وهي الدين**: كما قال _تعالى_: [أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ] (الزمر:٣) فَحُصِرَ الخضوع لله، ودل على أنه لا إله سواه، ولا معبود إلا إياه.

٧٥_ **وهي الصراط المستقيم**: قال _تعالى_: [اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ] (الفاتحة:٦).

وقال:[وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ] (الأنعام:٥٣) وقال:[وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] (الشورى:٥٢).

٧٦_ **وهي سبب النصر على الأعداء**: قال _تعالى_: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (الأنفال:٤٥)، ولا إله إلا الله أعظم ذكر.

٧٧_ **وهي سبب التمكين في الأرض**: قال _تعالى_: [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ] (النور:٥٥).

٧٨_ **وهي سبب للرفعة والعلو**: فلقد عزَّ بها بلال الحبشي، وسلمان الفارسي _رضي الله عنهما_ وذلَّ بسبب تركها أشراف قريش.

لقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ كما وضع الكفرُ الشريفَ أبا لهب

٧٩_ **وهي سبب لعصمة الدماء والأموال**: قال النبي ": =**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا**

الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام+[1].

٨٠ـ **وهي كلمة الشهادة:** قال ـتعالىـ:[شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ](آل عمران:١٨).

٨١ـ **وهي المعروف الأكبر**: قال ـتعالىـ:[وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ](آل عمران:١٠٤).

فالتوحيد هو المعروف الأكبر، كما أن الشرك هو المنكر الأكبر.

٨٢ـ **وهي أول شيء يدعى إليه:** كما في حديث معاذ÷عندما بعثه الرسول" إلى اليمن فقال: =**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**+[2] .

٨٣ـ **وهي ملة أبينا إبراهيم ـعليه السلامـ**: قال ـتعالىـ: [مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمينَ] الحج:٧٨.

٨٤ـ **وهي الزكاة:** قال ـتعالىـ: [وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ] (فصلت:٦، ٧).

قال ابن القيم × =قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد؛ شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب؛ فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته ـسبحانهـ وهو أصل كل زكاء ونماء+[3] .

١ـ رواه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٠) .

٢ـ البخاري (١٣٩٥) ومسلم (١٩).

٣ـ إغاثة اللهفان ص٥٦.

٨٥_ **وبسببها تبيض وجوه وتسود وجوه:** فتبيض وجوه أهلها أهل الطاعة والإيمان، وتسودُّ وجوه أعدائها من أهل الكفر والعصيان، قال _تعالى_: [يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوه] (آل عمران:١٠٦).

هذا فيض من غيض من فضائلها وثمراتها العظيمة.

المبحث الثالث: شروط لا إله إلا الله [1]

ذكر العلماء لكلمة الإخلاص شروطاً سبعة لا تصح إلا إذا اجتمعت، واستكملها العبد، والتزمها بدون مناقضة لشيء منها.

وليس المرادُ من ذلك عدَّ ألفاظِها وحِفْظَهَا؛ فكم من عامي اجتمعت فيه، والتزمها ولو قيل له: عَدِّدْها لم يحسن ذلك.

وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها.

وهذه الشروط مأخوذة بالتتبع والاستقراء، وقد نظمها الشيخ حافظ الحكمي× بقوله:

العلمُ واليقينُ والقبولُ ... والانقيادُ فَادْرِ ما أقول
والصدقُ والإخلاص والمحبةْ ... وفَّقكَ اللهُ لما أحبه [2]

ونظمها بعضهم بقوله:

علم يقين وإخلاص و صدقك مع ... محبة وانقياد والقبول لها

وأضاف بعضهم شرطاً ثامناً ونظمه بقوله:

١ـ انظر: شروح كتاب التوحيد تيسير العزيز الحميد، وفتح المجيد، وحاشية ابن قاسم في شرح باب تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، وانظر معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي ص٢٧٣ـ٢٨٤، والشهادتان للشيخ عبدالله ابن جبرين ص٧٧ـ٨٥، والأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة للشيخ عبدالرحمن الدوسري ص٢٤ـ ٢٦، ولا إله إلا الله محمد رسول الله تفسير وتوضيح للدكتور الشريف حمدان بن راجح الهجادي ص٣٦ـ٤٠، ومختصر معارج القبول لهشام آل عقدة ص٩٩ـ١٠٢، وغيرها من الكتب التي تكلمت على ذلك خصوصاً كتب أئمة الدعوة.

٢ـ منظومة سلم الوصول إلى علم الأصول ص٢٣.

وزيـــد ثامنُهـــا الكفـــران منـــك بمـــا   ســـوى الإلـــه مـــن الأوثـــان قـــد ألهـــا

وهذا الشرط مأخوذ من قوله ": =**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه**+[1].

فهذه الشروط السبعة مع زيادة الشرط الثامن هي شروط كلمة التوحيد على سبيل الإجمال، وإليك تفصيلها:

الشرط الأول: العلم

والمراد به العلم بمعناها نفياً وإثباتاً، وما تستلزمه من عمل، فإذا علم العبد أن الله ـ عز وجل ـ هو المعبود وحده، وأن عبادة غيره باطلة، وعمل بمقتضى ذلك العلم ـ فهو عالم بمعناها.

وضد العلم الجهل؛ بحيث لا يعلم وجوب إفراد الله بالعبادة، كأن يرى جواز عبادة غير الله مع الله.

قال ـ تعالى ـ: [فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ](محمد:١٩).

وقال: [إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ](الزخرف:٨٦).

أي من شهد بـ: لا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم.

وقال ـ تعالى ـ: [شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (آل عمران:١٨).

وقال ـ تعالى ـ: [قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ](الزمر:٩).

---

١ ـ رواه مسلم (٢٣).

وقال ـ تعالى ـ: [إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ](فاطر:٢٨).

وقال ـ تعالى ـ: [وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ] (العنكبوت:٤٣).

وفي صحيح مسلم عن عثمان ÷ قال: قال رسول الله ": =**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**+[1].

الشرط الثاني: اليقين

وهو أن ينطق بالشهادة عن يقين يطمئن إليه قلبه، دون تسرب شيء من الشكوك التي يبذرها شياطين الجن والإنس، بل يقولها موقناً بمدلولها يقيناً جازماً.

فلا بد لمن أتى بها أن يوقن بقلبه، ويعتقد صحة ما يقوله من أحقية إلهية الله ـ تعالى ـ وبطلان إلهية من عداه، وأنه لا يجوز أن يُصرف لغيره شيءٌ من أنواع التأله والتعبد.

فإن شك في شهادته، أو توقف في بطلان عبادة غير الله؛ كأن يقول: أجزم بألوهية الله، ولكنني متردد ببطلان إلهية غيره ـ بطلت شهادتُه، ولم تنفعه.

قال ـ تعالى ـ مثنياً على المؤمنين:[وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ](البقرة:٤).

وقد مدح الله المؤمنين ـ أيضاً ـ بقوله: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا](الحجرات:١٥).

وذم المنافقين بقوله: [وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ] (التوبة:٤٥).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ÷ قال: قال رسول الله ": =**أشهد أن لا**

١ـ مسلم (٢٦).

إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة+[١].

وعنه ÷ أن النبي " قال: =**من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه _ فبشِّرْهُ بالجنة**+[٢].

الشرط الثالث: القبول

والقبول يعني أن يقبل كلَّ ما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، ويؤمن بكل ما جاء عن الله وعن رسوله " فيقبل ذلك كله، ولا يرد منه شيئاً، ولا يجني على النصوص بالتأويل الفاسد، والتحريف الذي نهى الله عنه، بل يصدق الخبر، ويمتثل الأمر، ويقبل كل ما جاءت به هذه الكلمة واقتضته بكل رضاً، وطمأنينة، وانشراح صدر.

قال _تعالى_ واصفاً المؤمنين بامتثالهم، وقبولهم، وعدم ردهم: [آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ] (البقرة:٢٨٥).

وقال _تعالى_: [قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا] (البقرة:١٣٦).

وضد القبول: الرد، فإن هناك من يعلم معنى الشهادة، ويوقن بمدلولها، ولكنه يردها كبراً وحسداً.

وهذه حال علماء اليهود والنصارى كما قال _تعالى_ عنهم:[الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ

١ـ مسلم (٢٧).

٢ـ مسلم (٣١).

الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ](البقرة:١٤٦).

وقال _تعالى_: [حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ] (البقرة:١٠٩).

وكذلك كان المشركون يعرفون معنى لا إله إلا الله، وصدق رسالة محمد " ولكنهم يستكبرون عن قبول الحق كما قال _تعالى_ عنهم: [إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ] (الصافات:٣٥).

وقال _تعالى_ عنهم: [فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ] (الأنعام:٣٣).

وكذلك كان شأن فرعون مع موسى _عليه السلام_.

ويدخل في الرد وعدم القبول من يعترض على بعض الأحكام الشرعية، أو الحدود التي حدها الله _عز وجل_ كالذين يعترضون على حد السرقة، أو الزنا، أو على تعدد الزوجات، أو المواريث، وما إلى ذلك، فهذا كله داخل في الرد وعدم القبول؛ لأن الله يقول: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً] (البقرة:٢٠٨).

ويقول:[وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ](الأحزاب:٣٦).

ويدخل في الرد _أيضاً_ من يعطل أسماء الله وصفاته، أو يمثلها بصفات المخلوقين.

الشرط الرابع: الانقياد

وذلك بأن ينقاد لما دلت عليه كلمة الإخلاص.

ولعل الفرق بين الانقياد والقبول أن القبول إظهار صحة معنى ذلك بالقول.

أما الانقياد فهو الاتباع بالأفعال، ويلزم منهما جميعاً الاتباع.

فالانقياد هو الاستسلام، والإذعان، وعدم التعقب لشيء من أحكام الله.

قال _تعالى_: [وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ] (الزمر:٥٤).

وقال: [وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ] (النساء:١٢٥).

وقال:[وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى] (لقمان:٢٢).

وقال _تعالى_ مثنياً على إبراهيم _عليه السلام_: [إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ] (البقرة:١٣١).

ومن الانقياد _أيضاً_ أن ينقاد العبد لما جاء به النبي " رضاً، وعملاً دون تعقب أو زيادة أو نقصان.

قال _تعالى_: [فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً] (النساء:٦٥).

وإذا علم أحد معنى لا إله إلا الله، وأيقن بها، وقبلها، ولكنه لم ينقد لها، ولم يعمل بمقتضاها _ فإن ذلك لا ينفعه، كما هي حال أبي طالب، فهو يعلم أن دين محمد حق، بل إنه ينطق بذلك ويعترف، حيث يقول مدافعاً عن الرسول":

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أُوَسَّدَ في التراب دفينا

فاصدع بأمرك لا عليك غضاضة ... وافرح وقرَّ بذاك منك عيونا

ولقد علمت بأن دينَ محمدٍ ... من خير أديان البريةِ دينا

لــــولا الملامــــةُ أو حِــــذارُ مســــبةٍ لوجــــدتني سمحــــاً بــــذاك مبينــــا

فما الذي نقص أبا طالب؟ الذي نقصه هو الإذعان والاستسلام.

وكذلك الحال بالنسبة لبعض المستشرقين؛ فهم يعجبون بالإسلام، ويوقنون بصحته، ويعترفون بذلك.

ولكنَّ إعجابَهم ويقينَهم واعترافَهم لا يكفي، بل لابد من الانقياد.

ومن عدم الانقياد ترك التحاكم لشريعة الله ـعز وجلـ واستبدالها بالقوانين الوضعية، الفرنسية، أوالإنجليزية، أوالسويسرية، أوغيرها.

الشرط الخامس: الصدق

وهو الصدق مع الله، وذلك بأن يكون العبد صادقاً في إيمانه، صادقاً في عقيدته.

ومتى كان كذلك فإنه سيكون مصدقاً لما جاء في كتاب ربه، وسنة نبيه ".

فالصدق أساس الأقوال، ومن الصدق أن يَصْدُقَ في دعوته، وأن يبذل الجهد في طاعة ربه، وحفظ حدوده، قال ـتعالىـ: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ] (التوبة:١١٩).

وقال ـتعالىـ في وصف الصحابة: [رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ] (الأحزاب:٢٣).

وقال: [وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ](الزمر:٣٣).

وقد ورد اشتراط الصدق في الحديث الصحيح؛ حيث قال": =**من قال لا إله**

إلا الله صادقاً من قلبه دخل الجنة+[1].

وضد الصدق الكذب، فإن كان العبد كاذباً في إيمانه فإنه لا يعد مؤمناً، بل هو منافق؛ وإن نطق بالشهادة بلسانه، وحاله هذه أشد من حال الكافر الذي يظهر كفره.

فإن قال الشهادة بلسانه، وأنكر مدلولها بقلبه فإن هذه الشهادة لا تنجيه، بل يدخل في عداد المنافقين، الذين ذكر الله عنهم أنهم قالوا: [نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ] (المنافقون:١) فرد الله عليهم تلك الدعوى بقوله: [وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ] (المنافقون:١).

وقال ـ تعالى ـ في شأن هؤلاء: [وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ] (البقرة:٨).

وقال: [وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ] (البقرة:٢٠٤)

والأدلة في ذلك كثيرة جداً، وهي مبسوطة في أوائل سورة البقرة، وفي سورة التوبة، وغيرها.

فإذا قامت أعمالُ الإنسان واعتقاداتُه على عقيدة سليمة كان الإيمان قوياً سليماً، وبالتالي يكون العمل مقبولاً بإذن الله، والعكس.

ثم إن الناس يتفاوتون في الصدق تفاوتاً عظيماً.

ومما ينافي الصدق في الشهادة تكذيب ما جاء به الرسول" أو تكذيب بعض ما

١ـ رواه أحمد في المسند ٤/١٦.

جاء به؛ لأن الله ـسبحانهـ أمرنا بطاعة الرسول وتصديقه، وقرن ذلك بطاعته قال ـتعالىـ:[مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ](النساء:٨٠).

وقد يلتبس على بعض الناس الأمر في موضوع اليقين والصدق؛ لذا يقال:إن اليقين أعم من التصديق، وعلى ذلك يكون كلُّ موقن مصدقاً، وليس كلُّ مصدق موقناً؛ أي بينهما عموم وخصوص كما يقول أهل الأصول؛ أي أن الموقن قد مر بمرحلة التصديق.

الشرط السادس: الإخلاص

وهو تصفيةُ الإنسانِ عملَه بصالح النية من جميع شوائب الشرك.

وذلك بأن تصدر منه جميعُ الأقوال والأفعال خالصة لوجه الله، وابتغاء مرضاته، ليس فيها شائبة رياء، أو سمعة، أو قصد نفع، أو غرض شخصي، أو شهوة ظاهرة أو خفية، أو أن يندفع للعمل لمحبة شخص، أو مذهب، أو مبدأ، أو حزب يستسلم له بغير هدى من الله.

والإخلاص كذلك مهم في الدعوة إلى الله ـتعالىـ فلا يجعل دعوته حرفة لكسب الأموال، أو وسيلة للتقرب إلى غير الله، أو الوصول للجاه والسلطان.

بل لابد أن يكونَ مبتغياً بدعوته وجهَ الله والدارَ الآخرة، ولا يلتفتَ بقلبه إلى أحد من الخلق يريد منه جزاءاً أو شكوراً.

والقرآن والسنة حافلان بذكر الإخلاص، والحث عليه، والتحذير من ضده، ومن ذلك قوله ـتعالىـ:[أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ](الزمر:٣)، وقوله:[وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ](البينة:٥)، وقوله:[قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ

دِينِي](الزمر: ١٤).

وعن أبي هريرة ÷ عن النبي " أنه قال: =**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**+[١].

وفي الصحيحين من حديث عتبان =**فإن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**+[٢].

ويدخل في ذلك الإخلاصُ في اتباع محمد " وذلك بالاقتصار على سنته وتحكيمه، وترك البدع، والمخالفات، ونبذ ما يخالف شرعه من التحاكم إلى ما وضعه البشر من عادات، وقوانين؛ فإن رضيها أو حكم بها لم يكن من المخلصين.

وضد الإخلاص الشرك، والرياء، وابتغاء غير وجه الله.

فإن فقد العبد أصل الإخلاص فإن الشهادة لا تنفعه أبداً، قال _تعالى_: [وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً] (الفرقان:٢٣).

فلا ينفعه حينئذٍ أيُّ عمل يعمله؛ لأنه فقد الأصل، قال _تعالى_: [إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً] (النساء:٤٨).

وعن أبي هريرة ÷ قال: قال رسول الله ": قال الله _تبارك وتعالى_: =**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**+[٣].

وإن فقد الإخلاص في عمل من الأعمال ذهب أَجْرُ ذلك العمل.

١- رواه البخاري (٩٩).

٢- رواه البخاري (١١٨٦) ومسلم (٢٦٣).

٣- رواه مسلم (٢٩٨٥).

وبالجملة فالإخلاص هو تصفية العمل من كل شوب؛ بحيث لا يمازجه ما يشوبه من شوائب الشرك، أو إرادة النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم أو محبتهم، أو خدمتهم، إلى غير ذلك من الشوائب التي عَقْدُ متفرقها إرادةُ ما سوى الله بالعمل.

فمدار الإخلاص على أن يكون الباعثُ على العمل أولاً امتثالَ أمر الله.

ولا حرج بعد هذا على من يطمح إلى شيء آخر، كالفوز بنعيم الآخرة، أو النجاة من أليم عذابها.

بل لا يذهب بالإخلاص بعد ابتغاء وجه الله أن يخطر في بال العبد أن للعمل الصالح آثاراً في هذه الحياة، كطمأنينة النفس، وأمنها من المخاوف، وصيانتها من مواقف الهوان، إلى غير ذلك من الخيرات التي تعقب العمل الصالح، ويزداد به إقبال النفوس على الطاعات قوة على قوة.

الشرط السابع: المحبة

أي المحبة لهذه الكلمة العظيمة، ولما دلت عليه واقتضته، فيحب الله ورسوله"، ويقدم محبتهما على كل محبة، ويقوم بشروط المحبة ولوازمها، فيحب الله محبة مقرونة بالإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، فيحب ما يحبه الله من الأمكنة؛ كمكة المكرمة، والمدينة النبوية، والمساجد _عموماً_ والأزمنة؛ كرمضان، وعشر ذي الحجة، وغيرها، وما يحبه من الأشخاص كالأنبياء، والرسل، والملائكة، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وما يحبه من الأفعال كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج،

والأقوال كالذكر وقراءة القرآن.

ومن المحبة ـ أيضاً ـ تقديم محبوبات الله على محبوبات النفس وشهواتها ورغباتها، وذلك لأن النار حفت بالشهوات، والجنة حفت بالمكاره.

ومن لوازم تلك المحبة أن يكره ما يكرهه الله ورسوله؛ فيكره الكفار، ويكره الكفر، والفسوق، والعصيان.

قال ـ تعالى ـ: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ] (المائدة: ٥٤).

وقال: [لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ] (المجادلة: ٢٢).

وقال ـ تعالى ـ: [قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] (التوبة: ٢٤).

وقال ": =**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله رسوله أحب إليه مما سواهما**+[1].

وعلامة هذه المحبة الانقياد لشرع الله واتباع محمد " قال ـ تعالى ـ: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ] (آل عمران: ٣١).

١ـ البخاري (١٦).

وضد المحبة الكراهية لهذه الكلمة، ولما دلت عليه وما اقتضه، أو محبة غير الله مع الله.

قال ـ تعالى ـ: [ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ](محمد:٩).

وقال الله ـ تعالى ـ: [وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ](البقرة:١٦٥).

فهؤلاء الذين بَيَّن الله ـ جل وعلا ـ شأنهم في هذه الآية يحبون الله، ولكنهم يحبون معه غيره مثل محبته على أحد التفسيرين، ومع ذلك سماهم الله ظالمين، والظلم هنا بمعنى الشرك بدليل قوله ـ تعالى ـ في الآية التي تليها: [وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ](البقرة:١٦٧).

فإذا كان هذا هو شأن من أحب الله، وأحب معه غيره مثل حبه ـ فكيف بمن أحب غير الله أكثر من حبه لله؟ وكيف بمن أحب غير الله ولم يحب الله ـ سبحانه وتعالى ـ؟

بل كيف بمن أحب غير الله، وكره الله، وحارب الله ـ سبحانه وتعالى ـ؟!

ومما ينافي المحبة ـ أيضاً ـ بغض الرسول" أو بغض ما جاء به الرسول، أو بغض بعض ما جاء به ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ومما ينافيها موالاة أعداء الله من اليهود، والنصارى، وسائر الكفار والمشركين.

ومما ينافيها ـ أيضاً ـ معاداة أولياء الله المؤمنين.

ومما ينافي كمالها المعاصي والذنوبُ.

نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرزقنا حبه وحب من يحبه والعمل الذي يقربنا إلى حبه، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الرسالة الرابعة

توحيد الربوبية

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول نبينا محمد وآله وصحبه ومن والاه .. أما بعد:

فإن توحيد الربوبية مبحث مهم من مباحث العقيدة؛ ذلك أنه متعلق بأصل الأصول، وأوجب الواجبات وهو الإيمان بالله ـعز وجلـ فمما يتضمنه الإيمان باللهِ الإيمانُ بربوبيته، وتفرده بالخلق، والرزق، والتدبير.

ومما يدل على أهمية توحيد الربوبية ما يثمره من الثمرات العظيمة؛ فالعلم به، والإيمان بمقتضاه يثمر إجلال الرب، وتعظيمه، ورجاءه، ومحبته، والخوف منه إلى غير ذلك من مقتضيات الربوبية.

والحديث في هذا النوع من أنواع التوحيد مبثوث في تضاعيف من كتب أهل العلم، ولكن لا تكاد تجده مفرداً في كتاب واحد؛ فهذا مما دعا إلى كتابة هذه الرسالة؛ فلعل فيما يلي من صفحات إيضاحاً لهذا الموضوع، وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم الربوبية.

المبحث الثاني: أدلة توحيد الربوبية، وآثاره.

المبحث الثالث: الضلال في توحيد الربوبية.

وتحت كلِّ مبحث من تلك المباحث جملة من المسائل؛ فإلى تفاصيل ذلك، والله المستعان، وعليه التكلان.

المبحث الأول: مفهوم الربوبية

أولاً: معنى كلمة الرب

كلمة الرب في اللغة تطلق على عدة معانٍ:

قال ابن منظور: =الرب يطلق في اللغة على المالك، والسيد، والمدبِّر، والمربي، والقيِّم، والمنعم+.

وقال: =ولا يطلق غير مضاف إلا على الله _عز وجل_ وإذا أطلق على غيره أضيف، فقيل: ربُّ كذا+.

وقال:=وقد جاء في الشعر مطلقاً على غير الله _تعالى_ وليس بالكثير، ولم يذكر في غير الشعر+[1].

وقال: =ورب كل شيء: مالكه ومستحقه، وقيل: صاحبه.

ويقال: فلان رب هذا الشيء أي مِلْكُه له.

وكل من ملك شيئاً فهو ربه، يقال: هو ربُّ الدابة، ورب الدار، وفلان رب البيت، وهن ربات الحجال+ [2].

أما الرب من حيث إنه اسم من أسماء الله فمعناه: من له الخلق والأمر والملك، قال _تعالى_:[أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ] (الأعراف: ٥٤).

وقال: [ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ](فاطر:١٣).

قال ابن منظور: =الرب: هو الله _عز وجل_ هو رب كل شيء، أي مالكه، وله

١ـ لسان العرب ١/٣٩٩ـ٤٠٠.

٢ـ لسان العرب ١/٣٣٩.

الربوبية على جميع الخلق لا شريك له، وهو رب الأرباب، ومالك الملوك والأملاك+[١].

ثانياً: تعريف توحيد الربوبية

هو الإقرار الجازم بأن الله وحده ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، وأنه الخالق للعالم، المحيي المميت، الرزاق ذو القوة المتين، لم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، لا رادَّ لأمره، ولا معقب لحكمه، ولا مضاد له، ولا مماثل، ولا سمي، ولا منازع له في شيء من معاني ربوبيته ومقتضيات أسمائه وصفاته[٢].

وهناك تعريف آخر مختصر وهو: توحيد الله بأفعاله.

ثالثاً: أسماء توحيد الربوبية

لهذا النوع من التوحيد أسماء أخرى منها:

١ــ توحيد الربوبية ــكما سبقــ. ٢ــ التوحيد العلمي. ٣ــ التوحيد الخبري.

٤ــ توحيد المعرفة والإثبات. ٥ــ التوحيد الاعتقادي.

رابعاً: أنواع ربوبية الله على خلقه

ربوبية الله على خلقه على نوعين:

١ـ لسان العرب ١/٣٩٩.

٢ـ انظر تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدالله، ص٣٣ـ٣٤، وأعلام السنة المنشورة للشيخ حافظ الحكمي ص٥٥، وانظر الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للشيخ صالح الفوزان، ص١٦.

١ـ **الربوبية العامة:** وهي لجميع الناس؛ بَرِّهم وفاجرِهم مؤمنِهم وكافرِهم؛ وهي خَلقه للمخلوقين، ورزقُهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

٢ـ **الربوبية الخاصة:** وهي تربيته لأوليائه المؤمنين، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب؛ فإن مطالبهم كلَّها داخلةٌ تحت ربوبيته الخاصة[١].

خامساً: توحيد الربوبية ليس هو الغايةَ في التوحيد

توحيد الربوبية حق، وأمره عظيم، ولا يصح إيمان العبد إذا لم يؤمن به، ولكن هذا النوع من أنواع التوحيد ليس هو الغايةَ التي جاءت بها الرسل، وأنزلت من أجلها الكتب، وليس الغايةَ التي من جاء بها فقد جاء بالتوحيد وكماله؛ ذلك أن الله أمر بعبادته التي هي كمال النفوس وصلاحها وغايتها، ولم يقتصد على مجرد الإقرار به كما هو غاية الطريقة الكلامية[٢].

يُضاف إلى ذلك أن المشركين كانوا مقرين به، ومع ذلك لم يدخلهم في الإسلام؛ لأن الإقرار بتوحيد الربوبية لا يكفي وحده، بل لا بد من توحيد الألوهية.

ثم إن توحيد الربوبية مركوز في الفطر كلها، فلو كان هو الغاية لما كان هناك حاجة لإرسال الرسل وإنزال الكتب.

١ـ انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ ابن سعدي ١/ ٢٨٨.

٢ـ انظر مجموع الفتاوى ٢/ ١٢.

المبحث الثاني: أدلة توحيد الربوبية، وآثاره

أولاً: أدلة توحيد الربوبية

أدلة توحيد الربوبية كثيرة متنوعة، تدل على تفرد الله بالربوبية على خلقه أجمعين؛ فقد جعل الله لخلقه أموراً لو تأملوها حق التأمل وتفكروا بها _ لَدَلَّتْهُمْ إلى أن هناك خالقاً مدبراً لهذا الكون.

والقرآن مليء بذكر الأدلة على ربوبية الله، فمن ذلك قوله _تعالى_:[الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ](الفاتحة:٢)، وقوله [إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ](الذاريات:٥٨)، وقوله:[إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)] (يس)، وقوله: [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] (البقرة:١٦٤)، وقوله _تعالى_:[اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ] (الروم:٤٠).

ومن الدلالات على ربوبية الله على خلقه ما يلي:

١_ دلالة الفطرة: ذلك أن الله _سبحانه_ فطر خلقه على الإقرار بربوبيته، وأنه الخالق، الرازق المدبر، المحيي المميت؛ فالإيمان بالربوبية أمر جبلي مركوز في فطرة كل إنسان، ولا يستطيع أحد دفعه ولا رفعه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×:=ولما كان الإقرار بالصانع فطرياً كما قال": =**كل مولود يولد على الفطرة**+[١] الحديث _ فإن الفطرة تتضمن الإقرار بالله، والإنابة إليه، وهو معنى لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يُعْرَفُ ويُعْبَدُ+[٢].

ولهذا فإن المشركين في الجاهلية كانوا مقرين بتوحيد الربوبية مع شركهم بالألوهية.

ومما يدل على ذلك ما هو مبثوث في غضون أشعارهم، ومن ذلك قول عنترة:

يــا عبــل أيــن مــن المنيــة مهــربي إن كـــان ربي في الســـماء قضـــاها[٣]

وقول زهير ابن أبي سلمى:

فـــلا تكـــتُمُنَّ الله مـــا في نفوســـكم ليخفـــى ومهمـــا يُكْـــتم الله يعلـــمِ

يُـــؤَخر فَيُوضَـــعْ في كتـــاب فيُـــدَّخرْ ليـــوم الحســـاب أو يُعَجَّـــلْ فيـــنقمِ[٤]

ولقد بين الله _سبحانه وتعالى_ ذلك في القرآن كما في قوله: [وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّا يُؤْفَكُونَ] (العنكبوت: ٦١).

٢_ دلالة الأنفس: فالنفس آيةٌ كبيرةٌ من آيات الله الدالة على ربوبيته، ولو أمعن الإنسان النظر في نفسه وما فيها من العجائب لعلم أن وراء ذلك رباً حكيماً خالقاً قديراً.

قال _تعالى_:[وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ] (التغابن:٣)،

١_ أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

٢_ مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٦/٢.

٣_ ديوان عنترة ص ٧٤.

٤_ ديوان زهير بن أبي سلمى ص٢٤.

وقال:[وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧)](الشمس: ٧).

٣ــ دلالة الآفاق: كما قال ــسبحانهــ:[سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] (فصلت:٥٣) فلو تأمل الإنسان الآفاق وما أودع الله فيها من الغرائب والعجائب ــ لأدرك أن هناك خالقاً لهذه الأكوان، وأنه عليم حكيم[1].

ثانياً: آثار توحيد الربوبية وثمراته

للإيمان بالربوبية آثار عظيمة، وثمرات كثيرة، فإذا أيقن المؤمن أن له ربّاً خالقاً هو الله ــتبار ك وتعالىــ وأن هذا الرب هو رب كلِّ شيءٍ ومليكُه، وهو مصرف الأمور، وأنه هو القاهر فوق عباده، وأنه لا يعزب عنه مثقالُ ذرةٍ في السموات والأرض ــ أَنِسَت رُوحُه بالله، واطمأنت نفسه بذكره، ولم تزلزله الأعاصير والفتن، وتوجه إلى ربه بالدعاء، والالتجاء، والاستعاذة، وكان دائماً خائفاً من تقصيره، وذنبه؛ لأنه يعلم قدرة ربه عليه، ووقوعه تحت قهره وسلطانه، فتحصل له بذلك التقوى، والتقوى رأس الأمر، بل هي غاية الوجود الإنساني[2].

ولهذا قال":=**ذاق طعم الإيمان من رضي الله ربّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً**+[3].

١ـ انظر الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة ٧١ـ٧٢ للشيخ عبد الرزاق العباد، والإيمان بالله للكاتب ص١٤ـ٥٩.

٢ـ انظر منهج جديد لدراسة التوحيد للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ص٨٢.

٣ـ رواه مسلم (٣٤)، وأحمد ٢٠٨/١.

ومن ثمراته أن الإنسان إذا علم أن الله هو الرزاق، وآمن بذلك، وأيقن أن الله بيده خزائن السموات والأرض، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع ـ قطع الطمع من المخلوقين، واستغنى عما بأيديهم، وانبعث إلى إفراد الله بالدعاء والإرادة والقصد.

ثم إذا علم أن الله هو المحيي المميت، النافع الضار، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن أمره كلَّه بيد الله ـ انبعث إلى الإقدام والشجاعة غير هياب، وتحرر من رق المخلوقين، ولم يعد في قلبه خوف من سوى الله ـعز وجلـ.

وهكذا نجد أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية.

وبالجملة فإن الكلام في مقتضيات الربوبية، وما تثمره من ثمرات يفوق الحصر والعد، وما مضى إنما هو إشارات عابرة.

المبحث الثالث: الضلال في توحيد الربوبية

أولاً: مضادة توحيد الربوبية

يضاد توحيد الربوبية الإلحاد، وإنكار وجود الرب ـعز وجلـ.

ويضاده ـأيضاًـ اعتقاد متصرف مع الله ـعز وجلـ في أي شيء؛ من تدبير الكون، من إيجاد، أو إعدام، أو إحياء، أو إماتة، أو جلب خير، أو دفع شر، أو غير ذلك من معاني الربوبية، أو اعتقاد منازع له في شيء من مقتضيات أسمائه وصفاته، كعلم الغيب، أو كالعظمة، والكبرياء، ونحو ذلك[1].

وكما يضاده ـأيضاًـ اعتقاد مشرع مع الله ـعز وجلـ لأنه هو الرب وحده، وربوبيته شاملة لأمره الكوني والشرعي.

ثانياً: إنكار الربوبية

لم ينكرْ توحيدَ الربوبية أحدٌ من البشر إلا طائفة من الشذاذ المكابرين المعاندين المنكرين لما هو متقرر في فطرهم؛ فإنكارهم إنما كان بألسنتهم مع اعترافهم بذلك في قرارة أنفسهم.

ومن أشهر من عرف بذلك فرعون؛ الذي قال لقومه ـكما أخبر الله عنهـ:[أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى](النازعات:٢٤) وقال: [مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي] (القصص: ٣٨).

١ـ انظر أعلام السنة المنشورة ص ٥٦.

وكلامه هذا مجرد دعوى لم يَقُمْ عليها بينةٌ، ولا دليلٌ، بل كان هو نفسُه غير مؤمن بما يقول.

قال ـتعالىـ على لسان موسى ـعليه السلامـ: [لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً] (الإسراء:١٠٢).

وأخبر ـعز وجلـ وهو العليم بذات الصدور ـ أن كلام فرعون ودعواه لم يكن عن عقيدة ويقين، وإنما هو مكابرة وعناد، قال ـتعالىـ:[وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً] (النمل: ١٤).

وممن أنكر ذلك ـأيضاًـ الشيوعيون، فلقد أنكروا ربوبية الله، بل أنكروا وجوده ـسبحانه وتعالىـ بناءاً على عقيدتهم الخبيثة الفاجرة التي تقوم على الكفر بالغيب، والإيمان بالمادة وحدها.

وهم في الحقيقة لم يزيدوا على أن سموا الله بغير اسمه، بحيث ألَّهوا الطبيعة، ونعتوها بنعوت الكمال التي لا تليق بأحد إلا الله ـعز وجلـ فقالوا: الطبيعة حكيمة، الطبيعة تخلق، إلى غير ذلك.

وكلامهم هذا باطل متهافت، بل إن أصحاب هذا المبدأ انشقوا على أنفسهم، ولعن بعضُهم بعضاً، وكَفَرَ بعضُهم ببعض[1].

ثالثاً: الفرق التي أشركت بالربوبية[2]

هناك أقوامٌ أشركوا بالربوبية، وفِرَقٌ أشركت به، ومن هؤلاء:

---

١ ـ انظر الشيوعية للكاتب.

٢ـ انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، ص٢٤ـ٢٦.

١ــ المجوس: =الأصلية+ قالوا بالأصلين: النور والظلمة، وقالوا: إن النور أزليٌّ، والظلمة محدثة.

٢ــ الثنوية: =أصحاب الاثنين الأزليين+: الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس الذين قالوا بحدوث الظلام، لكن قالوا باختلافهما في الجوهر، والطبع، والفعل، والخبر، والمكان، والأجناس، والأبدان، والأرواح، ولم يقولوا بتماثلهما في الصفات والأفعال، كما ترى، وإن قالوا بتساويهما في القدم.

٣ــ المانوية: =أصحاب ماني بن فاتك+: قالوا: إن العَالَمَ مصنوع من أصلين قديمين، ولكن قالوا باختلافهما في النفس، والصورة، والفعل، والتدبير.

٤ــ النصارى: =القائلون بالتثليث+: فالنصارى لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضها عن بعض، بل هم متفقون على أنه صانع واحد يقولون: باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد، ويقولون: واحد بالذات ثلاثة بالأقنوم.

أما الأقانيم فإنهم عجزوا عن تفسيرها.

وقولهم هذا متناقض أيما تناقض وتصوره كافٍ في رده، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =ولهذا قال طائفة من العقلاء:إن عامة مقالات الناس يمكن تصورُها إلا مقالة النصارى وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا، بل تكلموا بجهل، وجمعوا في كلامهم بين النقيضين ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا عن أحدَ عشرَ قولاً.

وقال آخر: لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل

قولاً، وامرأته قولاً آخر، وابنه قولاً ثالثاً+[١].

وقال ابن القيم × في معرض رده عليهم:=أما خبر ما عندكم أنتم فلا نعلم أمةً أشدَّ اختلافاً في معبودها منكم؛ فلو سألت الرجل، وامرأته، وابنته، وأمه، وأباه، عن دينهم لأجابك كلٌّ منهم بغير جواب الآخر+[٢].

بل قيل فيهم:=لو توجهت إلى أي نصراني على وجه الأرض، وطلبت منه أن يصور لك حقيقة دينه، وما يعتقده في طبيعة المسيح تصويراً دقيقاً _ لما استطاع ذلك+[٣].

هذا وقد بيَّن الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) ما عندهم من التناقض، وكذلك الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (محاضرات في النصرانية).

٥_ القدرية: هم في الحقيقة مشركون في الربوبية، وهذا لازم لمذهبهم؛ لأنهم يرون أن الإنسان خالقٌ لفعله، فهم أثبتوا لكل أحد من الناس خَلْقَ فعله.

والخلق إنما هو مما اختص الله به، قال _تعالى_:[وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ] (الصافات: ٩٦).

وأفعال العباد لا يخرجها شيء من عموم خلقه _عز وجل_[٤].

٦_ الفلاسفة الدهرية: في قولهم في حركة الأفلاك بأنها تسعة، وأن التاسع منها وهو الأطلس يحرك الأفلاك كلها، فجعلوه مبدأ الحوادث، وزعموا أن الله

١ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ١٥٥/٢.

٢ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم، ص٣٢١.

٣ـ ما يجب أن يعرفه المسلم عن حقائق النصرانية والتبشير لإبراهيم الجبهان، ص١٣.

٤ـ انظر مجموع الفتاوى٢٥٨/٨، والإيمان بالقضاء والقدر للكاتب ص١٧٣ـ١٧٤.

يحدث ما يقدره في الأرض.

٧ـ **عبدة الأصنام من مشركي العرب وغيرهم:** ممن كانوا يعتقدون أن الأصنام تضر وتنفع، فيتقربون إليها، وينذرون لها، ويتبركون بها.

٨ـ **غلاة الصوفية:** لغلوهم في الأولياء، وزعمِهم أنهم يضرون، وينفعون، ويتصرفون في الأكوان، ويعلمون الغيب، ولقولهم بوحدة الوجود، وربوبيةِ كلِّ شيءٍ[(١)].

٩ـ **الشيعة:** لقولهم بأن الدنيا والآخرة للإمام، يتصرف بها كيف يشاء، وأن تراب الحسين شفاءٌ من كل داء، وأمانٌ من كل خوف، ولقولهم: إن أئمتهم يعلمون الغيب، ويعلمون متى يموتون، ولا يموتون إلا بإذنهم.

وهذا باطل، وبطلانه لا يحتاج إلى دليل، بل إن فساده يغني عن إفساده[(٢)].

١٠ـ **النصيرية:** لقولهم بألوهية علي بن أبي طالب ÷ وبأنه المتصرف بالكون، لوصفهم إياه بأوصاف لا يجوز أن يوصف بها أحد إلا الله ـعز وجلـ مع اختلاف أقوالهم في هذا؛ فبعضهم يقول: إنه يسكن في الشمس ويُسَمَّون بـ: الشمسية.

وبعضهم يقولون: إنه يسكن في القمر، ويُسَمَّون بـ: القمرية.

وبعضهم يقولون: إنه يسكن في السحاب، ولذا إذا رأوا السحاب قالوا: السلام عليك يا أمير النحل[(٣)].

١ـ انظر هذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل، ص٣٥ـ٣٨ و١٣٣.

٢ـ انظر الخطوط العريضة لمحب الدين الخطيب، تحقيق: محمد مال الله، ص٦٩، وانظر مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، د.ناصر القفاري، ج١/٢٩٠، والشيعة والسنة لإحسان إلهي ظهير، ص٦٦.

٣ـ انظر الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، د.محمد بن أحمد الخطيب، ص٣٤١، ودراسات في الفرق لصابر طعمية، ص٤٢، والنصيرية، د.سهير الفيل، ص٩٣ـ١٠٣، والباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية لسليمان الأذني، ورسالة النصيرية في كتاب رسائل في الأديان والفرق والمذاهب للكاتب.

١١ــ الدروز: لقولهم بألوهية الحاكم بأمر الله العبيدي، وغلوهم فيه، ووصفِه بأوصافٍ لا تليق إلا بالله وحده، كقولهم عنه: =إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور+[١].

١٢ــ من يعتقدون تأثير النجوم والكواكب والأسماء: وذلك كحال الذين يتتبعون الأبراج ويقولون ــرجماً بالغيبــ إذا ولد فلان في البرج الفلاني أو الشهر الفلاني أو اليوم الفلاني، أو كان اسمه يبدأ بحرف كذا أو كذا ــ فسيصيبه كذا وكذا، ويضعون عليها دعاياتٍ تقول: مِنْ شهر ميلادك تعرف حظك، أو من اسمك تعرف حظك.

كل ذلك شرك في الربوبية؛ لأنه ادعاءٌ لعلم الغيبِ، والغيبُ لا يعلمه إلا الله وحده لا شريك له.

١٣ــ القانونيون: الذين يَصدون ويصدفون عن شرع الله، والذين يحكمون الناس بالقوانين الوضعية، التي هي من نحاتة أفكارهم، وزبالة أذهانهم.

فهؤلاء محاربون لله، منازعون له في ربوبيته وحكمه وشرعه [٢].

١ـ انظر عقيدة الدروز، عرض ونقض د.محمد بن أحمد الخطيب، ص١١٧، وانظر الحركات الباطنية، ص٢٣٣ـ٢٣٨.

٢ـ انظر رسالة تحكيم القوانين لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله.

الرسالة الخامسة

توحيد الألوهية

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد.

فغير خافٍ على من عنده أدنى إلمام بعلم العقيدة ما لتوحيد الألوهية من الأهمية؛ فهو توحيد العبادةِ، والعبادةُ هي الغاية المرضية والمحبوبة لله ـعز وجلـ وهي الغاية العظمى، والمقصود الأسمى؛ فلأجلها أنزلت الكتب، وأرسلت الرسل، وخلقت الجنة والنار.

ثم إن توحيد الألوهية دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، ومن اقتفى أثرهم من العلماء، والدعاة والمصلحين.

وفيما يلي من صفحات سيكون الحديث عن توحيد الألوهية، وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم توحيد الألوهية.

المبحث الثاني: أهمية توحيد الألوهية، وأدلته، ووقوع الضلال فيه.

المبحث الثالث: علاقة توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية.

المبحث الرابع: طرق الدعوة إلى توحيد الألوهية في القرآن الكريم.

المبحث الخامس: مفهوم العبادة.

المبحث السادس: شروط قبول العبادة، وأهمية ذلك.

المبحث السابع: أركان العبادة، وحكم تغليب بعضها على بعض.

هذا ما تيسر جمعه وتقييده في هذا الباب؛ فأسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته

العلى أن ينفع بهذه الصفحات، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

والله أعلم،وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

المبحث الأول: مفهوم توحيد الألوهية

أولاً: تعريف توحيد الألوهية

عرف العلماء توحيد الألوهية بتعريفات متقاربة، إلا أن بعضها قد يكون أطول من بعض، فمن تلك التعريفات ما يلي:

١ــ هو إفراد الله بأفعال العباد.

٢ــ هو إفراد الله بالعبادة.

٣ــ هو إفراد الله ــتعالىــ بجميع أنواع العبادة؛ الظاهرة، والباطنة، قولاً، وعملاً، ونفي العبادة عن كل من سوى الله ــتعالىــ كائناً من كان[١].

٤ــ وعرفه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي × بتعريف جامع ذكر فيه حدَّه، وتفسيره، وأركانه، فقال: =فأما حدُّه، وتفسيره، وأركانه فهو أن يعلم، ويعترف على وجه العلم، واليقين أن الله هو المألوه وحده المعبود على الحقيقة، وأن صفات الألوهية ومعانيها ليست موجودة بأحد من المخلوقات، ولا يستحقها إلا الله ــتعالىــ.

فإذا عرف ذلك واعترف به حقَّاً أفرده بالعبادة كلها: الظاهرة، والباطنة؛ فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة: كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والقيام بحقوق الله، وحقوق خلقه.

١ـ انظر أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة المنصورة للشيخ حافظ الحكمي، ص٥١.

ويقوم بأصول الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره لله.

لا يقصد به غرضاً من الأغراض غير رضا ربِّه، وطلب ثوابه، متابعاً في ذلك رسول الله ".

فعقيدته ما دل عليه الكتاب والسنة، وأعماله وأفعاله ما شرعه الله ورسوله، وأخلاقه، وآدابه الاقتداءُ بنبيه " في هديه، وسمته، وكل أحواله+[١].

قال الشيخ حافظ الحكمي × عن هذا النوع في منظومته سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد:

هـــــذا وثـــــانيْ نـــــوعي التوحيـــــدِ ... إفـــــرادُ ربِّ العـــــرش عـــــن نديـــــد

أن تعبـــــد اللهَ إلهـــــاً واحـــــداً ... معترفـــــاً بحقـــــه لا جاحـــــدا[٢]

ثانياً: أسماء توحيد الألوهية

توحيد الألوهية يسمى بعدة أسماء منها:

١ـ **توحيد الألوهية** ـكما مرـ وسمي بذلك باعتبار إضافته إلى الله، أو باعتبار الموحَّد، ولأنه مبني على إخلاص التأله، وهو أشد المحبة لله وحده، وذلك يستلزم إخلاص العبادة.

١ـ انظر الحق الواضح المبين لابن سعدي ١١٢ـ١١٣، والفتاوى السعدية لابن سعدي ص١٠ـ١١، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في العقيدة د. عبدالرزاق العباد البدر ١٥١ـ١٥٢.

٢ـ سلم الوصول إلى علم الأصول، للشيخ حافظ الحكمي ص٢٩.

٢_ **توحيد العبادة**؛ باعتبار إضافته إلى الموحِّد وهو العبد، ولتضمنه إخلاص العبادة لله وحده.

٣_ **توحيد الإرادة**؛ لتضمنه الإخلاص، وتوحيد الإرادة والمراد، فهو مبني على إرادة وجه الله بالأعمال.

٤_ **توحيد القصد**؛ لأنه مبنيٌّ على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده.

٥_ **التوحيد الطلبي**؛ لتضمنه الطلب، والدعاء من العبد لله.

٦_ **التوحيد الفعلي**؛ لتضمنه أفعالَ القلوب والجوارح.

٧_ **توحيد العمل**؛ لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده[١].

ثالثاً: أركان توحيد الألوهية

توحيد الألوهية يقوم على أركان ثلاثة هي:

١_ توحيد الإخلاص: ويسمى توحيد المراد، فلا يكون للعبد مرادٌ غير مراد واحد وهو الله _سبحانه وتعالى_ فلا يزاحمه مرادٌ آخر.

٢_ توحيد الصدق: ويسمى توحيد إرادة العبد، وذلك بأن يبذل جهده وطاقته في عبادة ربه.

٣_ توحيد الطريق: وهو المتابعة للرسول ".

١ـ انظر تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان ابن عبدالله ص٣٨.

قال ابن القيم ×:

فلواحـــدٍ كـــن واحـــداً في واحـــدٍ أعـــني ســـبيل الحـــق والإيمـــان

فقوله: (فلواحدٍ): أي لله، وهذا هو توحيد المراد.

وقوله: (كن واحداً): في عزمك، وصدقك، وإرادتك، وهذا هو توحيد الإرادة.

وقوله (في واحد): هو متابعة الرسول "الذي هو طريق الحق والإيمان، فهذا هو توحيد الطريق[1].

والأدلة على هذه الأركان الثلاثة كثيرة، فمن أدلة الإخلاص قوله ـ تعالى ـ:[وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ](البينة: ٥).

ودليل الصدق قوله ـ تعالى ـ:[فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ](محمد: ٢١)، وقوله:[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ] (التوبة: ١١٩)، ودليل المتابعة قوله ـ تعالى ـ: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ] (آل عمران: ٣١).

فمن اجتمعت له هذه الثلاثة نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الأشياء[2].

١ـ انظر: شرح القصيدة النونية لابن القيم، شرح الشيخ محمد خليل هراس ١٣٤/٢.

٢ـ انظر الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، ص١٥٢، والأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية للشيخ عبد العزيز السلمان ص٤٢ـ٤٣.

المبحث الثاني: أهمية توحيد الألوهية، وأدلته، ووقوع الضلال فيه

أولاً: أهمية توحيد الألوهية

لتوحيد الألوهية أهمية عظمى، وتتجلى تلك الأهمية في أمور منها:

١ _ أن توحيد الألوهية أهم أنواع التوحيد: فمن أجل تحقيقه أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وسلت سيوف الجهاد، وفرق بين المؤمنين والكافرين.

يقول الشيخ حافظ الحكمي عن أهميته في منظومته:

وهو الذي به الإله أرْسلا ... رسْلَه يدعون إليه أولا

وأنزل الكتابَ والتبيانا ... من أجله وفرَّق الفرقانا

وكلف الله الرسولَ المجتبى ... قتالَ مَنْ عَنْهُ تولى وأبى

حتى يكونَ الدينُ خالصاً له ... سرَّاً وجهراً دقَّه وجلَّه

وهكذا أمته قد كلفوا ... بذا وفي نص الكتاب وصفوا[1]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية × مبيناً أهمية توحيد العبادة: =وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها _كما قال الله تعالى_: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ](الذاريات: ٥٦).

وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: [اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ](الأعراف: ٥٩).

إلى أن قال ×: =وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال _تعالى_: [وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)

١ـ سلم الوصول ص٢٩ـ٣٠.

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠)] (الأنبياء).

وذم المستكبرين عنها بقوله:[وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ] (غافر: ٦٠).

ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال ـ تعالى ـ:[عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً] (الإنسان:٦).

وقال:[وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً](الفرقان: ٦٣)+[1].

وقال × في موطن آخر: =واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ليس له نظير فيقاس عليه، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة.

فإن حقيقةَ العبدِ قلبُه وروحُه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن بالدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته، ولابد لها من لقائه.

ولا صلاح لها إلا بلقائه، ولو حصل للعبد لذاتٌ أو سرورٌ بغير الله فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذي يتنعم به والتذ ــ غير منعمٍ ولا ملتذٍ له، بل قد يؤذيه اتصالُه به، ووجوده عنده، ويضره ذلك.

وأما إلهه فلابد له منه في كل حال، وكل وقت، وأينما كان فهو معه، ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل ":[لا أُحِبُّ الآفِلِينَ](الأنعام: ٧٦).

وكان أعظم آية في القرآن الكريم:[اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ] (البقرة:

١ـ العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٣٩ـ٤٠.

٢٥٥)+[١].

وقال ×: =فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله _سبحانه_.

ومن عبد غير الله وإن أحبه، وحصل به مودة في الحياة الدنيا، ونوع من اللذة_ فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ آكل الطعام المسموم+[٢].

وقال ×: =واعلم أن كل من أحب شيئاً لغير الله فلا بد أن يضره محبوبه، ويكون ذلك سبباً لعذابه+[٣].

وقال: =فمن أحب شيئاً لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد، فإن فقد عُذِّب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثرُ مما يحصل له من اللذة، وهذا أمر معلوم بالاعتبار بالاستقراء.

وكل من أحب شيئاً دون الله لغير الله فإن مضرته أكثرُ من نفعه؛ فصارت المخلوقات وبالاً عليه، إلا ما كان لله وفي الله؛ فإنه كمال وجمال للعبد.

وهذا معنى ما يروى عن النبي "أنه قال: =**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه**+[٤][٥].

وقال الشيخ ابن سعدي × مبيناً أهمية هذا النوع: =وهذا الأصل أعظم الأصول

١ـ مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/٢٤ـ٢٥.

٢ـ مجموع الفتاوى ١/٢٤.

٣ـ مجموع الفتاوى ١/٢٨.

٤ـ مجموع الفتاوى ١/٢٩.

٥ـ أخرجه الترمذي (٢٣٢٢) وابن ماجه (٤١١٢) و قال الترمذي: «حسن غريب» وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٤١٤).

على الإطلاق، وأكملها، وأفضلها، وأوجبها، وألزمها لصلاح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجنَّ والإنسَ لأجله، وخلق المخلوقات، وشرع الشرائعَ لقيامه.

وبوجوده يكون الصلاح، وبفقده يكون الشر والفساد، وجميع الآيات القرآنية إما أمر بحق من حقوقه، أو نهي عن ضده، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفَرْق بينهم وبين المشركين+[١].

٢_ أن جميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة متوقفة عليه: فهي متوقفة في قبولها، وفي كمالها، وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد؛ فكلما قوي التوحيد والإخلاص كملت هذه الأمور وتمت.

وإذا كمل في قلب صاحبه حُبِّبَ إليه فعل الخيرات، وترك المنكرات، وصار من الراشدين.

٣_ ما يترتب عليه من الفضائل، والثمرات الجليلة: وقد مرَّ ذكر بعضها، ومنها أن العبد يتحرر من رق المخلوقين، ومن التعلق بهم خوفاً ورجاءً.

وهذا هو العزُّ الحقيقي، والشرف العالي.

وإذا كمل في القلب صار القليل من العمل كثيراً؛ بحيث تضاعف أجور صاحبه أضعافاً كثيرة.

ثانياً: أدلة توحيد الألوهية

لقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة، وتنوعت دلالتها في وجوب إفراد الله بالعبادة؛ فتارة تأتي نصوص الكتاب آمرةً بتوحيد الله أمراً مباشراً، وتارة تأتي مبينةً

١ـ انظر القواعد الحسان لتفسير القرآن لابن سعدي، ص١٩٢.

الهدف من خلق الجن والإنس، وتارة تأتي موضحةً الغايةَ من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وتارة تأتي محذرةً من مخالفته، وتارة تأتي لبيان ثواب من عمل به في الدنيا والآخرة، وتارة لبيان عقوبة من تركه، وتخلى عنه، أو ناوأه، وحارب أهله.

فمن تلك الأدلة من الكتاب والسنة على وجود إفراد الله بالعبادة قوله _تعالى_:[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ](البقرة: ٢١).

وقوله:[فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ](هود:١٢٣).

وقوله:[فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ](قريش:٣).

وقوله:[وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً](النساء:٣٦) وقوله:[قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً] (الأنعام:١٥١) وقوله:[وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ] (الإسراء:٢٣) وقوله:[وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ](الذاريات:٥٦) وقوله:[وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً](الإسراء:٣٩) وقوله:[إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نسْتَعِينُ] (الفاتحة:٥) وقوله:[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ] (الأنبياء:٢٥) وقوله:[وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ] (النحل:٣٦).

ومن السنة ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن معاذ ÷ قال: كنت رديف النبي " على حمار فقال لي: =**يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟**+.

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: =حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على

الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً+.

قلت: أفلا أبشر الناس؟

قال: =لا تبشرهم، فيتكلوا+[١].

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذه الأدلة في مباحث آتية.

ثالثاً: مضادة توحيد الألوهية

يضاد توحيد الألوهية: **الشرك** الذي يذهب به بالكلية، **والبدع** التي تذهب بكماله الواجب، **والمعاصي** التي تقدح فيه، وتنقص ثوابه.

رابعاً: الفرق التي أشركت في توحيد الألوهية

الفرق التي أشركت في هذا النوع من التوحيد كثيرة منها:

١ـ اليهود: الذين عبدوا العجل، ولا يزالون يعبدون الدرهم والدينار؛ فالمال هو معبودهم.

٢ـ النصارى: لادعائهم ألوهية المسيح ـعليه السلامـ وعبادتهم له.

٣ـ الشيعة: لدعائهم علياً، والعباس ـرضي الله عنهماـ وغيرهما من آل البيت.

٤ـ النصيرية: لعبادتهم علياً ÷ وزعمهم أنه الإله[٢].

٥ـ الدروز: لقولهم بألوهية الحاكم بأمر الله العبيدي[١].

١ـ البخاري (٢٨٥٦) ومسلم (٣٠).

٢ـ انظر الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية (العلوية) لسليمان أفندي الأذني، دار الصحوة، ص٣٦، وانظر النصيرية لسهير الفيل، دار المنار، ص٤٧ـ٤٨.

٦ـ **غلاة الصوفية، وعباد القبور**: لغلوهم في الأولياء، وصرف النذور، والقرابين لأصحاب القبور، وطوافهم حول القبور إلى غير ذلك من القربات التي تصرف لأصحابها.

١ـ انظر إلى: عقيدة الدروز، عرض ونقض د. محمد أحمد الخطيب، ص١١٧ـ١٣٥، دار عالم الكتب.

المبحث الثالث: علاقة توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية

أنواع التوحيد متلازمة، وبعضها مرتبط ببعض، وفيما يلي بيان لشيء من علاقة توحيد الألوهية؛ بتوحيد الربوبية والعكس:

١ـ **توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية:** بمعنى أن الإقرار بتوحيد الربوبية يوجب الإقرار بتوحيد الألوهية؛ فمن عرف أن الله ربه وخالقه ومدبر أموره، وقد دعاه هذا الخالق إلى عبادته وجب عليه أن يعبده وحده لا شريك له؛ فإذا كان هو الخالق الرازق النافع الضار وحده لزم إفراده بالعبادة.

٢ـ **توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية:** بمعنى أن توحيد الربوبية يدخل ضمناً في توحيد الألوهية، فمن عَبَدَ الله وحده لا شريك له فلابد أن يكون معتقداً أنه ربه وخالقه ورازقه؛ إذ لا يعبد إلا من بيده النفع والضر، وله الخلق والأمر.

٣ـ **توحيد الربوبية عمل قلبي لا يتعدى القلب،** ولذا سمي توحيد المعرفة والإثبات، أو التوحيد العلمي.

أما توحيد الألوهية فهو عمل قلبي وبدني، فلا يكفي فيه عمل القلب، بل يتعداه إلى السلوك والعمل قصداً لله وحده لا شريك له.

٤ـ **أن توحيد الربوبية لا يكفي وحده:** ذلك لأن توحيد الربوبية مركوز في الفطر، فلو كان كافياً لما احتاج الناس إلى بعثة الرسل، وإنزال الكتب، فلا يكفي أن يقر الإنسان بما يستحقه الرب ـتعالىـ من الصفات، وأنه الرب الخالق وحده.

ولا يكون موحداً إلا إذا شهد أن لا إله إلا الله، فيقر ويعلم بأن الله هو المألوه المعبود وحده، ويعبده بمقتضى هذا الإقرار والعلم.

٥ــ **توحيد الألوهية هو الذي جاءت به الرسل:** وهو الذي حصل به النزاع بينهم وبين أممهم، كما قال قوم هود لنبيهم هود ــعليه السلامــ عندما قال لهم: [اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] (الأعراف: ٥٩) [قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا(٧٠)] (الأعراف).

وكما قال كفار قريش لما أُمِروا بإفراد الله بالعبادة:[أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ] (ص: ٥).

أما توحيد الربوبية فإنهم لم ينكروه، بل إن إبليس لم ينكره [قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي] (الحجر: ٣٩).

٦ــ **أنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا:** ومعنى ذلك أنهما إذا ذكرا جميعاً في سياق واحد صار لكل واحد منهما معنى خاص يُراد به، كما في قوله ــتعالىــ: [قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ(٣)] (الناس).

فيكون معنى الرب: هو المالك المتصرف، وهذا توحيد الربوبية، ويكون معنى الإله: المعبود بحق المستحق للعبادة دون سواه وهذا توحيد الألوهية.

وتارة يذكر أحدهما مفرداً عن الآخر فيجتمعان في المعنى؛ كما في قول الملكين للميت في القبر: =من ربك؟+، ومعناه: من إلهك؟ وكما في قوله ــتعالىــ: [الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ] (الحج:٤٠)، وقوله: [قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً](الأنعام: ١٦٤)، وقوله: عن الخليل ــعليه السلامــ: [رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ] (البقرة: ٢٥٨)، وكما في قوله ــتعالىــ: [أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ] (النمل: ٦٢).

٧ـ **لابد لسلامة التوحيد، والفوز بالدارين من تحقيق هذين الأمرين**[1].

---

١ ـ انظر الإرشاد ص٢١ـ٢٣.

المبحث الرابع: طرق الدعوة إلى توحيد الألوهية في القرآن الكريم

تنوعت طرق الدعوة إلى توحيد الألوهية وأساليبها في القرآن الكريم، وقد مرَّت الإشارة إلى شيء من ذلك، وفيما يلي مزيد بسط لهذا الأمر:

١ـ أمر الله ـسبحانه ـ بعبادته: قال ـتعالى ـ: [وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً] (النساء:٣٦).

٢ـ نهي الله ـعز وجلـ عن عبادة مَنْ سواه: كما في قوله ـتعالى ـ: [فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] (البقرة: ٢٢).

٣ـ إخبار الله ـسبحانه وتعالى ـ أنه خلق الخلق لعبادته: كما في قوله: [وَمَا خَلَقْتُ الجِْنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٥٦)] (الذاريات).

٤ـ إخبار الله أنه أرسل الرسل بالدعوة إلى عبادته والنهي عن عبادة غيره: كما في قوله: [وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ] (النحل: ٣٦).

٥ـ الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية: فإذا كان الله ـتعالى ـ هو الخالق الرازق الذي لم يشاركه في ذلك مشارك وجب أن لا يُتَأَلَّهَ لغيره، ولا يُتَعَبَّدَ سواه، ولزم أن يُخَصَّ بالتوحيد كما قال ـتعالى ـ:[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] (البقرة: ٢١).

٦ـ الاستدلال على وجوب عبادته بكونه النافع، الضار، المعطي، المانع: فمن اتصف بهذه الصفات فهو المعبود بحق ولا معبود بحق سواه.

٧ـ الاستدلال على وجوب عبادته بانفراده بصفات الكمال، وانتفاء ذلك

عن آلهة المشركين، كما في قوله _تعالى_: [فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً] (مريم: ٦٥).

وقوله: [وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (١٨٠)] (الأعراف).

وقوله عن خليله _عليه السلام_ أنه قال لأبيه: [إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً] (مريم:٤٢).

٨_ الاستدلال على وجوب عبادته بدقة صنعه: فكلما تدبر العاقل ذلك، وتغلغل فكره فيه، وازداد تأمله في ذلك علم أنه هو المستحق للعبادة.

٩_ الاستدلال على وجوب عبادته بتعدد نعمه: فإذا عُلِمَ أن ما بالعباد من نعمة فمن الله وحده، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً إلا بإذن الله، وأن الله هو النافع الضار _ علم أن الله هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

١٠_ تعجيز الله لآلهة المشركين: كقوله _تعالى_: [أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ(١٩٢)] (الأعراف) وقوله: [قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً] (الإسراء:٥٦) وقوله: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ] (الحج:٧٣).

١١_ تسفيه المشركين الذين يعبدون غير الله: كما في قوله _تعالى_: [أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ(٦٧)] (الأنبياء)، وقوله: [وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ] (البقرة:١٣٠).

١٢_ بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله: وبيان مآلهم مع من عبدوهم؛ حيث تتبرأ منهم تلك المعبوداتُ في أحرج المواقف كما قال _تعالى_: [وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمْ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ (١٦٧)] (البقرة).

وقوله: [وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ] (فاطر: ١٤).

١٣_ بيان مصير الموحدين وعاقبتهم في الدنيا والآخرة: كما قال الله عن إمامهم إبراهيم _عليه السلام_: [وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ] (البقرة: ١٣٠).

وقوله: [الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ] (الأنعام: ٨٢).

١٤_ رده على المشركين باتخاذ الوسائط بينهم وبين الله بأن الشفاعة ملك له _سبحانه_ لا تطلب من سواه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، وبَعْدَ رضاه عن المشفوع له، قال _سبحانه_: [أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ(٤٤)] (الزمر).

وقال: [مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ] (البقرة: ٢٥٥).

١٥ــ بيان أن هؤلاء المعبودين من دون الله لا يحصل منهم نفع لمن عبدهم من جميع الوجوه كما قال ــتعالىــ: [قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ(٢٣)] (سبأ).

١٦ــ ذكر البراهين والأمثلة الدالة على بطلان الشرك، وسوء عاقبته، مما يجعل النفوس السليمة تنفر منه، قال ــتعالىــ: [وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ] (الحج:٣١) [1].

١ـ انظر تيسير العزيز الحميد ص٣٨ـ٣٩، ودعوة التوحيد للهراس، ٣٩ـ٤٥، والإرشاد ص ٢٥ـ٢٨، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة ص١٥٤ـ١٥٦.

المبحث الخامس: مفهوم العبادة

أولاً: تعريف العبادة لغةً، واصطلاحاً

١_ تعريف العبادة لغةً: هي التذلل والخضوع، فيقال: بعير معبد أي مذلل، وطريق معبد أي مذلل، ذللته الأقدام.

ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته المشهورة يصف ناقته:

تبـــاري عتاقـــاً ناجيـــات وأتبعـــت وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد[1]

فقوله: فوق مور معبد: أي فوق طريق مذلل من كثرة السير عليه، فالمور هو الطريق.

٢_ تعريف العبادة في الاصطلاح: عرفت العبادة في الاصطلاح بعدة تعريفات، ومنها ما يلي:

أ_ عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية × بأنها: =اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة+[2].

ب_ وعرفها ابن القيم بأنها: =كمال المحبة مع كمال الذل+.

وقال في النونية:

وعبـــادة الـــرحمن غايـــة حبـــه مـــع ذل عابـــده همـــا قطبـــان[3]

١ـ شرح المعلقات العشر للزوزني، ص٩٧.

٢ـ العبودية، ص(٣٨).

٣ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ص٣٢.

جـ ـ وعرفها الشيخ ابن سعدي × بعدة تعريفات منها قوله: =العبادة روحُها وحقيقتُها تحقيقُ الحبِّ والخضوع لله؛ فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما فليست عبادة؛ فإن حقيقتها الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة التي تتبعها المحاب كلها+[١].

د ـ وعرفها بتعريف ثانٍ فقال: =العبادة والعبودية لله اسم جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد، وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح؛ فكل ما يقرب إلى الله من الأفعال، والتروك فهو عبادة؛ ولهذا كان تارك المعصية لله متعبداً متقرباً إلى ربه بذلك+[٢].

ومما ينبغي التنبيه عليه أن العبادة تطلق إطلاقين:[٣]

الأول: الفعل الذي هو التَّعَبُّد.

الثاني: المفعول وهو المتَعَبَّدُ به أو القربة.

مثال ذلك الصلاة ففعلها عبادة وهو التعبد، وهي نفسها عبادة وهي المتعبد به.

فعلى الإطلاق الثاني تُعَرَّف العبادة بتعريف شيخ الإسلام، وعلى الإطلاق الأول تُعَرَّف بالتعريف الثاني والثالث.

أما التعريف الرابع الذي هو تعريف ابن سعدي فإنه يشمل الإطلاقين الفعلِ

١ـ الحق الواضح المبين، ص٥٩ـ٦٠.

٢ـ الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، ص١٦٢.

٣ـ انظر القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عثيمين، ١٠/١.

والمفعولِ.

ومن التعريفات للعبادة ـ أيضاً ـ: =الأعمال الصالحة الإرادية التي تُؤَدَّى لله ـ تعالى ـ ويفرد بها+[1].

وهذا يشمل الإطلاقين ـ أيضاً ـ.

الفرق بين العبادة وتوحيد العبادة ظاهر؛ فالعبادة هي ذات القربة أو فعلها. أما توحيدها فصرفها لله وحده لا شريك له.

ثانياً: أنواع العبادة

العبادة لها أنواع كثيرة، فبعضها قولي؛ كشهادة أن لا إله إلا الله، وبعضها فعلي؛ كالجهاد في سبيل الله، وإماطة الأذى عن الطريق، وبعضها قلبي؛ كالحياء، والمحبة، والخوف، والرجاء، وغيرها، وبعضُها مشترك كالصلاة مثلاً، فإنها تجمع ذلك كله.

ومن أنواع العبادة ـ زيادة على ماسبق ـ: الزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد المنافقين والكفار، والإحسان إلى الحيوان، والأيتام، والمساكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والدعاء، والذكر، وكذلك الذبح، والنذر، والاستعاذة، والاستغاثة، والاستعانة، والتوكل، والتوبة، والاستغفار.

وهذه العبادات لا يجوز صرفها إلا لله، ومن صرفها لغيره فقد أشرك[2].

١ـ عبودية الكائنات لرب العالمين لفريد التوني، ص٢٥.

٢ـ انظر تيسير العزيز الحميد ص٣٩ـ٤٢، والإرشاد للشيخ صالح الفوزان، ص١٩، وانظر عقيدة التوحيد للشيخ محمد خليل هراس ص٤٧ـ٧٠.

ثالثاً: عبودية الخلق لله

تنقسم عبودية الخلق لله إلى ثلاثة أقسام:

١ــ عبودية عامة: ويشترك فيها كافة الخلق؛ برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. قال ــتعالىــ:[إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً] (مريم: ٩٣).

فهذه عبودية الربوبية؛ فالخلق ــبهذا الاعتبارــ كلهم عبيد لله مربوبون له.

٢ــ عبودية خاصة: وهي عبودية الألوهية، وهي عبودية عباد الله الصالحين وهم كلُّ من تَعبَّد لله بشرعه، وأخلص في عبادته.

قال ــتعالىــ: [وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً] (الفرقان:٦٣).

ولهذا أضافهم إلى اسمه إشارة إلى أنهم وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، وهذه إضافة التشريف.

٣ــ عبودية خاصة الخاصة: وهي ــأيضاًــ عبودية الألوهية، وهي للأنبياء والمرسلين الذين لا يباريهم ولا يدانيهم أحد في عبادتهم لله، قال ــتعالىــ: [وَاذْكُرْ عِبَادَنَا] (ص:٤٥) وقال عن نوح:[إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً](الإسراء: ٣)، وقال عن داود ــعليه السلامــ: [وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ] (ص:١٧) وقال عن محمد ": [سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ] (الإسراء:١)، وقال: [وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً] (الجن:١٩) [(١)].

١ـ انظر القول المفيد للشيخ محمد بن عثيمين ١/٢٨ـ٢٩.

المبحث السادس: شروط قبول العبادة، وأهمية ذلك

أولاً: شروط قبول العبادة

لا تقبل العبادة إلا إذا توافر فيها شرطان:

١ـ الإخلاص لله.

٢ـ المتابعة للرسول ".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =وجماع الدين أصلان: أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بالبدع، كما قال ـتعالى ـ: [فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً] (الكهف: ١١٠).

وذلك تحقيق الشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله؛ ففي الأولى: أن لا نعبد إلا إياه، وفي الثانية: أن محمداً هو رسوله المبلغ عنه؛ فعلينا أن نصدق خبره، ونطيع أمره+[١].

فمن أراد عبادة الله فلابد له من توافر هذين الشرطين، ولسان حاله يقول: (إياك أريد بما تريد).

قال الفضيل بن عياض × في قوله ـتعالى ـ: [لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً] (الملك: ٢).

قال: أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وما أصوبه؟

١ـ العبودية، ص١٧٠.

قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة[١].

فإذا فُقِد الشرطان أو أحدُهما بطلت العبادة.

وتوضيح ذلك بالمثال الآتي: لو أن شخصاً صلى لغير الله، وعلى صفة غير الصفة التي علمنا إياها رسول الله "لردت عبادته، لماذا؟ لأنه فقد الشرطين معاً.

كذلك لو صلى كما كان الرسول " يصلي؛ بحيث أتى بصفة الصلاة الظاهرة كاملة، ولكنه صرفها لغير الله لبطلت عبادته، لماذا؟ لأنه فقد الإخلاص، والله ـسبحانهـ يقول: [إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ] (النساء:٤٨).

وقال ـتعالىـ: [وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] (الأنعام:٨٨).

كذلك لو صلى لله، ولكن على صفة غير الصفة التي علمنا إياها الرسول "؛ بحيث ابتدع صفة من عنده بطلت عبادته؛ لأنه فقد المتابعة، والرسول " يقول في الحديث المتفق عليه: =**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**+[٢].

أي مردود، والجار والمجرور في قوله: =**عليه**+ متعلق بمحذوف تقديره (حاكماً أو مهيمناً).

وفي رواية أخرى للحديث =**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو**

١ـ انظر العبودية، ص٧٦.

٢ـ مسلم (١٧١٨) وأحمد ١٤٦/٦.

رد+[1].

وهذان الشرطان في الحقيقة متلازمان؛ فإن من الإخلاص لله أن يُتَّبَعَ النبي" واتِّبَاعُه _عليه الصلاة والسلام_ مستلزم للإخلاص.

ثانياً: أهمية الإخلاص والمتابعة

للإخلاص والمتابعة اللذين هما شرطا قبول العبادة أهمية عظمى، وتتجلى هذه الأهمية في أمور منها:

١_ أن الله أمر بإخلاص العبادة له: قال _تعالى_: [وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ] (الأعراف: ٢٩).

٢_ أن الله _تعالى_ اختص نفسه بالتشريع: فهو حقه وحده، ومن تَعَبَّد الله بغير ما شرع فقد شارك الله _عز وجل_ في تشريعه، قال _تعالى_:[شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ] (الشورى: ١٣).

وقال:[وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ] (الأنعام: ١٥٣).

٣_ أن الله أنكر على من يشرِّع من عند نفسه: قال _تعالى_:[أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ] (الشورى: ٢١).

٤_ أن الله أكمل لنا الدين، ورضيه لنا: قال _تعالى_: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِيناً] (المائدة:٣).

فالابتداع في الدين إنما هو في الحقيقة استدراك على الله، وعلى رسوله " واتهام

١ـ البخاري١٦٧/٣ ، ومسلم (١٧١٨).

للدين بالنقص.

٥ـ ضَبْطُ أمورِ العباد في تقربهم إلى الله: فلو جاز للناس أن يتعبدوا بما شاؤوا، كيفما شاؤوا لأصبح لكل إنسان طريقتُه الخاصة بالعبادة، ولأصبحت حياةُ الناس جحيماً لا يطاق؛ إذ يسود التناحر والتنافر؛ لاختلاف الأذواق، مما يؤدي إلى الشقاق والافتراق.

والاتباعُ وترك الابتداع أعظمُ سببٍ للائتلاف والاجتماع.

٦ـ ظهور الحاجة إلى ما جاءت به الرسل: فلو جاز للناس أن يعبدوا الله بما شاؤوا كيفما شاؤوا لترتَّب على ذلك عدم حاجة الناس إلى الرسل، ولا يقول بهذا عاقل.

المبحث السابع: أركان العبادة، وحكم تغليب بعضها على بعض

أولاً: أركان العبادة

للعبادة ثلاثة أركان، هي:

١ــ الحب ٢ــ الخوف ٣ــ الرجاء

وجعلها بعض أهل العلم أربعة:

الحب، والتعظيم، والخوف، والرجاء.

ولا تعارض بين الأمرين؛ فإن الرجاء ينشأ من الحب، فلا يرجو الإنسان إلا من يحب، وكذلك الخوف ينشأ من التعظيم، فلا يخاف الإنسان إلا من عظيم.

وقد أثنى الله على أهل الخوف والرجاء من النبيين والمرسلين، فقال:[إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ] (الأنبياء: ٩٠).

ومدح القائمين بذلك من سائر عباده، فقال:[أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ](الزمر: ٩).

وقال ــسبحانه وتعالىــ: [وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ] (الإسراء:٥٧).

وقال: [تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ] (السجدة: ١٦).

كما أمر ــعز وجلــ باستحضار ذلك وقصْدِه فقال: [وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً] (الأعراف: ٥٦).

هذه هي عبادة الأنبياء والمرسلين، وعباد الله المؤمنين، فمن ذا الذي هو أحسن منهم؟ وأكمل من هديهم؟ وهل تقبل دعواه؟

الجواب: لا؛ فالخوف والرجاء متلازمان؛ فكلاهما بريد الفوز بالجنة، والنجاة من النار، فلو سألت من لا يأكل الربا من المؤمنين مثلاً مع قدرته عليه؛ فقلت له: لم لا ترابي؟ لبادر بقوله: إني أخاف الله، وأرجو ثوابه.

ولو سألت المصلي لِمَ تصلي؟ لقال: خوفاً من الله وطمعاً في ثوابه، وهكذا...

فَغَيْرُ الله قد يُحَبُّ، ولكن لا يُخاف منه، وقد يُخاف منه، ولكن لا يُحب.

أما الله _عز وجل_ فيجتمع الأمران في حقه؛ فيُخاف ويحب، فلابد للمؤمن _إذاً_ من الجمع بين الحب، والخوف، والرجاء، والتعظيم.

أما العبادة بالحب وحده فلا تكفي، وليست صحيحة؛ لأنها لا تتضمن تعظيماً لله، ولا خشيةً منه؛ إذ إن صاحبها يجعل الله _سبحانه_ بمنزلة الوالد والصديق، فلا يتورع من اقتراف المحرمات، بل يستهين بها؛ بحجة أن الحبيب لا يعذب حبيبه، كما قالت اليهود والنصارى:[نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ] (المائدة:١٨).

وكما يقول غلاة الصوفية: نحن نعبد الله لا خوفاً من عقابه، ولا طمعاً في ثوابه، إنما نعبد الله حباً له كما عبر بذلك كثير منهم كرابعة العدوية التي تقول:

أحبك حبين حبَّ الهوى ... وحبَّاً لأنك أهلٌ لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجبَ حتى أراكا[١]

وكما قال ابن عربي:

أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني[٢]

١ـ الصوفية في نظر الإسلام، دراسة وتحليل لسميح عاطف الزين، ص٢٥٧.

٢ـ الشعر الصوفي إلى مطلع القرن التاسع للهجرة، د.محمد بن سعد ابن حسين، ص١٧٢.

ولا شك أن هذا مسلك باطل، وطريقة فاسدة، لها آثار وخيمة منها الأمن من مكر الله، وغايته الخروج من الملة؛ فالذي يتمادى في التفريط والخطايا ويرجو رحمة ربه بلا عمل يقع في الغرور، والأماني الباطلة، والرجاء الكاذب.

كذلك العبادة بالخوف وحده دون الحب والرجاء ليست صحيحة، بل هي باطلة فاسدة، وهي طريقة الخوارج الذين لا يجعلون تعبدهم لله مقروناً بالمحبة، فلا يجدون للعبادة لذة، ولا إليها رغبة، فتكون منزلة الخالق عندهم كمنزلة سلطان جائر، أو ملك ظالم.

وهذا مما يورث اليأس أو القنوط من رحمة الله، وغايته الكفر بالله، وإساءة الظن به.

قال ": =**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني**+[1].

وعن جابر ÷ قال: سمعت رسول الله " يقول قبل وفاته بثلاث: =**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله _عز وجل_**+[2].

وحسن الظن هو الباعث على العمل؛ الذي يلزم منه تحري الإجابة عند الدعاء، والقبول عند التوبة، والمغفرةِ عند الاستغفار، والإثابةِ عند العمل.

أما ظن المغفرة والإجابة والإثابة مع الإصرار على الذنوب والتقصير في العمل فليس من حسن الظن في شيء، بل هو سَفهٌ وجهلٌ وغرور.

١ـ رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

٢ـ رواه مسلم (٢٨٧٧).

فلابد ــإذاًــ للعابد أن يكون الله أحبَّ إليه من كل شيء، وأن يكون اللهُ أعظمَ عنده من كل شيء؛ فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله؛ فإنك إذا خفته فررت إليه، فالخائف من الله هارب إليه، قال ــتعالىــ: [فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ] (الذاريات: ٥٠).

وهناك مقولة مشهورة عند السلف، وهي قولهم: =من عَبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء، ومن عبده بالخوف، والرجاء، والحب، فهو مؤمن موحد+[١].

ثانياً: حكم تغليب أركان العبادة على بعض

هناك سؤال يدور كثيراً وهو، أيهما يُغَلَّب؟ الخوف أو الرجاء.

الجواب: أنه اختُلف في ذلك على أقوال منها:

١ــ **قيل**: ينبغي أن يغلِّب الإنسان جانب الخوف؛ ليحمله ذلك على فعل الطاعة وترك المعصية.

٢ــ **وقيل**: يغلِّب جانب الرجاء؛ ليكون متفائلاً، والرسول " كان يعجبه الفأل.

٣ــ **وقيل**: في فعل الطاعة يغلب الرجاء؛ لينبعث إلى العمل؛ فالذي منَّ عليه بالطاعة سَيَمُنُّ عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: إذا وفقك الله للدعاء فانتظر الإجابة؛ لأنه يقول: [ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ] (غافر: ٦٠).

١ـ انظر العبودية، ص١٢٨.

وفي فعل المعصية يغلب جانب الخوف؛ لأجل أن يمنعه ذلك من فعل المعصية، قال ـ تعالى ـ: [قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ] (الأنعام:١٥).

وهذا قريب ولكن ليس بالقرب الكامل، إذ قد يُعْتَرَض عليه بقوله ـ تعالى ـ: [وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ] (المؤمنون: ٦٠).

٤ـ وقيل: يغلب جانب الخوف في الصحة، وجانب الرجاء في المرض.

٥ـ وقيل: هما كجناحي الطائر، فالمؤمن يسير إلى الله بجناحين هما الرجاء والخوف، فإذا استويا تم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

٦ـ وقيل يختلف من شخص إلى شخص، ومن حال إلى حال.

٧ـ وقيل: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب؛ فالمحبة هي المرْكَبُ، والرجاء حادٍ، والخوف سائق، والله الموصل بمنِّه وكرمه.[1]

١ـ انظر الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/٣٠ـ٣٢، والقول المفيد ١/٥١ـ٥٢، و٢/١٦٤ـ١٦٥، وانظر الرسالة الثانية عشرة مسائل في المحبة، والخوف، والرجاء للكاتب.

الرسالة السادسة

توحيد الأسماء والصفات

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد.

فإن العلم بأسماء الله وصفاته أشرف ما اكتسبته القلوب، وأزكى ما أدركته العقول؛ فهو زبدة الرسالة الإلهية، وهو الطريق إلى معرفة الله وعبادته وحده لا شريك له.

وفيما يلي من صفحات سيكون الحديث عن هذا النوع من أنواع التوحيد من خلال الفصول التالية:

الفصل الأول: مفهوم توحيد الأسماء والصفات، وطريقة أهل السنة فيه.

الفصل الثاني: قواعد في أسماء الله وصفاته.

الفصل الثالث: الضلال في توحيد الأسماء والصفات.

الفصل الرابع: الكلمات المجملة وطريقة أهل السنة في التعامل معها.

الفصل الخامس: دراسة لمصطلح المجاز.

فهذه الفصول، وما يدخل تحتها من مباحث هي محور الكلام في هذا البحث، والله المستعان، وعليه التكلان.

الفصل الأول

مفهوم توحيد الأسماء والصفات، وطريقة أهل السنة فيه

وتحته:

المبحث الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات، وأهميته، وثمراته.

المبحث الثاني: طريقة أهل السنة في أسماء الله وصفاته.

المبحث الثالث: الأدلة على صحة مذهب السلف في أسماء الله وصفاته.

المبحث الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات، وأهميته، وثمراته

أولاً: تعريف توحيد الأسماء والصفات

١ـ هو: الإيمان بما وصف الله به نفسَه في كتابه، أو وَصَفَه به رسوله"من الأسماء الحسنى والصفات العلى وإمرارها كما جاءت على الوجه اللائق به ـسبحانه وتعالىـ[1].

٢ـ أو هو: اعتقاد انفراد الله ـعز وجلـ بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، والجلال، والجمال.

وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله " من الأسماء والصفات، ومعانيها وأحكامها الواردة بالكتاب والسنة[2].

٣ـ وعرفه الشيخ عبدالرحمن بن سعدي×بتعريف جامع حيث قال: =توحيد الأسماء والصفات: وهو اعتقاد انفراد الرب ـجل جلالهـ بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، والجلال، والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه.

وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله"من جميع الأسماء، والصفات، ومعانيها، وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، من غير نفي لشيء منها، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل.

١ـ انظر أعلام السنة المنشورة، للشيخ حافظ الحكمي، ص٥٦.

٢ـ انظر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية، للشيخ عبد العزيز السلمان، ص٤١ـ٤٢.

ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله"من النقائص والعيوب ومن كل ما ينافي كماله+[1].

ثانياً: أهمية توحيد الأسماء والصفات

للعلم بتوحيد الأسماء والصفات والإيمان به أهمية عظيمة، ومما يدل على أهميته مايلي:

١ـ أن الإيمان به داخل في الإيمان بالله ـعز وجلـ إذ لا يستقيم الإيمان بالله حتى يؤمن العبد بأسماء الله وصفاته.

٢ـ أن معرفة توحيد الأسماء والصفات والإيمان به كما آمن السلف الصالح عبادة لله ـعز وجلـ فالله أمرنا بذلك، وطاعته واجبة.

٣ـ الإيمان به كما آمن السلف الصالح طريق سلامة من الانحراف والزلل الذي وقع فيه أهل التعطيل، والتمثيل، وغيرهم ممن انحرف في هذا الباب.

٤ـ الإيمان به على الوجه الحقيقي سلامة من وعيد الله، قال ـتعالىـ:[وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] (الأعراف: ١٨٠).

٥ـ أن هذا العلم أشرف العلوم، وأجلها على الإطلاق؛ فالاشتغال بفهمه، والبحث فيه اشتغال بأعلى المطالب، وأشرف المواهب.

٦ـ أن أعظم آية في القرآن الكريم هي آية الكرسي، وإنما كانت أعظم آية؛ لاشتمالها على هذا النوع من أنواع التوحيد.

٧ـ أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن؛ لأنها أخلصت في وصف الله ـعز وجلـ.

١ـ القول السديد في مقاصد التوحيد ٣/١٠ مجموعة ابن سعدي.

٨ـ أن الإيمان بأسماء الله وصفاته يثمر ثمرات عظيمة، وعبودياتٍ متنوعةً، ويتبين لنا شيء من ذلك عند الحديث عن ثمرات الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات.

ثالثاً: ثمرات الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات

العلم بأسماء الله وصفاته، وتدبرها، وفهمها على مراد الله أهم العلوم وأشرفها كما مر؛ لما يثمره من الثمرات العظيمة النافعة المفيدة.

ولقد اعتنى علماء الإسلام قديماً وحديثاً في بيان أسماء الله وصفاته، وشرحها، وإيضاحها، وبيان ثمرات الإيمان بها، فمن الثمرات التي تحصل من جراء الإيمان بها ما يلي:

١ــ العلم بأسماء الله وصفاته هو الطريق إلى معرفة الله:

فالله خلق الخلق ليعرفوه، ويعبدوه، وهذا هو الغاية المطلوبة منهم؛ فالاشتغال بذلك اشتغال بما خُلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خُلق له، وقبيح بعبد لم تزل نِعَمُ الله عليه متواترة أن يكون جاهلاً بربه، معرضاً عن معرفته.

وإذا شاء العباد أن يعرفوا ربهم فليس لهم سبيل إلى ذلك إلا التعرف عليه من خلال النصوص الواصفةِ له، المصرِّحةِ بأفعاله وأسمائه، كما في آية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وسورة الصمد، وغيرها.

٢ــ أن معرفة الله تدعو إلى محبته، وخشيته، وخوفه، ورجائه، وإخلاص العمل له: وهذا هو عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه بمعانيها، وأحكامها، ومقتضياتها.

٣ــ تزكية النفوس وإقامتها على منهج العبودية للواحد الأحد: فالشريعة

المنزلة من عند الله تهدف إلى إصلاح الإنسان، وطريقُ الصلاح هو إقامة العباد على منهج العبودية لله وحده لا شريك له، والعلمُ بأسماء الله وصفاته يعصم بإذن الله من الزلل، ويفتح للعباد أبواب الأمل، ويثبت الإيمان، ويعين على الصبر، فإذا عرف العبد ربه بأسمائه وصفاته، واستحضر معانيها أثّر ذلك فيه أيما تأثير، وامتلأ قلبه بأجل المعارف والألطاف.

فمثلاً أسماء العظمة تملأ القلب تعظيماً وإجلالاً لله.

وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله، وشوقاً إليه، ورغبة بما عنده، وحمداً وشكراً له.

وأسماء العزة، والحكمة، والعلم، والقدرة تملأ القلب خضوعاً لله، وخشوعاً، وانكساراً بين يديه ـ عز وجل ـ.

وأسماء العلم، والخُبْرَة، والإحاطة، والمراقبة، والمشاهدة تملأ القلب مراقبةً لله في الحركات والسكنات وفي الجلوات والخلوات، وحراسةً للخواطر عن الأفكار الرديئة، والإرادات الفاسدة.

وأسماء الغنى، واللطف، تملأ القلب افتقاراً، واضطراراً، والتفاتاً إليه في كل وقت وحال.

٤ـ الانزجار عن المعاصي: ذلك أن النفوس قد تهفو إلى مقارفة المعاصي، فتذكر أن الله يبصرها، فتستحضر هذا المقام، وتذكر وقوفها بين يديه، فتنزجر وترعوي، وتجانب المعصية.

٥ـ السلامة من الاعتراض والحسد: ذلك أن النفوس طُلَعَة؛ تتطلع وتتشوق إلى ما في أيدي الآخرين، وربما وقع فيها شيء من الاعتراض أو الحسد؛ فعندما

تتذكر أن الله من أسمائه (الحكيم) والحكيم هو الذي يضع الشيء في موضعه عندئذٍ تكف عن حسدها، وتنقدع عن شهواتها، وتنفطم عن غيّها، وتنأى عن اعتراضها.

٦_ **انفتاح أبواب الأمل**: ذلك أن العبد يقع في المعصية، فتضيق عليه الأرض بما رَحُبت، ويأتيه الشيطان؛ ليجعله يسيء ظنه بربه، فيتذكر الإنسان أن من أسماء الله (الرحيم، التواب، الغفور) فلا يتمادى في خطيئته، بل ينزع عنها، ويتوب إلى ربه، ويستغفره فيجده غفوراً تواباً رحيماً.

ثم إن العبد تتناوشه المصائب، والمكاره، فيلجأ إلى الركن الركين، والحصن الحصين، فيذهب عنه الجزع والهلع، وتنفتح له أبواب الأمل.

ويقارع الأشرار، وأعداء دين الله من الكفار والفجار، فيجدُّون في عداوته، وأذيته، ومنع الرزق عنه، وقصم عمره، فيعلم أن الأرزاق والأعمار بيد الله وحده، وذلك يُثمر له الشجاعة، وعبودية التوكل على الله ظاهراً وباطناً.

وتصيبه الأمراض، وربما استعصت وعزَّ علاجها، وربما استبد به الألم، ودب اليأس إلى قلبه، وذهب به كل مذهب، حينئذٍ يتذكر أن الله هو الشافي، فيرفع يديه إليه، ويسأله الشفاء، فتنفتح له أبواب الأمل، وربما شفاه الله من مرضه، أو صرف عنه ما هو أعظم، أو عوضه عن ذلك صبراً وثباتاً ويقيناً هو عند العبد أفضل من الشفاء.

٧_ **أن العلم به _تعالى_ أصل الأشياء كلها**: حتى إن العارف به حقيقة المعرفة يستدل بما علم من صفاته وأفعاله على ما يفعله ويشرعه من الأحكام؛ لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته؛ فأفعاله دائرة بين العدل، والفضل، والرحمة، والحكمة.

ومن فُتِحَ له هذا الباب باب الأسماء والصفات فُتِحَ له باب التوحيد الخالص، الذي لا يحصل إلا للكُمّل من الموحدين.

٨ـ **زيادة الإيمان:** فالعلم بأسماء الله وصفاته من أعظم أسباب زيادة الإيمان، وذلك لما يورثه في قلوب العابدين من المحبة، والإنابة، والإخبات، والتقديس، والتعظيم للباري ـجل وعلاـ [وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ] (محمد:١٧).

٩ـ أن من أحصى تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله دخل الجنة، قال النبي": =**إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة**+[١][٢].

هذا وسيأتي معنى إحصائها عند الحديث عن قواعد في الأسماء.

١ـ رواه البخاري، كتاب الدعوات (٦٤١٠)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء (٢٦٧٧).

٢ـ انظر كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله وصفاته على الاتفاق والتفرد لابن مندة تحقيق الشيخ د. علي الفقيهي، ١٨/٢ـ١٩ والتفسير القيم لابن القيم ص٢٤ـ٣٧، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ٩٠/٢ـ٩١، والصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعطلة لابن القيم، تحقيق د. أحمد الغامدي ود.علي الفقيهي ٥٩/١ـ٦٢، وطريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ص٨٢ـ٨٥، والقول السديد لابن سعدي ص١٦١ـ١٦٣، والأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة، د. عمر الأشقر ص١٨ـ٣٩، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة للشيخ عبد الرزاق العباد، ص١٠٠ـ١٠١، والنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى للشيخ محمد الحمود.

المبحث الثاني: طريقة أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته

أهل السنة والجماعة هم الذين اجتمعوا على الأخذ بسنة النبي"والعمل بها ظاهراً وباطناً في القول والعمل والاعتقاد.

وطريقتهم في أسماء الله وصفاته كما يأتي:

١ــ في الإثبات: يثبتون ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله"من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل.

٢ــ في النفي: ينفون ما نفاه الله عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله"مع اعتقادهم ثبوت كمال ضده لله ــتعالىــ إذ إن كل ما نفاه الله عن نفسه فهو صفات نقص تنافي كماله الواجب؛ فجميع صفات النقص كالعجز والنوم والموت ممتنعة على الله ــتعالىــ لوجوب كماله، وما نفاه عن نفسه فالمراد به انتفاء تلك الصفة المنفية، وإثبات كمال ضدها؛ وذلك أن النفي المحض لا يدل على الكمال إلا إذا كان متضمناً لصفة ثبوتية يُحمد عليها كما في قوله ــتعالىــ: [لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ] (البقرة: ٢٥٥)، وقوله: [وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ] (ق: ٣٨).

فالله ــسبحانه وتعالىــ في آية الكرسي نفي عن نفسه (السنة والنوم) لكمال حياته وقيوميته، وفي الآية الثانية نفى نفسه (اللغوب) وهو التعب؛ لكمال قوته وقدرته، فالنفي هنا متضمن لصفة كمال.

أما النفي المحض فليس بكمال، وقد يكون سببه العجز أو الضعف كما في قول الشاعر النجاشي يهجو بني العجلان:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل[1]

فنفى عنهم الظلم لا لمدحهم، ولكن لذمهم؛ لأنهم عاجزون عنه أصلاً.

وكذلك قول الآخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عُدَدٍ ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

فهو لا يمدحهم لقلة شرهم، ولكنه يذمهم لعجزهم، ولهذا قال في البيت الذي بعده:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرساناً وركبانا

وقد يكون سببُ النفيِ عدمَ القابليةِ؛ فلا يقتضي مدحاً، كما لو قلت: (الجدار لا يظلم).

ومن هنا يتبين لنا أن النفي المحض لا يدل على الكمال إلا إذا تضمن إثبات كمال الضد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتاً، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال؛ لأن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء فهو كما قيل: ليس بشيء، فضلاً عن أن يكون مدحاً أو كمالاً، ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم، والممتنع.

والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال+[2].

٣_التوقف: وذلك فيما لم يرد إثباته أو نفيه مما تنازع الناس فيه كالجسم مثلاً،

١ـ البيت للنجاشي أحد بني الحارث بن كعب. انظر الحماسة الشجرية ٤٥٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص٣٣٠ـ٣٣١.

٢ـ مجموع الفتاوى ٣/٣٥.

والحيز، والجهة ونحو ذلك، فطريقتهم فيه التوقف في لفظه فلا يثبتونه ولا ينفونه، لعدم ورود النص بذلك.

أما معناه فيستفصلون عنه، فإن أُريد به معنى باطل يُنَزَّهُ الله عنه رَدَّوه، وإن أُريد به معنىً حقٌّ لا يمتنع على الله قبلوه.

فلفظة =الجسم+ مثلاً يتوقفون في اللفظ، أما المعنى فيستفصلون، فإن أُريد به الشيء المحدث المركب المفتقر كل جزء منه إلى الآخر فهذا ممتنع على الرب الحي القيوم.

وإن أُريد بالجسم ما يقوم بنفسه، ويتصف به بما يليق به فهذا غير ممتنع على الله؛ فإنه سبحانه قائم بنفسه، متصف بالصفات الكاملة التي تليق به.

وكذلك الحال بالنسبة =للجهة+ يتوقفون في اللفظة، أما المعنى فإن أُريد بها جهة سُفْلٍ فإن الله منزّه عن ذلك، وإن أُريد جهة علو تُحيط به فهذا ممتنع أيضاً، وإن أُريد بها أن الله في جهة، أَيْ في جهةِ علوٍّ لا تُحيط به فهذا ثابت لله، وهكذا شأنهم في الألفاظ المجملة كما سيأتي بيان ذلك عند الحديث عن الألفاظ المجملة [1].

١ـ انظر التوحيد لابن مندة ١٠٢/٢ ومنهاج السنة لابن تيمية ١٠٥/٢ و١٠٩ـ١١١ و١٣٢ و١٩٢ و١٩٨ و٥٥٤ـ٥٥٦، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٥/٣ـ٤٠ و٢٦/٥ وانظر فتح ربِّ البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد بن عثيمين ١٢ـ١٥.

المبحث الثالث: الأدلة على صحة مذهب السلف

طريقة السلف الصالح أهل السنة والجماعة هي الطريقة الواجبة في أسماء الله وصفاته، وهي الأسلم والأعلم والأحكم، وليس هناك طريقة أخرى صحيحة في هذا الباب باب الأسماء والصفات إلا طريقتهم في إثباتها وإمرارها كما جاءت، وقد دل على ذلك أدلة كثيرة منها[1]:

١_ أن طريقة السلف دل عليها الكتاب والسنة: فمن أدلة الكتاب قوله _تعالى_: [وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] (الأعراف:١٨٠).

وقوله: [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ] (الشورى:١١).

وقوله: [وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ] (الإسراء:٣٦).

فالآية الأولى: دلت على وجوب الإثبات من غير تحريف، ولا تعطيل؛ لأنهما من الإلحاد في أسمائه _عز وجل_.

والآية الثانية: دلت على وجوب نفي التمثيل.

والآية الثالثة: دلت على وجوب نفي الكيفية، وعلى وجوب التوقف فيما لم يرد إثباته ولا نفيه.

أما من السنة فالأدلة كثيرة منها قوله": =**اللهم أنت الأول فليس قبلك**

١ـ انظر منهاج السنة ٥٦١/٢، وفتح ربِّ البرية، ص١٩ـ٢٤، والأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة ص٢١٣ـ٢٢١، ودعوة التوحيد للشيخ محمد خليل هراس ص١٩ـ٢٤.

شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء[1]+.

٢ـ العقل: فالعقل يدل على صحة مذهب السلف، ووجه دلالته أن تفصيل القول فيما يجب، ويجوز، ويمتنع على الله لا يُدْرَك إلا بالسمع ـ الكتاب والسنة ـ فوجب اتباع السمع في ذلك، وذلك بإثبات ما أثبته، ونفي ما نفاه، والسكوت عما سكت عنه.

٣ـ الفطرة: أما دلالة الفطرة على صحة مذهب السلف فلأنَّ النفوس السليمة مجبولة ومفطورة على محبة الله وتعظيمه وعبادته، وهل تحب وتعظم وتعبد إلا من عرفت أنه متصف بصفات الكمال، منزه عن صفات النقص؟

٤ـ مطابقتها للكتاب والسنة: فمن تتبع طريقة السلف بعلم وعدل وجدها مطابقة لما في الكتاب والسنة جملة وتفصيلاً؛ ذلك لأن الله أنزل الكتاب؛ ليدّبر الناس آياته، ويعملوا بها إن كانت أحكاماً، ويصدقوا بها إن كانت أخباراً.

٥ـ أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين هم ورثة الأنبياء والمرسلين: فقد تلقوا علومهم من ينبوع الرسالة الإلهية؛ فالقرآن نزل بِلُغَةِ الصحابة، وفي عصرهم، وهم أقرب الناس إلى معين النبوة الصافي، وهم أصفاهم قريحةً، وأقلهم تكلفاً، كيف وقد زكاهم الله في محكم تنزيله، وأثنى عليهم، وعلى التابعين لهم بإحسان ـ كما قال تعالى ـ: [وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ

١ـ رواه مسلم برقم (٢٧١٣).

تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ](التوبة: ١٠٠).

وقد تهدد رب العزة الذين يتبعون غير سبيلهم بالعذاب الأليم فقال ـ عز وجل ـ: [وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً](النساء: ١١٥).

ولا ريب أن سبيل المؤمنين هو سبيل الصحابة من المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم بإحسان.

فإذا كان الأمر كذلك فمن المحال أن يكون خير الناس، وأفضل القرون قد قصروا في هذا الباب بزيادة أو نقصان.

٦ـ أن صفوة أولياء الله ـ تعالى ـ الذين لهم لسان صدق من سلف الأمة وخلفها هم على مذهب أهل السنة والجماعة، أهل الإثبات للأسماء والصفات، وهم أبعد الناس عن مذاهب أهل الإلحاد[1].

٧ـ تناقض علماء الكلام وحيرتهم واضطرابهم: فهذا مما يدل على صحة مذهب السلف؛ فلو كان مذهب الخلف حقّاً لما تناقضوا، ولما اضطربوا، ولما تحيروا وحيروا.

٨ـ رجوع كثير من أئمة الكلام إلى الحق وإلى مذهب السلف: فهناك من أرباب علم الكلام الذين بلغوا الغاية فيه رجعوا إلى مذهب السلف، وتبرؤا من علم الكلام، وأعلنوا توبتهم منه، فهذا الرازي أحد أكابر أئمة علم الكلام ينوح على نفسه، ويبكي عليها، ويقول:

١ـ انظر درء تعارض العقل لابن تيمية ٥/٧.

نهايــــــةُ إقــــــدامِ العقــــــولِ عقـــــالُ وأكثـــــر ســــعي العــــالمين ضـــــلال
وأرواحنــــا في وحشــــةٍ مــــن جســــومنا وغايــــــة دنيانــــــا أذى ووبـــــــال
ولم نَسْــتَفِدْ مــن بحثنــا طــول عمرنــا ســـوى أن جمعنـــا فيـــه قيـــل وقـــالُ
وكـــم قـــد رأينـــا مـــن رجـــال ودولـــة فبـــادوا جميعـــاً مســـرعين وزالـــوا
وكـــم مـــن جبـــال قـــد عـــلا شـــرفاتِها رجـــال فزالـــوا والجبـــال جبـــال

وقال ابن الصلاح: =أخبرني القطب الطوغائي مرتين أنه سمع فخر الدين الرازي يقول: يا ليتني لم اشتغل بعلم الكلام، وبكى+.

وقد اعترف أكثر المتكلمين بالوقوع بالحيرة، والأمور المشكلة المتعارضة، فقال ابن أبي الحديد وهو من كبراء المعتزلة بعد عظيم توغله في علم الكلام:

فـــإذا الـــذي اســـتكثرت منـــه هـــو الـــ ـــــجاني علـــى عظـــائم المحـــن
فظللــــت في تيـــه بـــلا عَلَـــم وغرقـــت في بحـــر بـــلا ســـفن

ومن الذين خاضوا في علم الكلام ورجعوا إلى منهج السلف أبو المعالي الجويني، والخسر وشاهي، وأبو حامد الغزالي[1].

ومن المتأخرين الذين خاضوا في علم الكلام، ولم يرجعوا منه بفائدة، بل وقعوا في الحيرة الإمام الشوكاني×فإنه حدَّث عن نفسه فقال: =ها أنا أخبرك عن نفسي، وأوضح لك ما وقعت فيه أمس؛ فإني في أيام الطلب وعنفوان الشباب شغلت بهذا العلم الذي سمّوه تارة علم الكلام، وتارة علم التوحيد، وتارة علم أصول الدين، وأكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم، ورُمْت الرجوع بفائدة، والعود بعائدة، فلم أظفر بغير

١ـ انظر مجموع الفتاوى ٤/٧٢ـ٧٥، و٥/١٠ـ١١، ودرء تعارض العقل والنقل ١/١٥٩ـ١٦٢، وكتاب الصفدية لابن تيمية ١/٢٩٢ـ٢٩٥، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٠٨ـ٢١٠ والتحف في مذاهب السلف للشوكاني ص٣٤ـ٤٤، والكواشف الجلية عن معاني الواسطية للشيخ عبدالعزيز السلمان ص٥١١ـ٥١٤، والأسماء والصفات د. عمر الأشقر ص٢١٠ـ٢٢٢.

الخيبة والحيرة، وكان ذلك من الأسباب التي حبّبت إليَّ مذهب السلف على أني كنت قبل ذلك عليه، ولكن أردت أن أزداد منه بصيرة وبه شغفاً، وقلت عند ذلك في تلك المذاهب:

وغايــةُ مــا حصّــلته مــن مبــاحثي ومــن نظــري مــن بعــد طــول التَّبَصُّــر
هــو الوقــف مــا بــين الطــريقين حــيرة فمــا علــم مــن لم يلــق غــير التحــير
علــى أنــني قــد خضــت منــه غمــاره ومــا قنعــت نفســي بغــير التبحــر[1]

وبهذا يتبين لنا صحة مذهب السلف في باب الأسماء والصفات.

---

١ ـ التحف في مذاهب السلف ص٣٧ـ٣٨.

الفصل الثاني

قواعد في أسماء الله وصفاته

وتحته:

المبحث الأول: قواعد في أسماء الله _عز وجل_.

المبحث الثاني: قواعد في صفات الله _تعالى_.

المبحث الأول: قواعد في أسماء الله ـ عز وجل ـ [1]

القاعدة الأولى: **أسماء الله ـتعالىـ كلها حسنى:**

أي بالغة في الحسن غايته، قال الله ـتعالىـ: [وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى] (الأعراف: ١٨٠).

وذلك لأنها متضمنة لصفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالاً ولا تقديراً؛ ذلك أن الألفاظ إما أن تدل على معنى ناقص نقصاً مطلقاً؛ فهذه ينزه الله عنها، وإما أن تدل على غاية الكمال؛ فهذه هي الدالة على أسماء الله وصفاته، وإما أن تدل على كمال لكنه يحتمل النقص فهذا لا يُسمّى الله به، لكن يُخبر به عنه، مثل: المتكلم، الشائي.

كذلك ما يدل على نقص من وجه وكمال من وجه لا يُسمّى الله به، لكن يُخبر به عن الله مثل: الماكر.

ومثال الأسماء الحسنى (الحي) وهو اسم من أسماء الله متضمن للحياة الكاملة التي لم تُسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، الحياة المستلزمة لكمال الصفات من العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، وغيرها.

١ـ انظر مجموع الفتاوى ٧١/٦، وكتاب التوحيد لابن مندة ٢٧/٢، وبدائع الفوائد لابن القيم ١٥٩/١ـ١٧٠، وتوضيح الكافية الشافية لابن سعدي ص١٣٢، والحق الواضح المبين لابن سعدي ص١٠٨، والقواعد المثلى للشخ محمد بن عثيمين ص٩ـ٢٦، وشرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للشيخ عبدالله الغنيمان ٧٥/١ـ٧٧ وشرح كتاب التوحيد ص١٢ـ٢٢١ ودعوة التوحيد ص١٢ـ١٤، ومعارج القبول للحكمي ٧١/١.

ومثال آخر (العليم) من أسماء الله متضمن للعلم الكامل، الذي لم يُسبق بجهل، ولا يلحقه نسيان.

قال الله _تعالى_: [قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى] (طه:٥٢).

العلم الواسع بكل شيء جملة وتفصيلاً، سواء ما يتعلق بأفعاله أو أفعال العباد.

وقل مثل ذلك في السميع، والبصير، والرحمن، والعزيز، والحكيم وغيرها من الأسماء الحسنى.

القاعدة الثانية: **أسماء الله _تعالى_ أعلام وأوصاف:**

أعلام باعتبار دلالتها على الذات، **وأوصاف** باعتبار ما دلت عليه من المعاني.

وهي بالاعتبار الأول مترادفة؛ لدلالتها على مسمى واحد وهو الله _عز وجل_.

وبالاعتبار الثاني متباينة؛ لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص؛ فمثلاً (الحي، القدير، السميع، البصير، الرحيم، العزيز، الحكيم) كلها أسماء لمسمى واحد وهو الله _سبحانه وتعالى_ لكن معنى (الحي) غير معنى (العليم) ومعنى (العليم) غير معنى (القدير) وهكذا...

القاعدة الثالثة: **أسماء الله _تعالى_ إن دلت على وصفٍ متعدٍّ تضمنت ثلاثة أمور:**

أحدها: ثبوت ذلك الاسم.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها ذلك الاسم لله _عز وجل_.

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها ـأي الأسماءـ.

مثال ذلك (السميع) فهو يتضمن إثبات (السميع) اسماً لله ـتعالىـ وإثبات (السمع) صفة له، وإثبات حكم ذلك ومقتضاه، وهو أنه يسمع السر والنجوى، والعلانية، كما قال ـتعالىـ: [وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ] (المجادلة: ١).

وقل مثل ذلك في العليم والرحيم، وغيرها من الأسماء المتعدية.

وإن دلت على وصفٍ لازمٍ غير متعدٍ تضمن أمرين:

أحدها: ثبوت ذلك الاسم.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله ـعز وجلـ.

مثل اسم (الحي) فهو يتضمن إثبات اسم (الحي) لله ـعز وجلـ وإثبات (الحياة) صفة له، ومثل ذلك اسم (العظيم والجليل).

القاعدة الرابعة: **دلالة أسماء الله ـتعالىـ على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة، وبالتضمن، وبالالتزام.**

فمعنى دلالة المطابقة: تفسير الاسم بجميع مدلوله، أو دلالته على جميع معناه.

ومعنى دلالة التضمن: تفسير الاسم ببعض مدلوله، أو بجزء معناه.

ومعنى دلالة الالتزام: الاستدلال بالاسم على غيره من الأسماء التي يتوقف هذا الاسم عليها، أو على لازم خارج عنها.

مثال ذلك: (الخالق) يدل على ذات الله، وعلى صفة (الخلق) بالمطابقة، ويدل على الذات وحدها بالتضمن، ويدل على صفتي (العلم والقدرة) بالالتزام.

وذلك لأن الخالق لا يمكن أن يخلق إلا وهو قادر، وكذلك لا يمكن أن يخلق إلا

وهو عالم[1].

القاعدة الخامسة: **أسماء الله توقيفية لا مجال للعقل فيها:**

ومعنى ذلك أن نتوقف على ما جاء في الكتاب والسنّة، فلا نسمّي الله ـتعالىـ إلا بما سمَّى به نفسه، أو سمّاه به رسوله"لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه الله ـتعالىـ من الأسماء.

١ـ هذه الأنواع الثلاثة تسمى أنوع الدلالة اللفظية الوضعية.

وإليك بعض التفصيل في هذه الأنواع زيادة على ما مضى؛ لتتضح بصورة أجلى.

١ـ الدلالة المطابقية: وهي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له من حيث إنه وضع له، وذلك مثل دلالة لفظ (البيت) على الجدار والسقف معاً.

ودلالة لفظ (إنسان) على الحيوان الناطق، ودلالة اسم (العليم) على ذات الله وعلمه، أي دلالة الاسم على المسمى، والصفة المشتقة من الاسم نفسه.

وسميت مطابقية؛ لتطابق اللفظ والمعنى، وتوافقهما في الدلالة.

٢ـ الدلالة التضمنية: وهي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له في ضمن كل المعنى.

مثل دلالة البيت على الجدار وحده، وعلى السقف وحده.

وسميت تضمنية؛ لأنها عبارة عن فهم جزء من الكل؛ فالجزء داخل ضمن الكل، أي في داخله.

ومن هذا النوع مثلاً دلالة اسم الله (السميع) على ذات الله وحدها، وعلى صفة السمع وحدها، بصرف النظر عن استعمال الجزء والكل، بل يقال على الصفة والموصوف.

٣ـ الدلالة الالتزامية: هي دلالة اللفظ على خارج عن معناه الذي وضع له.

مثل دلالة اسم الله (القدير) على صفة الحياة، وعلى العلم وغيرهما من صفات الله ـتعالىـ.

يقول المناطقة: إن بين الدلالة المطابقية والدلالة التضمنية العموم والخصوص المطلق؛ فإذا وجدت التضمنية وجدت المطابقية دون العكس، أي لا يلزم من وجود المطابقية وجود التضمنية.

انظر المرشد السليم إلى المنطق الحديث والقديم د. عوض الله جاد حجازي، والصفات الإلهية د.محمد أمان ص١٧٨ـ١٧٩.

وتسميتهُ _تعالى_ بما لم يسمِّ به نفسه، أو إنكار ما سمَّى به نفسه جنايةٌ في حقه _تعالى_ فوجب سلوك الأدب، والوقوف مع النص.

القاعدة السادسة: **أسماء الله غير محصورة بعدد معين:**

لقوله" في الحديث المشهور: =**أسألك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**+[1].

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن أحداً حَصْرُه، ولا الإحاطة به.

قال ابن القيم× في قوله": =**استأثرت به**+: =أي انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمي به؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه+[2].

وأما قوله" في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: =**إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة**+[3] فلا يدل على حصر الأسماء بهذا العدد، ولو كان المراد الحصر لكانت العبارة =إن أسماء الله تسعة وتسعون اسماً من **أحصاها** دخل الجنة+.

قال ابن القيم× في بيان مراتب إحصاء أسماء الله التي من أحصاها دخل الجنة:

=**المرتبة الأولى:** إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

١ـ رواه أحمد ٣٩٤/١، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩).

٢ـ بدائع الفوائد ١٦٦/١.

٣ـ سبق تخريجه.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال _تعالى_: [وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا](الأعراف: ١٨٠).

وهو مرتبتان، إحداها: دعاء ثناء وعبادة، والثاني: دعاء طلب ومسألة+[1].

القاعدة السابعة: **أن من أسماء الله _تعالى_ ما يطلق عليه مفرداً ومقترناً بغيره، ومنها ما لا يطلق إلا مقترناً بمُقابله:**

فغالب الأسماء يطلق مفرداً ومقترناً بغيره من الأسماء، كالقدير، والسميع، والبصير، والعزيز، والحليم.

فهذه الأسماء وما جرى مجراها يسوغ أن يدعى بها مفردة، ومقترنة بغيرها، فنقول: يا عزيز، يا حليم، يا غفور، يا رحيم.

أو أن يفرد كل اسم على حِدَةٍ فنقول: يا حليم، أو يا غفور، أو يا عزيز وهكذا...

ومن الأسماء ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقروناً بمقابله، كالمانع، والضار، والمنتقم، والمذل.

فلا يسوغ أن يفرد هذا عن مقابله؛ فإنه مقرون بالمعطي، والنافع والعَفُو والمعز؛ فهو المعطي المانع، الضار النافع، المنتقم العفو، المعز المذل؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية، وتدبير الخلق، والتصرف فيهم عطاءً ومنعاً، ونفعاً وضراً، وعفواً وانتقاماً، وعزّاً وذلاً.

وأما أن يُثنى عليه بمجرد المنع، والانتقام، والإضرار فلا يسوغ.

١ـ بدائع الفوائد ١٦٤/١.

فهذه الأسماء المزدوجة تُجرى الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصلُ بعضٍ حروفِه عن بعض؛ فهي ـوإن تعددتـ جاريةٌ مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجيء مفردة، ولم تُطلق عليه إلا مقترنة؛ فلو قلت: يا مذل، يا ضار، يا مانع، وأخبرت بذلك ـ لم تكن مثنياً عليه ولا حامداً له حتى تذكر مقابلها.

المبحث الثاني: قواعد في صفات الله ـ تعالى ـ [1]

القاعدة الأولى: **صفات الله كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه**: كالحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة، والعلو، والعظمة، وغير ذلك، وقد دل على هذا: السمعُ والعقلُ، والفطرة.

أما السمع فمنه قوله تعالى: [لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى](النحل: ٦٠).

والمثل الأعلى: الوصف الأعلى الكامل.

وأما العقل فوجهه: أن كل موجود حقيقةً لابد أن تكون له صفة: إما صفة كمال، وإما صفة نقص، والثاني باطل بالنسبة إلى الرب الكامل المستحق للعبادة، فتعين الأول.

ثم إنه قد ثبت بالحس والمشاهدة أن للمخلوق صفاتِ كمالٍ، ومُعْطي الكمالِ أولى به.

وأما الفطرة: فلأن النفوس السليمة مجبولة على محبة الله، وتعظيمه، وعبادته.

وهل تحب، وتعظم، وتعبد إلا من علمت أنه متصف بصفات الكمال اللائقة بربوبيته وألوهيته؟

ثم إن من الصفات ما هو كمال على الإطلاق كالصفات السابقة، فهذه ثابتة لله ـ تعالى ـ.

١ـ انظر بدائع الفوائد ١/١٥٩ـ١٧٠، القواعد المثلى ص٢٧ـ٣٨، والشيخ عبدالرحمن بن سعدي في توضيح العقيدة ص١١٢ـ١٢٥، ودعوة التوحيد ١٤ـ١٩.

ومنها ما هو نقص على الإطلاق فهذه منفية عن الله، كالجهل، والعمى، والصمم.

ومنها ما هو كمال من وجه ونقص من وجه، فهذه يوصف الله بها في حال كمالها، ويمتنع وصفه بها في حال نقصها، بحيث يوصف الله بها وصفاً مقيداً مثل المكر، والكيد والمخادعة.

القاعدة الثانية: **باب الصفات أوسع من باب الأسماء**: وذلك لأن كلَّ اسمٍ متضمن لصفة كما سبق في القاعدة الثالثة من قواعد الأسماء، ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله، وأفعاله ــعز وجلــ لا منتهى لها.

قال تعالى: [وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] (لقمان: ٢٧).

ومن أمثلة ذلك أن من صفاتِ اللهِ المجيءَ والأخذَ، والإتيان، والإمساك، والبطش، فيوصف الله بهذه الصفات على الوجه الوارد، ولا يسمى بها، فلا يقال: إن من أسمائه الجائيَ، والآتي، والباطش، والآخذ، والممسك، والنازل، والمريد، ونحو ذلك، وإن كنا نُخبر بذلك عنه، ونصفه به.

القاعدة الثالثة: **صفات الله تنقسم إلى قسمين: ثبوتية وسلبية: فالثبوتية:** هي ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله"وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياة، والعلم، والقدرة، والاستواء، واليدين، والوجه، فيجب إثباتها لله على الوجه اللائق به، وقد تقدم ذلك في الحديث عن طريقة أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته.

وأما السلبية أو المنفية: فهي ما نفاه الله عن نفسه في كتابه، أو على لسان

رسوله"مثل الصمم، والنوم، وغير ذلك من صفات النقص، فيجب نفيها عن الله _كما مر_.

القاعدة الرابعة: **الصفات الثبوتية صفات مدح وكمال، فكلما كثرت وتنوعت دلالتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر**: ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر من الصفات السلبية؛ فالقاعدة في ذلك الإثباتُ المفصلُ، والنفيُ المجملُ؛ فالإثباتُ مقصودٌ لذاته، أما النفي فلم يذكر غالباً إلا على الأحوال التالية:

أ_ بيان عموم كماله كما في قوله _تعالى_: [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ](الشورى:١١) وقوله [وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ] (الإخلاص: ٤).

ب_ نفي ما ادعاه في حقه الكاذبون كما في قوله: [أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً] (مريم: ٩١ _ ٩٢).

ج_ دفع توهم نقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر كما في قوله: [وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ] (الدخان: ٣٨) وقوله: [وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ] (ق:٣٨).

ثم إن النفي مع أنه مجمل بالنسبة للإثبات إلا أن فيه تفصيلاً وإجمالاً بالنسبة لنفسه.

فالإجمال في النفي أن يُنْفى عن الله _عز وجل_ كلُّ ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص، كما في قوله _تعالى_: [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ] (الشورى:١١).

وقوله: [هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً] (مريم:٦٥).

وقوله: [سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون] (الصافات:١٨٠).

وأما التفصيل في النفي فهو أن ينزهَ عن كل واحد من العيوب والنقائص بخصوصه، فَيُنَزهَ عن الولد، والصاحبة، والسِّنة، والنوم، وغير ذلك مما ينزه الله عنه.

القاعدة الخامسة: **الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين: ذاتية وفعلية:**

أ_الذاتية: هي التي لم يزل الله ولا يزال متصفاً بها، وهي التي لا تنفك عنه _سبحانه_ كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعزة، والحكمة، والوجه، واليدين.

ب_ الفعلية: وتسمى الصفات الاختيارية، وهي التي تتعلق بمشيئة الله، إن شاء فعلها، وإن لم يشأ لم يفعلها، وتتجدد حسب المشيئة كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا.

وقد تكون الصفة ذاتية وفعلية باعتبارين، كالكلام؛ فإنه باعتبار أصله صفة ذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال متكلماً، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء بما شاء.

وكل صفة تعلقت بمشيئته _تعالى_ فإنها تابعة لحكمته، وقد تكون الحكمة معلومة لنا، وقد نعجز عن إدراكها، لكننا نعلم علم اليقين أنه _سبحانه_ لا يشاء شيئاً إلا وهو موافق لحكمته، كما يشير إليه قوله _تعالى_: [وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً] (الإنسان: ٣٠).

القاعدة السادسة: **الصفات الذاتية والفعلية تنقسم إلى قسمين:**

عقلية، وخبرية:

أ_ عقلية: وهي التي يشترك في إثباتها الدليل الشرعي السمعي، والدليل العقلي، والفطرة السليمة.

وهي أغلب صفات الله _تعالى_ مثل صفة السمع، والبصر، والقوة، والقدرة، وغيرها.

ب_ خبرية: وتسمى النقلية، والسمعية، وهي التي لا تعرف إلا عن طريق النص؛ فطريق معرفتها النص فقط، مع أن العقل السليم لا ينافيها، مثل صفة اليدين، والنزول إلى السماء الدنيا.

القاعدة السابعة: **صفات الله توقيفية:**

فلا نَصِفُ الله إلا بما وصف به نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله".

ولدلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة ثلاثة أوجه:

أ_ التصريح بالصفة: كالعزة، والقوة، والرحمة، كما في قوله _تعالى_: [فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً] (النساء:١٣٩) وقوله: [إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ](الذاريات:٥٨) وقوله: [وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ] (الأنعام:١٣٣).

ب_ تضمن الاسم لها: كالعزيز والغفور، قال _تعالى_: [الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ](الملك: ٢) فالعزيز متضمن لصفة العزة، والغفور متضمن لصفة المغفرة.

ج_ **التصريح بفعل أو وصف دال عليها، كالاستواء على العرش، والمجيء قال الله _تعالى_**: [الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى] (طه:٥).

وقال: [وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً] (الفجر:٢٢).

القاعدة الثامنة: **المضافات إلى الله إن كانت أعياناً فهي من جملة المخلوقات، وإن كانت أوصافاً فهي من صفات الله:**

وبيان ذلك أن المضافات إلى الله على نوعين:

أ_أعيان قائمة بذاتها مثل: عبدالله، ناقة الله، فهذه من جملة المخلوقات، وإضافتها إلى الله من باب إضافة المخلوق لخالقه، وقد تقتضي تشريفاً مثل: بيت الله، وناقة الله، وقد لا تقتضي تشريفاً مثل: أرض الله، سماء الله.

ب_ أن يكون المضاف أوصافاً غير قائمة بذاتها مثل: سَمْع الله، قدرة الله، بصر الله، فهذه الإضافة تقتضي أن هذه الصفة قائمة بالله، وأن الله متصف بها، وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

القاعدة التاسعة: **القول في بعض الصفات كالقول في بعض:**

وهي قاعدة يُردُّ بها على من فرَّق بين الصفات؛ فأثبت بعضها، ونفى بعضها، فيقال لمن فعل ذلك: أثبتها جميعاً، أو انْفِها جميعاً.

ومن أثبت بعض الصفات، ونفى بعضها فهو مضطرب متناقض، وتناقض القول دليل على فساده وبطلانه.

القاعدة العاشرة: **القول في الصفات كالقول في الذات:**

وذلك أن الله _سبحانه_ ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقية لا تماثل الذوات فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل الصفات.

القاعدة الحادية عشرة: **ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار، ومجهولة لنا باعتبار:**

فباعتبار المعنى معلومة، وباعتبار الكيفية مجهولة؛ كالاستواء مثلاً، فمعناه معلوم لنا فهو بمعنى العلو، والارتفاع، والصعود، والاستقرار.

أما كيفيته فمجهولة؛ لأن الله أخبرنا بأنه استوى، ولم يخبرنا عن كيفية استوائه،

وهكذا يقال في باقي الصفات.

القاعدة الثانية عشرة: **في العلاقة بين الصفات والذات:**

وخلاصة القول في هذه المسألة أن العلاقة بين الصفات والذات علاقة تلازم؛ فالإيمان بالذات يستلزم الإيمان بالصفات، وكذلك العكس؛ فلا يُتَصَوَّر وجودُ ذاتٍ مجردة عن الصفات في الخارج، كما لا يتحقق وجود صفة من الصفات في الخارج إلا وهي قائمة بالذات[1].

القاعدة الثالثة عشرة: **في علاقة الصفات بعضها ببعض من حيث الآثار والمعاني:**

أما بالنسبة لبعضها فقد تكون مترادفة من حيث المعنى أو متقاربة.

مثل المحبة، والرحمة، والفرح، والتعجب، والضحك.

وهناك صفات متقابلة كالرفع والخفض، والظاهرية والباطنية، والنفع والضر، والقبض والبسط.

وهناك صفات متضادة من حيث معانيها، مثل الغضب والسخط مع الرضا، ومثل الكراهية مع الحب، وهكذا. . .

فاتصافه _عز وجل_ بهذه الصفات المزدوجة المأخوذة من أسمائه المتقابلة، وبالصفات المتضادة في معناها على ما تقدم، والمترادفة باعتبار الذات، والمتباينة باعتبار ما بينها في الغالب _ دليل على الكمال الذي لا يشاركه فيه أحد؛ لدلالته على شمول القدرة الباهرة، والحكمة البالغة، والتفرد بشؤون الكون

١ـ انظر الصفات الإلهية د. محمد أمان ص٣٤١.

كله[1].

١ـ انظر الصفات الإلهية ص٣٤٧ـ٣٤٩.

الفصل الثالث

الضلال في توحيد الأسماء والصفات

وتحته:

المبحث الأول: ما يُضاد توحيد الأسماءِ والصفات.

المبحث الثاني: الفِرَق التي ضلت في باب الأسماءِ والصفات.

المبحث الثالث: حُكْمُ من نفى صفة من الصفات الثابة بالكتاب والسنة.

المبحث الأول: ما يضاد توحيد الأسماء والصفات

يضاد توحيد الأسماء، والصفات الإلحادُ فيها، ويدخل في الإلحاد التعطيلُ، والتمثيلُ، والتكييف، والتفويض، والتحريف، والتأويل.

أولاً: الإلحاد: الإلحاد في اللغة هو: الميل، ومنه اللحد في القبر، ومنه قول عمرو ابن معدي كرب الزبيدي ــرضي الله عنهــ:

كــم مِــنْ أخٍ كــان لي ماجــدٍ ألحدتــه في يــديَّ الثــرى

وقول جرير:

دعــوت الملحــدين أبــا خبيــب جماحــاً هــل شــفيت مــن الجمــاح[1]

ويُقصد بالملحدين: المائلين عن الحق.

أما في الاصطلاح: فهو العدول عما يجب اعتقاده أو عمله[2].

والإلحاد في أسماء الله هو: العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها.

أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته[3]:

١ــ أن يُنْكَرَ شيءٌ مما دلت عليه من الصفات كفعل المعطلة.

٢ــ أن تُجعل دالة على تشبيه الله بخلقه، كفعل أهل التمثيل.

٣ــ أن يُسمى اللهُ بما لم يُسمِّ به نفسه؛ لأن أسماء الله توقيفية، كتسمية

١ـ ديوان جرير ص٧٤.

٢ـ انظر فتح ربِّ البرية بتخليص الحموية، ص١٨.

٣ـ انظر المرجع السابق، ص١٩.

النصارى له (أباً) وتسمية الفلاسفة إياه (علة فاعلة) أو تسميته بـ (مهندس الكون) أو (العقل المدبر) أو غير ذلك.

٤ـ أن يُشْتَقَّ من أسمائه أسماء للأصنام، كاشتقاق =اللات+ من =الإله+ والعُزَّى من =العزيز+.

٥ـ وصفه ـتعالى ـ بما لا يليق به، وبما ينزه عنه، كقول اليهود: إن الله تَعِبَ من خلق السموات والأرض، واستراح يوم السبت، أو قولهم: إن الله فقير.

ثانياً: التعطيل: التعطيل في **اللغة**: مأخوذ من العطل، الذي هو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: [وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ] (الحج: ٤٥)، أي: أهملها أهلها، وتركوا وردها[١].

وفي الاصطلاح: هو إنكار ما يجب لله ـتعالى ـ من الأسماء والصفات، أو إنكار بعضه، وهو نوعان:

أـ تعطيل كلي: كتعطيل الجهمية الذين أنكروا الصفات، وغلاتهم ينكرون الأسماء ـأيضاًـ.

ب ـ تعطيل جزئي: كتعطيل الأشعرية الذين ينكرون بعض الصفات دون بعض، وأول من عُرف بذلك من هذه الأمة الجعد بن درهم[٢].

ثالثاً: التمثيل: هو: إثبات مثيل للشيء، وفي الاصطلاح: اعتقاد أن صفات الله مثل صفات المخلوقين، كأن يقول الشخص: لله يدٌ مثل يدي، أو مثل أيدينا.

١ـ انظر شرح العقيدة الواسطية، للهراس ص٦٧.

٢ـ انظر فتح البرية، ص١٥ـ١٦.

رابعاً: التكييف: حكاية كيفية الصفة كقول القائل: يد الله أو نزوله إلى السماء الدنيا كذا وكذا، أو يده طويلة، أو غير ذلك، أو أن يسأل عن صفات الله بـ: كيف.

خامساً: التفويض: هو الحكم بأن معاني نصوص الصفات مجهولة غير معقولة لا يعلمها إلا الله[1].

أو هو إثبات الصفات، وتفويض معناها وكيفيتها إلى الله _عز وجل_.

والحق أن الصفات معلومة معانيها، أما كيفيتها فيفوض علمها إلى الله _عز وجل_.

سادساً: التحريف: التحريف لغة: التغيير، وفي الاصطلاح: تغيير النص لفظاً أو معنى.

والتغيير اللفظي قد يتغير معه المعنى، وقد لا يتغير، فهذه ثلاثة أقسام:

أ_تحريف لفظي يتغير معه المعنى: كتحريف بعضهم قولَه _تعالى_: [وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً] (النساء: ١٦٤) إلى نصب لفظ الجلالة؛ ليكون التكليم من موسى _عليه السلام_.

ب_ تحريف لفظي لا يتغير معه المعنى: كفتح الدال من قوله _تعالى_: [الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] (الفاتحة: ٢)، وذلك بأن يقول: =الحمدَ لله. . .+.

وهذا في الغالب لا يقع إلا من جاهل؛ إذ ليس فيه غرض مقصود لفاعله غالباً.

جـ_ تحريف معنوي: وهو صرف اللفظ عن ظاهره بلا دليل كتحريف معنى

١ـ انظر مذهب التفويض في نصوص عرض ونقد د. أحمد القاضي ص٥٦٧.

=اليدين+ المضافتين إلى الله إلى القوة والنعمة ونحو ذلك.

سابعاً: **التأويل**: التأويل في اللغة يدور حول عدة معانٍ، منها الرجوع، والعاقبة، والمصير، والتفسير.

أما في الاصطلاح فيطلق على ثلاثة معانٍ، اثنان منهما صحيحان مقبولان معلومان عند السلف، والثالث مبتدع باطل.

وإليك بيان هذه المعاني:

المعنى الأول: التفسير، وهو إيضاح المعنى، وبيانه.

وهذا اصطلاح جمهور المفسرين كابن جرير وغيره، فتراهم يقولون: تأويل هذه الآية كذا وكذا، أي تفسيرها.

الثاني: الحقيقة التي يؤول إليها الشيء، وهذا هو المعروف من معنى التأويل في الكتاب والسنة، كما قال ـتعالىـ: [هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ] (الأعراف:٥٣) وقوله: [ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً] (الإسراء: ٣٥)، وقوله عن يوسف ـعليه السلامـ: [هَذَا تَأْوِيْلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ].

الثالث: صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى يخالف الظاهر.

وهذا ما اصطلح عليه المتأخرون من أهل الكلام وغيرهم.

كتأويلهم الاستواء بالاستيلاء، واليد بالنعمة.

وهذا هو الذي ذمه السلف[1].

١ـ انظر تفصيل الحديث عن التأويل عموماً، والتأويل الباطني في كتاب مصطلحات في كتب العقائد دراسة وتحليل للكاتب ص ١٤ـ٢٤ و٢٥ـ٣٩.

المبحث الثاني: الفرق التي ضلت في باب الأسماء والصفات[١]

هناك فرق عديدة ضلت في هذا الباب منها:

١ــ الجهمية: وهم أتباع الجهم بن صفوان، وهم ينكرون الأسماء والصفات.

٢ــ المعتزلة: وهم أتباع واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وهم يثبتون الأسماء، وينكرون الصفات، معتقدين أن إثباتها يؤدي إلى تعدد القدماء[٢].

٣ــ الأشاعرة: وهم أتباع أبي الحسن الأشعري، وهم يثبتون الأسماء، وبعض الصفات، فقالوا: إن لله سبع صفات عقلية يسمونها =معاني+ هي =الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر والكلام+ وهي مجموعة في قول القائل:

حـــي علـــيم قـــدير والكـــلام لـــه إرادة وكـــذك الســـمع والبصـــر

وإثباتهم لهذه الصفات مخالف لطريقة السلف في الجملة[٣].

٤ــ الماتريدية: وهم أتباع أبي منصور الماتريدي، وهم يثبتون الأسماء وبعض الصفات، وإن كان هذا الإثبات مخالفاً لطريقة السلف في الجملة[٤].

٥ــ الممثلة: وهم الذين أثبتوا الصفات، وجعلوها مماثلة لصفات المخلوقين، وقيل إن أول من قال بذلك هو هشام بن الحكم الرافضي.

المبحث الثالث: حكم من نفى صفة من الصفات الثابتة لله بالكتاب والسنة

١ـ انظر فتح رب البرية، ص١٥.

٢ـ نظر المعتزلة، وأصولهم الخمسة، وموقف أهل السنة منها د. عواد المعتق، ص٨٤.

٣ـ منهج الأشاعرة في العقيدة، د. سفر الحوالي، ص٦٠.

٤ـ انظر الماتردية دراسة وتقويماً، للشيخ أحمد بن عوض الله الحربي، ص٢٣٤.

هذا الأمر يحتاج إلى تأنٍّ وتريث، ثم تفصيل.

فيقال: إن الذي ينفي صفة من الصفات الثابتة لله بالنصوص القطعية لا يخلو من أحد ثلاثة أحوال.

أولها: أن يكون النافي عالماً بالنص الذي ثبتت به الصفةُ المنفيةُ كتاباً كان أو سنة، ولا توجد لديه شبهات قد تُغَيِّر مفهومَه للنص، وإنما نفى لعناده، وفساد قصده، ومرض قلبه، ومشاقتَّه للرسول من بعد ما تبين له الحق.

فهذا كافر؛ لتكذيبه كلامَ الله، أو كلامَ رسوله".

الثاني: أن يكون النافي مجتهداً في طلب الحق، معروفاً بالنصيحة والصدق، ولكنه أخطأ وتأول؛ لجهله بالنص، أو لعدم علمه بالمفهوم الصحيح؛ فحكمه أنه معذور، وخطؤه مغفور؛ لأن نفيه ناتج عن تأويل، لا عن عناد وفساد قصد.

الثالث: أن يكون النافي مُتَّبِعاً لهواه، مقصراً في طلب الحق، متكلماً بلا علم، ولكنه لا يقصد مشاقة الرسول، ولم يتبين له الحق تماماً؛ فحكمه أنه عاصٍ مذنبٌ، وقد يكون فاسقاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =وأما التكفير فالصواب أنه من اجتهد من أمة محمد"وقَصَد الحقَّ فأخطأ لم يكفر، بل يغفر له خطؤه.

ومن تبين له ما جاء به الرسول فشاقَّ الرسول من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين فهو كافر.

ومن اتبع هواه، وقصَّر في طلب الحق، وتكلم بلا علم فهو عاصٍ مذنب، وقد

يكون فاسقاً، وقد تكون حسناته ترجح على سيئاته؛ فالتكفير يختلف باختلاف حال الشخص؛ فليس كلُّ مخطئٍ، ولا مبتدعٍ، ولا جاهلٍ، ولا ضالٍ يكون كافراً، بل ولا فاسقاً، بل ولا عاصياً+[١].

وقال ×: =هذا مع أنني دائماً ومن جالسني يعلم ذلك مني أني من أعظم الناس نهياً عن أن يُنْسَبَ مُعَيَّنٌ إلى تكفير، وتفسيق ومعصية إلا إذا عُلِم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة، وفاسقاً أخرى، وعاصياً أخرى.

وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العملية.

وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يَشْهَدْ أحدٌ منهم على أحد لا بكفر، ولا بفسق، ولا بمعصية+.

إلى أن قال: =وكنت أبيِّن أن ما نقل عن السلف، والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول: كذا وكذا فهو أيضاً حق.

لكن يجب التفريق بين الإطلاق، والتعيين+[٢].

١ـ مجموع الفتاوى ١٨٠/٢.

٢ـ مجموع الفتاوى ٢٢٩/٣.

الفصل الرابع

الكلمات المجملة، وطريقة أهل السنة في التعامل معها

وتحته:

تمهيد

المبحث الأول: دراسة لكلمتي: الجهة والحد.

المبحث الثاني: دراسة لكلمتي: الأعراض، والأبعاض.

المبحث الثالث: دراسة لكلمتي: الأغراض، وحلول الحوادث بالله ـ تعالى ـ.

المبحث الرابع: دراسة لكلمة: التسلسل.

الفصل الرابع: الكلمات المجملة، وطريقة أهل السنة في التعامل معها

تمهيد

يَرِدُ في كتب العقائد مصطلح (الكلمات المجملة).

فما المقصود بها؟ وما معنى كونها مجملة؟ وما المراد من إطلاقها؟ وما الذي دعى إلى إطلاقها؟ وهل وردت في الكتاب والسنة؟ وما طريقة أهل السنة في التعامل مع هذه الألفاظ؟

والإجابة عن هذه الأسئلة تكون على النحو التالي:

أ_المقصود بالكلمات المجملة: أنها ألفاظ يطلقها أهل التعطيل.

أو: هي مصطلحات أحدثها أهل الكلام.

ب_ ومعنى كونها مجملة: أنها تحتمل حقاً وباطلاً.

أو يقال: لأنها ألفاظ مُشتركة بين معانٍ صحيحة، ومعانٍ باطلة. أو يقال لخفاء المراد منها؛ بحيث لا يدرك معنى اللفظ إلا بعد الاستفصال والاستفسار.

ج_ ومراد أهل التعطيل من إطلاقها: التوصل إلى نفي الصفات عن الله _تعالى_ بحجة تنزيهه عن النقائص.

د_ والذي دعاهم إلى ذلك: عجزهم عن مقارعة أهل السنة بالحجة؛ فلجؤوا إلى هذه الطريقة؛ ليخفوا عوارهم، وزيفهم.

هـ_ وهذه الألفاظ لم ترد لا في الكتاب، ولا في السنة؛ بل هي من إطلاقات أهل الكلام.

و ــ **وطريقة أهل السنة في التعامل مع هذه الكلمات:** أنهم يتوقفون في هذه الألفاظ؛ لأنه لم يرد نفيها ولا إثباتها في الكتاب والسنة؛ فلا يثبتونها، ولا ينفونها.

أما المعنى الذي تحت هذه الألفاظ فإنهم يستفصلون عنه، فإن كان معنى باطلاً يُنَزَّه الله عنه رَدُّوه، وإن كان معنى حقاً لا يمتنع على الله قبلوه، واستعملوا اللفظ الشرعي المناسب للمقام.

وأشهر الألفاظ المجملة وروداً في كتب العقائد ما يلي:

١ــ الجهة.

٢ــ الحدَّ.

٣ــ الأعراض.

٤ــ الأبعاض أو الأعضاء والأركان والجوارح.

٥ــ حلول الحوادث بالله ــتعالىــ.

٦ــ التسلسل.

وسيرد في المباحث التالية دراسة وتحليل لتلك الألفاظ المجملة.

المبحث الأول: دراسة لكلمتي: الجهة والحد

أولاً: دراسة لكلمة: الجهة

هذه اللفظة من الكلمات المجملة التي يطلقها أهل التعطيل، فما معناها في اللغة؟ وما مرادهم من إطلاقها؟ وما التحقيق في تلك اللفظة؟ وهل هي ثابتة لله، أو منفية عنه؟

أ_معنى الجهة في اللغة: تطلق الجهة على الوضع الذي تتوجه إليه، وتقصده، وتطلق على الطريق، وعلى كل شيء استقبلته، وأخذت فيه[1].

ب_ ومراد أهل التعطيل من إطلاق لفظ الجهة: نفي صفة العلو عن الله _عز وجل_.

ج_ والتحقيق في هذه اللفظة: أن يقال: إن إطلاق لفظ الجهة في حق الله _سبحانه وتعالى_ أمر مبتدع لم يرد في الكتاب ولا السنة، ولا عن أحد من سلف هذه الأمة.

وبناءً على هذا لا يصح إطلاق الجهة على الله _عز وجل_ لا نفياً ولا إثباتاً، بل لابد من التفصيل؛ لأن هذا المعنى يحتمل حقاً ويحتمل باطلاً.

فإن أريد بها جهة سفل فإنها منتفية عن الله، وممتنعة عليه أيضا؛ فإن الله أعظم وأجل من أن يحيط به شيء من مخلوقاته، كيف وقد وسع كرسيه السموات والأرض؟

١ـ انظر لسان العرب ١٣/٥٥٥ـ٥٦٠.

وإن أريد بالجهة أنه في جميع الجهات، وأنه حالٌّ في خلقه، وأنه بذاته في كل مكان فإن ذلك ممتنع على الله، منتفٍ في حقه.

وإن أريد نفي الجهة عن الله كما يقول أهل التعطيل؛ حيث يقولون: إن الله ليس في جهة، أي ليس في مكان، فهو لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل، ولا منفصل، ولا فوق، ولا تحت _ فإن ذلك _أيضاً_ ممتنع على الله منتفٍ في حقه؛ إذ إن ذلك وصف له بالعدم المحض.

وإن أريد بالجهة أنه في جهة علوٍّ تليق بجلاله، وعظمته من غير إحاطة به، ومن غير أن يكون محتاجاً لأحد من خلقه _ فإن ذلك حق ثابت له، ومعنى صحيح دلت عليه النصوص، والعقول، والفطر السليمة.

ومعنى كونه في السماء، أي في جهة العلو، أو أن =في+ بمعنى على، أي على السماء، كما قال تعالى: [وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ](طه: ٧١) أي على جذوع النخل.

وبهذا التفصيل يتبين الحق من الباطل في هذا الإطلاق.

أما بالنسبة للفظ فكما سبق لا يثبت ولا ينفي، بل يجب أن يستعمل بدلاً عنه اللفظ الشرعي، وهو العلو، والفوقية[١].

ثانياً: دراسة لكلمة: الحد

١ـ انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢٢١، والتحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية ص١٦٦ـ١٧١. وفتح رب البرية ص٣٣ـ٣٥.

وهذا _أيضاً_ من الألفاظ المجملة التي يطلقها أهل التعطيل.

فما معنى الحد في اللغة؟ وماذا يريد أهل التعطيل من إطلاقه؟ وما شبهتهم في ذلك؟ وما جواب أهل السنة؟

أ_ معنى الحد في اللغة: يطلق على الفَصْل، والمنع، والحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر.

يقال: حددت كذا، جعلت له حداً يميزه.

وحَدُّ الدار ما تتميز به عن غيرها، وحد الشيء: الوصف المحيط بمعناه، المميِّزُ له عن غيره[1].

ب_ وأهل التعطيل يريدون من إطلاق لفظ (الحد) نفي استواء الله على عرشه.

ج_ وشبهتهم في ذلك: أنهم يقولون: لو أثبتنا استواء الله على عرشه للزم أن يكون محدوداً؛ لأن المستوى على الشيء يكون محدوداً؛ فالإنسان مثلاً إذا استوى على البعير صار محدوداً بمنطقة معينة، محصوراً بها، وعلى محدود _أيضاً_.

وبناء على ذلك فهم ينفون استواء الله على عرشه ويرون أنهم ينزهون الله _عز وجل_ عن الحد، أو الحدود.

د _ جواب أهل السنة: أهل السنة يقولون: إن لفظ (الحد) لم يرد في الكتاب، ولا في السنة.

١ـ انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص١٠٨، والمصباح المنير للفيومي ص٦٨.

وليس لنا أن نصف الله بما لم يصف به نفسه، ولا وصفه به رسوله"لا نفياً، ولا إثباتاً، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون.

هذا بالنسبة للفظ.

أما بالنسبة للمعنى فإننا نستفصل _كعادتنا_ ونقول: ماذا تريدون بالحد؟

إن أردتم بالحد أن الله _عز وجل_ محدود، أي متميز عن خلقه، منفصل عنهم، مباين لهم فهذا حق ليس فيه شيء من النقص، وهو ثابت لله بهذا المعنى.

وإن أردتم بكونه محدوداً أن العرش محيط به، وأنتم تريدون نفي ذلك عنه بنفي استوائه عليه _ فهذا باطل وليس بلازم صحيح؛ فإن الله _تعالى_ مستوٍ على عرشه، وإن كان _عز وجل_ أكبر من العرش ومن غير العرش.

ولا يلزم من كونه مستوياً على العرش أن يكون العرش محيطاً به؛ لأن الله _عز وجل_ أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه[1].

١ـ انظر شرح عقيدة الطحاوية ص٢١٩، وشرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله ٣٧٦/١ و ٣٧٩ـ٣٨٠.

المبحث الثاني: دراسة لكلمتي: الأعراض والأبعاض

أولاً: دراسة لكلمة: الأعراض

هذا اللفظ من الألفاظ المجملة التي يطلقها أهل الكلام ومن أقوالهم في ذلك: =نحن نُنَزِّه الله _تعالى_ من الأعراض والأغراض، والأبعاض، والحدود، والجهات+.

ويقولون: =سبحان من تنزه عن الأعراض والأغراض والأبعاض+.

والحديث ههنا سيكون حول لفظ (الأعراض) أما بقية الألفاظ فسيأتي ذكرها فيما بعد.

أ_ **تعريف الأعراض في اللغة:** الأعراض جمع عَرَض، والعَرَض هو ما لا ثبات له.

أو هو: ما ليس بلازم للشيء.

أو هو: ما لا يمتنع انفكاكه عن الشيء[1].

ومن الأمثلة على ذلك: الفرح بالنسبة للإنسان فهو عَرَض؛ لأنه لا ثبات له، بل هو عارض يعرض ويزول.

وكذلك الغضب، والرضا.

ب_ **العَرَض في اصطلاح المتكلمين:** قال الفيومي: =العَرَض عند المتكلمين

١ـ انظر التعريفات للجرجاني ص١٥٣ـ١٥٤.

ما لا يقوم بنفسه، ولا يوجد إلا في محل يقوم به+[١].

وقال الراغب الأصفهاني: =والعرض ما لا يكون له ثبات، ومنه استعار المتكلمون العَرَض لما لا ثبات له إلا بالجوهر كاللون والطعم+[٢].

جـ مراد المتكلمين من قولهم: =إن الله منزه عن الأعراض+: مرادهم من ذلك نفي الصفات عن الله _تعالى_ لأن الأعراض عندهم هي الصفات.

د_ شبهتهم في ذلك: يقولون: لأن الأعراض لا تقوم إلا بالأجسامِ، والأجسامُ متماثلة؛ فإثبات الصفات يعني أن الله جسم، والله منزه عن ذلك.

وبناءً عليه نقول بنفي الصفات؛ لأنه يترتب على إثباتها التجسيم، وهو وصف الله بأنه جسم، والتجسيم تمثيل، وهذا كفر وضلال، فهذه هي شبهة المتكلمين.

هـ _ الرد على أهل الكلام في هذه المسألة: الرد عليهم من وجوه:

١_ أن لفظة =الأعراض+ لم ترد في الكتاب ولا في السنة لا نفياً ولا إثباتاً، ولم ترد كذلك عن سلف الأمة.

وطريقة أهل السنة المعهودة في مثل هذه الألفاظ التوقف في اللفظ، فلا نثبت الأعراض، ولا ننفيها.

أما معناها فيُستَفْصَل عن مرادهم في ذلك ويقال لهم: إن أردتم بالأعراض ما يقتضي نقصاً في حق الله _تعالى_ كالحزن، والندم، والمرض، والخوف، فإن المعنى صحيح، والله منزه عن ذلك؛ لأنه نقص، لا لأنها أعراض.

١ـ المصباح المنير للفيومي ص٢٠٩.

٢ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٣٤٢.

وإن أردتم نفي ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله"من الصفات كالغضب، والفرح، والرضا، ونحوها بحجة أنها أعراض _ فإن ذلك باطل مردود، ولا يلزم من إثباتها أي لازم.

٢_ **أن الصفات الربانية ليست كلها أعراض،** بل إن بعضها أعراض كالفرح، والغضب، وبعضها ليست أعراضاً، كبعض الصفات الذاتية كاليد، والوجه، والقدم، والساق؛ فهذه ليست أعراضاً، بل لازمة للذات لا تنفك عنها.

٣_ **أن قولكم: =إن الأعراض لا تقوم إلا بجسم+ قول باطل؛** فالأعراض قد تقوم بغير الجسم كما يقال: ليل طويل، فقولنا: طويل، وصف لـ: ليل، والليل ليس بجسم، ومثل ذلك: حر شديد، ومرض مؤلم، وبرد قارس.

٤_ **أن القول بتماثل الأجسام قول باطل؛** فالأجسام غير متماثلة لا بالذوات ولا بالصفات، ولا بالحدوث؛ ففي الحجم تختلف الذرَّة عن الجمل، وفي الوزن يختلف جسم القيراط عن جسم القنطار، وفي الملمس يختلف الخشن عن الناعم، واللين عن القاسي، وهكذا.

٥_ **أن لفظ الجسم مِنْ إحداث المتكلمين،** وهذا اللفظ كقاعدة الألفاظ المجملة؛ فإن كان إثبات الصفات يلزم منه أن يكون جسماً في مفهومك فليس ذلك يضيرنا.

لكن إن أردت بالجسم الشيء القائم بنفسه المتصف بما يليق به فهذا حق لأننا نؤمن بأن لله ذاتاً موصوفة بالصفات اللائقة بها.

فإن أردت بالجسم هذا المعنى فيصح.

وإن أردت بالجسم الشيء المكوَّن من أعضاء، ولحم ودم المفتقر بعضه إلى

بعض وما أشبه ذلك فباطل غير صحيح؛ لأنه يلزم أن يكون الله حادثاً أو مُحْدَثاً. وهذا أمر مستحيل، على أننا لا نوافق على إثبات الجسم، ولا نفيه؛ لأنه يحتمل حقاً وباطلاً.

ثانياً: دراسة لكلمة: الأبعاض

الأبعاض، ويقال: الأعضاء، أو الأركان، أو الجوارح: وهذه أيضاً من الكلمات المجملة التي تطلق وتحتمل حقاً وباطلاً؛ فإليك نبذة في معانيها، ومقصود أهل التعطيل من إطلاقها وجواب أهل السنة على تلك الدعوى.

أ_ معاني هذه الكلمات: معاني هذه الكلمات متقاربة من بعض.

_ **فالأبعاض**: جمع لكلمة بعض، يقال: بعض الشيء أي جزؤه، وبعّضْتُ كذا أي جعلته أبعاضاً[1].

_ **والأركان**: جمع ركن، وركن الشيء قوامه، وجانبه القوي الذي يتم به، ويسكن إليه.

_ **والأجزاء**: جمع جزء، والجزء ما يتركب الشيء عنه وعن غيره.

وجزءُ الشيء ما يتقوم به جملتُه كأجزاء السفينة، وأجزاء البيت.

_ **والجوارح**: مفردها الجارحة، وتسمى الصائدة من الكلاب والفهود والطيور جارحة؛ إما لأنها تجرح، وإما لأنها تكسب.

١ـ انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ص٥٠ و ٨٨ و ٩٠ و ٢٠٨ والتعريفات ص٧٨ و ١١٧.

وسميت الأعضاء الكاسبة جوارح تشبيهاً بها لأحد هذين[١].

_ ويشبه هذه الألفاظ لفظ: الأعضاء، والأدوات، ونحوها.

ب_ مقصود أهل التعطيل من إطلاقها: مقصودهم نفي بعض الصفات الذاتية الثابتة بالأدلة القطعية، كاليد، والوجه، والساق، والقدم والعين[٢].

ج_ ما الذي دعاهم إلى نفيها؟ الذي دعاهم إلى نفي تلك الصفات هو اعتقادهم أنها بالنسبة للمخلوق أبعاض، وأعضاء، وأركان، وأجزاء، وجوارح وأدوات ونحو ذلك؛ فيرون _بزعمهم_ أن إثبات تلك الصفات لله يقتضي التمثيل، والتجسيم؛ فوجب عندهم نفيها قراراً من ذلك.

وقد لجؤوا إلى تلك الألفاظ المجملة؛ لأجل أن يروج كلامهم، ويلقى القبول.

د_ جواب أهل السنة: أهل السنة يقولون: إن هذه الصفات وإن كانت تعد في حق المخلوق أبعاضاً، أو أعضاءً، وجوارح ونحو ذلك لكنها تعدُّ في حق الله صفاتٍ أثبتها لنفسه، أو أثبتها له رسوله"فلا نخوض فيها بآرائنا وأهوائنا، بل نؤمن بها ونُمِرُّها كما جاءت ونفوِّض كنهها وحقيقتها إلى الله _عز وجل_ لعدم معرفتنا لحقيقة الذات؛ لأن حقيقة معرفة الصفة متوقفة على معرفة حقيقة الذات كما لا يخفى، وهذه الصفات _أعني اليد، والساق ونحوها وكثير من صفات الله_ قد تشترك مع صفات خلقه في اللفظ، وفي المعنى العام المطلق قبل أن تضاف.

وبمجرد إضافتها تختص صفات الخالق بالخالق، وصفات المخلوق بالمخلوق؛ فصفات الخالق تليق بجلاله وعظمته وربوبيته، وقيومته.

١ـ المرجع السابق نفسه.

٢ـ انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢١٩.

وصفات المخلوق تليق بحدوثه، وضعفه، ومخلوقيته[1].

وبناءً على ذلك يقال لمن يطلق تلك الألفاظ المجملة السالفة: إن أردت أن تنفي عن الله _عز وجل_ أن يكون جسماً، وجثةً، وأعضاءً، ونحوَ ذلك _ فكلامك صحيح، ونفيك في محله.

وإن أردت بذلك نفي الصفات الثابتة له، والتي ظننت أن إثباتها يقتضي التجسيم، ونحو ذلك من اللوازم الباطلة _ فإن قولك باطل، ونفيك في غير محله.

هذا بالنسبة للمعنى.

أما بالنسبة للفظ فيجب ألا تعْدِل عن الألفاظ الشرعية في النفي أو الإثبات؛ لسلامتها من الاحتمالات الفاسدة.

يقول شارح الطحاوية ×: =ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء، أو جوارح، أو أدوات، أو أركان؛ لأن الركن جزء الماهية، والله _تعالى_ هو الأحد، الصمد، لا يتجزأ سبحانه وتعالى والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية[2] تعالى الله عن ذلك، ومن هذا المعنى قوله _تعالى_: [الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ] (الحجر: ٩١).

والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع؛ وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة.

وكل هذه المعاني منتفية عن الله _تعالى_ ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله _تعالى_ فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني، سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فكذلك يجب أن لا يُعدل عن الألفاظ الشرعية نفياً، ولا إثباتاً؛ لئلا يثبت معنىً

١ـ انظر الصفات الإلهية ص٢٠٨ـ٢٠٩.

٢ـ التعضية: التقطيع، وجعل الشيء أعضاءً.

فاسدٌ، وأن يُنْفَى معنىً صحيحٌ.

وكل هذه الألفاظ المجملة عُرْضَةٌ للمُحِقِّ والمبْطِلِ+[1].

١ـ شرح العقيدة الطحاوية ص٢٢٠ و ٢٢١.

المبحث الثالث: دراسة لكلمتي: الأغراض، وحلول الحوادث

أولاً: دراسة لكلمة: الأغراض

هذه الكلمة من إطلاقات المتكلمين، وإليك بعض التفصيل في هذا اللفظ.

أ_ الأغراض في اللغة: جمع غرض، والغرض هو الهدف الذي يُرمى فيه، أو هو الهدف الذي يُنصب، فيُرمى فيه.

والغرض يطلق في اللغة _أيضاً_ على الحاجة، والبغية، والقصد(١).

ب_ الغرض في اصطلاح علماء الكلام: قيل هو ما لأجله يصدر الفعل من الفاعل(٢).

وقال الجلال الدواني ×: =الغرض هو الأمر الباعث للفاعل على الفعل، وهو المحرك الأول، وبه يصير الفاعل فاعلاً+(٣).

وبذلك نرى توافق المعنى اللغوي والاصطلاحي للغرض، وأنه غاية الفاعل من فعله، وهو الباعث له على فعله(٤).

ج_ مراد أهل الكلام بهذه اللفظة: يريدون إبطال الحكمة في أفعال الله _عز وجل_ وشرعه.

١ـ انظر لسان العرب ١٩٦/٧.

٢ـ انظر شرح مطالع الأنظار على طوالع الأنوار لشمس الدين بن محمود الأصفهاني ص٩١٧.

٣ـ شرح العقائد العضدية للجلال الدواني ٢٠٤/٢.

٤ـ انظر الحكمة والتعليل في أفعال الله د.محمد المدخلي ص٢٦ـ٤٧.

د_ حجتهم في ذلك: يقول المتكلمون _وعلى وجه الخصوص الأشاعرة_: إننا ننزه الله عن الأغراض فلا يكون له غرض فيما شرعه أو خلقه؛ فأبطلوا الحكمة من ذلك، وقرروا أن الله لم يشرع إلا لمجرد مشيئته فحسب؛ فإذا شاء تحريم شيء حرَّمه، أو شاء إيجابه أوجبه.

وقالوا: لو قررنا أن له حكمة فيما شرعه لوقعنا في محذورين:

الأول: أنه إذا كان لله غرض فإنه محتاج إلى ذلك الغرض؛ ليعود عليه من ذلك منفعة، والله منزه عن ذلك.

والثاني: أننا إذا عللنا الأحكام أي أثبتنا الحكمة والعلة لزم أن نوجب على الله ما تقتضيه الحكمة؛ لأن الحكم يدور مع علته، فنقع فيما وقع فيه المعتزلة من إيجاب الصلاح والأصلح على الله؛ لأن الغرض عند المعتزلة بمعنى الغاية التي فعل لها، وهم يوجبون أن يكون فعله معللاً بالأغراض[1].

هـ _ الرد عليهم:

١_ أن هذا اللفظ _الأغراض أو الغرض_ لم يرد لا في الكتاب ولا في السنة، ولا أطلقه أحد من علماء الإسلام وأتباعهم؛ لأن هذه الكلمة قد تُوْهِمُ النقص، ونفيها قد يفهم منه نفي الحكمة؛ فلابد _إذاً_ من التفصيل، والأولى أن يعبر بلفظ: الحكمة، والرحمة، والإرادة، ونحو ذلك مما ورد به النص.

٢_ أن الغرض الذي ينزه الله عنه ما كان لدفع ضرر، أو جلب مصلحة له، فالله _سبحانه_ لم يخلق، ولم يشرع لأن مصلحة الخلق والأمر تعود إليه، وإنما

١ـ انظر آراء المعتزلة الأصولية، دراسة وتقويماً د. علي الضويحي، ص١٠٦ـ١١٥.

ذلك لمصلحة الخلق.

ولا ريب أن ذلك كمال محض، قال ـ تعالى ـ: [إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً] (آل عمران:١٧٦) .

وقال: [إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ] (الزمر:٧).

وفي الحديث القدسي: =**يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني**+[1].

وهذا أمر مستقر في الفطر.

٣ ـ أن إيجاب حصول الأشياء على الله متى وجدت الحكمة حق صحيح، لكنه مخالف لما يراه المعتزلة من جهة أن الله عز وجل هو الذي أوجب هذا على نفسه، ولم يوجبه عليه أحد، كما قال ـ عز وجل ـ: [كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ] (الأنعام:٥٤).

وكما قال: [وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ] (الروم:٤٧).

وكما في حديث معاذ بن جبل÷لما كان رديف النبي"على حمار فقال: =**أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**+ قال معاذ: الله ورسوله أعلم.

قال: =**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به**+ الحديث[2].

فهذا حق أوجبه الله على نفسه، ولله أن يوجب على نفسه ما يشاء.

١ـ رواه مسلم (٢٥٧٧)

٢ـ رواه البخاري (٧٣٧٣) ومسلم (٢٨٥٦).

ثم إن مقياس الصلاح والأصلح ليس راجعاً إلى عقول البشر، ومقاييسهم بل إن ذلك راجع إلى ما تقتضيه حكمة الله _تعالى_ فقد تكون على خلاف ما يراه الخلق باديء الرأي في عقولهم القاصرة؛ فانقطاع المطر _على سبيل المثال_ قد يبدو لكثير من الناس أنه ليس الأصلح، بينما قد يكون هو الأصلح لكنه مراد لغيره لقوله تعالى: [ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] (الروم: ٤١).

وكذلك استدراج الكفار بالنعم، وابتلاء المسلمين بالمصائب كل ذلك يحمل في طياته ضروباً من الحكم التي لا تحيط عقول البشر إلا بأقل القليل منها.

بل إن خلق إبليس، وتقدير المعاصي، وتقدير الآلام يتضمن حكماً تبهر العقول وتُبين عن عظيم حكمة أحكم الحاكمين[١].

ثانياً: حلول الحوادث بالله _تعالى_

هذا اللفظ من إطلاقات أهل الكلام، وإليك بعض التفصيل في معناه، ومقصود أهل الكلام منه، والرد على ذلك.

أ_ معنى كلمة (حلول): الحلول هو عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر، كحلول الماء في الكوز[٢].

ب_ معنى كلمة (الحوادث): الحوادث جمع حادث، وهو الشيء المخلوق المسبوق بالعدم، ويسمى حدوثاً زمانياً.

١ـ انظر تفصيل ذلك في كتاب الإيمان بالقضاء والقدر للكاتب، ص١٤٥ـ١٧٦.

٢ـ انظر التعريفات للجرجاني ص٩٧.

وقد يعبر عن الحدوث بالحاجة إلى الغير، ويسمى حدوثاً ذاتياً.

والحدوث الذاتي: هو كون الشيء مفتقراً في وجوده إلى الغير.

والحدوث الزماني: هو كون الشيء مسبوقاً بالعدم سبقاً زمانياً[١].

جـ معنى (حلول الحوادث بالله ـتعالىـ): أي قيامها بالله، ووجودها فيه ـتعالىـ.

د ـ مقصود أهل التعطيل من هذا الإطلاق: مقصودهم نفي اتصاف الله بالصفات الاختيارية الفعلية، وهي التي يفعلها متى شاء، كيف شاء، مثل الإتيان لفصل القضاء، والضحك، والعجب، والفرح؛ فينفون جميع الصفات الاختيارية.

هـ ـ حجتهم في ذلك: وحجتهم في ذلك أن قيام تلك الصفات بالله يعني قيام الحوادث أي الأشياء المخلوقة الموجودة بالله.

وإذا قامت به أصبح هو حادثاً بعد أن لم يكن، كما يعني ذلك أن تكون المخلوقات حالَّةً فيه، وهذا ممتنع، فهذه هي حجتهم.

وـ جواب أهل السنة: أهل السنة يقولون: إن هذا الإطلاق لم يَرِدْ في كتاب ولا سنة، لا نفياً ولا إثباتاً، كما أنه ليس معروفاً عند سلف الأمة.

أما المعنى فيستفصل عنه؛ **فإن أريد بنفي حلول الحوادث بالله** أن لا يَحُلَّ بذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يحدث له وصفٌ متجددٌ لم يكن له من قبل فهذا النفي صحيح؛ فالله عز وجل ليس مَحَلاً لمخلوقاته وليست موجودة فيه، ولا يحدث له وصف متجدد لم يكن له من قبل.

١ـ انظر التعريفات ص٨٥ـ٨٦.

وإن أريد بالحوادث: أفعاله الاختيارية التي يفعلها متى شاء كيف شاء كالنزول، والاستواء، والرضا، والغضب، والمجيء لفصل القضاء ونحو ذلك_ فهذا النفي باطل مردود.

بل يقال له: إن تلك الصفات ثابتةٌ، وإن مُثبتَها _في الحقيقة_ مثبتٌ ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله".

المبحث الرابع: دراسة لكلمة: التسلسل

التسلسل: وهو أحد الألفاظ المجملة التي يطلقها المتكلمون.

ولأجل أن يتضح مفهوم هذه اللفظة، ومدلولها، ووجه الصواب والخطأ في إطلاقها إليك هذا العرض الموجز.

أـ تعريف التسلسل: قال الجرجاني: =التسلسل هو ترتيب أمور غير متناهية+[1].

ب ـ سبب تسميته بذلك: سمي بذلك أخذاً من السلسلة؛ فهي قابلة لزيادة الحِلَق إلى ما لا نهاية؛ فالمناسبة بينهما عدم التناهي بين طرفيهما؛ ففي السلسلة مبدؤها ومنتهاها، وأما التسلسل فطرفاه الزمن الماضي والمستقبل.

ج ـ مراد أهل الكلام من إطلاق هذه اللفظة: مرادهم يختلف باختلاف سياق الكلام، وباختلاف المتكلمين؛ فقد يكون مرادهم نفي قدم اتصاف الله ببعض صفاته، وقد يكون مرادهم نفي دوام أفعال الله ومفعولاته، وقد يكون مرادهم نفي أبدية الجنة والنار، وقد يكون غير ذلك.

د ـ هل وردت هذه اللفظة في الكتاب أو السنة، أو أطلقها أحد من أئمة السلف؟ الجواب: لا.

هـ ـ طريقة أهل السنة في التعامل مع هذا اللفظ: طريقتهم كطريقتهم في سائر الألفاظ المجملة، حيث إنهم يتوقفون في لفظ =التسلسل+ فلا يثبتونه، ولا

١ ـ التعريفات للجرجاني ص ٥٧.

ينفونه، لأنه لفظ مبتدع مجمل يحتمل حقاً وباطلاً، وصواباً وخطأ.

هذا بالنسبة للفظ.

أما بالنسبة للمعنى فإنهم يستفصلون، فإن أريد به حق قبلوه، وإن أريد به باطل ردوه.

و_ **وبناء على ذلك** فإنه ينظر في هذا اللفظ، وتطبق عليه هذه القاعدة: فيقال لمن أطلقوا هذه اللفظ:

١_ إذا أردتم بالتسلسل: دوام أفعال الرب _أزلاً[١] وأبداً[٢]_ فذلك معنى صحيح دل عليه العقل والشرع؛ فإثباته واجب، ونفيه ممتنع، قال الله _تعالى_: [فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ] (هود: ١٠٧).

والفعال هو من يفعل على الدوام، ولو خلا من الفعل في أحد الزمانين لم يكن فعالاً، فوجب دوام الفعل أزلاً وأبداً.

ثم إن المتصف بالفعل أكمل ممن لا يتصف به، ولو خلا الرب منه لخلا من كمال يجب له، وهذا ممتنع.

ولأن الفعل لازم من لوازم الحياة، وكل حي فهو فعال، والله _تعالى_ حي، فهو فعال وحياته لا تنفك عنه أبداً وأزلاً.

ولأن الفرق بين الحيِّ والميتِ الفعلُ، والله حيٌّ؛ فلابد أن يكون فاعلاً، وخُلُوُّه

١ـ الأزل: هو القدم الذي لا بداية له، أو هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي.

٢ـ والأبد هو المستقبل الذي لا نهاية له، أو هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل. انظر التعريفات للجرجاني ص١٦.

من الفعل في أحد الزمانين: الماضي والمستقبل ممتنع؛ فوجب دوام فعله أزلاً وأبداً.

فخلاصة هذه المسألة أنه إذا أريد بالتسلسل دوام أفعال الرب فذلك معنىً صحيح واجب في حق الله، ونفيه ممتنع.

٣ـ وإذا أريد بالتسلسل: أنه ـتعالىـ كان معطلاً عن الفعل ثم فعل، أو أنه اتصف بصفة من الصفات بعد أن لم يكن متصفاً بها، أو أنه حصل له الكمال بعد أن لم يكن ـ فذلك معنىً باطلٌ لا يجوز.

فالله ـعز وجلـ لم يزل متصفاً بصفات الكمال صفاتِ الذات، وصفاتِ الفعل، ولا يجوز أن يُعتقد أن الله اتصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها؛ لأن صفاته ـسبحانهـ صفات كمال، وفقْدها صفة نقص؛ فلا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده.

قال الإمام الطحاوي ×: =ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته.

وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليها أبدياً+.

مثال ذلك صفة الكلام؛ فالله ـعز وجلـ لم يزل متكلماً إذا شاء.

ولم تحدث له صفةُ الكلام في وقت، ولم يكن معطلاً عنها في وقت، بل هو متصف بها أزلاً وأبداً.

وكذلك صفة الخلق، فلم تحدث له هذه الصفة بعد أن كان معطلاً عنها.

٤ـ وإذا كان المقصود بالتسلسلِ التسلسلَ في مفعولات الله ـعز وجلـ وأنه ما زال ولا يزال يخلق خلْقاً بعد خلق إلى ما لا نهاية ـ فذلك معنىً صحيحٌ، وتسلسلٌ ممكنٌ، وهو جائز في الشرع والعقل.

قال الله _تعالى_: [أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ] (ق:١٥).

ثم إنه _عز وجل_ ما زال يخلق خلقاً، ويرتب الثاني على الأول وهكذا؛ فما زال الإنسان والحيوان منذ خلَقَهُ الله يترتب خلقه على خلق أبيه وأمه.

٥_ وإن أريد بالتسلسل: التسلسل بالمؤثِّرين، أي بأن يؤثِّر الشيء بالشيء إلى ما لا نهاية، وأن يكون مؤثرون كلٌّ واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية _ فذلك تسلسل ممتنع شرعاً وعقلاً؛ لاستحالة وقوعه؛ فالله _عز وجل_ خالق كل شيء، وإليه المنتهى؛ فهو الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء.

والقول بالتسلسل في المؤثرين يؤدي إلى خلو المحدَثِ والمخلوقِ من مُحْدِثٍ وخالقٍ، وينتهي بإنكار الخالق _جل وعلا_.

خلاصة القول في مسألة التسلسل عموماً:

_ أن التسلسل هو ترتيب أمور غير متناهية، وأنه سمي بذلك أخذاً من السلسلة.

_ وأن التسلسل من الألفاظ المجملة التي لابد فيها من الاستفصال _كما مر_.

_ وأنه إن أريد بالتسلسل: دوام أفعال الرب ومفعولاته، وأنه متصف بصفات الكمال أزلاً وأبداً فذلك حق صحيح، يدل عليه الشرع والعقل.

_ وأنه إن أريد بالتسلسل: أنه _عز وجل_ كان معطلاً عن أفعاله وصفاته، ثم فعل، واتصف فحصل له الكمال بعد أن لم يكن متصفاً به، أو أريد

بالتسلسل: التسلسل في المؤثرين فذلك معنى باطل مردود بالشرع والعقل[1].

١ـ انظر تفصيل الحديث عن التسلسل في شرح العقيدة الطحاوية، ص١٣٠ـ١٣٥، وتوضيح المقاصد وتصحيح القواعد شرح النونية للشيخ أحمد بن عيسى ١/٣٧٠، والقواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف د. إبراهيم البريكان ص٢٠٨ـ٢١٤.

الفصل الخامس

دراسة لمصطلح المجاز

وتحته:

تمهيد

المبحث الأول: مفهوم الحقيقة والمجاز.

المبحث الثاني: الخلاف في أصل وقوع المجاز.

المبحث الثالث: الجمع بين الأقوال في المجاز.

الفصل الخامس: دراسة لمصطلح المجاز

تمهيد

المجاز مصطلح يرد كثيراً في كتب العقائد خصوصاً في باب الأسماء والصفات؛ وذلك أن كثيراً من أهل التعطيل اتخذوه مطية لنفي الصفات الإلهية.

كما أنه معروف عند أهل التفسير، والحديث، واللغة، والبلاغة، والأصول ويرد كثيراً في كتبهم.

ولأجل أن تتضح صورة المجاز فهذا عرض مجمل ميسر يبين معالم المجاز، وحقيقة الخلاف فيه، وما جرى مجرى ذلك.

وقبل الدخول في تضاعيف الحديث عن المجاز يحسن الوقوف عند مصطلح (الحقيقة)؛ وذلك لأن المجاز _عند من يقول به_ قسيم الحقيقة.

فالكلام ينقسم إلى حقيقة ومجاز؛ فإلى تفصيل الحديث؛ حتى يتبين الأمر.

المبحث الأول: مفهوم الحقيقة وا لمجاز

أولاً: تعريف الحقيقة: هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع.

أو هي: استعمال اللفظ فيما وضع له في الأصل.

مثل كلمة (أسد): تدل على الحيوان المعروف، وكلمة (الشمس): تدل على الكوكب العظيم المعروف، وكلمة (البحر): تدل على الماء العظيم الملح؛ وهكذا جميع ألفاظ اللغة.

ثانياً: تعريف المجاز: المجاز في اللغة: اسم مكان كالمطاف، والمزار.

والألف فيه منقلبة عن واو، وقيل: هو مصدر ميمي.

وفي الاصطلاح: هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له في الأصل؛ لعلاقة بين المعنيين الحقيقي والمجازي مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي.

ثالثاً: شرح مفردات تعريف المجاز: قوله: (في غير ما وضع له): أي المعنى الوضعي للَّفظ، ويسمى الحقيقي أو الأصلي الذي ذكرته معاجم اللغة، كوضع كلمة الأسد للحيوان المعروف الكاسر، وكذلك القمر.

قوله: (لِعِلاقة): العلاقة: هي الشيء الذي يربط بين المعنى الأصلي للفظ، والمعنى المجازي، كالشجاعة في قولك: رأيت أسداً يكرُّ بسيفه.

فالأسد هنا لا يقصد به الحيوان؛ وإنما يقصد به الرجل الشجاع، إذاً فقد انتقل من معناه الحقيقي إلى المعنى المجازي، والعلاقة هي الشجاعة.

قوله: (القرينة) القرينة: هي التي تمنع الذهن من أن ينصرف إلى المعنى الوضعي

الأصلي للفظ، مثل قولك: (يكر بسيفه) في قولك: (رأيت أسداً يكر بسيفه) لأن الأسد لا يكر بالسيف؛ فَعُلم أن المقصود باللفظ مجازه لا حقيقته؛ لأن الأسد لا يحمل السيف.

وكذلك قولك في الرجل الكريم: جاء البحر، ونحو ذلك من الأمثلة مما سيأتي ذكره [١].

رابعاً: تطبيق: إليك هذا التطبيق الذي يبين لك ما ذكر بصورة أجلى: قال أهل المدينة في استقبالهم للنبي"لما قدم من تبوك هو وأصحابه:

طلـــع البـــدر علينـــا مـــن ثَنِيَّـــات الـــوداع

فالمجاز في هذا البيت واقع في لفظ (البدر) حيث يريدون به النبي " وهذا استعمال

١ـ انظر في تفصيل الحديث عن المجاز إلى الكتب التالية:

ـ أسرار البلاغة لعبد القادر الجرجاني، تحقيق الشيخ محمود شاكر ص٣٥٠ ـ ٤٢٤.

ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج٧.

ـ بُغْيَة الإيضاح لتلخيص المفتاح لعبدالمتعال الصعيدي ص٨٤ ـ ١٧١.

ـ منع المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز للشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

ـ معجم البلاغة د. بدوي طبانة ص١٤٥ ـ ١٤٩.

ـ علوم البلاغة للشيخ المراغي ص٢٤٦ ـ ٢٩٨.

ـ فقه اللغة د. وافي ص١٧٢ـ١٧٨.

ـ البلاغة العربية في فنونها وأفنانها علم البيان والبديع د. فضل حسن عباس ١٢٧ ـ ٢٧٠.

ـ موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة عرضاً ونقداً د. سليمان بن صالح الغصن ٤٤٥/١ ـ ٤٧٧.

ـ مقدمة في المجاز ـ وهي مذكرة مخطوطة ـ كتبها الأخ الدكتور الشيخ عبد المحسن العسكر ـحفظه اللهـ وهي نافعة لطيفة في بابها.

مجازي؛ ذلك لأن الاستعمال الحقيقي للبدر إنما هو الكوكب العظيم الذي يكون في السماء ليلاً.

والعلاقة بين المعنيين الحقيقي والمجازي هي الحسن والإشراق؛ فالبدر حَسَنٌ مشرق، وكذلك وجه النبي ".

والقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي الحقيقي هي: **(من ثنيات الوداع)** فهي التي أثبتت مجازية البدر، والسبب أن البدر الحقيقي لا يظهر بين ثنيات الوداع وهي الجبال الصغيرة، وإنما يظهر في السماء كما هو معلوم؛ فعلم بذلك أن اللفظ أريد به مجازُه لا حقيقته.

خامساً: أمثلة لألفاظ يتبين فيها الحقيقة من المجاز:

١_ الشمس لها دلالتان: إحداهما حقيقية وهي دلالة الكوكب العظيم المعروف.

والأخرى مجازية وهي: الوجه المليح.

٢_ البحر له دلالتان: إحداهما حقيقية، وهي دلالته على الماء العظيم الملح.

والأخرى مجازية وهي: دلالته على الرجل الجواد الكثير العطاء، أو العالم الغزير العلم.

٣_ اليد لها دلالتان: إحداهما حقيقية، وهي الجارحة المعروفة، كما تقول: كتبت بيدي.

والأخرى مجازية بمعنى النعمة، كما تقول: لفلانٍ عليَّ يدٌ، أي: نعمة.

سادساً: التفريق بين الحقيقة والمجاز:

يفرق بسياق الكلام، وقرائن الأحوال، ولا يمكن أن يقال: إن كلا الدلالتين

الحقيقية والمجازية سواء؛ بحيث إذا أطلق اللفظ دل عليهما معاً، كأن يقال: إن الشمس حقيقية في دلالتها على الكوكب والوجه المليح، وأن البحر حقيقة في الماء العظيم الملح والرجل الجواد؛ بل لا بد من قرينة تخصص المعنى المراد (١).

سابعاً: سبب تسمية المجاز بهذا الاسم:

لأنه مأخوذ من قولهم: جاز هذا الموضع إلى هذا الموضع، إذا تخطاه إليه.

فالمجاز ــإذاًــ اسم للمكان الذي يُجاز فيه كالمزار، والمعاج، وأشباههما.

وحقيقته: الانتقال من مكان إلى مكان؛ فَجُعِل ذلك لنقل الألفاظ من محل إلى محل، كقولنا: زيد أسد؛ فإن زيداً إنسان، والأسد هو ذاك الحيوان المعروف، وقد جُزْنا الإنسانية أي: تخطيناها وانتقلنا منها وعَبَرْنَاها إلى الأسدية؛ لِوُصْلة بينهما ــأي علاقةــ وتلك الوُصْلَةُ هي صفة الشجاعة؛ فهذا هو سبب تسمية المجاز بهذا الاسم.

أما الحقيقة فهي: مأخوذة من كلمة حقَّ وهو الشيء الثابت، ولعلك تشمُّ رائحة التضاد بين هاتين الكلمتين؛ فالحقيقة ثبوت الشيء، والمجاز تَعَدِّيه (٢).

ثامناً: هل كل مجاز له حقيقة، وكل حقيقة لها مجاز؟

والجواب: أن كل مجاز له حقيقة؛ لأنه لم يطلق عليه لفظ مجاز إلا لنقله عن حقيقة موضوعه.

وليس مِنْ ضرورةِ كلِّ حقيقة أن يكون لها مجاز (٣).

١ـ انظر معجم البلاغة العربية ص١٤٧.

٢ـ انظر معجم البلاغة العربية ص١٤٧ ، والبلاغة فنونها وأفنانها ص١٢٨.

٣ـ انظر معجم البلاغة العربية ص١٤٧.

تاسعاً: هل الأصل في الكلام الحقيقة أو المجاز؟

والجواب: أن الأصل فيه الحقيقة، ولا ينصرف الكلام عن حقيقته إلى مجازه إلا بقرينة ــ كما مر في الأمثلة الماضية ــ.

المبحث الثاني: الخلاف في المجاز

أولاً: اختلاف العلماء في أصل وقوع المجاز: اختلف العلماء في أصل وقوع المجاز وثبوته في اللغة والقرآن، على ثلاثة أقوال:

١ــ أن المجاز واقع في اللغة والقرآن: وهذا مذهب جماهير العلماء، والمفسرين، والأصوليين، واللغويين، والبلاغيين، وغيرهم؛ بل حكى الإجماع على ذلك يحيى بن حمزة العلوي في كتابه (الطراز)[١] غير أن في تلك الدعوى توسعاً؛ لوجود المخالف المعتبر.

٢ــ إنكار المجاز مطلقاً في اللغة والقرآن: وقد ذهب إلى ذلك أبو إسحاق الاسفراييني، وتبعه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ــعلى ما سيأتي تفصيل ذلكــ.

٣ــ أن المجاز واقع في اللغة دون القرآن: وقد ذهب إلى ذلك داود الظاهري، وابنه محمد، وابن القاصّ الشافعي، وابن خويز منداد المالكي، ومنذر بن سعيد البلوطي، ومن المعاصرين الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي.

ثانياً: حجة القائلين بمنع المجاز:

١ـ انظر الطراز ٨٣/١، وإليك نص كلامه رحمه الله قال: «أجمع أهل التحقيق من علماء الدين والنُّظار من الأصوليين، وعلماء البيان على جواز دخول المجاز في كلام الله، وكلام رسوله ﷺ في كلا نوعيه: المفرد والمركب.

ويحكى الخلافُ عن أبي بكر داود الأصبهاني».

القائلون بمنع المجاز في اللغة والقرآن، أو في القرآن وحده يحتجون على ذلك بحجج منها:

١_ أن كل مجاز كذب يجوز نفيه: فيلزم على القول بأن في القرآن مجازاً أن في القرآن ما يجوز نفيه، قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي ×: =وأوضح دليل على منعه في القرآن إجماع القائلين بالمجاز على أن كل مجاز يجوز نفيه، ويكون نافيه صادقاً في نفس الأمر؛ فتقول لمن يقول: رأيت أسداً يرمي: ليس هو بأسد وإنما هو رجل شجاع؛ فيلزم على القول بأن في القرآن مجازاً أن في القرآن ما يجوز نفيه، ولا شك أنه لا يجوز نفي شيء من القرآن+ [١].

٢_ أن القول بالمجاز ذريعة إلى نفي الصفات الإلهية وتأويلها: قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ×: =وهذا اللزوم اليقيني الواقع بين القول بالمجاز في القرآن وبين جواز نفي بعض الصفات قد شوهدت في الخارج صحته، وأنه كان ذريعة إلى نفي كثير من صفات الكمال والجلال الثابتة لله في القرآن العظيم.

وعن طريق القول بالمجاز توصل المعطلون لنفي ذلك، فقالوا: لا يد، ولا استواء، ولا نزول، ونحو ذلك في كثير من آيات الصفات؛ لأن هذه الصفات لم تُرَدْ حقائقها؛ بل هي عندهم مجازات؛ فاليد مستعملة عندهم في النعمة، أو القدرة، والاستواء في الاستيلاء، والنزول نزول أمره ونحو ذلك؛ فنفوا هذه الصفات الثابتة بالوحي عن طريق القول المجاز.

مع أن الحق الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة إثبات هذه الصفات التي

١ـ منع المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز ص٨.

أثبتها ـتعالىـ لنفسه، والإيمان بها من غير تكييف ولا تشبيه، ولا تعطيل ولا تمثيل+[١].

فهذا السبب ـوهو نفي الصفات عن طريق القول بالمجازـ هو من أعظم الأسباب التي دعت القائلين بإنكار المجاز إلى ذلك.

٣ـ ادعاء أن الألفاظ كلها حقيقة والجزم بأن تقسيمها إلى حقيقة ومجاز تقسيم حادث لم تعرفه العرب: قال شيخ الإسلام ابن تيمية × عن المجاز: =ولكن المشهور أن الحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ.

وبكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة، لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم كمالك، والثوري، والأوزاعي، وأبي حنيفة، والشافعي، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو كالخليل، وسيبويه، وأبي عمرو بن العلاء، ونحوهم+[٢].

وقد كرر × ذلك في مواضع من كتبه، خصوصاً في كتابه الإيمان، وفي الأسماء والصفات من مجموع الفتاوى.

٤ـ أن إطلاق المجاز في القرآن يفضي ويؤدي إلى وصف الله بالمُتَجَوِّز: وذلك مما لم يرد الإذن به؛ ذلك أن أسماء الله وصفاته توقيفية كما هو معلوم.

ثالثاً: مناقشة مثبتي المجاز لمنكريه:

ناقش مثبتوا المجاز منكريه، وردوا عليهم بما ملخصه ما يلي:

١ـ منع المجاز ص٨ ـ ٩.

٢ـ مجموع الفتاوى ٧/٨٧ـ٨٨.

١ ـ أن القول بأن كل مجاز كذب يجوز نفيه ليس صحيحاً: وإنما يكون المجاز كذباً لو أُثبت المعنى على التحقيق لا على المجاز، أي أنه إذا أطلق القمر ـ مثلاً ـ على إنسان بهيٍّ الطلعة يكون كذباً لو ادُّعي أنه القمر الذي في السماء حقاً.

ولا ريب أن هذا ليس بمرادٍ في المجاز، وإنما المراد تشبيهه به في البهاء والحسن، فأين الكذب؟!

وكذلك قولنا للبليد: (حمار) ليس المقصود بأنه حمار في الشكل والخلقة، وإلا لصح أن ينفى ويقال: ليس هو بحمار بل هو إنسان؛ فالنفي هنا مُنصبٌّ على إرادة الحقيقة لا على المعنى المجازي، وهذا لا يسمى كذباً؛ لأن المتكلم جاء بقرينة تبين مراده، وترفع اللبس.

ثم إن البلاغيين حرصوا في مصنفاتهم على أن يبينوا الفرق بين المجاز والكذب؛ فهم متفقون على أن المجاز ليس كذباً؛ لأن التجوُّز يضع بين يدي المجاز قرينة تَصْرِفُ عن إرادة المعنى الأصلي للفظ.

أما الكذب فإن الكاذب يحرص فيه على إخفاء حاله؛ ترويجاً للكذب الذي يريده.

ولقد عني البلاغيون بالقرائن عناية بالغة، واستنبطوها من كلام العرب، وفصلوا فيها القول تفصيلاً؛ فإذا خلا المجاز من القرائن كان الكلام فاسداً؛ لعدم دلالته.

٢ ـ أن القول: بأن المجاز ذريعة إلى نفي الصفات الإلهية، وتأويلها ـ ليس مسوغاً لنفي المجاز؛ ذلك أنه لا حجة لهؤلاء النفاة المعطلة فيما ذهبوا إليه.

وإنما هم أصحاب هوى وضلال، ومن كانت هذه حاله ركب كل صعب وذلول في سبيل هواه، فاستدلالهم بالمجاز على نفي الصفات استدلال فاسد، فنحن نجعله حجة عليهم لا لهم؛ فيقال لهؤلاء النفاة المعطلة: إن الأصل في الكلام أن يحمل على حقيقتهِ وظاهرِهِ المتبادرِ ما لم تقم قرينة توجب صرفه عن هذه الحقيقةِ، وذلك الظاهرِ لنا.

ثم إن الناس متعبدون باعتقاد الظاهر من أدلة الكتاب والسنة ما لم يمنع مانع.

وبناءاً على ذلك يقال لهؤلاء النفاة: إن النصوص الصحيحة القطعية أثبتت صفات الكمال لله _تعالى_ كصفة الكلام، واليد، والاستواء، والنزول، والعلو، والساق، والقَدم، والضحك، والأصابع.

والنصوص الواردة في ذلك لا تظفر فيها بأي قرينة تنقلها عن معانيها الحقيقية التي دلت عليها؛ فهي صفات حقيقية ثابتة للرب _سبحانه_ على ما يليق به.

وادعاء هؤلاء المعطلة أن إثبات الصفات يلزم منه التمثيل، وأن القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي هي تنزيه الله _سبحانه_ عن مماثلة المخلوقين ادعاء باطل متهافت، ظاهر السقوط؛ إذ لا يلزم من إثبات الصفات لله تمثيله وتشبيهه بخلقه؛ فللخالق _سبحانه_ صفاتٌ تليق به، وللمخلوق صفات تليق به.

ثم إن مجيء نصوص الصفات متكاثرة يقطع بأن المراد منها معانيها الحقيقية، ويدرأ عن تلك النصوص أن تكون مجازية أنها لا تقبل دعوى المجاز من جهة اللغة نفسها، وتراكيب الكلم فيها؛ فهي تأبى أن تبارح المعنى الحقيقي.

ونمثل بهذا المثال وهو قوله _سبحانه_: [وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً] (النساء:١٦٤).

فلا يجوز أبداً أن يقال: إن الكلام في هذه الآية مجازي، لأن الفعل (كلَّم) أُكِّد بالمصدر (التكليم) الدال على النوع.

وقد نقل أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨) إجماع النحاة على أن الفعل إذا أكد بالمصدر لم يكن مجازاً، بل هو حقيقة قطعاً.

كيف وقد قال _تعالى_: [وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ] (الأعراف: ١٤٣)؟!

ومما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية × في قوله _سبحانه وتعالى_: [لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ] ص:٧٥ أنه قال: =فقوله _تعالى_: [لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ] لا يجوز أن يراد به القدرة؛ لأن القدرة صفة واحدة، ولا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد.

ولا يجوز أن يراد به النعمة؛ لأن نعم الله لا تحصى؛ فلا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية.

ولا يجوز أن يكون (لما خلقت أنا) لأنهم إذا أرادوا ذلك أضافوا الفعل إلى اليد؛ فتكون إضافته إلى اليد إضافة إلى الفعل، كقوله: [بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ] الحج: ١٠ و[قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ] يس: ٧١.

أما إذا أضاف الفعل إلى الفاعل وعدَّى الفعل إلى اليد بحرف الباء كقوله: [لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ] فإنه نصٌّ في أنه فَعَل الفِعْلَ بيديه؛ ولهذا لا يجوز لمن تكلم أو مشى أن يقال: فعلت هذا بيديك، ويقال: هذا فعلته يداك؛ لأن مجرَّدَ قولِه: فَعَلْتَ كافٍ في الإضافة إلى الفاعل؛ فلو لم يُرد أنه فعله باليد حقيقة كان ذلك زيادة محضة من غير فائدة.

ولست تجد في كلام العرب ولا العجم _إن شاء الله تعالى_ أن فصيحاً يقول:

فعلت هذا بيدي، أو فلان فعل هذا بيديه إلا ويكون فعله بيديه حقيقة، ولا يجوز أن يكون لا يد له، أو أن يكون له يد والفعل وقع بغيرها.

وبهذا الفرق المحقق تتبين مواضع المجاز ومواضع الحقيقة، ويتبين أن الآيات لا تقبل المجاز البتة من جهة نفس اللغة+[١].

وبالجملة، فالأمثلة على هذا النحو كثيرة جداً، ومن خلالها يظهر أن نصوص الصفات لا تقبل المجاز من جهة نظمها، وتركيبها، وإضافتها إلى الله ــعز وجلــ.

كيف وأهل السنة مجمعون على الإقرار بأسماء الله تعالى وصفاته وحملها على الحقيقة لا المجاز؟!

٣ــ أما القول بأن الألفاظ كلها حقيقة أو أن تقسيمها إلى حقيقة ومجاز تقسيم حادث لم تعرفه العرب فذلك يحتاج إلى نظر؛ فإن أريد بذلك أن العرب لم يضعوا هذا المصطلح فنعم.

وإن أريد أنه لا يوجد في كلامهم مجاز فهذا غير صحيح، بل الشواهد من كلامهم على استعمال المجاز أكثر من أن تحصر، وذلك مما استفاض به النقل عن علماء اللغة.

ثم إن القول إن هذا الاصطلاح لم يعرف إلا بعد القرون الثلاثة المفضلة غير مُسَلَّم به؛ فقد تكلم بالمجاز غير واحد من علماء اللغة في أوقات القرون المفضلة، ومن هؤلاء أبو زيد القرشي المتوفى سنة ١٧٠هـ.

ومن أهل اللغة من يعبر عن المجاز بـ: (التوسع والسعة في الكلام).

٤ــ وأما القول بأن إطلاق المجاز يفضي إلى وصف الله بالمتجوز وذلك

١ـ مجموع الفتاوى ٦/٣٦٥ـ٣٦٦.

لا يصح فيجاب عنه: بأنه لا يلزم ذلك؛ لأن هذا الإطلاق لا يكون إلا بدليل.

ثم إن إطلاق المجاز على اللفظ في بعض استعمالاته اصطلاح، ولا يلزم إضافة المعاني الاصطلاحية إلى الله ـ تعالى ـ وإلا ففي القرآن سجع، وأمثال، فهل يقال في حق الله ـ تعالى ـ: الساجع، والممثل؟

هذه بعض حجج القائلين بمنعه ورد القائلين به على سبيل الإيجاز.

المبحث الثالث: الجمع بين الأقوال في المجاز

وبعد أن وقفت على شيء من أمر المجاز، وما جاء في الخلاف حول إثباته أو نفيه _ يتبين لك أن أعظم الأسباب التي دعت إلى نفيه وإنكاره أن أهل التعطيل اتخذوه مطية لتحريف بعض نصوص الشرع لاسيما في باب الصفات.

فهذا هو الذي دعا بعض العلماء أن يشدد في النكير على القائلين بالمجاز.

وإلا لو كان الأمر مجرد اصطلاح لغوي لا يترتب عليه خوض في مسائل الشريعة لهان الخطب، ولما حصل فيه كبير خلاف.

ولكن لما أدرك بعض العلماء خطورة ذلك وكثرة المبتدعين به سارعوا إلى إنكاره؛ سداً للذريعة، وعلى رأس هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية × في مواطن كثيرة من كتبه، وإن كان قد قال بالمجاز في إحدى مراحل عمره، وفي بعض كتبه، على ما سيأتي بيان ذلك.

يقول الشيخ د. عبدالمحسن العسكر _حفظه الله_ في مقدمة مخطوطة له عن المجاز: =وأحسب أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد قال بالمجاز في إحدى مراحل عمره، فقد رأيت في (محاسن التأويل) لجمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) ما هذا نصه:

=قال ابن تيمية في بعض فتاواه: نحن نقول بالمجاز الذي قام دليله، وبالتأويل الجاري على نهج السبيل، ولم يوجد في شيء من كلامنا وكلام أحد منا أنا لا نقول بالمجاز والتأويل، والله عند لسان كل قائل، ولكن ننكر من ذلك ما خالف الحق والصواب، وما فتح به الباب إلى هدم السنة والكتاب، واللحاق بمُحرِّفة أهل

الكتاب.

والمنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه أن القرآن مشتمل على المجاز، ولم يُعْرف عن غيره من الأئمة نص في هذه المسألة.

وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم، كأبي بكر بن أبي داود، وأبي الحسن الخرزي، وأبي الفضل التميمي، وابن حامد وغيرهم إلى إنكار أن يكون في القرآن مجاز.

وإنما دعاهم إلى ذلك ما رأوه من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى المجاز، قابلوا الضلال بحسم المواد، وخيار الأمور التوسط، والاقتصاد+[1].

وبعد أن نقل الشيخ العسكر هذه الفتوى قال: =ومع أنني لم أهتد إلى هذه الفتوى في مظانها من المطبوع من مؤلفات شيخ الإسلام وفتاواه فإن عدم اهتدائي هذا لا ينفي وجودها في كتابات الشيخ مطلقاً.

بَيْدَ أني مطمئن غير مرتاب في نسبة هذا الكلام إلى شيخ الإسلام × وذلك لما يلي:

١_ أن المطبوع من أعمال شيخ الإسلام لا يمثل إلا القليل مما كتب في حياته كلها.

وأنت خبير أنه صاحب قلم سيال، ومكثر من الكتابة جداً، حتى قال الذهبي: =جاوزت فتاوى ابن تيمية ثلاثمائة مجلد+.

٢_ أن من له أدنى صلة بتراث شيخ الإسلام لا ينازع في أن هذا النَّفَسَ

١ـ محاسن التأويل للقاسمي ٦١٥٦/١٧ تفسير سورة الفجر.

نَفَسُه، والأسلوب أسلوبه، وقد وقفت على هذه الفتوى بعض العلماء فأجابوا بذلك، منهم فضيلة الشيخ محمد العثيمين × وشيخنا عبدالرحمن البراك _أحسن الله إليه_.

٣_ أن الذي نقل هذه الفتوى من أعظم الناس اطلاعاً في هذا العصر على كتابات الشيخ وتلميذه ابن القيم، وكان يعيش في بلاد الشام بلاد الشيخين، ومؤلفات القاسمي وخاصة تفسيره طافحة بالنقولات الكثيرة عنهما.

ثم إنه أحد القلة في عصره الذين نهضوا بالمنهج السلفي، ومناصرته، وأوذي في ذلك أذىً كثيراً.

وما كان الشيخ ليلصق بشيخ الإسلام قولاً يتطرق الشك في نسبته إليه+ انتهى كلام الدكتور العسكر.

ولقد توصل إلى تلك النتيجة بصورة أوضح وأجلى د. هادي أحمد فرحان الشجيري، وذلك في كتابه (الدراسات اللغوية والنحوية في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في استنباط الأحكام الشرعية).

وهذا الكتاب رسالة نال بها المؤلف درجة الدكتوراة من كلية الآداب جامعة بغداد.

وكان مما درسه في بحثه المجازُ وآراءُ ابن تيمية فيه، ومن ضمن فقرات ذلك المبحث فقرة عنوانها: موقف ابن تيمية من المجاز، حيث قال فيها: =إن المتتبع لكلام ابن تيمية في مؤلفاته المختلفة سيتبين له بيسر وسهولة أن له موقفين من المجاز، **أولهما موقف من الإقرار به،** ويبدو أن هذا الموقف كان السابق في حياته العلمية، وهو الذي درج عليه في غالب أحواله ومؤلفاته.

أما **موقفه الآخر** وهو موقف النافي للمجاز في اللغة فقد ذكره مفصلاً فيما

لَحِظْتُه بعد طول معاينة، وكثرة تتبع في موضعين.

وهو موقفٌ نابع عن فكر، وتأمل، وروية.

ويبدو أنه كان آخر ما استقر عليه، وإن كنا لا نملك من أدلة التوثيق التأريخية ما يكون عوناً لنا في هذا الحكم، ولكن طبيعة ذكر الأدلة والتفصيل، ونقد مفاهيم المجاز، وتبني تلميذه المقرب ابن قيم الجوزية لهذا الموقف، ودفاعه عنه _ كلها ترجح أنه آخر ما استقر عليه رأي ابن تيمية+[1].

ثم قال تحت فقرة عنوانها (موقف المقر بالمجاز): =لقد وقف ابن تيمية مقراً بالمجاز مدافعاً عن العقيدة مع إقراره بالمجاز، ويمكن أن يتبين هذا الموقف من خلال صور متعددة:

أولاً: النصوص الكثيرة المبثوثة في مواضع متفرقة من كتبه والتي تدل تصريحاً أو تلويحاً على إقراره بالمجاز.

ثانياً: ومن صور إقراره بالمجاز، قوله بالحقائق الشرعية والعرفية، وهي في حقيقتها نوع من التغير الدلالي الذي أصاب اللفظ آنفاً.

ثالثاً: ذكره بعض أنواع المجاز.

رابعاً: ذكره بعض علامات المجاز.

خامساً: من خلال تعبيراته ومعالجاته لبعض الأمثلة.

سادساً: ومما يدخل في هذا الموقف عموماً قوله بالمجاز المنضبط خاصة في باب

١ـ الدراسات اللغوية والنحوية في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ص١٩٨.

الصفات+[١].

وتحت هذه العناصر ذكر نماذج من كلام ابن تيمية، وأحال على مواضع أخرى.

ومن الأمثلة التي ذكرها: قول شيخ الإسلام ابن تيمية: =وقبض اليد عبارة عن الإمساك، كما في قوله ــتعالىــ: [وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ].

وفي قوله: [وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ].

وهي حقيقة عرفية ظاهرة من اللفظ، أو هي مجاز مشهور+[٢].

ثم نقل د. الشجيري نقولاً أخرى لا يتسع المجال لبسطها، ولعل الإشارة إلى مواضعها تكفي[٣].

١ـ الدراسات اللغوية في مؤلفات شيخ الإسلام ص١٩٨ـ٢٠٢.

٢ـ اقتضاء الصراط المستقيم ١٩ـ٢٠.

٣ـ انظر بيان تلبيس الجهمية ٢٦/٢ و٤١١/٢ ، والتسعينية ص١٢٩ـ١٣٠ و ١٢٨ـ١٢٩ و٢٢٠، والتفسير الكبير ٣٦٢/٤ ، ومجموع الفتاوى ١٠٦/٥ و٩٤/٥ـ٩٥ و١٤/٧ و٢٧١ و٤٦/١٠ و٢٩٦/١٢ و٦٦/٣١ و٩٢ و٣٤/٣٢ و٣٥ و٨٦ و١٠٦/٣٣ و٢٢٢/٢١ و٣٢٢/٢٢ـ٣٢٣ و٦٨/٢٩.

الرسالة السابعة

الإيمان بالملائكة

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد.

فإن الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، والكلام على هذا الركن ههنا سيكون في المسائل التالية:

أولاً: تعريف الملائكة.

ثانياً: ما يتضمن الإيمان بالملائكة.

ثالثاً: ثمرات الإيمان بالملائكة.

رابعاً: الملائكة أجسام.

خامساً: علاقة الملائكة ببني آدم عموماً.

سادساً: المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر.

فإلى تفصيل تلك المسائل، والله المستعان، وعليه التكلان.

أولاً: تعريف الملائكة

أ_ **التعريف اللغوي**: أصل هذه الكلمة أَلَكَ، أي أرسل، ومنه المألوكة، وهي الرسالة، ومعنى ألكني: أرسلني ومنه قول الشاعر:

أَلِكْنِيَ إليها فخير الرسو ل أعلمهم بنواحي الخبر

فالملك في اللغة هو المرسل.

ب_ **التعريف الاصطلاحي للملائكة**: الملائكة عالم غيبي مخلوقون من نور عابدون لله _تعالى_ وليس لهم من خصائص الربوبية، ولا الألوهية شيء، أي أنهم لا يَخْلُقون، ولا يَرزُقون، ولا يجوز أن يعبدوا مع الله، أو من دون الله.

وقد منحهم الله _عز وجل_ الانقياد التام لأمره، والقوة على تنفيذه.

والملائكة عددهم كثير، ولا يحصيهم إلا الله[1].

ثانياً: ما يتضمن الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة يتضمن ما يلي:

١_ الإيمان بوجودهم.

٢_ الإيمان بما علمنا اسمه منهم باسمه كجبريل، ومن لم نعلم اسمه نؤمن به إجمالاً، أي نؤمن بأن لله ملائكة كثيرين، ولا يلزم معرفة أسمائهم.

٣_ الإيمان بما علمنا من صفاتهم، كصفة جبريل؛ فقد أخبر النبي"أنه رآه على صفته التي خلقه الله عليها، وله ستمائة جناح قد سدَّ الأُفق.

وقد يتحول الملك بأمر الله إلى هيئة رجل، كما حصل لجبريل حين أرسله الله

---

١ ـ انظر رسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين، ص١٩.

إلى مريم أم المسيح _عليهما السلام_: [فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً] (مريم:١٧).

وحين جاء إلى النبي" وهو جالس بين أصحابه بصورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفه أحدٌ من أصحاب رسول الله"فجلس إلى رسول الله"وأسند ركبتيه إلى ركبته، ووضع كفيه على فخذيه، وسأل النبي"عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها، فأجابه النبي"ثم قال بعد أن ولَّى: =**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**+[1].

وكذلك الملائكة الذين أرسلهم الله إلى إبراهيم ولوط _عليهما السلام_ على هيئة رجال.

٤_ الإيمان بما علمنا من أعمالهم التي يقومون بها، كتسبيح الله، وعبادته ليلاً ونهاراً دون ملل ولا فتور.

وقد يكون لبعضهم أعمال خاصة، كـ =جبريل+ الأمين على وحي الله يرسله الله بالوحي إلى الأنبياء والرسل، ومثل =ميكائيل+ الموكل بالقطر أي النبات، ومثل =مالك+ الموكل بالنار، ومثل الملائكة الموكلين بحفظ بني آدم، وغيرهم كثير[2].

ثالثاً: ثمرات الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة يثمر ثمرات جليلة منها:

١_ العلم بعظمة الله _تعالى_ وقوته، وسلطانه: فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق.

---

١ ـ رواه مسلم (٨).

٢ ـ انظر رسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين ص١٩ـ٢٠.

٢_ **شكر الله على عنايته ببني آدم** حيث وكل بهم من هؤلاء الملائكة من يقومون بحفظهم، وكتابة أعمالهم، وغير ذلك من مصالحهم.

٣_ **التقرب إلى الله بحب الملائكة** على ما قاموا به من مراضي الله.

رابعاً: الملائكة أجسام

لقد صرحت النصوص بأن الملائكة أجسام خلافاً لمن ضل في هذا الباب من أهل الزيغ الذي أنكروا كون الملائكة أجساماً، وقالوا: إنهم عِبَارةٌ عن قوى الخير الكامنة في المخلوقات.

وهذا تكذيب لكتاب الله _تعالى_ وسنة رسوله " وإجماع المسلمين.

قال الله _تعالى_: [الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ].

وقال: [وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ].

وقال: [وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ].

وقال: [حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ].

وقال في أهل الجنة: [وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ÷ عن النبي " قال: =إذا أحب الله العبد نادى جبريل أن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء أن الله

يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض+[١].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ÷ قال: قال النبي ": =إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد الملائكة يكتبون الأول فالأول؛ فإذا جلس الإمام طووا الصحف، وجاءوا يستمعون الذكر+[٢].

وهذه النصوص صريحة في أن الملائكة أجسام لا قوى معنوية كما قال الزائغون، وعلى مقتضى هذه النصوص أجمع المسلمون[٣].

خامساً: علاقة الملائكة ببني آدم عموماً

علاقة الملائكة ببني آدم علاقة وثيقة، ومن مظاهر تلك العلاقة ما يلي:

١ــ قيامهم على الآدمي عند خلقه: فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر، قال: سمعت رسول الله " يقول: =إذا مرّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً، فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وجِلْدَها، ولحمها، وعظامَها، ثمّ قال: أي ربّ: أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملَك+[٤].

وعن ابن مسعود ÷ قال: حدثنا رسول الله " وهو الصادق المصدوق قال: =إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثمّ يكون علقة مثل ذلك، ثمّ يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً يؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب

١ ـ البخاري (٧٤٨٥) ومسلم (٢٦٣٧).

٢ ـ البخاري (٣٠٣٩).

٣ ـ انظر رسائل في العقيدة، للشيخ محمد بن عثيمين ص٢٠ـ٢١.

٤ ـ مسلم (٢٦٤٥).

عمله ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح+[1].

٢ـ حفظهم لابن آدم: قال الله ـتعالىـ: [سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ] (الرعد: ١٠ـ١١) .

وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس ـرضي الله عنهماـ أن المعقبات من الله هم الملائكة جعلهم الله؛ ليحفظوا الإنسان من أمامه ومن ورائه، فإذا جاء قدر الله ـالذي قدّر أن يصل إليهـ خلوا عنه.

٣ـ أنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه: وقد أعلمنا الله أن جبريل يختص بهذه المهمة: [قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ] (البقرة:٩٧).

وقال: [نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)] الشعراء.

٤ـ تحريك بواعث الخير في نفوس العباد: فقد وكَّل الله بكل إنسان قريناً من الملائكة، وقريناً من الجنّ، ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ": =ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينُه من الجن، وقرينه من الملائكة+.

قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: =وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير+ [2].

---

١ ـ رواه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

٢ ـ مسلم (٢٨١٤).

ولعلّ هذا القرين من الملائكة غيرُ الملائكة الذين أمروا بحفظ أعماله، قيّضه الله له؛ ليهديه، ويرشده.

وقرين الإنسان من الملائكة وقرينه من الجنّ يتعاوران الإنسان، هذا يأمره بالشر ويرغبه فيه، وذاك يحثه على الخير ويرغبه فيه، فعن ابن مسعود ÷: أن رسول الله " قال: =إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأمّا لمة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأمّا لمة الملك فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنّه من الله، وليحمد الله، ومن وجد الأخرى، فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: [الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] (البقرة:٢٦٨).

قال ابن كثير، بعد إيراده لهذا الحديث: =هكذا رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننهما جميعاً، عن هناد بن السري.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه، عن أبي يعلى الموصلي، عن هناد به، وقال الترمذي: حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص، يعني سلام بن سليم ...+.

٥_ تسجيل أعمال بني آدم: فهناك ملائكة موكلون بحفظ أعمال بني آدم من خير وشرّ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله _تعالى_: [وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ(١٠) كِرَاماً كَاتِبِينَ(١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)] الإنفطار .

وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين، لا يفارقانه، يحصيان عليه أعماله وأقواله: [وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)] ق.

ومعنى قعيد: أي مترصد.

ورقيب عتيد: أي مراقب مُعِدٌّ لذلك لا يترك كلمة تفلت.

٦ـ **نزع أرواح العباد عندما تنتهي آجالهم:** فقد اختص الله بعض ملائكته بنزع أرواح العباد عندما تنتهي آجالهم التي قدرها الله لهم، قال ـ تعالى ـ: [قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ] (السجدة:١١).

والذين يقبضون الأرواح أكثر من ملك: [وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمْ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)] الأنعام.

وتنزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين نزعاً شديداً عنيفاً بلا رفق ولا هوادة: [وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ] (الأنعام:٩٣).

وقال: [وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ] (الأنفال:٥٠).

وقال: [فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ] (محمد:٢٧).

أما المؤمنون فإن الملائكة تنزع أرواحهم نزعاً رفيقاً.

٧ـ **إقبالهم على المؤمنين:** وذلك بمحبتهم، وتسديدهم، والصلاة عليهم كصلاتهم على معلم الخير، والذين ينتظرون صلاة الجماعة، والذين يصلون في الصف الأول، والذين يسدون الفرج بين الصفوف، والذين يتسحرون، ويصلون على النبي" والذين يعودون المرضى.

ومن إقبالهم على المؤمنين تأمينهم على دعائهم، واستغفارهم لهم، وشهودهم مجالس العلم وحِلَق الذِّكر، وتسجيل الذين يحضرون الجمعة، وتنزلهم عند من يُقرأ القرآن،

ومقاتلتهم مع المؤمنين في الحروب إلى غير ذلك من الأعمال.[1]

٨ـ **بغضهم للكافرين**: فالملائكة لا يحبون الكفرة الظالمين، بل يعادونهم ويحاربونهم، ويزلزلون قلوبهم، ويلعنونهم.

سادساً: المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر

هذه المسألة وقع الخلاف فيها قديماً، وكثرت فيها الأقوال، وتحقيق القول وخلاصته في هذه المسألة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية × من أن **صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية** وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة، ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلا، وحياهم الرحمن، وخصهم بمزيد قربه، وتجلى لهم، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم .

والملائكة أفضل باعتبار البداية؛ فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى، منزهون عمّا يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب.

ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر.

قال ابن القيم: وبهذا التفصيل يتبين سرّ التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالَح كلٌّ منهم على حقه.

والله أعلم بالصواب[2].

---

١ ـ انظر عالم الملائكة الأبرار، د. عمر الأشقر ص٥٩ـ٧٦.

٢ ـ انظر مجموع الفتاوى ٣٥٠/١١، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ٣٦٨/٢، وشرح العقيدة الطحاوية ص٣٣٨، وكتاب السيوطي الحبائك في أخبار الملائك وفيه مبحث طويل في ذلك من ص٢٠٣ـ٢٥١، وانظر عالم الملائكة الأبرار ص٩٦.

الرسالة الثامنة

الإيمان بالكتب

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

فإن الإيمان بالكتب هو الركن الثالث من أركان الإيمان، والكلام على هذا الركن ههنا سيكون في المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم الإيمان بالكتب، وما يتعلق به.

المبحث الثاني: مواضع الاتفاق والاختلاف بين الكتب السماوية.

المبحث الثالث: القرآن، والتوراة، والإنجيل.

فهذه المباحث، وما يندرج تحتها من مسائل هي محور الحديث في الصفحات التالية، فإلى تفاصيل ذلك.

المبحث الأول: مفهوم الإيمان بالكتب، وما يتعلق به

أولاً: تعريف الكتب لغةً وشرعاً

الكتب في اللغة: جمع كتاب بمعنى مكتوب، مثل فراش بمعنى مفروش، وإله بمعنى مألوه، وغراس بمعنى مغروس.

ومادة (كتب) تدور حول الجمع والضم، وسمي الكاتب كاتباً؛ لأنه يجمع الحروف، ويضم بعضها إلى بعض.

ومنه الكتيبة من الجيش سميت كتيبةً؛ لاجتماعها، وانضمام بعضها إلى بعض، ومنه تسمية الخياط كاتباً؛ لأنه يجمع أطراف الثوب إلى بعض، كما في مقامات الحريري[1] حيث قال ملغزاً:

وكاتبين وما خطت أناملهم حرفاً ولا قرأوا ما خُطَّ في الكتب

ويَقْصدُ بهم الخياطين.

أما في الشرع: =فالمراد بها الكتب التي أنزلها الله _تعالى_ على رسله؛ رحمة للخلق، وهداية لهم؛ ليصلوا بها إلى سعادة الدنيا والآخرة+[2].

ثانياً: ما يتضمن الإيمان بالكتب

١_ الإيمان بأنها أنزلت من عند الله حقّاً.

٢_ الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه كالقرآن الذي نُزِّل على محمد" والتوراة

---

١ ـ مقامات الحريري، ص٢٨٦.

٢ ـ رسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين، ص٢٣.

التي أُنزلت على موسى"والإنجيل الذي نزل على عيسى _عليه الصلاة والسلام_ والزبور الذي أوتيه داود_عليه السلام_.

وأما ما لم نعلمه من الكتب المنزلة فنؤمن به إجمالاً.

٣_ تصديق ما صح من أخبارها، كأخبار القرآن، وأخبار ما لم يبدل، أو يحرف من الكتب السابقة.

٤_ العمل بما لم ينسخ منها، والرضا، والتسليم به، سواء فهمنا حكمته أو لم نفهمها.

وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم، قال الله _تعالى_: [وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ] (المائدة:٤٨).

أي حاكماً عليه، وعلى هذا فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صح وأقره القرآن[١].

ثالثاً: أهمية الإيمان بالكتب

للإيمان بالكتب أهمية عُظمى تتجلى في أمور منها ما يلي:

١_ الإيمان بالكتب أصل من أصول العقيدة، وركن من أركان الإيمان، ولا يصح إيمان أحد إلا إذا آمن بالكتب التي أنزلها الله على رسله _عليهم السلام_.

٢_ أن الله _عز وجل_ أثنى على الرسل الذين يبلغون عن الله رسالاته؛ فقال _عز وجل_: [الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ] (الأحزاب: ٣٩).

١ـ انظر رسائل في العقيدة ص٢٣.

كما أخبر ــسبحانهــ أن الرسول " والمؤمنين آمنوا بما أنزل من عند الله من كتب، قال ــتعالىــ: [آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ] (البقرة: ٢٨٥).

٣ــ **أن الله أمر المؤمنين بأن يؤمنوا بما أنزله** كما في قوله ــتعالىــ: [قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] (البقرة: ١٣٦).

٤ــ **أن الله أهلك الأمم بسبب تكذيبهم برسالاته،** كما أخبر الله عن صالح بقوله: [فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ] (الأعراف: ٧٩).

٥ــ **أن من أنكر شيئاً مما أنزل الله فهو كافر** كما قال ــتعالىــ: [وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً] (النساء:١٣٦).

رابعاً: ثمرات الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب يثمر ثمراتٍ جليلةً منها:

١ــ العلم بعناية الله؛ حيث أنزل لكل قوم كتاباً يهديهم به.

٢ــ العلم بحكمة الله؛ حيث شرع لكل قوم ما يناسبهم، ويلائم أحوالهم.

٣ــ التحرر من زبالات أفكار البشر بهدي السماء.

٤ــ السير على طريقٍ مستقيمةٍ واضحةٍ لا اضطراب فيها ولا اعوجاج.

٥ــ الفرح بذلك الخير العظيم [قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ](يونس: ٥٨).

٦ــ شكر الله على هذه النعمة العظيمة.

٧ــ التحرر من التخبط الفكري والعقدي[1].

خامساً: أدلة الإيمان بالكتب

لقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة على الإيمان بالكتب، فمن ذلك قوله ــتعالىــ: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ] (النساء: ١٣٦) وقوله ــتعالىــ: [وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ] (الشورى: ١٥).

وقال ــعليه الصلاة والسلامــ كما في حديث جبريل المشهور عندما سأله عن الإيمان قال:=**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**+الحديث[2].

سادساً: الغاية من إنزال الكتب

أنزلت الكتب السماوية كلُّها لغايةٍ واحدةٍ، وهدف واحد وهو أن يُعْبَدَ الله وحده لا شريك له، ولتكون منهج حياة للبشر الذين يعيشون في هذه الأرض، تقودهم بما فيها من هداية إلى كل خير، ولتكون روحاً ونوراً تحيي نفوسهم،

١ـ انظر: رسائل في العقيدة الإسلامية، ص٢٣.

٢ـ رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٨).

وتكشف ظلماتها، وتنير لهم دروب الحياة كلها[١].

سابعاً: ما يضاد الإيمان بالكتب

يضاد الإيمان بالكتب تكذيبها، والكفر بها، وتحريفها.

كما يضادها: الإعراضُ عن القرآن، وادعاء نسخه، والتحاكم إلى غيره، وادعاء نقصه، ومضاهاته، ومعارضته.

ثامناً: الطوائف التي ضلّت في باب الإيمان بالكتب

هذا وإن هناك طوائفَ كثيرةً ضلت في هذا الباب منها:

١ـ اليهود: وذلك بتكذيبِهم للقرآن، وتكذيبُهم للقرآن هو في الحقيقة تكذيب لجميع الكتب السماوية.

٢ـ النصارى: يقال عنهم ما قيل عن اليهود، وقد مر الحديث عنهما.

٣ـ الشيعة: وذلك بادعائها أن القرآن ناقص ومحرّف، وأن القرآن الكامل مع الغائب الذي سيخرج في آخر الزمان من سرداب سامراء!

ثم إنهم ضلوا في هذا الباب بسبب جعلهما ما في الجفر والجامعة مصدراً للتلقي عندهم.

وضلوا ـأيضاًـ في تأويل القرآن حيث أغرقوا في الباطنية في تأويله[٢].

٤ـ البابية والبهائية: وذلك بادعائها نسخ القرآن الكريم، والشريعة الإسلامية

١ـ انظر الرسل والرسالات، د. عمر الأشقر، ص٢٣٥.

٢ـ انظر الشيعة والسنة، لإحسان إلهي ظهير، ص٧٨، وانظر: بطلان عقائد الشيعة، لمحمد عبدالستار التونسي، ص٣٥، ومسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، د. ناصر القفاري ٢١٢/١ـ٢١٥.

بشريعة الباب والبهاء[1].

٥ــ التيجانية: وذلك بتفضيلها أورادَها وأذكارَها ــكصلاة الفاتحــ على القرآن الكريم؛ حيث قالوا: إن قراءة صلاة الفاتح مرة واحدة أفضل من قراءة القرآن ستة آلاف مرة[2].

٦ــ غلاة الصوفية عموماً: وذلك بادعائهم العلم اللَّدُنِّيِّ الذي يوحى إليهم، ويغنيهم عن القرآن كما يزعمون.

ثم إن مصدر التلقي عندهم ليس القرآن والسنة بل يقوم على الرؤى والأحلام، والكشف، وغير ذلك[3] مما يخالف ما جاء في القرآن.

٧ــ النصيرية والدروز وسائر الفرق الباطنية: وذلك بانحرافهم في تأويل القرآن، وإغراقهم في التأويل الباطني، وإخراج القرآن عن معانيه وحقائقه الصحيحة، وكذلك ادعاء بعضهم نسخ الإسلام كما يقول علي بن الفضل الباطني ــقبحه اللهــ:

تولي نبي بني هاشم ... وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضى شرعةٌ ... وهذي شريعة هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة ... وفرض الصيام فلم نتعب

---

١ ـ انظر البابية عرض ونقد، لإحسان إلهي ظهير، ص١٠٤ والبابية للكاتب، والبائية نقد وتحليل، لإحسان إلهي ظهير، ص٢٢٢ والبهائية للكاتب.

٢ ـ انظر التيجانية، لعلي الدخيل الله، ص١١٦ـ ١٢٣.

٣ ـ انظر التصوف المنشأ والمصادر، لإحسان إلهي ظهير، ٢٦٠ـ ٢٧٥، وهذه هي الصوفية، للشيخ عبدالرحمن الوكيل، ص٧٠.

إلى آخر ذلك الكفر الصراح البواح[1].

٨_ **المشرعون والقانونيون**: الذين أعرضوا عن تحكيم القرآن، وعارضوه بزبالات أفكارهم، زاعمين أنه لا يناسب العصر الحديث، ولا يفي بحاجاته.

---

١ ـ انظر: كشف أسرار الباطنية، لابن أبي الفضائل الحمادي اليمني، ص٥٠، والحركات الباطنية، د. محمد بن أحمد الخطيب، ص٦٦ و٣٤٩، والنصيرية، د. سهل الفيل، ص٨٧، والباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية لسليمان الأذني، ص٤٨ـ ٥٠.

المبحث الثاني: مواضع الاتفاق والاختلاف بين الكتب السماوية

أولاً: مواضع الاتفاق بين الكتب السماوية

تتفق الكتب السماوية في أمور عديدة منها:

١ــ وحدة المصدر: فمصدرها واحد؛ فهي منزلة من عند الله، قال ــتعالىــ: [الم (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ](آل عمران: ١ــ٤).

٢ــ وحدة الغاية: فالكتب السماوية غايتها واحدة، فهي كلها تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى دين الإسلام؛ فالإسلام هو دين جميع الرسل، قال ــتعالىــ:[وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ] (النحل: ٣٦).

وقال ــتعالىــ: [إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ] (آل عمران: ١٩).

والإسلام هو الدين الذي أُمِر به إبراهيم ــعليه السلامــ: [إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ] (البقرة: ١٣١).

وقال موسى ــعليه السلامــ لقومه: [يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ] (يونس: ٨٤).

والحواريون قالوا لعيسى ــعليه السلامــ: [آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ] (آل عمران: ٥٢).

فالغاية ــإذاًــ هي الدعوة إلى دين الإسلام، وإلى عبادة الله وحده لا شريك

له.

٣ـ مسائل العقيدة: فالكتب اشتملت على الإيمان بالغيب، ومسائل العقيدة، كالإيمان بالرسل، والبعث والنشور، والإيمان باليوم الآخر إلى غير ذلك.

فمسائل العقيدة من باب الأخبار التي لا تنسخ.

٤ـ القواعد العامة: فالكتب السماوية تقرر القواعد العامة، التي لابد أن تعيها البشرية؛ كقاعدة الثواب والعقاب، وهي أن الإنسان يحاسب بعمله، فيعاقب بذنوبه وأوزاره، ولا يؤاخذ بجريرة غيره، ويثاب بسعيه، وليس له سعي غيره كما قال ـتعالىـ: [أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى] (النجم: ٣٦ـ٤١).

ومن ذلك الحث على تزكية النفس، وبيان أن الفلاح الحقيقي لا يتحقق إلا بتزكية النفس بالطاعة لله، والعبودية له، وإيثار الآجل على العاجل.

قال ـتعالىـ: [قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى] (الأعلى: ١٤ـ١٩).

ومن تلك القواعد أن الذي يستحق وراثة الأرض هم عباد الله الصالحون؛ [وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ] (الأنبياء: ١٠٥).

ومن ذلك أن العاقبة للتقوى وللمتقين، كما قال ـتعالىـ: [وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى] (طه: ١٣٢) وقال: [وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ] (الأعراف: ١٢٨).

٥ـ العدل والقسط: فجميع الأنبياء ـعليهم السلامـ حملوا ميزان العدل والقسط، قال ـتعالىـ: [لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ] (الحديد: ٢٥).

٦ـ محاربة الفساد والانحراف: وهذا ما اتفقت عليه الرسالات؛ سواء كان الفساد عقدياً أو خلقياً، أو انحرافاً عن الفطرة، أو عدواناً على البشر، أو تطفيفاً في الكيل والميزان، أو غير ذلك.

٧ـ الدعوة إلى مكارم الأخلاق: فالكتب كلها دعت إلى مكارم الأخلاق، كالعفو عن المسيء، وكالصبر على الأذى، وكالقول الحسن، وبر الوالدين، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وإكرام الضيف، والتواضع، والعطف على المساكين، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق.

٨ـ كثير من العبادات: فكثير من العبادات التي نقوم بها كانت معروفة عند الرسل وأتباعهم، كالصلاة، والزكاة، قال ـتعالىـ: [وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ] (الأنبياء: ٧٣).

وإسماعيل ـعليه السلامـ: [كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ] (مريم:٥٥) وقال الله لموسى ـعليه السلامـ: [فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي] (طه:١٤) وقال عيسى ـعليه السلامـ كما أخبر الله عنه: [وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً] (مريم: ٣١).

والصوم ـكذلكـ مفروض علينا كما هو مفروض على من قبلنا، قال ـتعالىـ: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ] (البقرة: ١٨٣).

والحج كذلك، كما في قول الله ـتعالىـ لإبراهيم ـعليه السلامـ: [وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً] (الحج: ٢٧).

وقد جعل الله لكل أمة مناسكها وعبادتها، قال ـعز وجلـ: [وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ](الحج:٣٤)[1].

ثانياً: مواضع الاختلاف بين الكتب السماوية

تختلف الكتب السماوية في الشرائع، فشريعة عيسى تخالف شريعة موسى ـعليهما السلامـ في بعض الأمور، وشريعة محمد"تخالف شريعة موسى وعيسى ـعليهما السلامـ في أمور.

قال ـتعالىـ:[لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً](المائدة: ٤٨).

وليس معنى ذلك أن الشرائع تختلف اختلافاً كلياً؛ فالناظر في الشرائع يجد أنها متفقة في المسائل الأساسية، وقد مر بنا شيء من ذلك، فالاختلاف بينها إنما يكون في التفاصيل.

فعدد الصلوات، وأركانها، وشروطها، ومقادير الزكاة، ومواضع النسك، ونحو ذلكـقد تختلف من شريعة إلى شريعة، وقد يُحِل الله أمراً في شريعة لحكمة، ويحرمه في شريعة أخرى لحكمة يعلمهاـعز وجلـولا يلزم أن نعلمها، ومن الأمثلة على ذلك مايلي:

١ـ الصوم: فقد كان الصائم يفطر في غروب الشمس، ويباح له الطعام، والشراب، والنكاح إلى طلوع الفجر ما لم ينم، فإن نام قبل الفجر حرم عليه ذلك

١ـ انظر الرسل والرسالات ص٢٣٥ـ٢٤٩.

كله إلى غروب الشمس من اليوم الثاني، فخفف الله عن هذه الأمة، وأحله من الغروب إلى الفجر، سواء نام أو لم ينم، قال ـ تعالى ـ: [أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنْ الْفَجْرِ] (البقرة: ١٨٧).

٢ ـ ستر العورة حال الاغتسال: لم يكن واجباً عند بني إسرائيل، ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: =**كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحده**+[1].

٣ ـ الأمور المحرمة: فمما أحله الله لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم الله هذا بعد ذلك.

وكان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة.

وقد حرَّم الله مثل هذا على بني إسرائيل في التوراة.

وكذلك الجمع بين الأختين كان سائغاً، وقد فعله يعقوب فتزوج بابنتي خاله: ليَّا، وراحيل؛ وهما أختان، ثم حُرِّمَ عليهم في التوراة.

ومما حرَّمه الله على اليهود ما قصه علينا في سورة الأنعام، قال ـ تعالى ـ: [وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنْ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا

---

١ ـ البخاري (٢٧٨) مسلم (٣٣٩).

إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ] (الأنعام: ١٤٦).

ثم جاء عيسى ـعليه السلامـ فأحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم.

وجاءت الشريعة الخاتمة، لتكون القاعدة: إحلال الطيبات وتحريم الخبائث.

ومما تميزت به الشريعة الخاتمة أنها عامة لجميع الناس إلى قيام الساعة، بخلاف الشرائع الأخرى، فهي خاصة بقوم دون قوم، أو فترة دون فترة[1].

١ـ انظر الرسل والرسالات ص٢٥٠.

المبحث الثالث: القرآن، والتوراة، والإنجيل

أولاً: القرآن ومنزلته من الكتب المتقدمة

القرآن آخر الكتب السماوية وهو خاتمها، وهو أطولها، وأشملها، وهو الحاكم عليها.

قال الله ـ تعالى ـ: [وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ] (المائدة: ٤٨).

وقال ـ تعالى ـ: [وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ] (يونس: ٣٧).

وقال: [مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (يوسف: ١١١).

قال أهل التفسير في قوله ـ تعالى ـ: [وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ]: مهيمناً وشاهداً على ما قبله من الكتب، ومصدقاً لها؛ يعني يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف، وتبديل، وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

ولهذا يخضع له كل متمسك بالكتب المتقدمة ممن لم ينقلب على عقبيه كما قال ـ تبارك وتعالى ـ: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ] (القصص: ٥٢ ـ ٥٣).

فالقرآن هو رسالة الله لجميع الخلق، وقد تكفل ـ سبحانه ـ بحفظه [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] (الحجر: ٩).

ولا يقبل الله من أحد ديناً إلا ما جاء في هذا القرآن العظيم[١].

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي × في قوله ـ تعالى ـ: [وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ]: =أي مشتملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة وزيادة في المطالب الإلهية، والأخلاق النفسية؛ فهو الكتاب الذي يتبع كل حق جاءت به الكتب، فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل، وإلا لو كان من عند الله لم يخالفه+[٢].

ثانياً: التوراة

١ ـ التوراة في الأصل:

التوراة ـ في الأصل ـ هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى ـ عليه السلام ـ والتوراة كتاب عظيم اشتمل على النور والهداية كما قال ـ تعالى ـ: [إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ] (المائدة: ٤٤).

---

١ ـ انظر أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة للشيخ حافظ الحكمي، ص٨١ـ ٨٢؛ السؤال رقم ٨٠.

٢ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي ١/ ٤٩٠.

وقال ـتعالىـ: [ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ] (الأنعام: ١٥٤).

وكثيراً ما يقرن الله ـعز وجلـ في القرآن بين التوراة والقرآن؛ وذلك لأنهما أفضل كتابين أنزلهما الله على خلقه.

هذه باختصار هي حقيقة التوراة التي أنزلت على موسى ـعليه السلامـ.

٢ـ التوراة الموجودة اليوم[1]:

أما التوراة الموجودة اليوم فهي ما يطلق على الشريعة المكتوبة، كما يطلق لفظ (التلمود) على الشريعة الشفهية.

والتوراة الموجودة اليوم تشتمل على خمسة أسفار وهي:

الأول: سفر التكوين: ويتحدث هذا السفر عن خلق العالم، وظهور الإنسان، وطوفان نوح، وولادة إبراهيم إلى موت يوسف ـعليه الصلاة والسلامـ.

الثاني: سفر الخروج: ويتحدث عن حياة بني إسرائيل في مصر، منذ أيام يعقوب إلى خروجهم إلى أرض كنعان مع موسى ويوشع بن نون.

الثالث: سفر اللاويين: نسبة إلى لاوي بن يعقوب، وفي هذا السفر حديث عن الطهارة، والنجاسة، وتقديم الذبائح، والنذر، وتعظيم هارون وبنيه.

الرابع: سفر العدد: يحصي قبائل بني إسرائيل منذ يعقوب، وأفرادَهم ومواشيهم.

الخامس: سفر التثنية: وفيه أحكام، وعبادات، وسياسة، واجتماع، واقتصاد،

١ـ انظر مقارنة بين القرآن والتوراة لمحمد الصوياني.

وثلاثة خطابات لموسى _عليه السلام_.

هذه هي التوراة الموجودة اليوم، وكل عاقل منصف _فضلاً عن المسلم المؤمن_ يعلم براءة التوراة التي أنزلها الله على موسى _عليه السلام_ مما هو موجود في التوراة اليوم، وذلك لأمور عديدة منها:

أ_ ما حصل للتوراة من الضياع والنسخ والتحريف والتدمير، فلقد حُرِّف فيها، وبُدِّل، وضاعت، وتعرضت لسبع تدميرات، منذ عهد سليمان _عليه السلام_(٩٤٥) قبل الميلاد إلى أن حصل التدمير السابع عام ٦١٣م مما يدل على ضياعها وانقطاع سندها.

ب_ ما تشتمل عليه من عقائد باطلة لا تمت إلى ما جاء به المرسلون بأدنى صلة.

ج_ اشتمالها على تنقص الرب _جل وعلا_ وتشبيهه بالمخلوقين، ومن ذلك قولهم:=إن الله تصارع مع يعقوب ليلة كاملة فصرعه يعقوب+.

ومن ذلك قولهم: =إن الله ندم على خلق البشر لما رأى من معاصيهم، وأنه بكى حتى رمد فعادته الملائكة+.

تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

د_ اشتمالها على سب الأنبياء والطعن فيهم، ومن ذلك قولهم:=إن نبي الله هارون صنع عجلاً، وعبده مع بني إسرائيل+.

وقولهم: =إن لوطاً شرب خمراً حتى سكر، ثم قام على ابنتيه فزنى بهما الواحدة تلو الأخرى+.

وقولهم: =إن سليمان _عليه السلام_ ارتد في آخر عمره، وعَبَدَ الأصنام، وبنى

لها المعابد، إلى غير ذلك من مخازي إخوان القردة+[١].

هـ ــ اشتمالها على المغالطات والمستحيلات والمتناقضات.

وــ أن المعركة التي قامت بين التوراة وحقائق العلم الحديث أثبتت ما في التوراة من الأخطاء العلمية.

ومن تلك الكتب التي تكلمت على هذا الموضوع كتابان هما: (**أصل الإنسان**) و(**التوراة والإنجيل والقرآن والعلم**) لعالم فرنسي اسمه (**موريس بوكاي**) حيث أثبت وجود أخطاء علمية في التوراة والإنجيل، وأثبت في الوقت نفسه عدم تعارض القرآن مع العلم الحديث وحقائقه، بل سجل شهادات تفوق سبق القرآنُ فيها العلمَ بألف وأربعمائة عام[٢].

ثالثاً: الإنجيل

١ــ الإنجيل في الأصل:

هو الكتاب العظيم الذي أنزله الله على عيسى ــعليه السلامــ متمماً للتوراة، ومؤيداً لها، وموافقاً لها في أكثر الأمور الشرعية، يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل، ويدعو إلى عبادة الله وحده دون من سواه.

هذا هو الإنجيل الذي أنزل على عيسى ــعليه السلامــ.

وبعد موت عيسى ــعليه السلامــ دخل التحريف الإنجيل فَغُيِّر فيه، وبدِّل، وزيد فيه، ونقص.

١ـ انظر الرسل والرسالات، ١٠٤ـ ١٠٥.

٢ـ انظر التوراة والإنجيل والقرآن والعلم (لموريس بوكاي) ترجمة الشيخ حسن خالد.

٢ــ الإنجيل بعد عيسى ــعليه السلامــ:

الكتاب المقدس لدى النصارى يشمل التوراة، والأناجيل، ورسائل الرسل.

وتسمى التوراةُ العهدَ القديم، وتسمى الأناجيلُ، ورسائلَ الرسلِ العهدَ الجديد.

فالعهد الجديد ــإذاًــ هو الذي يشتمل على أناجيلهم، والأناجيل المعتبرة عند النصارى أربعة هي:

الأول: إنجيل يوحنَّا. **الثاني: إنجيل مرقُس.**

الثالث: إنجيل مَتَّى. **الرابع: إنجيل لُوقا.**

وهناك أناجيل أخرى مثل إنجيل برنابا، وأناجيل أخرى أهملت.

هذا وقد بيَّن كثير من العلماء المسلمين قديماً وحديثاً ومن علماء النصارى الذين دخلوا في الإسلام، أو المتحررين منهم من ربقة التقليد ــ عدم صحة هذه الأناجيل الموجودة في أيدي النصارى، ووجهوا إليها انتقادات كثيرة، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية ــرحمه الله تعالىــ في كتابه: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، وابن القيم ــرحمه الله تعالىــ في كتابه: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

ومن العلماء المحْدَثين الشيخ رحمة الله الهندي ــرحمه الله تعالىــ في كتابه: إظهار الحق، والشيخ محمد أبو زهرة ــرحمه الله تعالىــ في كتابه: محاضرات في النصرانية، ومن علماء النصارى الذين أسلموا إبراهيم خليل أحمد كما في كتابه: محاضرات في مقارنة الأديان.

وفيما يلي إجمال لبعض الأمور التي تبين بطلان الأناجيل الموجودة بأيدي النصارى اليوم وعدم صحتها:

أـ أن هذه الأناجيل التي بأيدي النصارى لم يُمْلِها عيسى ـعليه السلام ـ ولم تنزل عليه وحياً، ولكنها كتبت بعده.

ب ـ ما وقع في الأناجيل من تلاعب النساخ، وتبديلهم وتحريفهم.

ج ـ اشتمالها على المتناقضات، والاختلافات، وقد أحصى الشيخ رحمة الله الهندي ـ في آخر كتابه إظهار الحق ـ أكثر من مائة اختلاف بين هذه الأناجيل.

د ـ انقطاع السند في نسبتها لكتابها.

هـ ـ اشتمالها على تنقص الرب ـجل وعلا ـ وعلى نسبة القبائح للأنبياء ـعليهم السلام ـ.

و ـ اشتمالها على العقائد الباطلة المخالفة للنقل والعقل.

ز ـ تعارضها مع الحقائق العلمية، كما أثبت ذلك عدد من العلماء؛ منهم موريس بوكاي وقد مر معنا ذلك قريباً.

ح ـ أن تلك الأناجيل ـوبغض النظر عن كونها محرفة ـ تخلو من أي تصور محدد لنظام سياسي، أو اجتماعي، أو اقتصادي، أو علمي.

وبالجملة فإن الأناجيل الموجودة اليوم ليست هي الإنجيلَ الذي أُنزل على عيسى ـعليه السلام ـ وإنما هي خليط من ديانات ووثنيات هندية، ويونانية، ومصرية قديمة.

وهي ـكذلك ـ صورة لما صنعه بولس شاؤل الذي غيَّر دين النصارى.

ولا يعني أن الإنجيل يخلو من كلمات للمسيح، وإن كان ذلك لا يثبت في ميزان النقد العلمي، وإنما يُقال ذلك لأن ما في القرآن يؤيده، ويصدقه.

رابعاً: هل يجوز لأحد اتباع التوراة أو الإنجيل بعد نزول القرآن؟

لا يسوغ لأحد ذلك؛ للاعتبارات السابقة، ولأنها ـوعلى فرض صحتها ـ

كانت خاصة لأمة معينة، ولفترة محددة، ولأنها نسخت بالقرآن الكريم.

ومن هنا يتبين بطلان هذه الكتب، وعدم جواز العمل بها إلا ما أقره القرآن، ويتبين لنا ضلال اليهود والنصارى وبطلان مزاعمهم، كيف وقد قال النبي": =**لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**+[1].

١ـ رواه مسلم (١٥٣).

الرسالة التاسعة

الإيمان بالرسل

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد.

فإن الإيمان بالرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان، والكلام على هذا الركن ههنا سيكون من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: مفهوم النبوة والرسالة.

المبحث الثاني: حقيقة الأنبياء والرسل، وعصمتهم، وثمرات الإيمان بهم.

المبحث الثالث: عقيدة ختم النبوة، وما يتعلق بها.

فهذه المباحث، وما تحتها هي مدار الحديث في الصفحات التالية؛ فإلى تفاصيل ذلك.

المبحث الأول: مفهوم النبوة والرسالة

أولاً: تعريف النبوة والرسالة في اللغة

أ ـ تعريف النبوة في اللغة: النبوة في اللغة لها ثلاثة اشتقاقات؛ فهي إما مأخوذة من النبأ وهو: الخبر الذي له خطب وشأن؛ فتكون النبوة بمعنى الإخبار.

وإما أن تكون مأخوذة من النباوة، أو النَّبْوَة وكلاهما يدل على الارتفاع؛ فتكون بمعنى الرفعة والعلو.

وإما أن تكون مأخوذة من النَّبي، وهو بمعنى الطريق؛ فتكون النبوة بمعنى الطريق إلى الله ـ عز وجل ـ.[1]

والحقيقة أن النبوة الشرعية تشمل كل هذه المعاني؛ إذ النبوة إخبار عن الله ـ عز وجل ـ وهي رفعة لصاحبها؛ لما فيها من التشريف والتكريم، وهي الطريق الموصلة إلى الله ـ سبحانه ـ.

ومع ذلك فإن أولى هذه المعاني بلفظ النبوة والنبيِّ هو اشتقاقها من النبأ؛ لأن النبي مُنَبَّأٌ من الله، وهو كذلك ينبئ الناس عن الله، وتتحقق نبوته بمجرد ذلك، وبهذا التحقق تثبت له أوصاف العلو والارتفاع، وكونه طريقاً إلى معرفة الله ـ عز وجل ـ.

ونرى مصداق ذلك ما يتردد في القرآن من اطلاق النبأ على الخبر، فمثلاً يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: [نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] (الحجر: ٤٩).

ويقول حكاية عن رسول الله"أنه قال: [نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ] (التحريم: ٣).

وغير ذلك عشرات الآيات كلها تذكر الإنباء بمعنى الإخبار.

ولعل ذلك يؤكد لنا أن النبوة مشتقة من النبأ، وهو الإخبار؛ فيكون معنى النبي

---

١ ـ انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/٣٨٤ـ٣٨٥، ولسان العرب ١/١٦٢ـ١٦٤.

هو: المُخْبَرُ من الله، أو المُخْبِرُ عن الله ـ جلَّ وعلا ـ.[١]

ب ـ تعريف الرسالة في اللغة: أصل هذه المادة: الراء والسين واللام (رسل).

والرسول مأخوذ من الإرسال، وهو التوجيه، أو من التتابع؛ أخذاً من قولهم رسل اللبن: إذا تتابع دره؛ فالرسول ـ إذاً ـ إما أن يكون مأخوذاً من كونه يوجِّه الناس، أو من كون الوحي يتتابع عليه[٢].

فهذا هو المعنى اللغوي للنبي الرسول.

ثانياً: تعريف النبوة والرسالة في الشرع

يمكن تعريف النبوة والرسالة في الشرع بأن يقال: هي صفةٌ تَحْدُثُ في الشخص بعد أن يصطفيه الله ـ عز وجل ـ فيخبره بخبر السماء، ويأمره بتبليغه.

فالنبوة والرسالة تتحقق بمجرد اصطفاء الله للشخص بالوحي بغض النظر عما يدور من الخلاف حول الفرق بين النبي والرسول، والنسبة بينهما[٣] على ما سيأتي بيانه في الفقرة التالية.

ثالثاً: الفرق بين النبي والرسول

للعلماء في تحديد الفرق بين النبي والرسول، وتحديد مسمى كل منهما كلام كثير لا يسلم من نقد، لكن الأمر الراجح عند كثير من أهل العلم أن هناك فرقاً بين مسمى النبي، ومسمى الرسول، وإن اختلفوا في تحديد المراد بكل منهما.

وأيضاً فإن النبوة أعم من الرسالة؛ فكل رسول نبي، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً.

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن **النبي**: هو من نَبَّأَه الله بشرع سابق ينذر به أهل

---

١ ـ انظر عقيدة ختم النبوة د. أحمد بن سعد الغامدي ص١٤ـ١٥.

٢ ـ انظر لسان العرب ١/٢٨٣ـ٢٨٤.

٣ ـ انظر عقيدة ختم النبوة، د. أحمد الغامدي ص١٥ـ١٦.

ذلك الشرع، وقد يؤمر بتبليغ بعض الأوامر في قضية معينة، أو الوصايا والمواعظ وذلك كأنبياء بني إسرائيل؛ إذ كانوا على شريعة التوراة، ولم يأتِ أحد منهم بشرع جديد ناسخ للتوراة، فتكون منزلته حينئذ بمنزلة المجدد لتعاليم الرسل السابقين.

أما الرسول فهو من بعثه الله بشرع وأمره بتبليغه إلى من خالفوا أوامره، سواء كان هذا الشرع جديداً في نفسه، أو بالنسبة لمن بعث إليهم، وربما أتى بنسخ بعض أحكام شريعة من قبله[1].

رابعاً: دلائل النبوة

النبوة من أعظم الدعاوى، ولا يدَّعيها إلا أكذب الناس، أو أصدقهم.

والنبوة تثبت بدلائل كثيرة أعظمها الآيات التي تسمى بالمعجزات، وتثبت بالأعمال العظيمة، والأخلاق الفاضلة، والسير الحميدة.

فمن ادعى النبوة، وأيده الله بالمعجزات، واشتهر بالصدق، والأمانة، والأخلاق الفاضلة، والسيرة الحميدة _ فهو نبي موحى إليه، مؤيد من الله.

وإن كان بخلاف ذلك فهو كاذب دجال مدَّعٍ للنبوة، ولا بد أن يفضحه الله _عز وجل_.

---

١ ـ انظر النبوات لابن تيمية ص٢٢٥ـ٢٢٧، وأصول الدين للبغدادي ص١٥٤، وعقيدة ختم النبوة ص١٥ـ١٦، ومحبة الرسولﷺ بين الاتباع والابتداع لعبدالرؤوف محمد عثمان ص١٥، والرسل والرسالات د. عمر الأشقر ص١٤ـ١٥.

المبحث الثاني: حقيقة الأنبياء والرسل، وعصمتهم، وثمرات الإيمان بهم

أولاً: حقيقة الأنبياء والرسل

الأنبياء والرسل بشر مخلوقون يوحى إليهم، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، قال الله _تعالى_ عن نبيه محمد" وهو سيد الرسل وأعظمهم جاهاً عند الله: [قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (الأعراف:١٨٨).

وقال _تعالى_: [قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنْ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢)]الجن.

وتلحقهم خصائص البشرية من المرض، والنوم، والموت، والحاجة إلى الطعام والشراب، وغير ذلك، قال الله _تعالى_ عن إبراهيم _عليه الصلاة والسلام_ في وصفه لربه _تعالى_: [وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)] الشعراء.

وقد وصفهم الله _تعالى_ بالعبودية له في أعلى مقاماتها، وفي سياق الثناء عليهم فقال _تعالى_ في نوح _عليه السلام_: [إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً] (الإسراء:٣).

وقال في محمد": [تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١)] الفرقان.

وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب: [أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا

أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنْ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧)] ص.

وقال في عيسى بن مريم _عليه السلام_: [إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)] الزخرف.[1]

والرسالة اصطفاء من الله لا تأتي بالاكتساب، والمجاهدة.

والرسل خير البشر، وصفوتهم، وخلاصتهم.

ثانياً: عصمة الأنبياء والرسل

اتفقت الأمة على أن الأنبياء والرسل معصومون في تحمُّل الرسالة، وفيما يبلغون به عن ربهم _جل وعلا_.

فلا يُنْقِصُوْنَ شيئاً مما أوحاه الله إليهم، ولا ينسون شيئاً من ذلك إلا ما كان قد نسخ.

وقد تكفل الله لنبيه محمد" بأن يقرئه فلا ينسى شيئاً مما أوحى إليه إلا شيئاً أراد الله أن ينسيه إياه، قال _عز وجل_: [سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ] الأعلى.

والرسل _كذلك_ معصومون في التبليغ؛ فلا يكتمون شيئاً من الوحي، ذلك أن الكتمان خيانة، والرسل يستحيل ذلك في حقهم، قال _تعالى_: [وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)] الحاقة.

أما الأعراض الجبلية البشرية فلا تنافي العصمة؛ فإبراهيم _عليه السلام_ أوجس

١ـ انظر رسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين ص٢٥ـ٢٦.

في نفسه خيفة عندما رأى أيدي ضيفه لا تمتد إلى الطعام الذي قدمه لهم، ولم يكن يعلم أنهم ملائكة.

وموسى _عليه السلام_ غضب غضباً شديداً، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح وفي نسختها هدى _ عندما عاد إلى قومه بعد أن تم ميقات ربه، فوجدهم يعبدون العجل.

ومن ذلك نسيان الرسول" في غير البلاغ، وفي غير أمور التشريع؛ كما في حديث ذي اليدين عندما سها _عليه الصلاة والسلام_ في الصلاة.

بل قد صرح _عليه الصلاة والسلام_ بطروء النسيان عليه كعادة البشر فقال: =إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني+[1].

والأنبياء قد يخطئون في إصابة الحق في القضاء، وقد تقع منهم الصغائر، ولكنهم لا يقرون على ذلك، ويوفقون للأوبة وتدارك الخطأ؛ بمعنى أن الله _عز وجل_ لا يقرهم على الذنب والخطأ، بل يوحي إليهم بالصواب، ويوفقهم للتوبة بعد الذنب؛ فتكون حالهم بعد ذلك أكمل منها قبلها.

أما القبائح وكبائر الذنوب فهم معصومون منها باتفاق الأمة.

فهذا هو خلاصة القول في مسألة عصمة الأنبياء، وهناك تفصيلات ليس هذا مجال بسطها[2].

ثالثاً: ما يتضمنه الإيمان بالرسل

---

١ ـ أخرجه البخاري (٣٩٢) ومسلم (٥٧٢).

٢ ـ انظر مجموع الفتاوى ١٠/٢٩٣ـ٣١٣ و ١٥/١٥٠ ، والرسل والرسالات ص٩٩ـ١١٦.

الإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن رسالتهم حق من الله _تعالى_ فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بهم جميعاً كما قال الله _تعالى_: [كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ].

فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذبوه.

وعلى هذا فالنصارى الذين كذبوا محمداً"ولم يتبعوه هم مكذبون للمسيح ابن مريم غير متبعين له _أيضاً_ لا سيما وأنه قد بشَّرهم بمحمد ".

ولا معنى لبشارتهم به إلا أنه رسول إليهم ينقذهم الله به من الضلالة، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه مثل محمد وإبراهيم وموسى ونوح وعيسى _عليهم الصلاة والسلام_.

وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، وقد ذكرهم الله _تعالى_ في موضعين من القرآن في سورة الأحزاب في قوله: [وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ].

وفي سورة الشورى في قوله: [شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ].

وأما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالاً قال الله _تعالى_: [وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ] (غافر:٧٨).

الثالث: تصديق ما صح عنهم من أخبار.

الرابع: **العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم** وهو خاتمهم محمد " المرسل إلى جميع الناس قال الله ـتعالىـ: [فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥)] النساء[١].

رابعاً: ثمرات الإيمان بالأنبياء والرسل

الإيمان بالأنبياء والرسل يثمر ثمرات جليلة منها:

الأولى: العلم برحمة الله ـتعالىـ وعنايته بعباده؛ حيث أرسل إليهم الرسل؛ ليهدوهم إلى صراط الله ـتعالىـ ويبينوا لهم كيف يعبدون الله؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك.

الثانية: شكره ـتعالىـ على هذه النعمة الكبرى.

الثالثة: محبة الرسل ـعليهم الصلاة والسلامـ وتعظيمهم، والثناء عليهم بما يليق بهم؛ لأنهم رسل الله ـتعالىـ ولأنهم قاموا بعبادته وتبليغ رسالته والنصح لعباده[٢].

---

١ ـ انظر رسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين ص٢٦.

٢ ـ رسائل في العقيدة ص٢٧.

المبحث الثالث: عقيدة ختم النبوة، وما يتعلق بها

أولاً: مفهوم عقيدة ختم النبوة

المقصود بختم النبوة: انتهاء إنباءِ اللهِ الناسَ، وانقطاع وحي السماء[١].

ومعنى ذلك اعتقاد أن النبواتِ قد ختمت بنبوة النبي محمد" وأن وحي السماء انقطع بموته _عليه الصلاة والسلام_ وأن ذلك من صميم عقيدة المسلمين، وأن من ادعى خلاف ذلك فهو كافر بالله مكذب لنبيه".

وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع.

وقد وردت الأدلة من القرآن الكريم على عقيدة ختم النبوة بصور عدة، منها:

أ_ **التصريح بالختم**، قال _تعالى_: [مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ] (الأحزاب: ٤٠).

ففي هذه الآية الكريمة تصريح بخاتمية محمد" للأنبياء قبله، فلا نبي بعده ولا رسول.

وهذا هو ما فهمه المفسرون لكتاب الله _تعالى_ من عصر صدر الإسلام إلى يومنا هذا[٢].

ب_ **تقرير تلك العقيدة بطريق الاستلزام العقلي:** وذلك في عدد من

١ ـ انظر عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص١٦.

٢ ـ انظر عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص١٩ـ٢٤.

الآيات، كالآيات الدالة على عموم رسالة نبينا محمد " كقوله ـتعالىـ: [قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً] (الأعراف:١٥٨).

وكالآيات الدالة على تعهد الله ـعز وجلـ بحفظ كتابه.

وكالآيات التي تقرر حجية القرآن على كلِّ مَنْ بَلَغ [وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ] (الأنعام:١٩).

وكالآيات التي تطالب الناس بالإيمان بالرسل السابقين، والكتب السماوية السابقة فحسب، دون أن تطالبهم بالإيمان بغيرهم[١].

أما دلالة السنة فقد كان النبي " مهتماً بتقرير عقيدة ختم النبوة، وتأكيدها، بحيث إنه قد قررها بمختلف الأساليب البيانية، وفي سائر المناسبات الخاصة والعامة، ولم يترك شبهة يمكن أن تغبِّش صورتها إلا وأزالها حتى تركها واضحة جلية.

والمتتبع لأحاديث الرسول" يرى أنها قد أَكَّدَت خَتمِيةَ النبوة بعبارات متنوعة يصل بعضها إلى حد التواتر.

وهي في جملتها متواترة تواتراً قطعياً لا يُبْقِي مجالاً للشك أو التردد في كون النبي" خاتَمَ الأنبياء[٢].

وقد ساق أ.د أحمد بن سعد الغامدي في كتابه ختم النبوة خمسة وستين حديثاً في ذلك الشأن.

ومنها قوله": =وإنه سيكون من أمتي كذابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم

---

١ ـ انظر عقيدة ختم النبوة ص١٩ـ٢٩.

٢ ـ انظر عقيدة ختم النبوة ص٣٠ـ٥٤.

النبيين لا نبي بعدي+[١].

ثانياً: مفهوم المعجزة، والكرامة، والأحوال الشيطانية

المعجزة: أمر خارق للعادة يجريه الله على يد نبي من أنبيائه، تأييداً له، وتصديقاً.

وتسمى المعجزة: الآية.

ومعنى الأمر الخارق للعادة: هو ما يكون على خلاف مألوف الآدميين، وما كان خارجاً عن طاقتهم.

والكرامة: هي أمر خارق للعادة يجريه الله على يد ولي من أوليائه؛ معونة له على أمر ديني أو دنيوي.

وتكون على يد المؤمن الولي التقي المتَّبِع للشرع.

وهي _في الحقيقة_ معجزة لنبيه؛ لأنها لم تقع إلا بسبب اتباعه له.

ومن تلك الكرامات قصة العلاء بن الحضرمي وأصحابه حين مشوا على الماء، ورؤية عمر لجيش سارية وهو على منبر المدينة، ونداؤه لأمير الجيش وهو بنهاوند: يا سارية الجبل؛ تحذيراً له من العدو مع بعد المسافة، ونزول الملائكة على أسيد بن الحضير لسماع قراءته.

والأحوال الشيطانية: أمور خارقة للعادة تجري على يد مُعْرِض عن الشرع، صادٍّ عن الحق؛ متلبس بالمعاصي؛ فذلك من الأحوال التي تَصُدُّ بها الشياطينُ الناسَ عن اتباع الحق، كدخولها في الأصنام، وتكليم عابديها، أو الحكم بينهم، أو قضاء بعض حوائجهم، وقد ترفع بعض الضُّلاَّل في الهواء ثم تعيده، أو تنقله من بلد بعيد

---

١ ـ أخرجه أحمد (٢٢٤٤٨) والحاكم ٤٩٦/٤.

وهكذا.

وهذه الثلاثة ـ المعجزة، والكرامة، والأحوال الشيطانية ـ تجتمع في كونها خارقةً للعادة، وتنفرد المعجزة بكونها واقعة على يد نبي؛ فيؤيده الله ويظهره، وتنفرد الكرامة بكونها على يد وليٍّ متبع، وتنفرد الأحوال الشيطانية بكونها واقعة على يدِ دَعيٍّ مخالف ضال.

والمعتزلة أنكروا الكرامة لأنها ـ بزعمهم ـ لو صحت لأشبهت المعجزة، ولأدى ذلك إلى التباس النبي بالولي، وذلك لا يجوز ـ بزعمهم ـ.

وهذا باطل، وفيه إنكار للمحسوسات، ودعواهم إنما تصح إذا ادعى من يأتي بالخارقِ النبوةَ.

وهذا لا يقع من الولي، ولو ادعى ذلك لم يكن ولياً، بل كان متنبئاً كذاباً[١].

ثالثاً: ادعاء النبوة

ظهرت في العصور الإسلامية الأولى وفي العصر الحديث حركات التنبؤ التي يدعي أصحابها أنهم أنبياء، وقامت تلك الحركات مدفوعة بأسباب كثيرة يأتي على رأسها: الجهل، والعصبية القبلية، والعصبية الشعوبية، والحقد اليهودي والصليبي.

زد على ذلك الانحرافَ في الفكر الشيعي خصوصاً في مسألة الإمامة وعصمة الأئمة، والمجاهدات الصوفية الغالية، والظروف السيئة التي مرت بها الأمة خصوصاً في العصور المتأخرة.

ومن أشهر المتنبئين في عصر صدر الإسلام: الأسود العنسي، وطليحة ابن

---

١ ـ انظر مذكرة في التوحيد للشيخ محمد بن قاسم ص١٦ـ١٧.

خويلد، ومسيلمة، وسجاح التغلبية.

وأشهرهم في العصرين الأموي والعباسي: المختار بن عبيد، والحارث ابن سعيد، وبيان ابن سمعان، والمغيرة العجلي، وأبو الخطاب الأسدي، وعلي ابن الفضل الحميري.

أما في العصر الحديث فقد ادعى النبوة كثيرون، وأشهر هؤلاء محمد بن علي الشيرازي زعيم الدعوة البابية، وحسين بن علي المازندراني زعيم الدعوة البهائية، وأحمد القادياني زعيم الدعوة القاديانية.

والحديث عن بطلان تلك الدعاوى يطول، والمجال لا يتسع لذلك، بل إن فسادها يغني عن إفسادها[١].

رابعاً: خصائص نبينا محمد "

اخْتُصَّ نبينا محمدٌ" بخصائص كثيرة، والمجال لا يتسع لإحصائها، ومنها على سبيل الإجمال ما يلي:

١ـ عموم رسالته": يقول الله ـعز وجلـ: [قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً] (الأعراف:١٥٨).

فهذه الآية الكريمة تدل على عموم رسالته" إلى الناس جميعاً، وهذه هي إحدى الخصائص التي انفرد بها" عن الأنبياء قبله؛ إذ كان النبي إنما بعث إلى قومه خاصة، ثم يبقى غيرهم محتاجاً إلى من يبلغه أمر الله ـعز وجلـ.

ولئلا يُتَوَهَّمَ هذا في رسولنا ـعليه الصلاة والسلامـ بيَّن الله ـسبحانه

---

١ ـ انظر عقيدة ختم النبوة ص١٧٠ـ٢٧١، وانظر رسائل في الأديان والفرق والمذاهب للكاتب ص٢٢٣ـ٣١٥.

وتعالى_ عموم رسالته إلى الناس جميعاً[١].

وقال _عليه الصلاة والسلام_: =وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس كافة+[٢].

٢_ أن الله _عز وجل_ تكفل بإظهار دينه على جميع الأديان: قال الله _عز وجل_: [هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)] التوبة.

٣_ أن الله _عز وجل_ تكفل بحفظ الكتاب الذي أنزل على محمد": قال _تبارك وتعالى_: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)] الحجر.

٤_ أن دينه _عليه الصلاة والسلام_ كامل صالح لكل زمان ومكان وأمة: قال الله _عز وجل_: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِيناً...] (المائدة:٣).

٥_ أنه _عليه الصلاة والسلام_ نصر بالرعب مسيرة شهر، وأحلت له الغنائم، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمته أدركته الصلاة فليصل، كما صح بذلك الحديث عنه "[٣].

٦_ ما أظهر الله على يديه من المعجزات الكثيرة المتنوعة.

٧_ أنه أكثر الناس تابعاً يوم القيامة.

---

١ ـ عقيدة ختم النبوة ص٢٤.

٢ ـ أخرجه البخاري (٤٣٨).

٣ـ أخرجه البخاري (٤٣٨).

٨_ أنه يشفع للخلائق الشفاعة الكبرى يوم القيامة إذا تخلى الأنبياء عن ذلك.

٩_ أنه أول من يستفتح باب الجنة، وأن أمته أول الأمم دخولاً للجنة.

إلى غير ذلك مما اختص به _عليه الصلاة والسلام_.

الرسالة العاشرة

خلاصة الإيمان باليوم الآخر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فلما أَرَدْتُ جَمْعَ ما كتبته من رسائل في العقيدة في كتاب واحد ــ كان من ضمن تلك الرسائل كتاب عنوانه:

الإيمان باليوم الآخر

أحوال البرزخ ــ أشراط الساعة ــ أحوال القيامة

ولكنني ترددت في ذلك كثيراً؛ لأن الكتاب المذكور يقع في مائة وأربعة وثمانين صفحة من القطع الكبير.

ولو أضيف إلى هذا المجموع لكبر حجمه، زيادة على كبره، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى كنت أرغب في إضافته؛ لأن هذا المجموع يحتوي على جميع أركان الإيمان عدا الإيمان باليوم الآخر.

ثم استقر الأمر على اختيار بعض المسائل من ذلك الكتاب؛ لتضاف إلى هذا المجموع مع مراعاة الاختصار، والتخفف من العزو؛ فمن أراد الاستزادة من ذلك فليراجع الأصل؛ فإلى تلك المسائل، والله المستعان، وعليه التكلان.

تمهيد: تعريفات ومقدمات

أولاً: تعريفات حول اليوم الآخر

١ــ **تعريف اليوم الآخر**: هو يوم القيامة الذي يبعث فيه الناس للحساب والجزاء.

وسمي بذلك: لأنه لا يوم بعده؛ حيث يستقر أهل الجنة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم .

٢ــ **معنى الإيمان باليوم الآخر**: التصديق الجازم بإتيانه، وبجميع تفاصيله، والعمل بموجب ذلك.

٣ــ **مفهوم الإيمان باليوم الآخر**: الإيمان باليوم الآخر يشمل كل ما ورد في أخبار ذلك اليوم، وما يتعلق به؛ فيدخل في ذلك الإيمان بأشراط الساعة وأماراتها التي تكون قبلها، وبالموت وما بعده من فتنة القبر، وعذابه، ونعيمه، وبالنفخ بالصور، وخروج الخلائق من القبور، وبالجزاء، والحساب، وما في موقف القيامة من الأهوال، والأفزاع، وتفاصيل المحشر، ونشر الصحف، ووضع الموازين، وبالصراط، والقنطرة، والحوض، والشفاعة، وغيرها، وبالجنة ونعيمها، الذي أعلاه النظر إلى وجه الله ــعز وجلــ وبالنار وعذابها الذي أشده حجب أهلها عن ربهم ــعز وجلــ.

٤ــ **أسماء اليوم الآخر**: عدد بعض العلماء أسماء اليوم الآخر، ومن هؤلاء القرطبي × حيث ذكر ما يزيد على خمسين اسماً؛ وشرع في شرحها.

ومنهم ابن كثير × حيث ذكر لليوم الآخر أكثر من ثمانين اسماً.

٦ ــ **ومن أشهر تلك الأسماء**: الساعة، ويوم القيامة، ويوم الوعيد، ويوم الدين، ويوم الحسرة، والدار الآخرة، ويوم التناد، ويوم الجمع.

ثانياً: أهمية الإيمان باليوم الآخر

للإيمان باليوم الآخر أهمية عظمى، ومما يدل على ذلك ما يلي:

١ _ **أنه أحد أركان الإيمان الستة.** ٢ _ **كثرة وروده في نصوص الشرع.**

٣ _ **كثرة ارتباطه بالإيمان بالله _تعالى_.** ٤ _ **كثرة الثناء على المؤمنين به، والذم للكافرين به.** ٥ _ **كثرة المؤلفات التي تحدثت عنه.** ٦ _ **كثرة أسماء اليوم الآخر.**

٧ _ **ما يترتب على الإيمان به من الثمرات الجليلة، والآثار العظيمة.**

ثالثاً: ثمرات الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر يثمر ثمراتٍ جليلةً، وأخلاقاً جميلة، وعبوديات متنوعة، وآثاراً حميدة تعود على الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة.

ومن ذلك ما يلي:

١ _ **زيادة الإيمان.**

٢ _ **انبعاث الرجاء والخوف.**

٣ _ **العلم بفضل الله، وعدله، وحكمته.**

٤ _ **الاعتدال في حال السراء والضراء.**

٥ _ **قيام الأخلاق الجميلة.**

٦ _ **تسلية المؤمن عما يفوته في هذه الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة.**

الموت، والبرزخ، والقبر

أولاً: المـوت

أ_ تعريف الموت: الموت ضد الحياة، ونقيضها.

قال القرطبي × في تعريفه: =قال العلماء: الموت ليس بعدمٍ مَحْض، ولا فناء صِرْف، وإنما هو انقطاع تعلُق الروح بالبدن، ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتَبَدُّل حالٍ، وانتقال من دار إلى دار+.

ب_ الموت يأتي فجأة: قال القرطبي ×: =وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سنٌّ معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم. وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك، مستعداً لذلك+ .

ثانياً: البـرزخ

أ_ تعريفه في اللغة: البرزخ في كلام العرب هو الحاجز بين الشيئين.

قال الله _تعالى_: [وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً] الفرقان: ٥٣، أي: حاجزاً.

ب_ البرزخ في الشرع: هو الدار التي تعقب الموت إلى البعث.

قال _تعالى_: [وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ] المؤمنون: ١٠٠.

قال مجاهد: هو ما بين الموت والبعث.

ثالثاً: القبر

أ_ تعريفه: القبر مدفن الإنسان، وجمعه قبور، والمقبُرةُ بفتح الباء وضمها موضع القبور، والمقبَر: موضع القبر.

ب ـ فتنة القبر: الفتنة تطلق على عدة معان، منها الاختبار والامتحان.

وفتنة القبر: هي سؤال الملكين الميتَ بعد دفنه عن ربه، ودينه، ونبيه.

جـ ـ صفة فتنة القبر: إذا دفن الميت في قبره تُعادُ له الروح، فَيُسأل، ويقال له: مَنْ ربُّك، وما دينك، ومن نبيك؟

فيقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد.

ويضل الله الظالمين، فيقول الكافر: هاه، هاه لا أدري.

ويقول المنافق أو المرتاب: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

د ـ وصف الملكين وتسميتها: جاء في بعض الأحاديث وصف الملكين الموكلين بفتنة القبر، وتسميتها.

فعن أبي هريرة ÷ قال: قال النبي " =**إذا قبر أحدكم ـ أو الإنسان ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير**+. [1]

هـ ـ هل تفتن الأمم السابقة في قبورها أو أن ذلك خاص بهذه الأمة؟ قال بعض العلماء: إن الأمم السابقة لا تفتن في قبورها؛ بحجة أنها رفضت الاستجابة لرسلها، فعوجلت بالعذاب وأن هذه الأمة قد أُمسك عنها العذاب، وبعث الرسول بالسيف فمن دخل الإسلام مخافة القتل ثم نافق عذب في قبره.

وهذا القول محل نظر، والصحيح أن الأمم السابقة تفتن في قبورها، وتعذب أو تنعم.

١ـ أخرجه الترمذي (١٠٧١)، وقال حسن غريب، وابن أبي عاصم في السنة (٨٦٤) قال الألباني :«واسناده حسن ، وفيه رد على من أنكر من المعاصرين تسمية الملكين بمنكر ونكير» .

و ـ هل يفتن الكافر في قبره؟ الصحيح أنه يفتن، فالفتنة عامة للكافر وغيره، كما جاء في الأحاديث من أن الكافر أو المنافق يقول إذا سُئل =هاه هاه لا أدري+.

ز ـ هل الأطفال يمتحنون في قبورهم؟ الجواب أن هذه المسألة قد اختلف فيها على قولين:

الأول: قول من قال: إنهم يسألون، وحجة أولئك أنه يشرع الصلاة عليهم، وسؤال الله أن يقيهم عذاب القبر وفتنة القبر.

الثاني: قول من قال بأنهم لا يسألون؛ لأن السؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والمرْسِل، فيسأل: هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا.

أما الطفل الذي لا تمييز له بوجه ما ـ كيف يسأل؟

والذي يظهر من كلام ابن تيمية، وابن القيم ـ رحمهما الله ـ أنهما يميلان إلى القول الأول.

وهذا ما سيتضح في الفقرة التالية.

ح ـ هل يفتن غير المكلف؟ الجواب أن هذه المسالة قد اختلف فيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =وقد تواترت الأحاديث عن النبي " في هذه الفتنة من حديث البراء ابن عازب، وأنس بن مالك، وأبي هريرة وغيرهم ــرضي الله عنهمــ.

وهي عامة للمكلفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم، وكذلك اختلف في غير المكلفين كالصبيان والمجانين؛ فقيل يفتنون وقيل لا يفتنون؛ لأن المحنة إنما تكون للمكلفين، وهذا قول القاضي وابن عقيل.

وعلى هذا فلا يلقنون بعد الموت.

وقيل يلقنون، ويفتنون _أيضاً_.

وهذا قول أبي حكيم، وأبي الحسن بن عبدوس، ونقله عن أصحابه، وهو مطابق لقول من يقول: إنهم يكلفون يوم القيامة كما هو قول أكثر أهل العلم، وأهل السنة من أهل الحديث والكلام، وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري÷ عن أهل السنة، واختاره، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد+.

وقال في موضع آخر بعد كلام قريب من الكلام السابق بعد أن ذكر حجة القائلين بالقول بأنهم يفتنون =ومن قال بالأول: يستدل بما في الموطأ عن أبي هريرة ÷ أنه صلى على صغير لم يعمل خطيئة قط فقال: =**اللهم قه عذاب القبر وفتنة القبر**+ وهذا يدل على أنه يفتن.

وأيضاً فهذا مبنيٌّ على أن أطفال الكفار الذين لم يكلفوا في الدنيا يكلفون في الآخرة، كما وردت بذلك أحاديث متعددة.

وهو القول الذي حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة؛ فإن النصوص عن الأئمة كالإمام أحمد وغيره: الوقف في أطفال المشركين كما ثبت في الصحيحين عن النبي " أنه سئل عنهم فقال: =**الله أعلم بما كانوا عاملين**+.

وثبت في صحيح البخاري أن منهم من يدخل الجنة.

وثبت في صحيح مسلم أن الغلام الذي قتله الخَضِر طُبِعَ يوم طُبِعَ كافراً.

فإن كان الأطفال وغيرهم منهم شقي وسعيد فإذا كان ذلك لامتحانهم في الدنيا لم يمنع امتحانهم في القبور.

لكن هذا مبني على أنه لا يُشهد لكل معين من أطفال المؤمنين بأنه في الجنة،

وإن شُهد لهم مطلقاً، ولو شهد لهم مطلقا؛ فالطفل قد يكون منافقاً بين مؤمنين، والله أعلم+.

قال ابن القيم ×: =وأما حديث أبي هريرة[١] ÷ فليس المراد بعذاب القبر فيه عقوبة على الطفل على ترك طاعة، أو فعل معصية؛ فإن الله لا يعذب أحداً بلا ذنب عمله.

بل عذاب القبر قد يراد به الألم الذي يحصل للميت بسبب غيره، وإن لم يكن عقوبة على عمل عمله.

ومنه قوله ": =**إن الميت ليعذب ببكاء أهله**+ أي يتألم، ويتوجع منه، لا أنه يعاقب بذنب الحي =ولا تزر وازرة وزر أخرى+.

وهذا كقول النبي ": =**السفر قطعة من العذاب**+.

فالعذاب أعم من العقوبة.

ولا ريب أن في القبر من الآلام والهموم والحسرات ما قد يسري أثره إلى الطفل؛ فيتألم به؛ فيشرع للمصلي عليه أن يسأل الله _تعالى_ له أن يقيه ذلك العذاب، والله أعلم+.

١ـ يعني الحديث الذي مضى ذكره قبل قليل، حديث أبي هريرة أنه ﷺ صلى على صغير لم يعمل خطيئة قط، فقال: «**اللهم قه عذاب القبر وفتنة القبر**».

نعيم القبر وعذابه

أولاً: تعريفه: هو اسم لنعيم البرزخ وعذابه، وهو نتيجة لفتنة القبر؛ فنعيم القبر للمؤمنين الصادقين، وعذابه للظالمين من المنافقين والكافرين.

ثانياً: تواتر الأخبار في نعيم القبر وعذابه: يقول شارح الطحاوية: لقد تواترت الأخبار عن رسول الله " في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان أهلا لذلك؛ فيجب اعتقاد ذلك، والإيمان به+.

ثالثاً: نعيم القبر وعذابه في القران الكريم: نعيم القبر وعذابه في البرزخ مذكور في غير ما آية؛ حيث وردت إشارات في القرآن تدل على وقوعه.

وقد ترجم البخاري × في كتاب الجنائز لعذاب القبر، فقال: =باب ما جاء في عذاب القبر+.

ثم ساق في الترجمة قوله _تعالى_: [وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ] الأنعام: ٩٣.

رابعاً: الإيمان بعذاب القبر ونعيمه بلا كيفية: قال شارح الطحاوية × بعد أن تكلم على تواتر الأخبار في عذاب القبر ونعيمه: =فيجب اعتقاد ذلك، والإيمان به ولا نتكلم في كيفيته؛ إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته؛ لكونه لا عهد له به في هذه الدار.

والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكن قد يأتي بما تحار فيه العقول؛ فإن عودة الروح للجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير

الإعادة المألوفة في الدنيا+.

خامساً: هل عذاب القبر ونعيمه خاص بمن دفن في قبر، أو هو شامل؟
والجواب عن ذلك أن عذاب القبر ونعيمه شامل لمن دفن في قبر أو غيره؛ فكل من مات وهو مستحق للعذاب أو النعيم ناله نصيبه منه، سواء قبر أم لم يقبر، وسواء كان في فلاة، أو في مكان يحفظ فيه كالثلاجة، أو أنه قد أكلته السباع، أو احترق حتى صار رماداً ونسف بالهواء، أو صلب، أو غرق في البحر، أو غير ذلك؛ فالعذاب أو النعيم يصل إليه كما يصل إلى المقبور.

وإنما سمي عذاب القبر ونعيمه باعتبار الغالب والأصل.

سادساً: هل يَفْهَم فتنةَ القبر، ويجيب عن سؤال الملكين مَنْ لا يعرف العربية؟ فقد مر بنا أن سؤال الناس في قبورهم يكون بصيغة: من ربك؟، وما دينك، وما نبيك؟

والجواب عن هذا الإشكال:

هو أن الإنسان يفهم السؤال، ويجيب عنه، ولو لم يكن يعرف العربية.

سابعاً: هل عذاب القبر ونعيمه على البدن أو على الروح؟ الجواب أن عذاب القبر ونعيمه يكون على البدن والروح معاً.

قال ابن تيمية ×: =مذهب سلف الأمة، وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمةً أو معذبةً، وأنها تتصل بالبدن أحياناً، فيحصل له معها النعيم والعذاب+.

ثامناً: هل عذاب القبر دائم أو منقطع؟ عذاب القبر على نوعين:

أحدهما: دائم، ويدل على هذا قوله _تعالى_: [النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً

وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ] غافر: ٤٦ .

وكذلك في حديث البراء بن عازب في قصة سؤال الكافر في قبره، وفيه =**ثم يفتح له باب إلى النار، فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة**+.

النوع الثاني: أنه إلى مدة ثم ينقطع: وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم، فيعذب بحسب جرمه، ثم يخفف عنه، كما يعذب في النار مدة ثم يزول عنه العذاب.

وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء، أو صدقة، أو ثواب حج يصله من بعض أقاربه، أو غيرهم.

الـروح

أولاً: حقيقة الروح التي في البدن: اختلف الناس في حقيقة الروح التي في البدن اختلافاً كثيراً، وأحسن ما قيل في ذلك؛ ما ذكره ابن القيم × في كتابه الروح؛ حيث ساق ستة أقوال في الروح نقلها عن الرازي، واختار آخرها، وقال: =السادس: أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نوراني، علوي، خفيف، حي، متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم+.

ثانياً: لم سميت الروح بهذا الاسم؟ لأن بها حياة البدن.

ثالثاً: هل الروح والنفس شيء واحد أو أنهما متغايران؟ الروح التي في البدن هي النفس؛ فهذا المخلوق الذي تكون به الحياة، وتفقد بفقده يسمى روحاً، ونفساً؛ فهما بهذا الاعتبار مترادفان، يُعَبَّر بكل واحد منهما عن الآخر، ويدل عليه، ولا يمنع أن يكون لكل واحد منهما إطلاقات؛ فالنفس تطلق على الروح، ولكن غالباً ما تسمى به نفساً إذا كانت متصلة بالبدن، أما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها.

رابعاً: مسكن الروح: الجسد هو مسكن الروح، وهي تسري في الجسد كله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =لا اختصاص للروح بشيء من الجسد؛ بل هي سارية في الجسد، كما تسري التي هي عَرَض في جميع الجسد؛ فإن الحياة مشروطة بالروح، فإذا كانت الروح في الجسد كان فيه حياة، وإذا فارقته الروح فارقته الحياة+.

خامساً: الروح مخلوقة: فالحق الذي لا يجوز العدول عنه أن الروح مخلوقة، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع .

قال: شيخ الإسلام ابن تيمية × =روح الآدمي مبدعة باتفاق سلف الأمة، وأئمتها، وسائر أهل السنة+.

سادساً: هل تموت الروح؟ الجواب أن الناس قد اختلفوا في ذلك، والصواب كما قال ابن القيم × أن يقال =موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها، وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت .

وإن أريد أنها تَعْدَم، وتضمحل، وتصير عدماً محضاً _ فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في النعيم أو العذاب+.

سابعاً: مستقر الأرواح في البرزخ: الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت، فمنها أرواح في أعلى عليين، ومنها أرواح في أسفل سافلين، ومنها ما هو بين ذلك؛ فالناس يتفاوتون بحسب إيمانهم، وأعمالهم.

إنكار عذاب القبر ونعيمه والرد على من زعم ذلك

أنكر بعض الزائغين من الملاحدة والزنادقة ومن نحا نحوهم عذاب القبر، وسعته، وضيقه، وكونه حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، وكون الميت لا يُجلس، ولا يقعد.

والجواب عن هذه المزاعم يسير _بحمد الله_ فهي مزاعم باطلة مردودة بالشرع، والحس، والعقل، وإليك بعض الوجوه التي يرد بها على تلك المزاعم.

١_ **أن عذاب القبر ونعيمه ثابت بالشرع**: وقد مضى ذكر لبعض تلك النصوص، بل إن أحاديث هذا الباب متواترة كما في فقرة سابقة.

٢_ **أنه يجب التأدب مع نصوص الشرع**: فلا يجوز معارضتها بهذه الشبه الفاسدة الداحضة التي لو تأمل المعارض بها ما جاء في الشرع حق التأمل لعلم بطلان هذه الشبه؛ ففي الشرع ما قد تحار فيه العقول، ولكن ليس فيه ما تحيله العقول.

٣_ أن أحوال البرزخ من أحوال الغيب التي لا يدركها الحس: ولو كانت تدرك بالحس لفاتت فائدة الإيمان بالغيب، ولتساوى المؤمنون بالغيب، والجاحدون في التصديق بها.

٤_ أن الحس يدل على وقوع عذاب القبر: فالنائم يرى في منامه أنه في مكان فسيح بهيج يتنعم فيه، ويرى أنه في مكان ضيق موحش يتألم منه، وربما يستيقظ أحيانا مما رأى، وربما يرى أثراً للألم في بدنه، وهو مع ذلك في فراشه داخل حجرته على ما هو عليه، والنوم أخو الموت.

٥ـ أن العقل يدل على وقوع عذاب القبر: ومن ذلك ـأيضاًـ أن النائم في منامه يرى الرؤيا الحق المطابقة للواقع، وربما رأى النبي"على صفته، ومن رآه على صفته فقد رآه حقاً.

ومع ذلك فإن النائم في حجرته على فراشه بعيداً عما رأى.

فإذا كان هذا ممكناً في أحوال الدنيا أفلا يكون ممكنا في أحوال الآخرة؟

٦ـ أن النعيم، والعذاب، وسعة القبر، وضيقه إنما يدركها الميت دون غيره: ونظير ذلك كما ـمضىـ أن النائم يرى في منامه أنه في مكان ضيق موحش، أو في مكان واسع بهيج، وهو بالنسبة لغيره لم يتغير حاله، فهو في منامه وبين فراشه وغطائه.

أشراط الساعة

أولاً: قواعد عامة مجملة:

١ ــ الساعة آتية لا ريب فيها، قال ــتعالىــ: [إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ] طه: ١٥ .

٢ ــ الساعة قريبة، قال ــتعالىــ:[اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ] القمر: ١ .

٣ ــ لا يعلم وقت الساعة إلا الله قال ــ عزوجل ــ: [يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ] الأعراف: ١٨٧ .

٤ ــ الساعة غيب، والإيمان بها من جملة الإيمان بالغيب.

٥ ــ لا يجوز الاشتغال بتحديد زمن الساعة.

٦ ــ للساعة أمارات تدل على قربها، ووقوعها.

ثانياً: الموقف الصحيح من أشراط الساعة:

أن نؤمن بما جاء من النصوص في شأنها، وألا نكلف أنفسنا في استدعائها وطلبها وتنزيلها على الواقع.

بل ندع تفسيرها للواقع؛ حتى لا نرجم بالغيب، ونقْفُوَ ما ليس لنا به علم؛ اقتداء بالسلف الصالح الذين آمنوا بتلك النصوص، وأدوها إلينا بكل صدق وأمانة، ولم يقحموا الظنون في تعيينها، وترتيب بعضها على بعض بمجرد الرأي.

وبذلك نسلم من صنيع بعض الناس الذين ربطوا بين النصوص الواردة في أحوال آخر الزمان وأشراط الساعة وبين حال العالم في زماننا هذا، فرتبوا بعضها على بعض، وبنوا على ذلك أموراً نتج عنها فتن عظيمة، وانتهاك للحرمات.

وخلاصة ذلك القول في هذه المسألة: أن نؤمن بتلك النصوص، وندع تفسيرها

للواقع.

ثالثاً: الإيمان بأشراط الساعة لا يعني البطالة، وترك الأخذ بالأسباب: لأن تلك الأشراط أمور قدرية كونية، ونحن مأمورون شرعاً ودينا بالتكاليف الشرعية.

رابعاً: الساعة في الاصطلاح الشرعي: هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة.

سميت الساعة بذلك: إما لقربها؛ فإن كل آتٍ قريب، أو لسرعة الحساب فيها، أو لأنها تأتي بغتة في ساعة، أو لسعي الأرواح إلى الأجساد بسرعة في ذلك اليوم، أو لغير ذلك.

خامساً: تعريف أشراط الساعة: هي علاماتها، وأعلامها التي تسبقها، وتدل على قربها، وقيامها، ومجيء الساعة بعدها، وانتهاء الدنيا وانقضائها.

سادساً: أقسام أشراط الساعة: تنقسم إلى قسمين:

١ _ أشراط صغرى: وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة، وتكون من نوع المعتاد، كقبض العلماء، وظهور الجهل، وشرب الخمر، والتطاول في البنيان، ونحو ذلك كما سيأتي بيانه.

وقد يكون بعضها مصاحبا للأشراط الكبرى.

٢ _ أشراط كبرى: وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة، وتكون غير معتادة الوقوع، كظهور الدجال، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها.

سابعاً: الحكمة في تقديم أشراط الساعة ودلالة الناس عليها: قال القرطبي×: =والحكمة في تقديم الأشراط،ودلالة الناس عليها تنبيه الناس من رقدتهم، وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة؛ كي لا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك

العوارض منهم؛ فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة قد نظروا لأنفسهم، وانقطعوا عن الدنيا، واستعدوا للساعة الموعود بها، والله اعلم+.

ثامناً: ترتيب أشراط الساعة الكبرى: لقد جاءت الأحاديث التي نصت على أشراط الساعة الكبرى مجموعة غير مرتبة؛ إذ كان ترتيبها في الذكر لا يقتضي ترتيبها في الوقوع؛ فقد جاء العطف فيها بالواو، وذلك لا يقتضي الترتيب.

ومن النصوص ما خالف ترتيب الأشراط فيها ترتيبها في نص آخر.

وهذه جملة من الأحاديث التي تعرضت لذكر الأشراط الكبرى جملة، أو ذكر بعضها.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي" علينا، ونحن نتذاكر، فقال: =**ما تذاكرون؟+** قالوا: نذكر الساعة، قال: =**إنها لن تقوم حتى ترو قبلها عشر آيات+**.

فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم _عليه السلام_ ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم.[1]

وروى مسلم هذا الحديث عن حذيفة بن أسيد بلفظ آخر، قال أسيد: كان النبي " في غرفة، ونحن أسفل منه، فاطلع إلينا فقال: =**ما تذكرون؟**+قلنا الساعة. قال: =**إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق،**

١ـ رواه مسلم (٢٩٠١).

وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب، والدخان، والدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعرة عدن ترحل الناس+.

وفي رواية في العاشرة: نزول عيسى ابن مريم .

وفي رواية: وريح تلقي الناس في البحر.[1]

وروى مسلم ــ أيضاً ــ عن أبي هريرة ÷ أن رسول الله " قال: =**بادروا بالأعمال ستاً، طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة**+.[2]

وفي لفظ آخر: =**بادروا بالأعمال ستاً: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم**+ .[3]

وعن عبدالله بن عمرو÷ قال: حفظت من رسول الله حديثاً لم أُنْسَهُ بعد، سمعت رسول الله " يقول: =**إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً**+. [4]

والذي يمكن معرفته من خلال هذه الأحاديث هو ترتيب بعض الأشراط من خلال حدوث بعضها إثر بعض؛ لأن الترتيب جاء بلفظين مختلفين في ترتيب

١ـ رواه مسلم (٢٩٠١) .

٢ـ رواه مسلم (٢٩٤٧) .

٣ـ المرجع السابق .

٤ـ رواه مسلم (٢٩٤١) .

بعض الأشراط، وفي أداة العطف؛ حيث جاء مرة بـ(أو)، ومرة بـ(الواو) وهما لا يدلان على الترتيب.

ولهذا اختلف العلماء في ترتيب الأشراط، وقد جمع الحافظ ابن حجر × بين أولية الدجال، وأولية خروج الشمس من مغربها، فقال: =الذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى _عليه السلام_.

وأن طلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة.

ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب+

ثم قال: =والحكمة في ذلك أنه عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة؛ فتخرج الدابة؛ تميز المؤمن من الكافر؛ تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة.

وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس+.

وقال الطيبي × =الآيات أمارات للساعة، إما على قربها، وإما على حصولها.

فمن الأول: الدجال، ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، والخسف.

ومن الثاني: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس+.

وهذا تقسيم حسن دقيق.

تاسعاً: تتابع ظهور الأشراط الكبرى: بغض النظر عن ترتيب الأشراط الكبرى؛ فإنها إذا ظهر منها أول علامة تتابعت الآيات كتتابع الخرز في النظام، يتبع بعضها بعضاً، ولا يكاد يفصل بينها فاصل.

روى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ÷ عن النبي " قال: =**خروج الآيات بعضها على إثر بعض، يتتابعْن كما تتابع الخرز في النظام**+.[1]

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ":=**الآيات خرزات منظومات في سلك؛ فإن يقطع السلك يتبعْ بعضها بعضاً**+. [2]

والذي يظهر _ والله أعلم _ أن المراد بهذه الآيات هي علامات الساعة الكبرى؛ فإن ظاهر هذه الأحاديث يدل على تقارب ظهورها تقارباً شديداً.

قال ابن حجر ×: =وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تناثر الخرز بسرعة وهو عند أحمد+.

١ـ قال الهيثمي «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أحمد بن حنبل، وداود الزهراني، وكلاهما ثقة» مجمع الزوائد ٣٣١/٧، وقال الألباني في صحيحه الجامع (٣٢٢٢): «صحيح».

٢ـ المسند (٧٠٤٠) تحقيق أحمد شاكر، وقال «إسناده صحيح».

المسيح الدجال

أولاً: تعريف المسيح الدجال: هو مسيح الضلالة الذي يخرج في آخر الزمان، والذي يفتن الناس بما يعطاه من الآيات والخوارق كإنزال المطر، وإحياء الأرض بالنبات، ونحو ذلك.

ثانياً: صفة الدجال: الدجال رجل من بني آدم له صفات كثيرة جاءت بها الأحاديث؛ لتعريف الناس به، وتحذيرهم من شره؛ حتى إذا خرج عرفه المؤمنون؛ فلا يفتنون به، بل يكونون على بَيِّنة من أمره.

وهذه الصفات تميزه عن غيره من الناس؛ فلا يغتر به إلا الجاهل الذي غلبت عليه الشقوة.

ومن صفات الدجال: أنه رجل شاب، أحمر، قصير، أفحج، جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة، _أي بارزة_ ولا جحراء _ أي غائرة منجحرة _ كأنها عنبة طافئة، وعينه اليسرى عليها ظفرة غليظة، ومكتوب بين عينيه (ك ف ر) بالحروف المقطعة، أو (كافر) بدون تقطيع، يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب.

ومن صفاته أنه عقيم لا يولد له.

هذه بعض صفاته التي صرحت بها الأحاديث.[1]

١ـ انظر على سبيل المثال صحيح البخاري (١٨٨٢و٧١٣٢) ومسلم (٢٩٤٠و٢٩٤٢، ٢٩٤١، و٢٩٤٥، ٢٩٤٤و٢٩٤٧، ٢٩٤٦) وسنن أبي داوود ١١/٤٤٣.

ثالثاً: مكان خروجه: يخرج الدجال من جهة المشرق من خراسان، من يهودية أصبهان.

رابعا: سرعة انتقاله في الأرض: بعد أن يخرج الدجال يسير في الأرض فلا يدع بلداً إلا دخله إلا مكة والمدينة فلا يستطيع دخولهما؛ لأن الملائكة تحرسهما.

خامساً: دعاوى الدجال: الدجال يدعي النبوة، ثم يدعي الربوبية، والألوهية.

سادساً: ما يدعو إليه: الدجال يدعو إلى فتنة الناس، وصدهم عن دينهم، ويدعو إلى تصديقه، والإيمان بأنه الرب الإله، وذلك بسبب ما يعطاه من الآيات والخوارق.

سابعاً: عظم فتنته: فتنة الدجال أعظم الفتن، أو من أعظم الفتن منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة؛ وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التي تبهر العقول، وتحير الألباب.

فقد ورد أن معه جنةً وناراً، وجنته ناره، وناره جنته، وأن معه أنهار الماء، وجبال الخبز، وأنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت.

وورد أن كنوز الأرض تتبعه، وأنه يقطع الأرض بسرعة عظيمة كسرعة الغيث إذا استدبرته الريح، وأن الجماد والحيوان يستجيب له، وأنه يقتل شاباً ثم يحييه إلى غير ذلك من الخوارق التي جاءت بها الأحاديث الصحيحة.

ومن أجل ذلك فإن جميع الأنبياء حذروا أقوامهم من فتنة الدجال، ورسولنا" كان أشدهم؛ تحذيراً منه.

جاء في صحيح مسلم عن عمران بن حصين÷قال: =سمعت رسول الله"

ـيقولـ **ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال**+[1] .

وجاء في صحيح البخاري عن أنس ÷ =**ما بُعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر**+[2].

ثامناً: أتباعه: أكثر أتباع الدجال من اليهود، والعجم، والترك، وأخلاط الناس، وغالبهم الأعراب والنساء.

روى مسلم عن أنس بن مالك ÷ أن رسول الله " قال: =**يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة**+[3] .

وعن أبي بكر الصديق÷قال: حدثنا رسول الله" قال: =**الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها:خراسان، يتبعه أقوام كأن وجوهم المَجانُّ المُطْرَقة**[4]+[5].

قال ابن كثير ×: =والظاهر والله ـأعلمـ أن المراد هؤلاء الترك أنصار الدجال+.

تاسعاً: ما وجه كون أكثر أتباعه من الأعراب والنساء؟ أما الأعراب فلأن الجهل غالب عليهم، ولما جاء في حديث أبي أمامة الطويل من قوله ": =**وإن من فتنته ـأي الدجالـ أن يقول للأعرابي أرايت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟**

١ـ رواه مسلم (٢٩٤٦) .

٢ـ رواه البخاري (١٣١٧) .

٣ـ رواه مسلم (٤٤٩٢) .

٤ـ المجان المطرقة: المجان جمع مجن وهو الترس، والمطرقة هي عوليت بطراق، وهو الجلد الذي يغشاه، حيث شبَّه وجوههم في عرضها وغلظها، ونتوء وجناتها بالترس المطرقة. انظر التذكرة ص٦٧٤ـ٦٧٥.

٥ـ رواه الترمذي ٤٩٥/٦ ،وقال الألباني :«صحيح» انظر صحيح الجامع (٣٣٩٨) .

فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني!: اتبعه؛ فإنه ربك+.[١]

وأما النساء فحالهن أشد من حال الأعراب؛ لسرعة تأثرهن، وغلبة الجهل عليهن؛ ففي الحديث عن ابن عمر ــرضي الله عنهما ــ قال: قال النبي ": =**ينزل الدجال في هذه السبخة بمرقناة**[٢] **فيكون أكثر من يخرج إليه النساء، حتى إن الرجل يرجع إلى حميمه، وإلى أمه، وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً؛ مخافة أن تخرج إليه**+[٣] .

عاشراً: مكثه في الأرض: يمكث في الأرض أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وسائر أيامه كسائر أيامنا؛ فمجموع مكثه في الأرض بأيامنا هذه أربعة عشر شهراً، وأربعة عشر يوماً تقريباً.

جاء في حديث النواس بن سمعان ÷ في ذكر الدجال أن الصحابة قالوا: =يا رسول الله! وما لبثه في الأرض؟ =**قال أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم**+[٤] .

حادي عشر: الوقاية من فتنة الدجال: لقد أرشد النبي " أمته إلى ما يعصمها من فتنة المسيح الدجال، وإليك بعض الإشارات الموجزة التي تعصم من تلك الفتنة

١ـ رواه ابن ماجه ١٣٥٩/٢ ـ١٣٦٣.

٢ـ مرقناة: وادٍ بالمدينة يأتي من الطائف ويمر بطرق القدوم في أصل قبور الشهداء في أحد . انظر معجم البلدان ٤٠١/٤.

٣ـ رواه أحمد ١٩٠/٧ تحقيق أحمد شاكر وقال: «إسناده صحيح».

٤ـ رواه مسلم(٢٩٣٧) .

العظيمة. [(١)]

١_ التمسك بالإسلام، والاعتصام بالله _جل وعلا_ قال _تعالى_: [وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] آل عمران: ١٠١.

٢ _ **العلم بأسماء الله وصفاته:** التي لا يشاركه فيها أحد؛ فيعلم أن الدجال بَشَر يأكل ويشرب، ويعتريه ما يعتري البشر، وأن الله _تعالى_ منزه من ذلك، وأن الدجال أعور، والله ليس بأعور، وأنه لا أحد يرى ربه حتى يموت، والدجال يراه الناس عند خروجه مؤمنهم وكافرهم.

٣ _ التعوذ بالله من فتنة الدجال: وخاصة في الصلاة، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في ذلك.

ومن ذلك ما رواه الشيخان عن عائشة _رضي الله عنها_ أن رسول الله " كان يدعو في الصلاة: =**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال**+[(٢)] .

٤ _ حفظ آيات من سورة الكهف: فقد أمر النبي " بقراءة فواتح سورة الكهف على الدجال، وفي بعض الروايات خواتيمها، وذلك بقراءة عشر آيات من أولها أو آخرها.

جاء في صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان الطويل =**من أدركه منكم**

١ـ انظر تفصيل ذلك في أشراط الساعة للوابل ص٣٢٥.

٢ـ رواه البخاري (٨٣٢، ٨٣٣، ٢٣٩٧) ومسلم (٥٨٩) .

فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف+[١] .

وجاء في مسلم ـ أيضاً ـ عن أبي الدرداء أن النبي " قال: =**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**+أي من فتنته.

قال مسلم:=قال شعبة: من آخر الكهف، وقال همام: من أول الكهف+[٢] .

٥ ـ الفرار من الدجال والابتعاد عنه: وذلك بسبب ما معه من الشبهات والخوارق العظيمة التي يجريها الله على يديه؛ فتنة للناس؛ فإنه يأتيه الرجل وهو يظن في نفسه الإيمان والثبات، فيتبع الدجال.

قال النبي ": =**من سمع بالدجال فلينأ عنه؛ فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات**+. [٣]

ثاني عشر: هلاك الدجال: يكون هلاك الدجال على يدي عيسى بن مريم ـعليه السلامـ كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة.

وذلك أن الدجال يظهر على الأرض كلها إلا مكة والمدينة، ويكثر أتباعه وتعم فتنته، ولا ينجو منها إلا قلة من المؤمنين.

وعند ذلك ينزل عيسى ـعليه السلامـ على المنارة الشرقية بدمشق، ويلتف حوله عباد الله المؤمنون، فيسير بهم قاصداً المسيح الدجال، ويكون الدجال عند

١ـ رواه مسلم (٢٩٣٧) .

٢ـ رواه مسلم (٨٠٩) .

٣ـ أخرجه الحاكم ٤/٥٣١ ، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجه» وسكت عنه الذهبي .

نزول عيسى متوجهاً نحو بيت المقدس، فيلحق به عيسى عند باب (لدّ) .

فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الملح، فيقول له عيسى _عليه السلام_: =**إن لي فيك ضربة لن تفوتني.**

فيتداركه عيسى، فيقتله بحربته، وينهزم أتباعه، فيتبعهم المؤمنون، فيقتلونهم، حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم! يا عبدالله! هذا يهودي خلفي فاقتله، إلا شجر الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود+[١] .

ثالث عشر: فتنة الدجال فتنة شخص، وفتنة جنس: ففتنة الدجال _ إذاً _ على نوعين:

أحدهما: فتنة شخص: والمقصود بهذه الفتنة الدجال الذي يخرج في آخر الزمان كما مر الحديث عنه.

الثاني: فتنة جنس: والمقصود بها كل فتنة يقارنها تمويهات، ويقترن بها شبهات؛ فإنها من جنس فتنة الدجال.

رابع عشر: خبر ابن صياد وهل هو الدجال الأكبر:

١_ تعريف بابن صياد: اسمه صافي، وقيل عبدالله بن صياد، أو صائد.

كان من يهود المدينة، وقيل من الأنصار، وكان صغيراً عند قدوم النبي" المدينة.

وذكر ابن كثير أنه أسلم، وكان ابنه عمارة من سادات التابعين، روى عنه الإمام مالك وغيره.

وترجم له ابن حجر × وقال: =ومن ولده عمارة بن عبدالله بن صياد وكان من

١ـ انظر صحيح مسلم(٢٩٣٧) .

خيار المسلمين من أصحاب سعيد بن المسيب، روى عنه مالك وغيره+.

٢_ أحوال ابن صياد: كان دجالاً، وكان يتكهن أحياناً، فيصدُق، ويكذب، فانتشر خبره بين الناس، وشاع أنه الدجال.

٣_ هل ابن صياد هو الدجال الذي يخرج في آخر الزمان؟ والجواب أن العلماء من الصحابة ومَن بعد هم قد اختلفوا في أمره اختلافاً كثيراً، فمنهم من قال: إنه الدجال، ومنهم من قال: إنه من جملة الكهنة والممخرقين الكذابين.

ولعل الصواب _والله أعلم_ أنه ليس الدجال الأكبر، وإنما هو من جملة الدجاجلة.

نزول عيسى بن مريم. عليه السلام.

أولاً: صفة عيسى _عليه السلام_: صفته التي جاءت بها الروايات أنه رجل مربوع القامة، ليس بالطويل ولا بالقصير، أحمر، جعد الرأس، عريض الصدر، سبط الشعر، كأنما خرج من ديماس _ أي حمام _ له لِمَّةٌ قد رجَّلها تملأ ما بين منكبيه[1] .

ثانياً: تواتر الأخبار في نزوله: يستخلص من النصوص الواردة في شأن عيسى _عليه السلام_ أنه نازل لا محالة، وأن النصوص بذلك متواترة؛ فالتكذيب بنزوله تكذيب للرسول ".

بل هو تكذيب للقرآن الكريم الذي دل على نزول عيسى _عليه السلام_.

ثالثاً: صفة نزوله: بعد خروج الدجال، وإفساده في الأرض يبعث الله عيسى _عليه السلام_ فينزل إلى الأرض، ويكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق الشام وعليه مهرودتان[2]، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدَّر منه جمانٌ كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات، ونفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفه.

ويكون نزوله على الطائفة المنصورة التي تقاتل على الحق، وتكون مجتمعة لقتال الدجال؛ فينزل وقت إقامة صلاة الفجر، ويصلي خلف أمير تلك الطائفة، بعد أن

١ـ انظر صحيح البخاري (٣٤٣٧و٣٤٣٨) ومسلم (١٦٨) .

٢ـ مهرودتان: أي ثوبين مصبوغين بورس، ثم زعفران .انظر شرح النووي لمسلم ٦٧/١٨.

يقال له: تعال صل لنا، فيقول _عليه السلام_: =**لا؛ إن بعضكم على بعض أمراء؛ تَكْرِمة الله هذه الأمة**+[١] .

رابعاً: الحكمة من نزول عيسى _عليه السلام_ دون غيره: لقد تلمس بعض العلماء حكمة ذلك، ومن الأوجه التي قيلت ما يلي:

١ _ الرد على اليهود. ٢ _ أن إنزاله؛ لدنو أجله؛ ليدفن في الأرض.

٣ _ أن عيسى _عليه السلام_ وجد فضل أمة محمد في الإنجيل كما في قوله _تعالى_: [وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ] الفتح: ٢٩ .

٤ _ أنه ينزل مكذبا للنصارى. ٥ _ أن خصوصيته بذلك لقول النبي ": =أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة+[٢] .

خامساً: قتله للدجال: مر عند الحديث عن الدجال أن عيسى _عليه السلام_ يقتل الدجال، فتكون نهاية الدجال على يد عيسى _عليه السلام_.

سادساً: حكمه بالقسط بشريعة الإسلام: فعيسى _عليه السلام_ سوف يحكم بالشريعة المحمدية، ويكون من أتباع محمد " فلن ينزل بشرع جديد؛ لأن دين الإسلام خاتم الأديان.

وهو عام لجميع الخلق، باقٍ إلى قيام الساعة لا ينسخ؛ فيكون عيسى _عليه السلام_ حاكماً من حكام هذه الأمة، ومجدداً لأمر الإسلام؛ إذ لا نبي بعد محمد".

وإذا نزل عيسى حكم بالقسط، وكسر الصليب _ وهو رمز النصرانية المحرفة _

١ـ انظر صحيح البخاري (٣٤٤٩) ومسلم (١٥٥) .

٢ـ رواه البخاري (٣٤٤٣) .

وقَتَل الخنزير الذي حَرَّمه الإسلام، ووضع الجزية؛ فلا يقبل من اليهود والنصارى والكفار عموماً إلا الإسلام.

سابعاً: مدة بقائه بعد نزوله: جاء في بعض الروايات أنه يمكث سبع سنين، وفي بعضها أربعين سنة؛ ففي رواية الإمام مسلم عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ: =**فيبعث الله عيسى بن مريم، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال من خير أو إيمان إلا قبضته**+[1].

وفي رواية الإمام أحمد وأبي داود: =**فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون**+[2].

وكلا هاتين الروايتين صحيحة، وهذا مشكل إلا أن تُحْمَل رواية السبع سنين على مدة إقامته بعد نزوله، ويكون ذلك مضافاً إلى مكثه في الأرض قبل رفعه إلى السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وثلاثين سنة على المشهور، والله أعلم.

١ـ رواه مسلم (٢٩٤٠).

٢ـ مسند الإمام أحمد ٤٠٦/٢، بهامشه منتخب الكنز، قال بن حجر: «صحيح» ، ٦/ ٤٩٣، وسنن أبي داوود ٤٥٦/١١ مع عون المعبود.

خروج يأجوج ومأجوج

أولاً_ التعريف اللغوي لـ: يأجوج ومأجوج: قيل: هما اسمان عربيان، وقيل: أعجميان، وقد قرأهما عاصم بالهمز، والباقون بغير همز.

ثانيا: أصلهم: أصل يأجوج ومأجوج من البشر، ومن ذرية آدم وحواء.

ثالثاً: صفتهم: أما صفتهم التي جاءت بها الأحاديث فهي أنهم يشبهون أبناء جنسهم من الترك الغتم _أي العجم_ المغول، صغار العيون، ذلف الأنوف، صهب الشعور، عراض الوجوه، كأن وجوههم المِجَانُّ المطْرَقة على أشكال الترك وألوانهم .

والذي تدل عليه الروايات الصحيحة أنهم رجال أقوياء لا طاقة لأحد بقتالهم.

رابعاً: فسادهم: إذا خرج يأجوج ومأجوج حصل على أيديهم أذى كبير، وفتنة عظمى، وشر مستطير.

وهم جموع كثيرة حتى إنهم؛ لكثرتهم إذا مر أولهم على بحيرة طبرية عند خروجهم شربوا الماء الذي فيها جَميعَه؛ فإذا مر آخرهم قالوا قد كان في هذه البحيرة ماء.

خامساً: هلاكهم: يكون بعد أن يقتل عيسى الدجالَ، حيث يهلك الله يأجوج ومأجوج ببركة دعاء عيسى _عليه السلام_ كما جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل، وفيه: =فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله؛ فيرسل الله طيراً كأعناق البُخت _ غلاظ الإبل _ فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله+[1].

---

١ ـ رواه مسلم (٢٩٣٧).

أشراط الساعة الكبرى الدالة على حصولها

أولاً: الدخان

فظهور الدخان في آخر الزمان من علامات الساعة الكبرى التي دل عليها الكتاب والسنة.

أدلة ظهوره من الكتاب والسنة:

أ _ أدلة ظهوره من الكتاب: قال الله _تعالى_: [فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ] الدخان: ١٠_ ١١.

وللعلماء في المراد بهذا الدخان قولان:

أحدهما: أن هذا الدخان هو ما أصاب قريشاً من الشدة والجوع عندما دعا عليهم النبي " حين لم يستجيبوا له؛ فأصبحوا يرون في السماء كهيئة الدخان.

وإلى هذا القول ذهب ابن مسعود ÷ وتبعه جماعة من السلف .

الثاني: أن هذا الدخان من الآيات المنتظرة التي لم تجيء بعد، وسيقع قرب قيام الساعة، وإلى هذا القول ذهب ابن عباس وبعض الصحابة والتابعين .

ب _ أدلة ظهوره من السنة: مضى ذكر بعض الأحاديث في ذلك، ومنها ما جاء صحيح مسلم عن أبي هريرة ÷ أن رسول الله " قال: =**بادروا بالأعمال ستاً: الدجال، والدخان**+[1] الحديث.

وجاء في حديث حذيفة في أشراط الساعة الكبرى: =والدخان+[2] .

١ـ رواه مسلم(٢٩٤٧) .

٢ـ مضى تخريجه.

ثانياً: طلوع الشمس من مغربها

فطلوع الشمس من مغربها من علامات الكبرى، وهو ثابت بالكتاب والسنة.

قال الله ـ تعالى ـ [يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً] الأنعام: ١٥٨ .

فقد دلت الأحاديث الصحيحة أن المراد ببعض الآيات المذكورة في الآية طلوع الشمس من مغربها، وهو قول أكثر المفسرين .

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة ÷ أن رسول الله " قال: =**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا اطلعت، فرآها الناس آمنوا أجمعون؛ فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً**+[1] .

وروى مسلم عن أبي هريرة ÷ أن رسول الله " قال: =**بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها**+ الحديث[2] .

ما العلة من كون الإيمان لا ينفع إذا طلعت الشمس من مغربها؟ قال القرطبي×: =قال العلماء: وإنما لا ينفع نفساً إيمانها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم؛ لإيقانهم بدنو القيامة في حال من حضرة الموت من انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته كما لا تقبل توبة من حضره الموت+[3] .

١ـ البخاري (٤٦٣٥ و٤٦٣٥ و٦٥٠٦ و٧١٢١) ومسلم (١٥٧) .

٢ـ مسلم (٢٩٤٧) .

٣ـ التذكرة للقرطبي ص٧٩٤.

ثالثاً: الدابـة

ظهور دابة الأرض في آخر الزمان من أشراط الساعة الكبرى الثابتة بالكتاب والسنة.

أ ـ **الأدلة من الكتاب**: قال الله ـ تعالى ـ: [وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ] النمل: ٨٢.

فهذه الآية الكريمة صرحت بخروج الدبة، وأن ذلك يكون عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق، فيخرج الله لهم دابة من الأرض تكلمهم على ذلك.

ب ـ **وأما الأدلة من السنة فكثيرة**، وقد مضى شيء منها، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحة عن أبي هريرة ÷ قال: قال رسول الله ": =**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أوكسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض**+[1] .

جـ **مكان خروج الدابة**: قيل: في مكة من أعظم المساجد، وقيل: لها ثلاث خرجات، فمرة تخرج في بعض البوادي، مرة في بعض القرى، ثم تظهر في المسجد الحرام.

وهناك أقوال أخرى غالبها يدور على أن خروجها من الحرم المكي .

د ـ **عمل الدابة**: إذا خرجت الدابة العظيمة فإنها تسم المؤمن والكافر.

فأما المؤمن؛ فإنها تجلو وجهه حتى يشرق، ويكون ذلك علامة إيمانه.

وأما الكافر فإنها تخطمه على أنفه؛ علامة على كفره .

١ـ مسلم (١٥٨) .

رابعاً: النار التي تحشر الناس

أ ـ مكان خروجها: جاءت الروايات بأن خروجها يكون من اليمن من قعرة عدن، وتخرج من بحر حضرموت كما جاء في روايات أخرى

جاء في حديث حذيفة بن أسيد في صحيح مسلم في ذكر أشراط الساعة قوله": =**وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**+.

وفي رواية لمسلم عن حذيفة ـ أيضاً ـ: =**ونار تخرج من قعرة عدن ترحل الناس**+.

ب ـ كيفية حشرها: عند ظهور هذه النار العظيمة من اليمن تنتشر في الأرض، وتسوق الناس إلى أرض المحشر، والذين يحشرون على ثلاثة أفواج:

الأول: فوج راغبون، طاعمون، كاسون، راكبون.

الثاني: فوج يمشون تارة، ويركبون أخرى، يعتقبون على البعير الواحد.

الثالث: تحشرهم النار، فتحيط بهم من ورائهم، وتسوقهم من كل جانب إلى أرض المحشر، ومن تخلف أكلته النار.

وقد صحت بذلك الأحاديث .

ج ـ أرض المحشر: يحشر الناس إلى الشام في أخر الزمان، وهي أرض المحشر، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

د ـ هذا الحشر في الدنيا: وليس المراد به حشر الناس بعد البعث من القبور.

من أحوال القيامة وأخبارها

أولاً: النفخ في الصور

١ـ النفخ في الصور في الشرع: هو نفخ إسرافيل في القرن الذي التقمه ووكل إليه النفخ فيه وقت قيام الساعة .

٢ـ الأدلة على النفخ في الصور:

دل على النفخ في الصور الكتاب والسنة والإجماع:

أ ـ الأدلة من القرآن على النفخ: قال ـتعالىـ: [وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ] الزمر: ٦٨.

وقال ـعز وجلـ:[وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ] النمل: ٨٧ .

وقال: [وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ] يس:٥١.

ب ـ الأدلة من السنة: جاء في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ": =**ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتاً ورفع ليتاً**[(١)] **ثم لا يبقى أحد إلا صعق، ثم ينزل الله مطراً كأنه الطل أو الظل (شك الراوي) فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**+[(٢)] .

١ـ اللِّيت :صفحة العنق ، وإصغاؤه : إمالته.

٢ـ مسلم(٢٩٤) .

٣ــ عدد النفخات: عدد النفخات التي ينفخ فيها إسرافيل في الصور نفختان:

أ ــ **نفخة الصعق:** وهي النفخة التي ينفخ فيه فيفزع الناس، ويصعقون.

ب ــ **نفخة البعث:** وهي النفخة التي يقوم الناس فيها من الأجداث أحياءً لرب العالمين.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن النفخات ثلاث هي:

أ ــ نفخة الفزع بدون الصعق. ب ــ نفخة الصعق.

ج ــ نفخة البعث والقيام لرب العالمين.

فمن فسر الفزع بالصعق فهما اثنتان عنده، ومن فسر الفزع بغير الصعق فهي ثلاث .

ثانياً: البعث

١ــ تعريف البعث في اللغة: هو الإرسال، والنشر، والتحريك، ونحو ذلك من المعاني .

٢ــ البعث في الشرع: هو المعاد الجسماني، وإحياء الأموات يوم القيامة؛ لحسابهم والقضاء بينهم .

٣ــ **والإيمان بالبعث** دل عليه الكتاب والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة السليمة، وهو مقتضى الحكمة؛ حيث تقتضي أن يجعل الله لهذه الخليقة معاداً يجازيهم فيه على ما كلفلَّهم به على ألسنة رسله .

ثالثاً: الحساب

١ــ الحساب في الشرع: هو إطلاعُ الله عِبادَه على أعمالهم يوم القيامة،

وإنباؤهم بما قدموه من خير وشر .

٢ــ الأدلة على إثبات الحساب: الحساب ثابت بالكتاب والسنة، وإجماع المسلمين.

٣ــ كيفية الحساب وصفته: دلت نصوص الشرع على كيفية الحساب، وصفته.

ويمكن إجمال ذلك أن يقال: إن الله ــعزوجلــ يوقف عباده بين يديه، فيقررهم بذنوبهم التي ارتكبوها، وبأعمالهم التي عملوها، وبأقوالهم التي قالوها، ويعرفهم بما كانوا عليه في الدنيا ومن كفرو إيمان، وطاعة وعصيان، واستقامة وانحراف، وما يستحقونه على ما قدموه من مثوبة أو عقوبة.

والحساب شامل لما يقوله الرب لهم، وما يقولون له، وما يعتذرون به من معاذير، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين، وما يكون هناك من شهادة الشهود، ووزن الأعمال، وما جرى مجرى ذلك.

٤ــ أنواع الحساب: الحساب منه العسير، ومنه اليسير، ومنه حساب التقرير والتكريم، ومنه حساب التوبيخ والتقريع، ومنه الفضل والصفح، ومنه المؤاخذة والمجازاة، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين .

٥ــ عموم الحساب، ومن لا حساب عليهم: الحساب عام لجميع الناس، إلا من استثناهم النبي " كما في حديث السبعين ألفاً.

٦ــ كيفية محاسبة الكفار: قال شيخ الإسلام ابن تيمية × =ويحاسب الله الخلائق، ويخلو بعبده المؤمن، فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة.

وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنه لا حسنات لهم،

ولكن تعد أعمالهم، وتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها+ .

٧_ أول من يحاسب من الأمم: أول من يحاسب من الأمم أمة محمد ".

٨_ أول ما يحاسب عليه العبد: الصلاة؛ فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسدت سائر عمله؛ كما جاء عن النبي "[1] .

٩_ أول ما يُقْضَى بين الناس: وأما أول ما يقضي بين الناس فهو في الدماء؛ لقول النبي ": =**أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء**+ متفق عليه[2] .

رابعاً: الميـزان

١_ الميزان في اللغة: أصله مِوْزان، وانقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها، وجمعه موازين، والميزان اسم للآلة التي يوزن بها الأشياء، أو هو ما تقدر به الأشياء خفةً وثقلاً .

٢_ الميزان في الشرع: هو ما يضعه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد .

٣_ أدلة إثبات الميزان: دل على الميزان الكتاب، والسنة، والإجماع.

فمن أدلة الكتاب العزيز قوله _تعالى_: [وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ] الأنبياء: ٤٧ .

ومن أدلة السنة: قال النبي ": =**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**+ متفق

١ـ انظر سنن الترمذي(٤١٣) وابن ماجه (١٤٢٦) صححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠) .

٢ـ البخاري(٦٨٦٤) ومسلم(١٦٧٨) .

عليه[1] .

وأما الإجماع: فقد أجمع السلف على ثبوت ذلك .

٤_ هل الميزان حسي أو معنوي: الميزان الذي توزن به الأعمال حسي حقيقي، له كفتان، ولسان .

٥_ ما الحكمة من نصب الميزان؟ الحكمة: إظهار عدل الله _عز وجل_.

خامساً: نشر كتب الأعمال

١_ كتب الأعمال: هي الدواوين، والصحائف التي أحصيت فيها الأعمال.

٢_ ومعنى نشر كتب الأعمال: إظهارها يوم القيامة، وتوزيعها؛ فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله وراء ظهره.

٣_ الأدلة على ذلك: لقد دل على نشر كتب الأعمال الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة.

قال الله _تعالى_:[فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً (١١) وَيَصْلَى سَعِيراً(١٢)] الانشقاق.

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ أنها سألت النبي " هل تذكرون أهليكم؟

قال:=**أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً:عند الميزان، حتى يَعْلم أيخِفُّ ميزانه أم يثقل، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه**

١ـ البخاري(٧٥٦٣) ومسلم(٢٦٩٤) .

أم في شماله أم وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهراني جهنم حتى يجوز+[1].

٤ـ صفة أخذ الكتاب: المؤمن يأخذ كتابه بيمينه يؤتاه من أمامه، فيفرح ويستبشر ويقول: [هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ] الحاقة: ١٩.

والكافر يأخذه بشماله، ويؤتاه من وراء ظهره، فيدعو بالويل والثبور، ويقول: [يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦)]الحاقة.

سادساً: الحوض

١ـ الحوض في الشرع: هو حوض الماء النازل من الكوثر في عرصات القيامة للنبي " .

٢ـ أدلته: دل على الحوض الكتاب والسنة، وإجماع أهل السنة.

أما الدليل من الكتاب فقوله ـ عزوجل ـ لنبيه":[إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ] .

أما من السنة فقد تواترت الأحاديث في ذلك.

قال شارح الطحاوية ×: =الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً+ .

ومن الأحاديث الواردة في ذلك قوله ": =**إني فرطكم على الحوض من مرَّ عليَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، لَيَرِدَنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم**

١ـ أخرجه أبوداود (٤٧٥٥) والحاكم ٥٧٨/٤ ،وقال:«صحيح إسناده على شرط الشيخين لولا إرسال فيه بين الحسن وعائشة» ووافقه الذهبي.

يحال بيني وبينهم+ متفق عليه[1] .

٣ــ الواردون للحوض، والمردودون عنه: الواردون للحوض هم المؤمنون، الصادقون، المتبعون والمردودون عنه هم المحْدِثون، المبدِّلون الناكصون على أعقابهم.

سابعاً: الصراط

١ــ الصراط في الشرع: هو الجسر الممدود على جهنم؛ ليعبر الناس عليه إلى الجنة .

٢ــ أدلة ثبوته: الصراط ثابت بالكتاب، والسنة، واتفاق أهل السنة .

فمن الأدلة من الكتاب: قوله ــتعالىــ: [وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً] مريم: ٧١.

فسرها جماعة من السلف بالمرور على الصراط، وفسرها جماعة منهم بالدخول في النار لكن ينجون منها .

ومن الأدلة من السنة ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري الطويل، وفيه: =**ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم سلم**+[2] .

٣ــ ورود الناس على الصراط: ورودهم عليه يعني مرورهم عليه، وورودهم عليه على قدر أعمالهم.

١ـ البخاري(٦٥٨٣و٧٠٥٠)، ومسلم (٢٢٩٠) .

٢ـ البخاري(٤٥٨١و٤٩١٩) ومسلم(١٨٣) .

٤ــ من أول من يعبر الصراط؟ أول من يعبره من الأنبياء محمد "، ومن الأمم أمته ".

٥ــ هل يمر الكفار بالصراط؟ الذي دلت عليه الأحاديث أن الصراط إنما ينصب للمؤمنين، وفيهم المنافقون، وعصاة المؤمنين؛ فهؤلاء هم الذين ينصب لهم الصراط .

قال ابن رجب ×: =واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله لا يشرك به شيئا، ومشرك يعبد مع الله غيره؛ فأما المشركون فإنهم لا يمرون على الصراط، وإنما يَقَعون في النار قبل وضع الصراط+ .

٦ــ القنطرة: وهي التي بين الجنة والنار، ويسميها بعض العلماء الصراط الثاني .

ثامناً: الجنة والنار

١ــ الجنة في الشرع: هي دار النعيم التي أعدها الله في الآخرة للمؤمنين المتقين، المخلصين لله، المتبعين لرسله .

٢ــ النار في الشرع: هي دار العذاب التي أعدها الله في الآخرة للكافرين الذين كفروا بالله، وعصوا رسله .

٣ــ الجنة درجات، والنار دركات: فأهل الجنة تتفاوت درجاتهم في النعيم بحسب أعمالهم الصالحة.

وأهل النار تتفاوت دركاتهم في العذاب بحسب أعمالهم السيئة .

٤ــ الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن: قال الله ــتعالىــ في الجنة:

[أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ]آل عمران: ١٣٣ وقال في النار: [أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ] البقرة: ٢٤.
والإعداد: التهيئة.

٥_ الجنة والنار لا تفنيان: قال الله _تعالى_: [جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً] البينة: ٨.

وقال _تعالى_: [وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً]النساء.

٦_ ما معنى الإيمان بالجنة والنار؟ معناه التصديق الجازم بوجودهما، وأنهما مخلوقتان الآن، وأنهما باقيتان بإبقاء الله لهما، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان.

ويدخل في ذلك الإيمان بكل ما احتوت عليه الجنة من النعيم، وما احتوت عليه النار من العذاب الأليم[1].

١_ انظر أعلام السنة المنشورة ص١١٥.

الرسالة الحادية عشرة

مختصر الإيمان بالقضاء والقدر

مقدمة سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله لأصل الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء
مكتب المفتي العام للمملكة

الرقم: ٢/١٢٣٩
التاريخ: ١٤١٥/٦/٩
المشفوعات: ...

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه . أمابعد : ـ

فقد اطلعت على ما كتبه الأخ في الله فضيلة الشيخ / محمد بن ابراهيم الحمد تحت عنوان « الإيمان بالقضاء والقدر » فألفيته كتاباً قيماً كثيرالفائده واضح العباره في موضوع جدير بالعنا ية . وقد وفق المؤلف فيماكتبه عن ذلك . وقد علقت عليه حواشي قليله لتمام الفائدة . وأسأل الله أن ينفع به المسلمين وأن يضاعف الأجر للمؤلف وأن يزيدنا وإياه من العلم والهدى إنه جواد كريم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينامحمد وآله وصحبه .

عبدالعزيز بن عبدالله بن باز
مفتي عام المملكه العربيه السعوديه
ورئيس هيئة كبار العلماء وادارة البحوث العلمية والإفتاء

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

فإن للإيمان بالقدر مكانة عالية في دين الإسلام؛ فهو أحد أركان الإيمان الستة، وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ومما يدل على أهميته كثرة وروده في نصوص الشرع، وما يترتب على الإيمان به من الثمرات العظيمة، وما يترتب على الكفر به والضلال في فهمه من الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة.

ولهذا فإن فهم هذا الباب _ولو على سبيل الإجمال_ من الأهمية بمكان.

والإيمان بالقَدَر أمر فطري ومع ذلك فهو أصعب أبواب العقيدة.

ولا يمكن أن يفهم فهماً سليماً خالياً من الضلال والتعقيد إلا كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، كما فهمه سلف هذه الأمة الكرام.

ولقد يسر الله لي كتابة مجلدٍ عنوانه (الإيمان بالقضاء والقدر) وقد تكرم بقراءته وتقديمه سماحة شيخنا الإمام العلامة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز×.

وقد طبع ذلك الكتاب مراراً، ولله الحمد.

ورغبة في تقريبه، وزيادة نشره وتداوله، وحرصاً على أن يترجم إلى لغات أخرى_جاءت فكرة اختصاره، وتلخيصه؛ حيث أشار بذلك غير واحد من الفضلاء.

وإليك أيها القارىء هذه الصفحات التي تبين مفهوم القدر، وتحل بعض الإشكالات فيه، وتوضح ثمرات الإيمان به.

ولأجل ألا يكبر حجم هذا الكتاب حذفت حواشيه، وتركت كثيراً من التفصيلات؛ فمن أراد الاستزادة، وذكر الحواشي فليرجع إلى الكتاب الأصل؛ فإلى محتويات هذا الكتيب، والله المستعان، وعليه التكلان، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

مدخل

قصة في الإيمان بالقدر

أورد الكاتب المشهور (ديل كارنيجي) في كتابه الذائع الصيت: (دع القلق وابدأ الحياة) _مقالة بعنوان: (عشت في جنة الله) للكاتب المشهور (ر.ن.س.بودلي) الذي ألف كتابَي: (رياح على الصحراء) و(الرسول) وأربعة عشر كتاباً.

يقول بودلي: =في عام ١٩١٨م وليت ظهري العالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام وأتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام، حتى إنني ألفت كتاباً عن محمد"عنوانه (الرسول) وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرُّحل من أمتع سني عمري، وأحفلها بالسلام، والاطمئنان، والرضا بالحياة.

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق؛ فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هَيِّناً، فهم لا يتعجلون أمراً، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقاً على أمر.

إنهم يؤمنون بأن ما قُدِّر يكون، وأن الفرد منهم لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلا+.

ثم أردف قائلاً: =ودعني أضرب لك مثالاً لما أعنيه: هَبَّت ذات يوم عاصفة عاتية حَمَلَتْ رمالَ الصحراء، وعَبَرَتْ بها البحر الأبيض المتوسط، ورَمَتْ بها وادي (الرون) في فرنسا، وكانت عاصفةً حارةً شديدة الحرارة، حتى أحسست أن شعر رأسي يتزعزع من منابته؛ لفرط الحر، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون.

ولكنَّ العرب لم يشكوا إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة: (قضاء ومكتوب).

لكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يُوْدِيَ القيظُ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء.

فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى.

قال رئيس القبيلة _الشيخ_: لم نفقد الشيء الكبير؛ فقد كنا خليقين أن نفقد كل شيء، ولَكِنْ حمداً لله وشكراً؛ فإن لدينا نَحْوَ أربعين في المائة من ماشيتنا، وباستطاعتنا أن نبدأ العمل من جديد+.

ثم قال بودلي: =وثمة حادثة أخرى، فلقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوماً، وانفجر أحد الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضار إطار احتياطي، وتولاني الغضب، وانتابني القلق والهم، وسألت صحبي من الأعراب: ماذا عسى أن نفعل؟

فذكروني أن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق.

ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، ولكنها ما لبثت أن كفت عن السير، وعلمت أن البنزين قد نفد.

وهنالك _أيضاً_ لم تثر ثائرة أحدٍ من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوؤهم، بل مضوا يذرعون الطريق سيراً على الأقدام+.

وبعد أن استعرض بودلي تجربته مع عرب الصحراء علق قائلاً: =قد أقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرُّحل _أنَّ الملتاثين، ومرضى النفوس، والسِّكِّيرين الذين تحفل بهم أمريكا وأوربا ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً لها.

وإنني لم أعانِ شيئاً من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة، والقناعة، والرضا+.

وأخيراً ختم كلامه بقوله: =وخلاصة القول: أنني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء _مازلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال، والسكينة.

ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير الطبية+أ _ هـ.

وبعد أَنْ قرأتَ هذه القصةَ، إليك أيها القارئ تفصيلاً ميسراً موجزاً عن الإيمان بالقدر وبعض مسائله، وثمراته وغير ذلك في الصفحات التالية.

تعريف الإيمان بالقدر ومراتبه

أولا: تعريف الإيمان بالقدر

يمكن أن يعرف بأحد التعريفات التالية:

ا_ هو الإيمان بتقدير الله للكائنات حسب ما سبق به علمه، واقتضته حكمته.

ب_ هو الإيمان بعلم الله المحيط، وكتابته، ومشيئته وخلقه لكل شيء.

ثانياً: مراتب القدر وأركانه

من خلال ما مضى يتبين لنا أن القدر يقوم على مراتب أربع تسمى أركان القدر أو مراتبه.

وهذه الأركان هي المدخل لفهم باب القدر، ولا يصح الإيمان به إلا بتحقيقها كلها، وهي:

المرتبة الأولى: العلم: وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملةً وتفصيلاً ماضياً ومستقبلاً، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، أو بأفعال عباده، أو بما يجري في الكون؛ فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لوكان كيف يكون.

كما أنه يعلم خلقه قبل أن يخلقهم، ويعلم أرزاقهم، وآجالهم، وأعمالهم، وجميع حركاتهم وسكناتهم.

والأدلة على هذا المرتبة كثيرة جداً، قال الله _تعالى_: [عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ] سبأ: ٣.

المرتبة الثانية: الكتابة: وهي الإيمان بأن الله كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ.

قال الله ــتعالىــ:[أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ]الحج: ٧٠.

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ــرضي الله عنهماــ قال سمعت رسول الله " يقول: =كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة+.

وقال ": =ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، إلا وكتبت شقية أوسعيدة+ رواه مسلم.

المرتبة الثالثة: المشيئة: وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون ولا هداية، ولا إضلال إلا بمشيئته.

قال الله ــعزوجلــ: [وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ] القصص: ٦٨.

وقال: [وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ] التكوير: ٢٩.

وقال النبي": =إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحد يُصَرِّفها حيث يشاء+ رواه مسلم.

المرتبة الرابعة: الخلق: وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة بذواتها وصفاتها، وحركاتها، وأفعالها، وبأن كل من سوى الله مخلوق مُوْجَد من العدم، كائن بعد أنْ لم يكن.

والأدلة على هذه المرتبة كثيرة جداً، منها قول الله ــتعالىــ: [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور] الأنعام: ١.

وقال: [الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً] الملك:٢.

ومما يدخل في هذه المرتبة أفعال العباد؛ فهي داخلة في عموم خلقه ـعز وجلـ فهي من الله خلقاً وإيجاداً وتقديراً، وهي من العباد فِعلاً وكسباً، فالله هو الخالق لأفعالهم، وهم الفاعلون لها.

قال الله ـتعالىـ: [اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ] الرعد: ١٦.

هذه هي مراتب القدر التي لا يتم الإيمان بالقدر إلا بها.

أهمية الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر من أهم مباحث العقيدة، فهو ركن من أركان الإيمان، والإيمان به تمام التوحيد، وكتب السلف الصالح في العقيدة اهتمت به، وأطنبت في ذكره، والناس على اختلاف طبقاتهم يشغلهم موضوع القدر؛ لارتباطه بحياتهم اليومية وما فيها من تقلبات الأحوال من صحة، ومرض، وفقر وغنى، وموت وحياة، وسعادة وشقاء، وما جرى مجرى ذلك.

حكم الحديث عن القدر

هناك مسألة تُثار قديماً، وحديثاً مفادها أنه لا ينبغي الحديث عن القدر، ومسائله؛ بحجة أن ذلك يبعث على الشك والحيرة، وأن هناك نصوصاً نهت عن الخوض في ذلك.

كما أنه في مقابل ذلك ورد نصوص عن القدر، وأسئلة وحوارات جرت بين النبي" وأصحابه في أدق مسائل القدر، وكذلك سيرة السلف الصالح في هذه المسألة.

فما التوجيه لذلك، وما الجواب الذي يحل هذا الإشكال، ويبيِّن حكم الحديث عن القدر؟

الجواب أن يُقال: أن الحديث عن القدر لا يُمنع بإطلاق، ولا يُفتح بإطلاق، بل إن الأمر فيه تفصيل، فإن كان الحديث عن القدر بالمنهج العلمي الصحيح المعتمد على الكتاب والسنة، وكان الحديث عنه مراداً به الوصول إلى الحق ــ فإنه لا يمنع ولا يُنهى عنه، بل قد يجب.

وإن كان الحديث عنه خوضاً بالباطل، واعتماداً في فهمه على العقل المجرد أو كان للاعتراض أو التنازع أو التعنت فإنه لا يجوز البتة.

أقسام التقدير

ينقسم التقدير الإلهي باعتبار عمومه وخصوصه إلى أربعة أقسام.

١ــ التقدير العام: وهو تقدير الرب لجميع الكائنات بمعنى علمه بها وكتابته لها.

ويدل على هذا النوع أدلةٌ كثيرة، منها قوله ــتعالىــ: [أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ] الحج:٧٠.

وقال النبي ": =كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة+. رواه مسلم.

٢ــ التقدير العمري: وهو تقدير كل ما يجري على العبد في حياته إلى نهاية أجله، وكتابةُ شقاوته أو سعادته.

وقد دل على ذلك قول النبي ": =إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك؛ فينفخ

فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وشقي أو سعيد+. رواه البخاري ومسلم.

٣_ التقدير السنوي: وذلك في ليلة القدر من كل سنة، ويدل عليه قوله _تعالى_: [فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ] الدخان:٤.

وقوله _عز وجل_: [تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ(٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ(٥)] القدر:٥.

قيل في تفسرها: يكتب فيها _أي في ليلة القدر_ ما يحدث في السنة من موت، وحياة، وعز، وذل، ورزق، ومطر حتى الحجاج يقال: يحج فلان، ويحج فلان.

٤. التقدير اليومي: ويدل عليه قول الله _تعالى_: [كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ] الرحمن: ٢٩.

قيل في تفسيرها: شأنه أن يُعِزَّ ويُذِلَّ، ويرفع ويخفِض، ويعطي ويمنع، ويغني ويُفقر، ويضحك ويبكي، ويميت ويحيي إلى غير ذلك.

أدلة الإيمان بالقدر

دل على هذا الركن العظيم من أركان الإيمان _ الكتاب، والسنة، والإجماع، والفطرة، والعقل، والحس.

أما أدلة القرآن الكريم: فكثيرة جداً وقد مر شيء من ذلك، ومن تلك الأدلة _زيادة على ما مضى_ قوله _تعالى_: [وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً] الأحزاب:٣٨، وقوله: [إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ]القمر: ٤٩، وقوله: [وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ]الحجر: ٢١.

وأما السنة: فكما قال " كما في حديث جبريل _عليه السلام_: =وتؤمن بالقدر خيره وشره+. رواه مسلم.

وروى مسلم _أيضاً_ عن طاووس قال: =أدركت ناساً من أصحاب رسول الله" يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبدالله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجز والكَيْس، أو الكيس والعجز+.

وقال ": =وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ اللهِ وما شاء فعل+ رواه مسلم.

أما الإجماع: فقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله، قال النووي ×: =وقد تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة، وأهل الحل والعقد من السلف والخلف _ على إثبات قدر الله _سبحانه وتعالى_+.

وقال ابن حجر ×: =ومذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله _تعالى_+.

أما الفطرة: فإن الإيمان بالقدر أمر معلوم بالفطرة قديماً وحديثاً، ولم ينكره إلا الشواذ من المشركين من الأمم، ولم يقع الخطأ في نفي القدر وإنكاره، وإنما وقع في فهمه على الوجه الصحيح؛ ولهذا قال _سبحانه_ عن المشركين [سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا]الأنعام: ١٤٨.

فهم أثبتوا المشيئة لله، ولكنهم احتجوا بها على الشرك، ثم بيَّن الله أن هذا هو شأنُ من كان قبلهم، فقال: [كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ] الأنعام: ١٤٨.

وكانت العرب في الجاهلية تعرف القدر ولا تنكره، ولم يكن هناك من يرى أن الأمر مستأنف.

ولم يقل أحد منهم بنفيه إطلاقاً، كما صرح بذلك أحد كبار علماء العربية، وهو أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب × بقوله: =لا اعلم عربياً قدرياً، قيل له: يقع في قلوب العرب القول بالقدر؟ قال: معاذ الله، ما في العرب إلا مثبت القدر خيره وشره أهل الجاهلية والإسلام، وكلامهم كثير بيِّن+.

أما أدلة العقل: فهي أن العقل الصحيح يقطع بأن الله هو خالق هذا الكون، ومدبره، ومالكه، ولا يمكن أن يوجد على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب والمسببات هكذا صدفة؛ إذ الموجود صدفة ليس له نظام في أصل وجوده، فكيف يكون منتظماً مع بقائه وتطوره؟

فإذا تقرر عقلاً أن الله هو الخالق لزم ألا يقع شيء في ملكه إلا ما قد شاءه وقدَّره.

ومما يدل على هذا التقرير قوله _تعالى_: [اللهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاواتٍ ومِنَ الأرْض مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أنَّ اللهَ عَلَى كُلِ شَيءٍ قدِيرٌ وأنَّ اللهَ قَدْ أحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلما] الطلاق ١٢.

ثم إن تفاصيل القدر لا ينكرها العقل، بل هي مما يتفق معه تمام الاتفاق، كما سيمر بنا قريباً.

أما دلالة الحس: فنحن نشاهد ونسمع، ونقرأ أن الناس تستقيم أمورهم بالإيمان بالقضاء والقدر، وسيمر شيء من ذلك عند الحديث عن ثمرات الإيمان بالقدر، فالمؤمنون به حقاً هم أسعد الناس وأصبرهم، وأشجعهم، وأكرمهم، وأكملهم، وأعقلهم.

ثم إن القدر =هو نظام التوحيد+ كما قال ابن عباس _رضي الله عنهما_

والتوحيد لا يستقيم إلا بالإيمان بالقضاء والقدر.

ثم إن فيما أخبرنا الله ورسوله " من أمور الغيب المستقبلية التي وقعت، كما جاء الخبر ـ دليلاً حسياً واضحاً على أن الإيمان بالقدر حق وصدق.

الواجب على الإنسان في باب القدر

الواجب على الإنسان في هذا الباب أن يؤمن بقضاء الله، وقدره، وأن يؤمن بشرع الله، وأمره ونهيه، فعليه تصديق الخبر، وطاعة الأمر.

فإذا أحسن حَمِدَ الله، وإذا أساء استغفر الله، وعلم أن ذلك كله بقضاء الله وقدره؛ فإن آدم ـ عليه السلام ـ لمَّا أذنب تاب، فاجتباه ربه وهداه، وإبليس أصرَّ واحتج بالقدر فلعنه الله وأقصاه، فمن تاب كان آدمياً، ومن أصرَّ واحتجَّ بالقدر صار إبليسياً، فالسعداء يتبعون أباهم آدم، والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس.

وبالجملة فعلى الإنسان أن يؤمن بمراتب القدر الأربع السابقة؛ وأنه لا يقع شيء إلا وقد علمه الله، وكتبه، وشاءه، وخلقه، ويؤمن ـ أيضاً ـ بأن الله أمر بطاعته، ونهى عن معصيته، فيفعل الطاعة، ويترك المعصية، فإذا وفقه الله لفعل الطاعة وترك المعصية فليحمدِ الله، وليستمر على ذلك، وإن خُذِل ووُكل إلى نفسه فَفَعل المعصية، وترك الطاعة فعليه أن يستغفر ويتوب.

ثم إن على العبد ـ أيضاً ـ أن يسعى في مصالحه الدنيوية، ويسلك الطرق الصحيحة الموصلة إليها، فيضرب في الأرض، ويمشي في مناكبها، فإن أتت الأمور على ما يريد حمد الله، وإن أتت على خلاف ما يريد تعزى بقدر الله، وعلم أن ذلك كله واقع بقدر الله ـ عز وجل ـ وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه

لم يكن ليصيبه.

وإذا علم العبد من حيث الجملة أن لله فيما خلق وما أمر به حكمة عظيمة كفاه هذا، ثم كلما ازداد علماً وإيماناً ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله، ويبين له تصديق ما أخبر الله به في كتابه.

ولا يلزم كل أحد أن يعلم تفاصيل الحديث عن الإيمان بالقدر، بل يكفي هذا الإيمان المجمل.

وهو _ولله الحمد_ مقتضى الأدلة الشرعية، والفطرية، والعقلية، والحسية، لا تناقض فيه، ولا لبس.

ثمرات الإيمان بالقدر

الإيمان بالقضاء والقدر _على الوجه الصحيح_ يثمر ثمراتٍ جليلة، وأخلاقاً جميلة، وعبودياتٍ متنوعة، يعود أثرها على الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة، فمن تلك الثمرات ما يلي:

١_ أداء عبادة الله _عز وجل_: فالإيمان بالقدر مما تَعَبَّدنا الله به، وكمال المخلوق في تحقيقه العبودية لربه، وكلما ازداد تحقيقاً للعبودية ازداد كمالُه، وعلت درجتُه، وكان كلُّ ما يجري عليه مما يكرهه خيراً له، وحصل له من جَرَّاء ذلك الإيمانِ عبودياتٌ كثيرة، سيأتي ذكرٌ لشيء منها.

٢_ الإخلاص: فالإيمان بالقدر يحمل صاحبه على الإخلاص، فيكون الباعث له في جميع أعماله امتثال أمر الله؛ ذلك أن المؤمن بالقدر يعلم أن الأمر أمر الله، وأن الملك ملكه، وأن ما شاءه الله كان، وما لم يشأه لم يكن، لا راد لفضله، ولا معقب لحكمه، فيقوده ذلك إلى إخلاص العمل لله، وتصفيته من كل شائبة

تشوبه.

٣ـ التوكل: فالتوكل على الله هو لُبُّ العبادة، ولا يصح التوكل ولا يستقيم إلا لمن آمن بالقدر على الوجه الصحيح.

قال ابن القيم ×: =قال شيخنا ـيعني ابن تيمية ×ـ: ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف، ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيم ـ أيضاً ـ من الجهمية النفاة لصفات الرب ـ جل جلاله ـ ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات+.

والتوكل في لسان الشرع إنما يراد به توجه القلب إلى الله حال العمل، واستمداد المعونة منه، والاعتماد عليه وحده، فذلك سر التوكل وحقيقته.

٤ـ الخوف من الله: فالمؤمن بالقدر تجده دائماً على خوفٍ من الله، وعلى حذر من سوء الخاتمة؛ إذ لا يدري ما يُفعل به، ولا يأمن مكر الله.

ومن هنا يستقل عمله، ولا يغتر به مهما كان؛ فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها حيثُ شاء، والخواتيم علمها عند الله ـعز وجلـ.

٥ـ قوة الرجاء وإحسان الظن بالله: فالمؤمن بالقدر حَسَنُ الظن بالله، قويُّ الرجاء به؛ لعلمه بأن الله لا يقضي قضاءً إلا وفيه تمام العدل والرحمة والحكمة.

٦ـ الصبر وقوة الاحتمال: فالإيمان بالقدر يثمر لصاحبه عبودية الصبر على الأقدارِ المؤلمةِ، والصبرُ من جميل الخلال، ومن محمود الخصال، له فوائده الجمَّة، وعوائده الكريمة، وله عواقبه الجميلة، وآثاره الحميدة.

ولهذا تجد المؤمن بالقدر صبوراً متجلداً، يتحمل المشاق، ويقوم بالأعباء.

فالذين لا يؤمنون بالقدر يجزعون لأتفه الأسباب، بل ربما أدى بهم الجزع إلى

الجنون، والوسوسة، وتعاطي المخدرات، وقتل النفس.

ولذلك يكثر الانتحار في البلاد التي لا يؤمن أهلها بالقضاء والقدر، كأمريكا، والسويد، والنرويج، وغيرها، بل لقد وصل الأمر ببعض البلاد إلى فتح مستشفيات للانتحار، والعجيب في الأمر أن يكون للانتحار أنصار يؤيدون حق الراغبين بذلك، ويسعون في تقديم الطرق المناسبة اليسيرة غير المؤلمة.

ولو بحثنا عن أسباب انتحارهم لوجدناها تافهةً جداً، لا تستدعي سوى التغافل وغض الطرف عنها؛ فبعضهم ينتحر؛ لتخلي خطيبته عنه، وبعضهم بسبب رسوبه في الامتحان، وبعضهم بسبب وفاة المطرب الذي يحبه، أو الشخص الذي يعجبه، أو بسبب هزيمة الفريق الذي يميل إليه، وهكذا...

وقد يكون الانتحار جماعياً، والعجيب في الأمر أن أغلبية المنتحرين ليسوا من طبقة الفقراء حتى يقال: انتَحَروا؛ لضيق المعيشة.

بل إنهم من الطبقة الغنية المغرقة في النعيم، بل ويقع الانتحار من المشاهير، بل ومن الأطباء النفسيين الذين يُظَنُّ أنهم يجلبون السعادة، ويحلون المشكلات!

٦_ محاربة اليأس: فالذي لا يؤمن بالقدر يصيبه اليأس ويدِبُّ إلى رُوْعه القنوط؛ فإذا أصيب ببلية ظن أنها قاصمة ظهره، وإذا نزلت به نازلة حسب أنها ضربةُ لازب لن تبارحه.

أما المؤمن بالقدر فلا يعرف اليأس، ولا تراه إلا متفائلاً في جميع أحواله، منتظراً الفرج من ربه، عالماً بأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسراً.

٧_ الرضا: فالمؤمنُ بالقدرِ قد تَسمُو بهِ الحال فيصل إلى منزلة الرضا، فمن رضي عن الله رضي الله عنه، بل إن رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه؛

فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضاً قبله أوجب له أن يرضى عنه، ورضاً بعده هو ثمرة رضاه عنه.

٨ــ الشكر: فالمؤمن بالقدر يعلم أن ما به من نعمة فهي من الله وحده، وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونِقْمَة، فيبعثه ذلك إلى إفراد الله بالشكر؛ فإذا نزل به ما يحب شكر الله عليه؛ إذ هو المنعم المتفضل، وإذا نزل به ما يكرهه شكر الله على ما قدره عليه؛ كظماً للغيظ، وستراً للشكوى، ورعاية للأدب، وسلوكاً لمسلك العلم؛ فإن العلم بالله والأدب مع الله يأمران بشكر الله على المحاب والمكاره، وإن كان الشكر على المكاره أشقَّ وأصعبَ؛ ولذلك كان الشكر أعلى من الرضا.

٩ــ الفرح: فالمؤمن بالقدر يفرح بهذا الإيمان الذي حرم منه أكثر الخلق، قال تعالى: [قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ] يونس: ٥٨.

ثم إن المؤمن بالقدر قد يرتقي به الحال من الرضا بقضاء الله والشكر له فيما يُقَدِّره حتى يصل إلى منزلة الفرح، فيفرح بكل ما يقدره الله، ويقضيه عليه.

١٠ــ التواضع: فالإيمان بالقَدَر يحمل صاحبه على التواضع مهما أوتي من قوة، أومال، أو جاه، أو علم أو شهرة، أو نحو ذلك؛ لعلمه بأن ما أوتيه إنما هو بقدر الله، وأنه ــعز وجلــ لو شاء لانتزعه منه.

١١ــ الكرم والسخاء: ذلك أن المؤمن بالقدر يعلم علم اليقين بأن الله هو الرزاق، وهو الذي قسم بين الخلق معيشتهم؛ فكل له نصيبه، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، ولن يفتقر أحد إلا بقدر الله ــعز وجلــ.

وهذا الإيمان يشرح صدر صاحبه للإنفاق في وجوه الخير، فيؤثرها بجانب من ماله ولو كان به خصاصة؛ ثقة بالله، واستجابة لأمره ــعز وجلــ بالإنفاق.

١٢ـ الشجاعة والإقدام، واطرح الخور والجبن: فالإيمان بالقدر يملأ قلب صاحبه شجاعةً وإقداماً، ويُفْرِغُه من كل خور وجبن؛ لأن المؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت قبل يومه، ولن يصيبه إلا ما كُتب له، وأن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لن يضروه إلا بشيء قد كتبه الله له.

١٣ـ القناعة وعزة النفس: فالمؤمن بالقدر يعلم بأن رزقه مكتوب، وأنه لن يموت حتى يستوفيه، وأن الرزق لا يجلبه حرص حريص، ولا يمنعه حَسَدُ حاسدٍ، وأن الخلق مهما حاولوا إيصالَ الرزقِ إليه، أو مَنْعَهُ عنه فلن يستطيعوا إلا بشيء قد كتبه الله له.

ومن هنا ينبعث إلى القناعة بما أوتي، وإلى عزة النفس والإجمال في الطلب، وإلى التحرر من رق الخلق ومنَّتِهم.

١٤ـ علو الهمة: فعلو الهمة يعني استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور، ودنو الهمة بالعكس من ذلك؛ فهو إيثار الدَّعة، والرِّضا بالدُّون، والقعود عن معالي الأمور.

والإيمان بالقدر يحمل أهله على علو الهمم، وينأى بهم عن القعود، والإخلاد إلى الأرض، والاستسلام للأقدار.

١٥ـ الاعتدال حال السراء والضراء: فالمؤمن بالقدر حقيقة لا تُبْطِره النعمة، ولا تُقَنِّطه المصيبة؛ فلا تطيش به الولاية في زهو، ولا ينزل به العزل في حسرة، ولا يحمله الغنى على الأشر والبطر، ولا ينحط به الفقر إلى الذلة والخضوع.

فالمؤمنون بالقدر حقيقة يتلقون المسارَّ والمحابَّ بقبول لها، وشكر لله عليها، واستعانة بها على أمور الدين والدنيا، فيحصل لهم من جراء ذلك من الخيرات

والبركات ما تتضاعف به مسراتهم.

١٦ــ السلامة من الحسد والاعتراض: فالإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تفتك بالمجتمعات، وتزرع الأحقاد بينها، وذلك مثل رذيلة الحسد، فالمؤمن بالقدر لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ لإيمانه بأن الله هو الذي رزقهم وقدر لهم أرزاقهم، فأعطى من شاء، ومنع من شاء، ابتلاءً، وامتحاناً، وبذلك يدرك المؤمن أنه حين يحسد غيره إنما يعترض على قدر الله.

فإذا آمن بالقدر سَلِم من الحسد، وسَلِم من الاعتراض على أحكام الله الشرعية، وأقداره الكونية، وسَلَّم لله في جميع أموره.

١٧ــ العلم بحكمة الله ــعز وجلــ: فالإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف للإنسان حكمة الله ــعز وجلــ فيما يقدره من خير أو شر، فيعلم أن وراء تفكيره، وتخيلاته من هو أعظم وأعلم، وأحكم.

ولهذا كثيراً ما يقع الشيء فنكرهه وهو خير لنا؛ وكثيراً ما نرى الشيء مصلحة ظاهرة فنحبه، ونرغب فيه، ولكن الحكمة لا تقتضيه.

فكم من الناس ــعلى سبيل المثالــ من يندم ويتحسَّرُ إذا فاته موعد إقلاع الطائرة، وما هي إلا مدة يسيرة، ثم يُعْلن عن سقوط الطائرة، ووفاة جميع ركابها.

وكم من الناس من يتبرم ويضيق صدره؛ لفوت محبوب؛ أو نزول مكروب.

وما إن ينكشف الأمر، ويستبين سرُّ القدر إلا وتجده جذلاً مسروراً؛ لأن العاقبة كانت حميدة بالنسبة له.

١٨ــ تحرير العقول من الخرافات ولأباطيل: فمن بدهيات الإيمان بالقدر الإيمان بأن ما جرى وما يجري، وما سيجري في هذا الكون إنما هو بقدر الله ــعز

وجل_ وأن قدر الله سرٌّ مكتومٌ، لا يعلمه إلا هو، ولا يُطْلِع عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول؛ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً.

ومن هذا المنطلق تجد المؤمن بالقدر لا يعتمد على الدجالين والمشعوذين، ولا يذهب إلى الكهان والمنجمين والعرافين؛ فلا يعتد بأقوالهم، ولا ينطلي عليه زيفهم ودجلهم؛ فيعيش سالماً من زيف هذه الأقاويل متحرراً من جميع تلك الخرافات والأباطيل.

١٩_ سكون القلب وطمأنينة النفس، وراحة البال: فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقدر، وهي داخلة في كثير مما مضى ذكره من الثمرات، وهي مطلبٌ مُلِحٌّ، وهدف منشود وغاية مُبْتَغاةٌ؛ فكل من في الأرض يبتغيها، ويبحث عنها، ويسعى لها سعيها، ولكن كما قيل:

كل من في الوجود يطلب صيداً   غير أن الشباك مختلفاتُ

فلا يدرك هذه الأمور، ولا يجد حلاوتها، ولا يعلم ثمرتها_ إلا من آمن بالله وقضائه وقدره؛ فالمؤمن بالقدر ساكن القلب، مطمئن النفس، مرتاح البال، لا يفكر كثيراً في احتمال الشر، ثم إن وقع لم يَطِرْ له قَلْبه شَعَاعاً، بل يتحمل ذلك بثبات وصبر؛ إنْ مرضَ لم يُضَاعف مرضه بوهمه، وإن نزل به مكروه قابله بجأش رابط فخفف حِدَّته؛ فمن الحكمة ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحصول الشر.

بل يسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه، فإذا حدثت قابلها بشجاعة واعتدال.

وإنك لتجد عند خواصِّ المسلمين من العلماء العاملين والعباد القانتين المتبعين

من سكون القلب وطمأنينة النفس ما لا يخطر ببال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال؛ فلهم في ذلك الشأن القِدْحُ المعلى، والنصيب الأوفى.

فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز _رحمه الله ورضي عنه_ يقول: =أصبحت وما لي سرور إلا في القضاء والقدر+.

وهذا شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية × يقول: =إن في الدنيا جنةً من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة+.

ويقول مقولته المشهورة عندما زجَّ به في السجن: =ما يصنع أعدائي بي؛ أنا جنتي وبستاني في صدري؛ أين رُحْت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة+.

بل إنك واجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال، وبرد اليقين ما لا تجده عند كبار المفكرين والكتاب والأطباء من غير المسلمين؛ فكم من الأطباء من غير المسلمين _على سبيل المثال_ مَنْ يَعْجَب، وَيَذْهَبُ به العجب كل مذهب إذا هو أشرف على علاج مريض مسلم، وتبين له انه مصاب بداء خطير _كالسرطان مثلاً_ فتراه يقدِّم رِجلاً ويؤخر أخرى، وتجده يمهد الطريق، ويضع المقدمات، كل ذلك خشيةً من شدة تأثر المريض بسماع هذا الخبر.

وما إن يُعلِمهُ بمرضه، ويصارحه بعلته _إلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل الخبر بنفس راضية، وصدر رحب، وسكينة عجيبة.

لقد أَدْهَشَ كثيراً من غير المسلمين إيمانُ المسلمين بالقضاء والقدر، فكتبوا في هذا الشأن معبرين عن دهشتهم، مسجلين شهاداتهم بقوة عزائم المسلمين، وكبر نفوسهم، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة.

فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله، وبقضائه وقدره.

وما منعهم من ذلك إلا إعراضهم عن ربهم، وبعدهم عن الدين الحق، ألا وهو الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، وختم به الأديان السماوية.

الأقوال في القدر

لا يوجد مذهب من المذاهب التي قال بها الفلاسفةُ المسلمون من أهل الكلام والتصوف إلا وقد قال بمثلها غيرهم ممن سبقهم، ويقول بها بعض علماء أوربا، وفلاسفة الغرب عموماً.

والأقوال في القدر ــ بإجمال ــ لم تتغير قبل أو بعد، فهي ترجع إلى ثلاثة أقوال:

١ ــ قول أهل الجبر: الذين يقولون: إن الإنسانَ مُجْبَرٌ على أفعاله، وليس له إرادة ولا قدرة.

ويمثل هذا في الفرق الإسلاميةِ الجهميةُ ومَنْ وافقهم، وهو ما يُسمَّى في العصور المتأخرة بالمذهب الحتمي.

٢ ــ قول أهل حريَّةِ الإرادة، واستقلال الإنسان في أفعاله عن خالقه، وأنَّ الإنسانَ له إرادة مستقلة عن إرادة الله، وأنه هو الذي يخلق أفعاله.

ويمثل هذا المذهبَ المعتزلةُ القدرية، ومن وافقهم.

٣ ــ قولٌ وسط بين هؤلاء وهؤلاء؛ حيث يثبت القائلون به القدر، وأنَّ الله خالق كلِّ شيء، ويقولون ــ مع ذلك ــ: إنَّ للإنسان قدرةً يفعل بها، ومشيئةً يختار بها، وقدرته ومشيئته واقعتان بقدرةِ اللهِ، ومشيئتِهِ تابعتان لهما.

وهذا هو قول السلف، وأتباع الأنبياء.

وبين هذه الطوائف الثلاثة قد تنشأ فرق أخرى تميل في بعض المسائل إلى طائفة، وفي المسائل الأخرى إلى طائفة أخرى، ويكون الحكم عليها بحسب ما

يغلب على مذهبها.

نشأة القول بالقدر في الإسلام

لم يقع في عهد النبي " أيُّ افتراق، أو ابتداع في أمور العقيدة ومنها القدر.

وهذا لا ينافي وقوع بعض الأسئلة التي يأتي جوابها حاسماً من الرسول ".

كما لا ينافي وقوع المخاصمة من جانب اليهود أو المشركين.

وقد مرَّ شيءٌ من ذلك عند الحديث عن مسألة حكم الحديث في القدر.

وبعدما انطوى عهد النبوة، وكثرت الفتوحات، واختلط المسلمون بغيرهم ـ ظهرت بدعة القدرية التي تُعد أول شرك في الإسلام.

وكان أول ظهورها في البصرة ودمشق، ولم تظهر في مكة ولا المدينة؛ لانتشار العلم.

وقد ظهرت في أواخر عهد الصحابة كابن عباس، وابن عمر، وأنس ابن مالك، وجابر بن عبدالله ـرضي الله عنهمـ فاشتد نكيرهم على تلك البدعة وأصحابها.

وتكاد مصادر أهل السنة تجمع على أن أول من تكلم بالقدر رجل من أهل البصرة يعمل بقالاً ويقال له: =سنسويه+ وبعضهم يسميه =سيسويه+ وبعضهم يسميه =سوسن+.

ثم تلقفها عنه مَعْبَدٌ الجهني، وأخذ عن معبدٍ غيلان الدمشقي.

قال الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام ×: =أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له: =سوسن+ كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصر، فأخذ عنه معبد

الجهني، وأخذ غيلان عن معبد+.

وبعد معبد وغيلان ظهر رؤوس الاعتزال كواصل بن عطاء، وعمرو ابن عبيد، فنقلوا هذه المقالات ونشروها _كما سيأتي بيان ذلك عند الحديث عن القدرية_.

والمقصود بالكلام في القدر في بداية الأمر إنما هو نفي القدر.

هذا هو المشهور من الأقوال في بداية القول بالقدر.

وكردة فعل للقدرية النفاة ظهر أناس غلو في الإثبات؛ حيث نشأ في آخر عهد بني أمية أقوام قالوا بالجبر، وزعموا أنَّ العبد ليس له خيار فيما يأخذ أو يدع، وبعضهم يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة.

وأول من أظهر هذا القول الشنيع: الجهم بن صفوان، وتفرع عن هذه البدعة أقوال شنيعة، وضلال كبير.

هذه هي بدايات القول بالقدر، وقبل الدخول في تفاصيل أقوال الفرق في القدر يحسن تحديد الخلاف في القدر بإيجاز، فالخلاف فيه يدور حول أمرين:

أحدهما: ما يتعلق بالله _تعالى_: وذلك في مراتب القدر الأربع: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق التي يثبتها أهل السنة لله _تعالى_.

الثاني: ما يتعلق بالعبد: هل له إرادة ومشيئة أَوْ لا؟ وهل له قدرة أَوْ لا؟ وهل هو زلفاعل لفعله حقيقة أَوْ لا؟

والطوائف ما بين غالٍ في إثبات القدر لله إلى حد أن قالوا بالجبر ونفي القدرة والإرادة عن العبد، ومُفرطٍ في القدر إلى حدِّ نفي بعضه عن الله، وإثباته للعبد.

وأهل السنة وسط بين هاتين الطائفتين.

وسيأتي في بعض المسائل بيان لضلال تلك الطائفتين القدرية، والجبرية.

الإيمان بالقدر ومشيئة العبد واختياره

الإيمان بالقدر ــعلى ما مرَّــ لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية، وأن يكون له قدرة عليها، فقد دل على ذلك الشرع والواقع.

أما الشرع: فالأدلة على ذلك كثيرة جداً ومنها قوله ــتعالىــ: [فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً] النبأ: ٣٩ وقوله: [فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ]البقرة:٢٢٣.

أما الواقع: فكل إنسان يعلم أن له مشيئةً، وقدرة يفعل بها ويترك، ويفرق بين ما يقع بإرادته، كالمشي، وما يقع بغير إرادته كالارتعاش.

لكنَّ مشيئته، وقدرته واقعتان بمشيئة الله وقدرته، لقوله ــتعالىــ: [لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ[٢٨]وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[٢٩] التكوير.

فعل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر

فعل الأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر، بل إن مباشرتها من تمام الإيمان بالقضاء والقدر.

ولهذا يجب على الإنسان ــمع الإيمان بالقدرــ الاجتهادُ في العمل، والأخذ بأسباب النجاة، والالتجاء إلى الله ــتعالىــ بأن ييسر له أسباب السعادة وأن يعينه عليها.

ونصوص الكتاب والسنة حافلة بالأمر باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شؤون الحياة؛ فقد أَمَرتْ بالعمل، والسعي في طلب الرزق، واتخاذ العدد لمواجهة الأعداء، والتزود للأسفار، وغير ذلك.

قال ــتعالىــ: [فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ] الجمعة:١٠،

وقال:[فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا]الملك: ١٥، وقال: [وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ]الأنفال:٦٠، وأمر المسافرين للحج بالتزود، فقال: [وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى]البقرة: ١٩٧، وأمر بالدعاء والاستعانة، فقال: [وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ] غافر: ٦٠، وقال: [وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ] البقرة: ٤٥.

وأمر باتخاذ الأسباب الشرعية التي تؤدي إلى رضوانه، وجنته، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وغير ذلك.

وحياة الرسول " وأصحابه، بل حياة المسلمين جميعاً، والسائرين على نهجهم _كلها شاهدة على أخذهم بالأسباب، والجد، والاجتهاد.

الاحتجاج بالقدر على فعل المحرمات، وترك الواجبات

الإيمان بالقدر لا يمنح العاصي حجة على فعل المحرمات، وترك الواجبات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتِّفاق المسلمين، وسائر أهل الملل، وسائر العقلاء؛ فإن هذا لو كان مقبولاً لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس، وأخذ الأموال وسائر أنواع الفساد في الأرض، ويحتج بالقدر.

ونفَّسُ المحتجِّ بالقدر إذا اعتُدي عليه، واحتج المعتدي بالقدر لم يُقْبَل منه، بل يتناقض، وتناقض القول يدل على فساده، فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بداية العقول+.

ومما يؤيد ما ذكر ويؤكده أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه في أمور دنياه حتى يدركه، ولا يعدل عنه إلى ما لا يلائمه ثم يحتج على عدوله بالقدر.

فلِمَا ذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر؟!

وإليك مثالاً يوضح ذلك: لو أراد إنسان السفر إلى بلد، وهذا البلد له طريقان، أحدهما آمن مطمئن، والآخر كله فوضى واضطراب، وقتل، وسلب، فأيهما سيسلك؟

لا شك أنه سيسلك الطريق الأول، فلماذا لا يسلك في أمر الآخرة طريق الجنة دون طريق النار؟

ومما يمكن أن يردُّ به على المحتج بالقدر على ترك الواجبات، وفعل المعاصي _بناء على مذهبه_ أن يقال له: لا تتزوج؛ فإن كان الله قد قضى لك بِوَلد فسيأتيك، وإلا فلن، ولا تأكل ولا تشرب؛ فإن قدَّر الله لك شبعاً ورياً فسيكون، وإلا فلن، وإذا هاجمك أسد ضارٍ فلا تفر منه؛ فإن قدَّر الله لك النجاة فستنحو، وإن لم يقدرها لك فلن ينفعك الفرار، وإذا مَرِضْت فلا تتداوَ؛ فإن قدَّر الله لك شِفاءً شُفيت، وإلا فلن ينفعك الدواء، وهكذا...

فهل سيوافقنا على هذا القول أَوْ لا؟ إن وافقنا عَلِمْنا فساد عقله، وإن خالفنا علمنا فساد قوله، وبطلان حجته.

وبالجملة فإن الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي، أو ترك الطاعات احتجاج باطل في الشرع، والعقل، والواقع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×عن المحتجِّين بالقدر: =هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا كانوا أكفر من اليهود والنصارى+.

الصورة الجائزة المسوغة للاحتجاج بالقدر

يسوغ الاحتجاج بالقدر عند المصائب التي تحل بالإنسان كالفقر، والمرض،

وفقد القريب، وتلف الزرع، وخسارة المال، وقتل الخطأ، ونحو ذلك؛ فهذا من تمام الرضا بالله ربّاً، فالاحتجاج إنما يكون على المصائب، لا المعائب، فالسعيد يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، كما قال ـتعالىـ: [فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ] غافر: ٥٥.

والشقي يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب.

ويوضح ذلك المثال الآتي: لو أن رجلاً قتل آخر عن طريق الخطأ، ثم لامه من لامه، واحتج القاتل بالقدر، لكان احتاجه مقبولاً، ولا يمنع ذلك من أن يؤاخذ.

ولو قتل رجلٌ رجلاً عن طريق العمد ثم قُرِّع القاتل ووُبِّخ على ذلك، ثم احتج بالقدر، لم يكن الاحتجاج منه مقبولاً.

الإنسان بين التسيير والتخيير

هناك سؤال يرد كثيراً، وهو قولهم: هل الإنسان مسيَّر أو مخيَّر؟

فهذا السؤال يرد كثيراً، وهناك من يجيب على هذا السؤال بأن الإنسان مسير لا مخير، كما أن هناك من يجيب بأنه مخير لا مُسَيَّر.

والحقيقة أن الإجابة عن هذا السؤال بهذا الإطلاق خطأ؛ ذلك أن الإجابة تحتاج إلى بعض التفصيل.

ووجه الخطأ في الإجابة: =بأن الإنسان مسير لا مخير+ تكمن فيما يَرِدُ على هذه الإجابة من إشكال؛ فإذا قيل: إنه مسير بإطلاق قيل: كيف يحاسب وهو مسير؟ وكيف يكون مسيراً ونحن نرى أن له مشيئةً وقدرةً واختياراً؟ وما العمل بالنصوص التي تثبت له المشيئة، والقدرة، والاختيار؟

أما إذا أجيب بأنه =مخير لا مسير+ فيقال: كيف يكون مُخَيَّراً ونحن نرى أنه قد

ولد بغير اختياره؟ ويمرض بغير اختياره؟ ويموت بغير اختياره؟ إلى غير ذلك من الأمور الخارجة عن إرادته.

فإذا قيل: إنه =مخير في أفعاله التي تقع بإرادته واختياره+ قيل: وأفعاله الختيارية كذلك؛ فقد يريد أمراً، ويعزم على فعله، وهو قادر على ذلك فيفعله، وقد لا يفعله؛ فقد يعوقه ما يعوقه؛ إذاً فليس كل ما أراد فِعْلَه فَعَلَهُ؛ وهذا شيء مشاهد.

ومن هنا يتبين لنا وجه الخطأ في هذا الجواب؛ فلو كان الإنسان مُسَيَّراً بإطلاق لما كان له قدرةٌ ومشيئةٌ، ولو كان مخيراً بإطلاق لفعل كل ما شاءه؛ فمن قال بالتسيير بإطلاق فهو ألصق بمذهب الجبرية الذين قالوا إنَّ العبد مجبور على فعله، وأنكروا أن يكون له قدرة ومشيئة وفعل.

ومن قال بالتخيير بإطلاق فهو ألصق بمذهب القدرية النفاة الذين قالوا: بأن الأمر أُنُفٌ، وأن العبد هو خالق فعله، وأنه مستقل بالإرادة والفعل.

فما الجواب ــإذاًــ عن هذا السؤال؟ وما المخرج من هذا الإشكال؟

الجواب: أن الحق وسط بين القولين، وهدى بين هاتين الضلالتين؛ فيقال ــوبالله التوفيقــ: إن الإنسان مخيَّر باعتبار، ومسيَّر باعتبار؛ فهو مخير باعتبار أن له مشيئةً يختار بها، وقدرة يفعل بها؛ لقوله ــتعالىــ: [فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ] الكهف: ٢٩، وقوله:[وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ]البلد: ١٠، وقوله: [فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ]البقرة:٢٢٣، وقوله: [وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ]آل عمران: ١٣٣.

ولقوله " فيما رواه مسلم: =احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز...+ الحديث.

وقوله في الحديث الذي رواه البخاري: =صلوا قبل المغرب+ قال في الثالثة: =لمن شاء+، إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة في هذا المعنى.

وهو مسير باعتبار أنه في جميع أفعاله داخل القدر، راجع إليه؛ لكونه لا يخرج عما قدَّره الله له؛ فلا يخرج في تخيير عن قدرة الله؛ لقوله _تعالى_: [هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ] يونس: ٢٢، وقوله: [وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ] القصص: ٦٨.

ولقوله ": =كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة+.

إلى غير ذلك من الأدلة بهذا المعنى.

ولهذا جمع الله بين هذين الأمرين _كون الإنسان مخيراً باعتبار ومسيراً باعتبار_ كما في قوله _تعالى_: [لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ[٢٨] وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [٢٩] التكوير.

فأثبت _عز وجل_ أن للعبد مشيئة، وبيَّن أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، واقعة بها.

وكذلك الرسول " كما في قوله: =ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار+.

قالوا: يا رسول الله: فَلِمَ نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: =لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له+.

فهذا الحديث دليل لما سبق، فهو يدل على أن الإنسان مخير؛ لقول " =اعملوا+ وعلى أنه لا يخرج في تخييره عن قدر الله؛ لقوله: =فكل ميسر لما خلق له+.

هذا مقتضى أدلة الشرع والواقع في هذه المسألة.

فلعل في هذا التقرير إجابة شافية، وجمعاً بين النصوص في هذه المسألة.

نسبة الشر إلى الله ـ عز وجل ـ

الشر لا ينسب إلى الله ـسبحانهـ فهو منزه عن الشر، ولا يفعل إلا الخير، والقدر من حيث نسبتُه إلى الله لا شر فيه بوجه من الوجوه؛ فإن علم الله، وكتابته، ومشيئته، وخلقه، وذلك خيرٌ محضٌ؛ فالشر إنما هو في المقضي لا في القضاء، وفي مفعولات الله لا في أفعاله ـعز وجلـ.

ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن النبي " كان يثني على ربه بتنزيهه عن الشر بدعاء الاستفتاح بقوله: =لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك+.

الحكمة والتعليل في أفعال الله

مسألة تعليل أفعال الله، وإثبات الحكمة فيها من أجل مسائل التوحيد المتعلقة بالخلق والأمر، والشرع والقدر.

والحديث في هذا المقام لا يسمح بالتفصيل.

وقد اختلف الناس فيها على أقوال شتى، ولكنَّها ترجع إلى قولين.

أحدهما: قول نفاة الحكمة، وهو قول الأشاعرة ومن وافقهم ممن يرى أن الله ـعز وجلـ قدر المقادير، وشرع الشرائع لغير علة، أو حكمة، بل فعل ذلك لمحض المشيئة، وصرف الإرادة.

الثاني: قول الجمهور الذين يثبتون الحكمة، وأنَّ لله في كل ما يقضيه حكمةً

ورحمة.

وهذه الحكمة تتضمن شيئين:

أحدهما: حكمة تعود إليه _تعالى_ يحبها ويرضاها.

والثاني: حكمة تعود إلى عباده، فهي نعمة عليهم يفرحون، ويلتذون بها.

وهذا يكون في المأمورات، والمخلوقات.

يقول ابن القيم × مقرراً حكمة الله _تبارك وتعالى_ فيما يقدره ويشرعه: =ولو ذهبنا نذكر ما يطلع عليه أمثالُنا من حكمة الله في خلقه لزاد ذلك على عشرة آلاف موضع مع قصور أذهاننا، ونقص عقولنا ومعارفنا، وتلاشيها، وتلاشي علوم الخلائق جميعهم كتلاشي ضوء السراج في عين الشمس، وهذا تقريب وإلا فالأمر فوق ذلك+.

وقال ×: =وكيف يتوهم ذو فطرة صحيحة خلاف ذلك، وهذا الوجود شاهد بحكمته، وعنايته بخلقه أتم عناية، وما في مخلوقاته من الحكمة، والمصالح، والمنافع، والغايات المطلوبة، والعواقب الحميدة _ أعظم من أن يُحيطَ به وصفٌ، أو يحصرَه عقل؟!+.

وهكذا يتبيَّن لنا أن لله _عز وجل_ الحكمةَ البالغةَ في كل فعل من أفعاله، وقد تظهر لنا الحكمةُ، وقد تخفى، ولا يلزم أن ندرك حكمته _عز وجل_ في كل شيء، أو أن يدرك ذلك كل أحد.

وإليك مثالاً يسيراً ألا وهو خلق المصائب والآلام؛ فكثير من الناس لا يدرك الحكمة من ذلك مع أن فيه حكماً عظيمة كثيرة منها حصول الأجر، وتكفير السيئات، وتقوية المبتلى، وزيادة إيمانه، وحصول الإخلاص، وحصول رحمة أهل

البلاء، والسلامة من الغرور والكبر، ومعرفة قدر العافية، والعلم بحقارة الدنيا، إلى غير ذلك من الحكم.

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة في الفقرة التالية عند الحديث عن ثمرات الإيمان بالقدر.

الهداية والإضلال

مسألة الهداية والإضلال مسألة عظيمة يطول الكلام فيها، وخلاصة الكلام أن يُقال: إن الهداية والإضلال والطاعة والمعصية بمشيئة الله، والإنسان سبب في وقوعها، ومسؤول عنها؛ فذلك من الأصول القطعية عند أهل السنةِ، والقاعدةُ التي يتفق عليها العقلاء أن القطعيات لا تتناقض في نفسها وإن بدت لنا متناقضة؛ لقصور إدراكنا؛ فحسبنا أن نقف عند هذه القطعيات، ونؤمن بها جميعاً، ولا نرد منها شيئاً ولو لم نحط بها علماً؛ لأن مسألة القضاء والقدر لها تعلق بصفات الله؛ فالقدر قدرة الله، وقدرة الله كعلمه وحكمته وإرادته وسائر صفاته من جهة كونها معلومة المعنى مجهولة الكيفية؛ فكما أننا نعجز عن الإحاطة بصفات الله فكذلك نعجز عن الإحاطة بسر القدر الإلهي، ومن أسراره أن أضل الله وهدى، وأسعد وأشقى، وأمات وأحيا، وغير ذلك؛ لحكمة يعلمها ولا نعلمها، وهو العليم الحكيم.

ولا يضير المرء في إيمانه عجزه عن معنى الإحاطة بسر القدر؛ لأن ذلك ليس بمستطاع، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

ولكن الذي يضيره أن يبني على عجزه أحكاماً، ويتصرف على غير هدى، ويرد بعض الأصول القطعية، ويضرب النصوص بعضها ببعض.

ومما لا نزاع فيه بين العقلاء أن للمالك أن يتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا يلزم ليكون تصرفه سليماً أن يُدرك غيرُه الحكمة في تصرفاته، وليس لأحد حق الاعتراض عليه في تصرفه إذا لم يعلم السر في أفعاله.

ولا نزاع بينهم أن البارع في علم من العلوم، أو فن من الفنون، أو صنعة من الصنائع أنه قد يعمل أعمالاً لا تدركها عقول الذين لم يقفوا على أسرار ذلك العلم، أو الفن، أو الصنعة.

ولا يعني عدمُ إدراكهم لذلك القدحَ في ذلك العلم، أو الفن، أو الصنعة.

هذا بالنسبة للبشر القاصرين في علمهم وحكمتهم، فكيف بأحكم الحاكمين، وبمن وسع كل شيء رحمة وعلماً؟!

فإن حاولنا كشف ما طُوي عنا من أسرار القدر مما استأثر الله بعلمه كان ذلك تكلفاً بلا نتيجة، ومن حاول إدراك غير المستطاع فنتيجة محاولته أن يكون:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنَه الوعلُ

وبالجملة فالهداية والإضلال لله وحده؛ فالله أعلم حيث يجعل هدايته كما أنه أعلم حيث يجعل رسالته.

ولا يعني ذلك تعطيل الأسباب؛ فالله ــ عز وجل ــ نصب أسباباً، وجعلها طريقاً للوصول إلى الهدى، وحذَّر من أسباب الإضلال، وبيَّن أنها موصلة للردى، ويبقى بعد ذلك أن نستحضر أن ذلك كله بيد الله ــ عز وجل ــ فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون عما يفعلون.

الرسالة الثانية عشرة

مسائل في المحبة والخوف والرجاء

أولاً: مسائل في المحبة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

فإن المحبة ركن العبادة الأعظم، فالعبادة تقوم على أركان ثلاثة، هي المحبة، والخوف، والرجاء.

والحديث فيما يأتي سيكون عن هذا الركن الأعظم، وهو المحبة، وذلك من خلال المسائل التالية:

المسألة الأولى: تعريف المحبة، وحدُّها.

المسألة الثانية: أقسام المحبة.

المسألة الثالثة: فضائل محبة الله.

المسألة الرابعة: صفات المحبوبين لله.

المسألة الخامسة: الأسباب الجالبة لمحبة الله.

المسألة الأولى: تعريف المحبة، وحدُّها

قال ابن القيم×: =لا تُحَدُّ المحبةُ بحدٍّ أوضحَ منها؛ فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً، وجفاءً، فحدُّها وُجُودُها، ولا توصف المحبة بوصفٍ أظهرَ من المحبة.

وإنما يتكلم الناس في أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها، وثمراتها، وأحكامها؛ فحدودهم، ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات بحسب إدراك الشخص، ومقامه، وحاله، ومِلْكِهِ للعبارة+ [1].

ومما قيل في حد المحبة وتعريفها ما يلي[2]:

١ــ الميل الدائم بالقلب الهائم.

٢ــ إيثار المحبوب على جميع المصحوب.

٣ــ موافقة الحبيب في المشهد والمغِيب.

٤ــ مواطأة القلب لمرادات المحبوب.

٥ــ استكثار القليل من جنايتك، واستقلال الكثير من طاعتك.

٦ــ سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب.

٧ــ ميلك للشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك، وروحك، ومالك، ثم موافقتك له سراً، وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

٨ــ الدخول تحت رق المحبوب وعبوديته، والحرية من استرقاق ما سواه.

٩ــ سفرُ القلب في طلب المحبوب، ولهجُ اللسان بذكره على الدوام.

١٠ــ المحبة أن يكون كُلُّكَ بالمحبوب مشغولاً، وذُلُّك له مبذولاً.

المسألة الثانية: أقسام المحبة

١ـ انظر مدارج السالكين ٣/١١.

٢ـ انظر مدارج السالكين ٣/١٣ـ١٨.

١ـ محبة عبادة: وهي محبة التذلل، والتعظيم، وأن يقوم بقلب المحبِّ من إجلال المحبوب، وتعظيمه ما يقتضي امتثال أمره، واجتناب نهيه.

وهذه المحبة أصل الإيمان والتوحيد، وهي التي يترتب عليها من الفضائل ما لا يمكن حصرُهُ وعدُّهُ.

ومَنْ صرف تلك المحبة لله فهو المؤمن الموحد، ومن صرفها لغير الله فقد وقع في المحبة الشركية؛ حيث أشرك بالله ـعز وجلـ.

وذلك كمحبة المشركين الذين يحبون آلهتهم، وأندادهم كمحبة الله، من شجر، أو حجر، أو بشر، أو ملك أو غيرها؛ حيث يحبونها كمحبة الله أو أكثر؛ فهذه المحبة أصل الشرك، وأساسه.

٢ـ محبة لله ـعز وجلـ: كمحبة ما يحبه الله من الأمكنة، والأزمنة، والأشخاص، والأعمال، والأقوال، ونحو ذلك؛ فهذه المحبة تابعة لمحبة الله.

٣ـ المحبة الطبيعية: ويدخل تحت هذه المحبة ما يلي:

أـ محبة إشفاق ورحمة: كمحبة الوالد لولده، وكمحبة المرضى، والضعفاء.

ب ـ محبة إجلال وتعظيم دون عبادة: كمحبة الولد لوالده، وكمحبة التلميذ لمعلمه وشيخه، ونحو ذلك.

جـ محبة الإنسان ما يلائمه: كمحبة الطعام، والشراب، والنكاح، واللباس، والأصدقاء، والخلطاء، ونحو ذلك.

فهذه المحاب داخلة في المحبة الطبيعية المباحة، فإن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب الطاعة، وإن صدت عن محبة الله، وتُوَسِّل بها إلى ما لا يحبه الله

دخلت في المنهيات، وإن لم تُعِن على طاعة، ولا معصية فهي في دائرة المباحات.

المسألة الثالثة: فضائل محبة الله

محبة الله _عز وجل_ أشرف المكاسب، وأعظم المواهب، وفضائلها لا تُعد ولا تحصى، ومن تلك الفضائل ما يلي:

١_ أنها أصل التوحيد وروحه: قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي×: =أصل التوحيد، وروحه إخلاص المحبة لله وحده، وهي أصل التألُّهِ، والتعبد، بل هي حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبةُ العبد لربه، وتسبق جميعَ المحابِّ، وتَغْلِبها، ويكون لها الحكم عليها؛ بحيث تكون سائر محاب العبد تبعاً لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه+ (١).

٢_ أن الحاجة إليها أعظم من الحاجة إلى الطعام، والشراب، والنكاح: قال شيخ الإسلام ابن تيمية×: =ففي قلوب بني آدم محبة لما يتألهونه ويعبدونه، وذلك قوام قلوبهم، وصلاح نفوسهم، كما أن فيهم محبةً لما يطعمونه، وينكحونه، وبذلك تصلح حياتهم، ويدوم شملهم.

وحاجتهم إلى التأله أعظم من حاجتهم إلى الغذاء؛ فإن الغذاء إذا فُقِد يَفْسُد الجسم، وبِفَقْدِ التأله تفسد النفس+ (٢).

وقال ابن القيم ×: =فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب، وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة، ولا نعيم، ولا فلاح، ولا حياة إلا بها.

١ـ القول السديد ص١١٠.
٢ـ جامع الرسائل لابن تيمية ٢/٢٣٠.

وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظمَ من ألم العينِ إذا فقدت نورها، والأذنِ إذا فقدت سمعها، والأنفِ إذا فقد شمّه، واللسانِ إذا فقد نُطْقَه؟!

بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره، وبارئه، وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح.

وهذا الأمر لا يصدِّق به إلا مَنْ فيه حياةٌ، وما لجُرْحٍ بميت إيلام+ [١].

٣ــ تسلي المحب عند المصائب: قال ابن القيم×: =فإن المحب يجد من لذة المحبة ما ينسيه المصائب، ولا يجد مِنْ مسِّها ما يجد غيرُه، حتى كأنه قد اكتسى طبيعةً ثانيةً ليست طبيعةَ الخلق.

بل يَقْوَى سلطانُ المحبةِ حتى يلتذَّ المحبُّ بكثير من المصائب التي يصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخليِّ (العاري من المحبة) بحظوظه وشهواته.

والذوقُ، والوَجْدُ شاهد بذلك، والله أعلم+ [٢].

٤ــ أنها من أعظم ما يحمل على ترك المعاصي: قال ابن القيم×في معرض حديث له عن محبة الله: =وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته، ومعاصيه؛ فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي سلطانُ المحبةِ في القلب كان اقتضاؤه للطاعة، وترك المخالفة أقوى.

وإنما تصدر المعصية والمخالفة مِنْ ضَعْفِ المحبة، وسلطانِها.

وفرْقٌ بين من يحمله على ترك معصية سيده خَوْفُه من سوطه وعقوبتِهِ، وبين من

١ـ الجواب الكافي ص٥٤١ـ٥٤٢.

٢ـ مدارج السالكين ٣/٣٨.

يحمله على ذلك حبُّه لسيده+.

إلى أن قال×: =فالمحب الصادق عليه رقيبٌ من محبوبه يرعى قَلْبَه، وجوارحَه. وعلامةُ صدقِ المحبة شهودُ هذا الرقيبِ ودوامُه.

وها هنا لطيفة يجب التنبه لها، وهي أن المحبة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه؛ فإذا قارنها الإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياءَ والطاعةَ، وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما توجب نوعَ أنسٍ، وانبساط، وتذكر، واشتياق.

ولهذا يتخلف أثرها ومُوجَبُها، ويفتش العبد قلبه، فيرى نوع محبة لله، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه، وسبب ذلك تجرّدها عن الإجلال والتعظيم؛ فما عَمَرَ القلبَ شيءٌ كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعْظيمه.

وتلك من أفضل مواهب الله للعبد، أو أفضلُها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء+[1].

٥ـ أنها تقطع الوساوس: قال ابن القيم×: =فبين المحبة، والوساوس تناقض شديد كما بين الذكر والغفلة؛ فعزيمة المحب تنفي تردد القلب بين المحبوب وغيره، وذلك سبب الوساوس.

وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغاً لوسواس الغير؛ لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه.

وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله ـتعالىـ ومن أين يجتمع

١ـ طريق الهجرتين ص٤٤٩ـ٤٥٠.

الحبُّ والوسواس؟

لا كـان مَـنْ لسـواك فيـه بقيـةٌ فيهـا يُقَسِّـم فِكْـرَهُ ويوسـوسُ[1]

٦_ تمام النعيم، وغاية السرور: فذلك لا يحصلُ إلا بمحبة الله _عز وجل_ فلا يغني القلبَ، ولا يَسُدُّ خلَّتَه، ولا يشبعُ جوعته إلا محبة الله، والإقبال عليه _عز وجل_ ولو حصل له كل ما يلتذ به لم يأنس ولم يطمئن إلا بمحبة الله _عز وجل_.

قال ابن القيم×: =وأما محبةُ الرب _سبحانه_ فشأنها غير الشأن؛ فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها، وفاطرها، فهو إلهها، ومعبودها، ووليها، ومولاها، وربُّها، ومدبرها، ورازقها، ومميتها، ومحييها؛ فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوتُ القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن؛ فليس عند القلوب السليمة، والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلى، ولا ألذُّ، ولا أطيبُ، ولا أسرُّ، ولا أنعمُ من محبته، والأنس به، والشوق إلى لقائه.

والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتمُّ من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة+ .

إلى أن قال: =ووجَدَانُ هذه الأمور، وذوقُها هو بحسب قوة المحبة، وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب، والقرب منه.

وكلما كانت المحبةُ أكملَ، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر كانت الحلاوةُ، واللذةُ، والنعيمُ أقوى.

فمن كان بالله _سبحانه_ وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يُعْرَف إلا

١ـ مدارج السالكين ٣/٣٨.

بالذوق والوَجْد.

ومتى ذاق القلب ذلك لم يُمْكِنْهُ أن يقدِّم عليه حُبَّاً لغيره، ولا أنساً به.

وكلما ازداد له حباً ازداد له عبودية، وذلاً، وخضوعاً، ورِقَّاً له، وحرية من رق غيره+[١].

المسألة الرابعة: صفات المحبوبين لله

الله ـ عز وجل ـ يُحِبُّ ويُحَبُّ، قال الله ـ تعالى ـ: [فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ] (المائدة: ٥٤).

وقد جاء النصوص مصرحة بمحبة الله لهم، وإليك فيما يلي إجمالاً لبعض صفات الذين خصهم الله بالمحبة:

التوابون، والمتطهرون، والمتقون، والمحسنون، والصابرون، والمتوكلون، والمقسطون، والذين يقاتلون في سبيله صفَّاً كأنهم بينان مرصوص، والأذلة على المؤمنين الأعزة على الكافرين، والمجاهدون في سبيل الله، والذين لا يخافون لومة لائم، والمتقربون بالنوافل بعد الفرائض.

المسألة الخامسة: الأسباب الجالبة لمحبة الله

١ــ قراءة القرآن بالتدبر، والتفهم لمعانيه، وما أريد به.

٢ــ التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.

٣ــ دوامُ ذكرِ الله على كل حال باللسان، والقلب، والعمل، والحال.

٤ــ إيثارُ محابِّ الله على محابِّ النفس عند غلبات الهوى.

١ـ إغاثة اللهفان ص٥٦٧.

٥ــ مطالعة القلب لأسماء الله وصفاته، ومشاهدتها، ومعرفتها.

٦ــ مشاهدة برِّه، وإحسانه، وآلائه، ونعمه الظاهرة، والباطنة.

٧ــ إنكسار القلب بكلِّيته بين يدي الله ــتعالى ــ.

٨ــ الخلوة بالله وقتَ النزولِ الإلهي؛ لمناجاته، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب، والتأدب بآداب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

٩ــ مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايبُ الثمر، وألا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعَلِمْتَ أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.

١٠ــ مباعدةُ كلِّ سببٍ يحول بين القلب، وبين الله عز وجل[1].

اللهم إنا نسألك حبك، وحبَّ من يحبك، وحبَّ العمل الذي يقربنا إلى حبِّك.

وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

١ ـ انظر مدارج السالكين ٣/١٨ـ١٩.

ثانياً: مسائل في الخوف[1]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الخوف ركن العبادة، ومنزلة من أجلّ منازل العبودية، وأنفعها، وهي فرض على كل أحد.

قال الله _تعالى_: [فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ](آل عمران: ١٧٥)، وقال: [وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ](الرحمن: ٤٦).

والحديث عن هذا الركن العظيم سيكون من خلال المسائل التالية:

المسألة الأولى: تعريف الخوف

١_ قيل: الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس.

٢_ وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام.

٣_ وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

٤_ وقيل: الخوف غمّ يلحق النفس؛ لتوقع مكروه.

المسألة الثانية: أقوال في الخوف

١_ قال أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد النيسابوري: الخوف سراج في القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله _عز وجل_ فإنك إذا خفته هربت إليه؛ فالخائف من ربه هارب إليه.

١ـ انظر تفصيل الحديث عن الخوف في مدارج السالكين ١/٥٠٧ـ٥١٣، وشروح كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب، باب (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه).

٢ــ وقال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب.

٣ــ وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها.

٤ــ وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يَزُلْ عنهم الخوف؛ فإذا زال الخوف ضلّوا الطريق.

المسألة الثالثة: الخوف المحمود

الخوف المحمود الصادق: هو ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ــعز وجلــ فإذا تجاوز ذلك خِيْفَ منه اليأس والقنوط.

قال أبو عثمان الحِيْري: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً، وباطناً.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: =الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله+.

المسألة الرابعة: الخوف الواجب والخوف المستحب

الخوف الواجب: هو ما حمل على فعل الواجبات، وترك المحرمات.

والخوف المستحب: هو ما حمل على فعل المستحبات، وترك المكروهات.

المسألة الخامسة: الجمع بين الخوف والرجاء والحب

لا بدّ للعبد من الجمع بين هذه الأركان الثلاثة؛ لأن عبادة الله بالخوف وحده طريقة الخوارج؛ فهم لا يجمعون إليه الحبَّ والرجاء؛ ولهذا لا يجدون للعبادة لذة، ولا إليها رغبة، فيجعلون الخالق بمنزلة سلطان جائر.

وهذا يورث اليأس والقنوط من رحمة الله، وغايته إساءةُ الظن بالله، والكفر به

ــسبحانهــ .

وعبادة الله بالرجاء وحده طريقة المرجئة الذين وقعوا في الغرور والأماني الباطلة، وترك العملِ الصالحِ، وغايتُه الخروجُ من الملة.

وعبادة الله بالحب وحده طريقة غلاة الصوفية الذين يقولون: نعبد الله لا خوفاً من ناره، ولا طمعاً في جنته، وإنما حبّاً لذاته.

وهذه طريقة فاسدة، ولها آثار وخيمة، منها الأمن من مكر الله، وغايتُه الزندقةُ، والخروج من الدين.

ولهذا قال السلف ــرحمهم اللهــ كلمة مشهورة وهي: =مَنْ عبدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروريٌ ــأي خارجيــ ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف والحب والرجاء فهو مؤمن موحِّد+ .

قال ابن القيم×: =القلب في سيره إلى الله ــعز وجلــ بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف، والرجاء جناحاه؛ فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيِّدُ الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فُقِدَ الجناحان فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر+ .

المسألة السادسة: أيهما يُغلَّب: الخوف أو الرجاء

قال ابن القيم×: =السلف استحبوا أن يُقَوِّي في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوي جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره.

وقال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء فَسَدَ.

وقال غيره: أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف، وغلبةُ الحب؛ فالمحبة هي المَرْكَبُ، والرجاء حادٍ، والخوف سائق، والله الموصل بمنِّه وكرمه+ .

المسألة السابعة: أقسام الخوف

١ـ خوف السر: وهو خوف التَّأَلُّه، والتعبد، والتقرب، وهو الذي يزجر صاحبه عن معصية مَنْ يخافه؛ خشيةً من أن يصيبه بما شاء من فقر، أو قتل، أو غضب، أو سلب نعمة، ونحو ذلك بقدرته ومشيئته.

فهذا القسم لا يجوز أن يصرف إلا لله ـعز وجلـ وصَرْفُه له يعد من أجل العبادات، ومن أعظم واجبات القلب، بل هو ركن من أركان العبادة، ومن خشي الله على هذا الوجه فهو مخلص موحِّد.

ومن صرفه لغير الله فقد أشرك شركاً أكبر؛ إذ جعل لله نِداً في الخوف، وذلك كحال المشركين الذين يعتقدون في آلهتهم ذلك الاعتقاد، ولهذا يُخَوِّفون بها أولياء الرحمن، كما قال قوم هود ـعليه السلامـ الذين ذكر الله عنهم أنهم خوفوا هوداً بآلهتهم، فقالوا: [إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ](هود: ٥٤).

وكحال عباد القبور؛ فإنهم يخافون أصحاب القبور من الصالحين، بل من الطواغيت كما يخافون الله، بل أشد؛ ولهذا إذا توجَّهَتْ على أحدهم اليمينُ بالله أعطاك ما شئت من الأيمان صادقاً أو كاذباً، فإن كانت اليمين بصاحب التربة لم يُقْدِم على اليمين إن كان كاذباً.

وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أخوف عنده من الله.

وكذا إذا أصاب أحداً منهم ظلمٌ لم يطلب كشفه إلا من المدفونين في التراب،

وإذا أراد أحدهم أن يظلم أحداً فاستعاذ المظلوم بالله لم يُعذه، ولو استعاذ بصاحب التربة أو بتربته لم يُقْدِمْ عليه بشيء، ولم يتعرض له بالأذى.

٢ـ **الخوف من وعيد الله:** الذي توعد به العصاة، وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان، وهو درجات، ومقامات، وأقسام كما مضى ذكره قبل قليل .

٣ـ **الخوف المحرم:** وهو أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بغير عذر إلا لخوف الناس.

وكحال من يفر من الزحف؛ خوفاً من لقاء العدو؛ فهذا خوف محرم، ولكنه لا يصل إلى الشرك.

٤ـ **الخوف الطبيعي:** كالخوف من سَبُع، أو عدوٍّ، أو هدم، أو غرق، ونحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري؛ فهذا لا يُذَمُّ، وهو الذي ذكره الله عن موسى ـعليه السلام ـ في قوله ـعز وجل ـ: [فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ](القصص: ٢١)، وقوله: [فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى](طه: ٦٧).

ويدخل في هذا القسم الخوف الذي يسبق لقاء العدو، أو يسبق إلقاء الخطب في بداية الأمر؛ فهذا خوف طبيعي، ويحمد إذا حمل صاحبه على أخذ الأهبة والاستعداد، ويذم إذا رجع به إلى الانهزام وتَرْكِ الإقدام.

٥ـ **الخوف الوهمي:** كالخوف الذي ليس له سبب أصلاً، أو له سبب ضعيف جداً؛ فهذا خوف مذموم، ويدخل صاحبه في وصف الجبناء، وقد تعوذ النبي"من الجبن؛ فهو من الأخلاق الرذيلة.

ولهذا كان الإيمان التام، والتوكل الصحيح أعظمَ ما يدفع هذا النوع من الخوف، ويملأ القلب شجاعة؛ فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه الخوف من غير الله،

وكلما ضعف إيمانه زاد وقوي خوفه من غير الله.

ولهذا فإن خواص المؤمنين وأقوياءهم تنقلب المخاوف في حقهم أمناً وطمأنينة؛ لقوة إيمانهم، ولسلامة يقينهم، وكمال توكلهم [الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ](آل عمران: ١٧٣، ١٧٤).

اللهم ارزقنا خشيتك في الغيب والشهادة، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

ثالثاً: مسائل في الرجاء

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الرجاء ركن من أركان العبادة؛ فالعبادة تقوم على الحب، والخوف، والرجاء.

والرجاء عمل عظيم من أعمال القلوب، والنصوص الشرعية متضافرة على ذكره، والثناء في أهله.

قال الله _تعالى_: [أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ](الإسراء: ٥٧).

فابتغاء الوسيلة إليه طلب القرب منه بالعبودية والمحبة؛ فَذَكَرَ مقاماتِ الإيمان الثلاثة: الحب، والخوف، والرجاء.

وقال _تعالى_: [مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ] (العنكبوت:٥).

وقال: [أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَت اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيْمٌ]

وفي صحيح مسلم قال _عليه الصلاة والسلام_: =**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**+ .

وفي الصحيح قال": =يقول الله _عز وجل_: =**أنا عند ظن عبدي، فليظن بي ما شاء**+ .

وفيما يلي مسائل في باب الرجاء.

المسألة الأولى: حد الرجاء

١_ قيل: الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة، ويُطَيِّب لها السير.

٢_ وقيل: هو الاستبشار بجود فضل الرب _تبارك وتعالى_ والارتياح لمطالعة كرمه _سبحانه_.

٣ ــ وقيل: هو الثقة بجود الرب ــتعالىــ .

٤ــ وقيل: هو النظر إلى سعة رحمة الله.

المسألة الثانية: الجمع بين الخوف والرجاء والحب

لابدّ للعبد من سيره إلى الله من الجمع بين الأركان الثلاثة؛ فالحب بمنزلة الرأس للطائر، والخوف والرجاء جناحاه؛ فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قُطع الرأس مات الطائر، ومتى فُقِد الجناحان فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر كما قال ابن القيم×.

المسألة الثالثة: أنواع الرجاء

أنواع الرجاء ثلاثة، نوعان محمودان، ونوعٌ غرور مذموم؛ **فالأولان**: رجاءُ رجلٍ عمل بطاعة الله على نور من الله؛ فهو راجٍ لثوابه، ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها، فهو راجٍ لمغفرة الله ــتعالىــ وعفوه، وإحسانه، وجوده، وحلمه، وكرمه، فهذان النوعان محمودان.

والثالث: رجاءُ رجلٍ متمادٍ في التفريط، والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل؛ فهذا هو الغرور، والتمني، والرجاءُ الكاذب.

المسألة الرابعة: الفرق بين الرجاء والتمني

الفرق بينهما أن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك صاحبه طريق الجد، والاجتهاد.

والرجاء يكون مع بذل الجهد، وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها، ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه، ويفلَحها، ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع.

المسألة الخامسة: تساؤل

أيهما أكمل: رجاءُ المحسنِ ثوابَ إحسانه، أو رجاء المسيء التائب مغفرةَ ربِّه، وعفوه؟.

والجواب: أن هذه المسألة وقع فيها خلاف؛ فطائفة رجَّحت رجاء المحسن؛ لقوة أسباب الرجاء معه، وطائفة رجّحت رجاء المذنب التائب؛ لأن رجاءه مُجَرَّدٌ عن علة رؤية العمل، مقرون بالانكسار، وذلة رؤية الذنب.

المسألة السادسة: الرجاء لا يصح إلا مع عمل

فقد أجمع العلماء على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل.

أما ترك العمل، والتمادي في الذنوب؛ اعتماداً على رحمة الله، وحسن الظن به ـعز وجلـ فليس من الرجاء في شيء.

بل هو جهل، وسفه، وغرور؛ فرحمة الله قريب من المحسنين لا من المفرطين، المعاندين، المصِرِّين.

قال ابن القيم×في شأن المتمادين في الذنوب؛ اتكالاً على رحمة الله: =وهذا الضرب في الناس قد تعلق بنصوص الرجاء، واتَّكل عليها، وتعلق بكلتا يديه، وإذا عوتب على الخطايا، والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله، ومغفرته، ونصوص الرجاء.

وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب+ [1].

١ـ الجواب الكافي لابن القيم ص٦٧ـ٦٨.

ثم ساق×أمثلة عديدة لما جاء عن أولئك.

المسألة السابعة: ضابط حسن الظن

قال ابن القيم×: =فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما على انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتَّى إحسان الظن.

فإن قيل: بل يتأتى ذلك، ويكون مستندُ حسنِ الظنِّ سعةَ مغفرةِ الله، ورحمته، وعفوه، وجوده، وأنَّ رحمَتَه سبقت غضبَه، وأنه لا تنفعه العقوبة، ولا يضره العفو.

قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك أجلُّ، وأكرم، وأجود، وأرحم، وإنما يضع ذلك في محله اللائق به؛ فإنه ـسبحانهـ موصوف بالحكمة، والعزة، والانتقام، وشدة البطش، وعقوبة من يستحق؛ فلو كان مُعَوَّلُ حسنِ الظن على صفاته، وأسمائه لاشترك في ذلك البرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوُّه؛ فما ينفع المجرمَ أسماؤه، وصفاته، وقد باء بسخطه، وغضبه، وتعرض للعْنته، ووقع في محارمه، وانتهك حرماته؟!

بل حسن الظن ينفع مَنْ تاب، وندم، وأقلع، وبدَّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم حسَّن الظن بعدها؛ فهذا هو حسن الظن، والأول غرور، والله المستعان+ [1].

المسألة الثامنة: فوائد الرجاء

وبعد أن تبين لنا حدُّ الرجاء، وضوابُطه فهذه نبذه عن فوائده، وفضائله؛

١ـ الجواب الكافي ص٧٦ـ٧٧.

فالرجاء إذا كان في محله، وعلى وجهه الصحيح يثمر ثمراتٍ عظيمةً؛ فمن فضائل الرجاء، وثمراته ما يلي:

١ـ **إظهار العبودية**، والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه العبد من ربه، ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله، وإحسانه طرفة عين.

٢ـ **أن الرجاء محبوبٌ لله**؛ فالله ـعز وجلـ يحب من عباده أن يرجوه، ويأملوه، ويسألوه من فضله؛ لأنه الملك الحق الجواد؛ فهو أجود من سئل، وأوسع من أعطى.

وأحب ما إلى الجواد أن يُرجى، ويُؤمل، ويُسأل.

٣ـ **التخلص من غضب الله**؛ فمن لم يسأل الله يغضب الله عليه، والسائل راجٍ، وطالبٌ.

٤ـ **أن الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سيره إلى الله**، ويطيِّبُ له المسير، ويحثه عليه، ويبعثه على ملازمته؛ فلولا الرجاء لما سار أحد؛ فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.

٥ـ **أن الرجاء يطرح العبد على عتبة المحبة**؛ فإنه كلما اشتدّ رجاؤه، وحصل له ما يرجوه ازداد حباً لله ـتعالىـ وشكراً له، ورضاً به، وعنه.

٦ـ **أنه يبعث العبد إلى أعلى المقامات**، وهو مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية؛ فإنه إذا حصل له مرجوُّه كان أدعى لشكره.

٧ـ **أنه يوجب للراجي المزيد من معرفة الله**، وأسمائه، ومعانيها، والتعلق بها؛ فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبدٌ، وداعٍ بها.

٨ـ **أن المحبة لا تنفك عن الرجاء**؛ فكل واحد منهما يمد الآخر، ويقويه.

٩_ أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف؛ فكل راجٍ خائفٌ، وكل خائف راجٍ.

١٠_ أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربِّه، فأعطاه ما رجاه كان ذلك ألطفَ موقعاً، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يَرْجُه.

١١_ أن في الرجاء من الانتظار، والترقب، والتوقع لفضل الله ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه، وصفاته، وتنقُّلُ القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم، وصفة.

اللهم إنا نسألك حبك، وخوفك، ورجاءك، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

الرسالة الثالثة عشرة

نبذةٌ مختصرة في الشفاعة والشرك والتمائم والتبرك

أولاً: نبذة في الشفاعة

أولاً: تعريف الشفاعة

الشفاعة في اللغة من الشفع، وهو ضد الوتر؛ لأن المشفوع له صار شِفعاً بالشفع.

وتعريفها عرفاً وشرعاً هو: ١_ سؤال الشافع الخيرَ لغيره.

٢_ أو: توسط الشافع لغيره بجلب نفع أو دفع ضرٍّ، أو رفعه.

٣_ أو: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم.

ثانياً: أقسام الناس في الشفاعة

الناس في الشفاعة على ثلاثة أقسام:

١_ قسم غلا في إثباتها: وهم النصارى، والمشركون، وغلاة الصوفية، والقبوريون؛ حيث جعلوا شفاعة من يعظمونه عند الله يوم القيامة كشفاعته في الدنيا؛ حيث اعتقدوا أن هؤلاء المعظمين يشفعون استقلالاً.

٢_ قسم أنكر الشفاعة: كالمعتزلة والخوارج؛ حيث أنكروا شفاعة النبي" وغيره لأهل الكبائر، وقصروا الشفاعة على التائبين من المؤمنين؛ لأن إثبات الشفاعة للفساق ينافي مبدأ الوعيد في مذهبهم الباطل؛ فهم يرون وجوب إنفاذ الوعيد لمن استحقه، ولا يرون الشفاعة له لا من النبي "ولا من غيره.

٣_ قسم توسط: وهم أهل السنة والجماعة؛ فلم ينفوا كل شفاعة، ولم يثبتوا كل شفاعة.

بل أثبتوا من الشفاعة ما دلَّ عليه الدليل من الكتاب والسنة، ونفوا منها ما نفاه الدليل؛ فالشفاعة المثبتة عندهم هي التي تطلب من الله ـعز وجلـ وهي التي تكون للموحدين بعد إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له؛ فلا تطلب من غير الله، ولا تكون إلا بعد إذن الله ورضاه.

فهذه الشفاعة يثبتها أهل السنة بأنواعها، بما في ذلك الشفاعة لأهل الكبائر.

أما الشفاعة المنفية عند أهل السنة فهي التي نفاها الشرع، وهي التي تطلب من غير الله استقلالاً، ولم تتوافر فيها شروط الشفاعة.

ثالثاً: نوعا الشفاعة

من خلال ما مضى يتبين لنا أن الشفاعة نوعان:

١ـ **مثبتة**: وهي التي توافرت فيها شروط الشفاعة.

٢ـ **منفية**: وهي التي لم تتوافر فيها تلك الشروط.

رابعاً: شروط الشفاعة

للشفاعة المثبتة شرطان: وهما:

١ـإذن الله للشافع، قال ـتعالىـ: [مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ] (البقرة: ٢٥٥).

٢ـرضاه عن المشفوع له: قال الله ـتعالىـ: [وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنْ ارْتَضَى] (الأنبياء: ٢٨) .

وبعضهم يزيد شرطين وهما:

٣ـقدرة الشافع على الشفاعة، كما قال ـتعالىـ في حق الشافع الذي يُطلب

منه: [وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] (الزخرف: ٨٦).

فعُلم أن طلبها من الأموات طلب ممن لا يملكها.

٤_ إسلام المشفوع له، قال _تعالى_: [مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ](غافر: ١٨).

والمراد بالظالمين هنا: الكافرون، ويستثنى منهم أبو طالب.

وهذان الشرطان _في الحقيقة_ يدخلان في الشرطين الأولين؛ فلا يَقْدِر على الشفاعة إلا من أذن له الله، ولا يُشفع إلا لمسلم.

خامساً: أنواع الشفاعة المثبتة

قال الله _تعالى_: [قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً](الزمر: ٤٤).

فهذه الآية تدل على أن للشفاعة أنواعاً متعددة، وفيما يلي ذكر لتلك الأنواع:

١_ الشفاعة الكبرى، وهي التي يتأخر عنها أولو العزم من الرسل، حتى تنتهي إلى النبي "فيقول: =**أنا لها**+ حين تهرع الخلائق إلى الأنبياء؛ ليشفعوا لهم عند ربهم؛ ليريحهم من مقامهم في الموقف، ويقضي بينهم.

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي".

٢_ شفاعة النبي"لأهل الجنة بدخولها، وهذه _أيضاً_ خاصة بالنبي".

٣_ شفاعة النبي"لعمه أبي طالب بأن يخفف عنه من عذاب النار، وهذه خاصة بالنبي".

٤_ الشفاعة لقوم من العصاة من أمة محمد"قد استوجبوا النار، فيشفع لهم النبي"ألا يدخلوها.

وهذه للنبي"ولغيره من الملائكة، والمؤمنين.

٥_ الشفاعة للعصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم بأن يخرجوا منها، وهذه للنبي"وغيره.

٦_ الشفاعة لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم، ورفع درجاتهم. وهذه للنبي"وغيره.

٧_ شفاعة الأفراط لوالديهم المؤمنين.

٨_ شفاعة الشهداء لذويهم من المؤمنين.

٩_ شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض.

ثانياً: نبذة في الشرك

أولاً: تعريف الشرك: هو أن يشرك مع الله غيره في حق من حقوقه.

أو هو أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو أن يُعظَّم كما يعظم الله، أو أن يُصرَف له نوع من أنواع الألوهية أو الربوبية.

ثانياً: أقسام الشرك: ١ـ شرك أكبر. ٢ـ شرك أصغر.

ثالثاً: تعريف الشرك الأكبر: هو اتخاذ العبد نداً من دون الله يسوِّيه بربِّ العالمين.

رابعاً: تعريف الشرك الأصغر: ما أتى في النصوص أنه شرك، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر.

أو هو الذرائع والوسائل الموصِّلة للشرك الأكبر.

خامساً: أمثلة للشرك الأكبر: ١ـ الذبح لغير الله.

٢ـ النذر لغير الله.

٣ـ الطواف بالقبور، ودعاء أهلها من دون الله.

٤ـ دعاء الأموات والغائبين كما يُدعى الله ـعز وجلـ.

٥ـ محبة غير الله كحبِّ الله.

٦ـ الخوف من غير الله كالخوف من الله.

٧ـ الاستعاذة والاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

٨ـ جعل العبد وسائط بينه وبين الله يدعوهم، ويتوكل عليهم.

سادساً: أمثلة للشرك الأصغر: ١ـ الحلف بغير الله.

٢ــ تعظيم المخلوق تعظيمًا لا يبلغ رتبة العبادة.

٣ــ تعليق التمائم والحروز؛ بزعم أنها تدفع العين ونحو ذلك.

٤ــ الصلاة لله عند القبور.

سابعاً: **الفروق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر**: هناك فروق عديدة منها:

١ــ يختلفان في التعريف كما مرَّ.

٢ــ الشرك الأكبر محكوم على صاحبه بالخروج من الملة، والتخليد في النار، أما الأصغر فبخلاف ذلك.

٣ــ الأكبر يحبط جميع الأعمال، والأصغر يحبط العمل الذي قارنه.

٤ــ الأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة، أما الأصغر ففيه خلاف، والصحيح ــوالله أعلمــ أنه تحت المشيئة.

ثامناً: **ضوابط في تمييز الشرك الأصغر من الأكبر**:

١ــ صريح النص كقوله": =**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**+.

٢ــ أن يأتي منكَّراً: =**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**+.

٣ــ ما يفهمه الصحابة من النص أنه أصغر؛ فهم أعلم الناس بمعاني نصوص الكتاب والسنة.

تاسعاً: **أسباب وقوع الشرك**: ١ــ الجهل. ٢ــ الإعجاب، والتعظيم.

٣ــ الميل إلى الأمور المحسوسة. ٤ــ الهوى، والشهوات.

٥ــ التقليد الأعمى للآباء والأجداد. ٦ــ علماء السوء، وجهلة العُبَّاد.

٧ــ وجود طواغيت يصدون الناس عن عبادة الله.

٨ــ حب المال والشهرة والجاه. ٩ــ الكبر.

١٠ـ التقصير في جانب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عاشراً: أضرار الشرك: ١ـ أنه السبب الأعظم في دخول النار والخلود فيها.

٢ـ أنه السبب الأعظم لحرمان الجنة. ٣ـ أنه السبب الأعظم لحبوط العمل.

٤ـ الشرك يطفئ نور الفطرة. ٥ـ هو أعظم سبب للشقاء في الدنيا.

٦ـ الشرك يقضي على عزة النفس، وعلى الأخلاق الفاضلة.

٧ـ سبب للفرقة والتناحر، وفقدان الأمن.

٨ـ سبب للتخلف في شتى الميادين. ٩ـ سبب للهزائم وتسلط الأعداء.

ثالثاً: نبذةٌ في التمائم

أولاً: تعريفها: التمائم جمع تميمة، وهي ما يُعَلَّق على الأعناق أو المراكب أو البيوت، أو غيرها؛ لجلب نفع، أو دفع ضر، أورفعه، سواء كانت من القرآن، أوالخيوط، أوالخرز، أوالحصى، أو غيرها.

ثانياً: أسماؤها الأخرى: للتمائم أسماء أخرى منها:

١_ الحروز. ٢_ الحجب.

٣_ التعاليق. ٤_ الودع.

ثالثاً: تحريم التمائم: التمائم محرمة بالكتاب والسنة، قال _تعالى_: [وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (الأنعام:١٧).

وقال": =**من تعلق تميمة فلا أتمَّ الله له، ومن تعلّق ودعة فلا ودع الله له**+ رواه أحمد، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي.

رابعاً: أسباب تحريمها: ١_ لما فيها من تعلُّق القلب بغير الله.

٢_ لأنها ليست سبباً شرعياً ولا قدرياً، واعتقادُ أنها سبب تشريعٌ مع الله، ومنازعة له في خلقه وأمره.

٣_ أنها تفتح على العبد باب الخرافة، وتقوده إلى الشرك.

٤_ أنها سبب للخذلان؛ لأن من تعلق شيئاً وُكل إليه.

خامساً: هل التمائم من الشرك الأصغر أو من الأكبر؟ الجواب كما يلي:

١_ إذا كانت التميمة صنماً، أو رقية شركية، أو صليباً _ فهذا شرك أكبر بلا

ريب.

٢_ إذا كانت من الخيوط، أو الخرز، أو نحوهما، واعتمد عليها العبد اعتماداً كلياً، وقام بقلبه أنها تؤثر بنفسها استقلالاً _ فهذا أيضاً شرك أكبر.

٣_ إذا كان من الخيوط، أو الخرز، ونحوهما، واعتقد أنها مجرد سبب، ولم يعتمد عليها اعتماداً كلياً _ فهذا شرك أصغر.

سادساً: حكم المعلَّق إذا كان من القرآن أو الأدعية النبوية: الصحيح أنه لا يجوز للأسباب الآتية:

١_ سداً للذرائع الموصلة للشرك.

٢_ لعموم النهي في التمائم.

٣_ لأنه قد يفضي إلى امتهان القرآن والأدعية النبوية، وذلك بالدخول بها في الخلاء، وبتعريضها للأوساخ.

٤_ لأنه ذريعة للدجَّالين؛ كي يكتبوا آية أو سورة أو بسملة، ثم يضعوا تحتها طلاسم شيطانية واستغاثات شركية.

٥_ لأنه قد يكون مدعاة لهجر القرآن، والدعاء؛ اكتفاءً بما عُلِّق.

سابعاً: نماذج للتمائم الموجودة: ١_ ما يُعلَّق على الأطفال؛ خشية العين.

٢_ ما تُعلِّقه بعض النساء، أو تضعه في غرفتها، أو تحت وسادتها؛ لاتقاء العين، أو للحفظ من الأذى أو لجلب محبة الزوج، ونحو ذلك.

٣_ ما يعلق على السيارات من رسوم، أو خرز، أو غير ذلك؛ لدفع العين.

٤_ ما يعرف بالدنبوشي عند بعض لاعبي الكرة؛ حيث يضعون على سواعدهم لفة معينة، أو يعلقونها على الشباك، وربما كان المعلق مشتملاً على آيات قرآنية

توضع تحت حذاء اللاعبين؛ زعماً منهم أن ذلك يجلب الفوز! كل ذلك من الأمور الشركية المحرمة.

رابعاً: نبذةٌ في التبرك

أولاً: تعريفه: التبرك هو طلب البركة من الزيادة في الخير والأجر، وكلِّ ما يحتاجه العبد في دينه ودنياه، بسبب ذات مباركة، أو زمان أو مكان مبارك، وتكون هذه البركة قد ثبتت ثبوتاً شرعياً، وثبتت الكيفية التي تنال بها عن النبي".

ثانياً: قواعد عامة مجملة في التبرك: ١_ أن البركة كلَّها من الله، كما أن الرزق، والنصر، والعافية من الله؛ فلا تطلب إلا من الله، وطلبها من غيره شرك.

٢_ أن ما ورد شرعاً أن فيه بركةً من الأعيان، والأقوال، والأفعال إنما هو سبب للبركة، وليس هو مصْدَرَها.

٣_ أن الذي يدل على وجود البركة من عدمها بسبب شيء أو في شيء إنما هو الدليل الشرعي فحسب.

ثالثاً: نماذج للتبرك المشروع: ١_ التبرك بذات النبي "وآثاره.

٢_ التبرك بالأفعال والأقوال، والهيئات المشروعة: فإذا جاء المسلم بها ملتمساً الخير بسببها، متبعاً السنة بفعلها _ حصل له من الخير والبركة بقدر نيته واجتهاده.

ومن ذلك: ذكر الله، وقراءة القرآن، والاجتماع على الذكر، والتقدم في ساحات الوغى جهاداً في سبيل الله.

ومن ذلك: الاجتماع على الطعام، والأكل من جوانب القصعة، ولعق الأصابع بعد الانتهاء من الطعام.

٣_ التبرك المشروع بالأمكنة: كالتبرك بالمساجد عموماً، وبالمسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى ومسجد قباء خصوصاً، فلهذه المساجد مزيّة

على غيرها.

والتبرك بالمساجد كالتبرك في غيرها لا بد فيه من الإخلاص والمتابعة، فمما تحصل به البركة في المساجد الاعتكاف، والصلاة، والذكر، وغير ذلك.

ومن الأمكنة المباركة أيضاً: مكة، والمدينة، والشام.

٤ـ **التبرك بالأزمنة**: مثل رمضان، وليلة القدر، وثلث الليل الآخر، والجمعة، والاثنين، والخميس، وعشر ذي الحجة.

٥ـ **التبرك بالمطعومات وما في حكمها**: كالتبرك بزيت الزيتون، واللبن، والتمر، والحبة السوداء، والكمأة، وأكلة السَّحَر، وكالعسل، وماء زمزم.

ويلحق بما سبق: الخيل، والغنم؛ ففي تربيتها بركة.

وكل ما مضى وردت به الأدلة الشرعية، والمقام لا يتسع لبسطها.

وبالجملة فأعظم سبب للبركات هو الإيمان والتقوى [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ](الأعراف: ٩٦).

رابعاً: التبرك الممنوع: هو ما لم يرد فيه نص، أو ما ورد النص في النهي عن التبرك فيه، كالتبرك بالطواف بالقبور، ودعاء الأموات والغائبين، وكالتبرك بالأشجار، والأحجار، والغيران، وغيرها، وكالتبرك بذوات العلماء والصالحين؛ فإن هذا لا يجوز، وإنما تلتمس البركة بأخذ العلم عنهم، وبالاستفادة من سمتهم وهديهم.

الرسالة الرابعة عشرة

السحر
بين الماضي والحاضر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فإن السحر ينتشر ويتفاوت انتشاره من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، ومن أشخاص إلى أشخاص بحسب تفاوت الأسباب.

وفي العصور المتأخرة زاد انتشار السحر والشعوذة، وتنوعت الأساليب؛ تبعاً لتقارب الزمان، واندراس كثير من معالم السنن والهدى.

وفيما يلي من صفحات بيان لموضوع السحر بشيء من التيسير والإجمال، وعرض لما كان عليه في الماضي والحاضر، وذلك خلال الفصول التالية:

الفصل الأول: مفهوم السحر، وأنواعه.

الفصل الثاني: أحكام تتعلق بالسحر والسحرة.

الفصل الثالث: حل السحر عن المسحور (النشرة).

الفصل الرابع: أسباب انتشار السحر، وبطلان زيف السحرة.

الفصل الخامس: السحر في العصر الحاضر والموقف من السحرة.

الخاتمة: وتشتمل على خلاصة موجزة لأهم ما ورد في البحث.

وتحت كل فصل من هذه الفصول عدد من المباحث؛ فإلى تفاصيل ذلك، والله المستعان، وعليه التكلان.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول

مفهوم السحر، وأنواعه

وتحته ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم السحر لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: الفعل المستطاع للساحر.

المبحث الثالث: أنواع من السحر.

المبحث الأول: مفهوم السحر

١ـ **السحر لغة**: السحر في اللغة يدور حول عدة معانٍ؛ فيطلق على صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، ويطلق على الخداع، وعلى إخراج الباطل في صورة الحق، وعلى كل ما لَطُفَ، ودق مأخذه.[١]

٢ـ **السحر في الاصطلاح**: السحر ليس نوعاً واحداً يَشْمله حدٌّ جامع مانع؛ لكثرة الأنواع الداخلة تحته.

ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حده اختلافاً متبايناً.[٢]

وفيما يلي شيء من تلك التعريفات التي تُقَرِّبُ مفهومَ السحر:

أـ عرفه الجصاص× بقوله: =كلُّ أمرٍ خَفِيَ سببُهُ، وتُخُيِّل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع+.[٣]

بـ وعرفه ابن العربي× بقوله: =هو كلامٌ مُؤَلفٌ يُعَظَّمُ فيه غير الله ـتعالىـ وتنسب إليه فيه المقاديرُ والكائنات+.[٤]

جـ وعرفه ابنُ قدامةَ × بقوله: =عزائمُ ورقىً وعُقَدٌ تؤثر في الأبدان والقلوب،

---

١ ـ انظر أعلام الحديث للخطابي ص١٠٣٥ ، والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص٢٢٥، ولسان العرب لابن منظور ١١/١٦ـ١٦.

٢ ـ انظر أضواء البيان للشنقيطي ٤/٤٤٤.

٣ ـ أحكام القرآن للجصاص ١/٥١.

٤ ـ أحكام القرآن لابن العربي ١/٣١.

فيمرض، ويقتل، ويُفَرِّق بين المرء وزوجه، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه+.[١]

د_ وعرفه ابن خلدون× بقوله: =هو علمٌ بكيفيةِ استعداداتٍ تَقْتَدِرُ النفوسُ البشريةُ بها على التأثيرات في عالم العناصر إما بغير مُعِينٍ، أو بمعين من الأمور السماوية+.[٢]

هـ _ وعرفه الدكتور أحمد الحمد _حفظه الله_ بعد أن ساق عدداً من التعريفات، وبين ما فيها من القصور بقوله: =السحر هو المخادعة أو التأثير في عالم العناصر بمقتضى القدرة المحدودة بمُعينٍ من الجن أو بأدوية؛ أَثَرَ استعدادات لدى الساحر+.[٣]

ثم قال بعد هذا التعريف: =وأرى في هذا شمولاً لما كان من السحر عن طريق التخييل والمخادعة، وما كان منه حقيقة يؤثر بالهمة، أو بمُعين من الشياطين، أو بدعوى موافقة مزاج الأفلاك والعناصر، أو نحو ذلك، والله أعلم+.[٤]

---

١ ـ الكافي لابن قدامة ١٦٤/٤.

٢ ـ المقدمة ص٤٩٦.

٣ ـ السحر بين الحقيقة والخيال للشيخ الدكتور. أحمد الحمد، وهو من أحسن ما كُتب في هذا الباب ص١٧.

٤ ـ السحر بين الحقيقة والخيال ص١٧.

المبحث الثاني: الفعل المستطاع للساحر

اخْتُلف في مقدار ما يبلغه الساحر بسحره تأثيراً على غيره، أو فعلاً يفعله هو، أو يفعله في غيره.

وقد صور ابن حجر×الخلاف في تأثير السحر عند مثبتي حقيقته بأمرين:

الأول: أن يبلغ السحر من الأثر ما تبلغه الأمراض من تغير المزاج وفساده؛ فيكون نوعاً من أنواعها، لا يتجاوز ذلك.

الثاني: أن يصل إلى إحالة الطبائع بحيث يصيِّر الجماد حيواناً، والحيوان جماداً.

ويرى أن **الأول**: هو ما عليه الجمهور، وأما **الثاني**: فلم يذهب إليه إلا طائفة قليلة، وأن من يدعي ذلك لا يستطيع إقامة الدليل عليه إلا إن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية، فهو مُسَلَّم؛ إذ لا خلاف في أن الله _تعالى_ على كل شيء قدير.[1]

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي× مبيناً القدر للحد الذي يمكن أن يبلغه تأثير السحر في المسحور: =اعلم أن لهذه المسألة واسطة وطرفين: طرفاً لا خلاف في أن تأثير السحر يبلغه، كالتفريق بين الرجل وامرأته، وكالمرض الذي يصيب المسحور، ونحو ذلك، ودليل ذلك القرآن، والسنة الصحيحة.

وطرفاً لا خلاف في أن تأثير السحر لا يمكن أن يبلغه كإحياء الموتى، وفلق البحر، ونحو ذلك..

---

١ ـ انظر فتح الباري لابن حجر ١٠/٢٢٢، و السحر بين الحقيقة والخيال ص٩٤ـ١١١.

وأما الواسطة فهي محل خلاف بين العلماء، وهي هل يجوز أن ينقلب بالسحر الإنسان حماراً مثلاً، والحمار إنساناً؟

وهل يصح أن يطير الساحر في الهواء، وأن يَسْتَدِقَّ جسمُه حتى يدخل من كوة ضيقة، وينتصبَ على رأس قصبة، ويجري على خيط مستدق، ويمشي على الماء، ويركب الكلب، ونحو ذلك؟.

فبعض الناس يجيز هذا+.

ثم قال: =قال مقيده _عفا الله عنه وغفر له_: أما بالنسبة إلى أن الله قادر على أن يفعل جميع ذلك، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، وإن لم تكن هناك مناسبة عقلية بين السبب والمسبب _ فلا مانع من ذلك، والله _عز وجل_ يقول: [وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ] (البقرة:١٠٢).

وأما بالنسبة إلى ثبوت وقوع مثل ذلك بالفعل فلم يقم عليه دليل مقنع؛ لأن غالب ما يستدل به قائله حكايات لم تثبت عن عدول، ويجوز أن يكون ما وقع منها من جنس الشعوذة، والأخذ بالعيون، لا قلب الحقيقة مثلاً إلى حقيقة أخرى، وهذا هو الأظهر عندي، والله _تعالى_ أعلم+.[1]

---

١ _ أضواء البيان ٤/٤٦٦_٤٦٨.

المبحث الثالث: أنواع من السحر

هناك أعمال يمكن إلحاقها بالسحر لما بينهما من التشابه والاشتراك في ادعاء علم الغيب، أو سلوك الطرق المحرمة في الوصول إلى ذلك.

ومن أشهر تلك الأنواع: الكهانة والعرافة، والتنجيم، والطيرة، والخط على الرمل وما يلحق به.

وفيما يلي من صفحات بيان لتلك الأنواع، وما يتعلق بها من أحكام:

أولاً: الكهانة والعرافة

١ـ مفهوم الكهانة والعرافة: قيل: إنهما بمعنى واحد يطلقان على الحازي، والطبيبِ، وكلِّ مَنْ يتعاطى علماً دقيقاً.[1]

وقيل: إن الكاهن هو مَنْ يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدَّعي معرفة الأسرار سواء كان له تابع من الجن، ورئيٌّ يلقي إليه الأخبار، أو كان ممن يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات يُسْتَدَلُّ بها على مواقعها مِنْ كلامِ مَنْ يسأله، أو فعله، أو حاله.

وقيل: بل هذا الأخير هو العراف الذي يدعي معرفة الشيء المسروق، ومكان الضالة، ونحوها.

---

١ ـ انظر لسان العرب مادة (كهن)، ومادة (عرف) ١٧/٢٤٤ـ٢٤٥، و١١/١٤٢، والمصباح المنير ٢/٥٣.

وقيل: الكاهن مَنْ يخبر عن الغيب الماضي والمستقبل، والعراف من يخبر عن الماضي.[1]

يقول ابن عابدين×: =الكاهن قيل: هو الساحر، وقيل: هو العراف الذي يُحدِّث ويتخرص.

وقيل: مَنْ له مِنَ الجن مَنْ يأتيه بالأخبار+.[2]

٢ــ وجه إلحاق الكهانة والعرافة بالسحر: ألحقت الكهانة والعرافة بالسحر لأمور، منها:

أ ــ لكونهما مشابهين له من جهة الإخبار بما يخفى على الآخرين.

ب ــ أن فيهما ادعاءً لعلم الغيب كحال السحر.

جـ ــ أنهما سبيل لسلوك الطرق المحرمة للوصول إلى المغيبات.[3]

د ــ أنهما طريق لفتح باب الخرافة، والدجل، والتعلق بغير الله ــجل وعلاــ.

ثانياً: التنجيم

١ــ مفهوم التنجيم: أ ــ التنجيم في اللغة: مصدر الفعل: نَجَّمَ، مأخوذ من النجم، وهو الكوكب، وهو اسمُ علمٍ على الثريا.[4]

---

١ ـ انظر المفردات في غريب القرآن ص٤٤٢ـ٤٤٣، وتيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان ابن عبدالله ٤٠٦ و٤١١ـ٤١٢، وفتح المجيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن ص٣٨ـ٣٩، وأضواء البيان ٤/٤٥٥، والسحر بين الحقيقة والخيال ١٧٥ـ١٧٦.

٢ ـ حاشية ابن عابدين ٤/٢٤٠ بتصرف يسير.

٣ ـ انظر السحر بين الحقيقة والخيال ص١٧٦.

٤ ـ انظر الصحاح للجوهري ٥/٢٣٩.

والمنجم والمتنجم: الذي ينظر في النجوم، ويحسب مواقيتها وسيرها.[١]

ب_ التنجيم في الاصطلاح: هو ادعاءُ معرفةِ أحكامِ النجوم المتعلقة بالعالم السفلي، وتأثيرات النجوم فيه.[٢]

وعرفه شيخ الإسلام ابن تيمية× بقوله: =هو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية، والتمزيج بين القوى الفلكية، والقوابل الأرضية+.[٣]

وعرفه ابن خلدون× بقوله: =ما يزعمه أصحاب هذه الصناعة من أنهم يعرفون الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قِبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولِّدات العنصرية مفردة ومجتمعة، فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية+.[٤]

٢_ وجه إلحاق التنجيم بالسحر: دراسة هذا العلم من جهة معرفة خصائص الأجرام العلوية، وأبعادها، وحركاتها ليس داخلاً في موضوع السحر.

وإنما يدخل في السحر، وكونِه أَحَدَ أنواعه من جهة سحر الذين كانوا يعبدون الكواكب، ويزعمون أنها هي المدبرة لهذا العالم، ومنها تصدر الخيرات والشرور، والسعادة والنحوسة.

وهؤلاء هم الذين بعث الله لهم إبراهيم _عليه السلام_ مبطلاً لمقالتهم، وهؤلاء

---

١ ـ انظر جمهرة اللغة لابن دريد ١١٥/٢.

٢ ـ انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩٢/٣٥، وانظر التنجيم والمنجمون وحكمه في الإسلام للشيخ د.عبدالمجيد المشعبي وهو من أحسن ما كتب في هذا الباب ص٣١.

٣ ـ انظر مجموع الفتاوى ١٩٢/٣٥.

٤ ـ مقدمة ابن خلدون ص٥١٩ـ٥٢٠.

يعتقدون أن لهذه الكواكب إدراكاتٍ رُوحانيةً، إذا قوبلت بما يناسب روحانيتَها من البخور واللباس كانت مطيعةً لمن صنع ذلك، عاملةً له ما يريد.

ولا شك بأن هذا الاعتقاد باطل، وشرك، وهو المنحى الذي يتوارثه السحرة؛ ليضللوا به الخلق، ويوحوا إليهم بأن هذه الأجرام العلوية تتصرف في العالم السفلي، وأنها فاعلة لما يحدث فيه.[1]

فهذا وجه إلحاق التنجيم بالسحر، ولهذا قال رسول الله": =**ما اقتبس رجل علماً من النجوم إلا اقتبس بها شعبة من السحر زاد ما زاد**+.[2]

بمعنى أن هذا الاقتباس الذي يكون سحراً هو ما يدعيه المنجمون، ولا يمكن حمل الاقتباس على أنه إدراك علم صحيح عن أحوال النجوم؛ لأن معرفة صفاتها التي خلقها الله ــتعالى ــ عليها، وخصائصها التي هيأها لها ــ ليست هي ما يعتقده السحرة فيها من كونها مؤثرةً، وعلةً تامةً تستلزم معلولها، بل الباطل المحذور هو ما يدعيه أولئك من الباطل الداعي إلى عبادة غير الله ــتعالى ــ.

أما هي فبعض مخلوقات الله العليم الحكيم الذي لم يخلق شيئاً عبثاً، بل خلق العالم وَرَتَّبَه؛ فهو يسير بنظام محكم دقيق وَفْقَ ما أراد، فما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، بحيث رُتِّبت فيه الأسباب، وربطت بمسبَّباتها، وخَالِقُها كلِّها هو الله ــتعالى ــ.[3]

---

١ ـ انظر أحكام القرآن للجصاص ١/٥٢ـ٥٤، وتفسر التحرير والتنوير ١/٦٣٥، و السحر بين الحقيقة والخيال ١٨٢ـ١٨٣.

٢ ـ أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٧١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٩٣).

٣ ـ انظر السحر بين الحقيقة والخيال ص١٨٣.

ملحوظة: هناك أمور يظنها بعض الناس من التنجيم، وهي ليست منه، كالعلم بحادثتي الكسوف والخسوف، فيمكن العلم بذلك بحساب النيِّرين كما يعلم طلوع الهلال والبدر بحسابهما.

وكذلك توقع حالة الجو؛ فهو قائم على دراسة معينة، وبواسطة آلات خاصة بذلك، وقد تصيب تلك التوقعات، وقد تخطئ، ولكنها ليست من جنس أخبار المنجمين.[1]

ثالثاً: الطِّيرة

١ـ مفهوم الطيرة: أـ تعريف الطيرة لغة: الطيرة، والتطير بمعنىً واحد؛ فالتطير مصدر الفعل تطير يتطير، والطيرة اسم المصدر.

مثل تخير يتخير تخيراً، وخِيرةً، ويقال: تطيَّرت من الشيء، وبالشيء[2].

ب ـ والطيرة في الاصطلاح هي: التشاؤم من الشيء المرئي، أو المسموع[3].

والتشاؤم: هو عَدُّ الشيء مشؤوماً، أي يكون وجوده سبباً في وجود ما يحزن ويضر[4] .

جـ **اشتقاق الطيرة، وسبب تسميتها بذلك**: الطيرة مشتقة من أحد أمرين:

إما من الطيران: فكأن الذي يرى ما يكره أو يسمع ـ يطير، كما قال بعضهم:

---

١ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص٣٠٣ـ٣٢٠ و٣٢٥.

٢ ـ انظر لسان العرب لابن منظور ٥١٢/٤ـ٥١٣.

٣ ـ انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٤٦/٢ ، والآداب الشرعية لابن مفلح ٣٥٧/٣ـ٣٦٣.

٤ ـ انظر تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٦٦/٥.

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى   وصوَّت إنسان فكدت أطير[1]

وإما من الطير: وهذا هو الأصل، والمختار من الوجهين؛ إذ كانت العرب تزجر الطير والوحش، أي تُنَفِّرها، وترسلها، وتتفاءل أو تتشاءم بها.

فمن قال بالأول احتج بأن الوحش يُتطيَّر به، وزُجِرت مع الطير.

ومن قال بالقول الثاني قال: إنما كان الأصل في الطير، ثم صار في الوحش، وقد يجوز أن يُغَلَّب أحد الشيئين على الآخر؛ فيذكر دونه، ويرادان جميعاً، كما قيل:

ما يعيف اليوم في الطير الدَّوَح   من غراب البين أو تيس برح

---

١ ـ هذا البيت يُنسب للشنفرى، ولتأبط شراً، ولغيرهما.

وبعض الناس يفهم هذا البيت بعكس معناه؛ فيظن أن القائل كاد يطير من شدة الفرح.

والصحيح أنه كاد يطير من الهم، والخوف بدليل أنه قال في البيت الذي يليه:

يرى الله أني للأنيس لكارهٌ   وتبغضهم لي مقلةٌ وضمير

وبدليل أن هذا البيت يُنسب لأحد الصعاليك إما الشنفرى، أو تأبط شراً، أو غيرهما.

ولا يخفى أن الصعاليك ذوو غارات، ومخاطرات، ورغبة في العيش في الصحارى، وإيثار للوحدة والبعد عن الناس كما قال الشنفرى في لاميَّته:

ولي دونكم أهلون سَيدٌ عَمَلَّسٌ   وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

أولئك لا مستودع السر ذائع   لديهم ولا الجاني بما جَرَّ يُخذلُ

ويقصد بالسِّيد العملس: الذئب القوي، والأرقط: النمر، والعرفاء: الضبع، يريد أن العيش مع تلك الحيوانات خيرٌ له من العيش مع البشر.

فجعل التيس من الطير؛ إذ قدم ذكر الطير، وجعله من الطير بمعنى التطير[١].

فالتطير ــإذاًــ مأخوذ من الطير في الأصل، ثم أطلق على كل ما يتوهم أنه سبب في لحاق الشر، سواء كان مسموعاً، أو مرئياً، أو معلوماً، وسواء كان طيراً، أو حيواناً، أو جماداً، أو زماناً، أو مكاناً، أو شخصاً، أو نباتاً، أو عدداً، أو نحو ذلك.

ومما يدخل في مبحث الطيرةِ العيافةُ، وهي: مَصْدَرُ الفعل عاف يعيف، والمصدر عيافة.

والعيافة هي: زجر الطير، وتنفيرها، وإرسالها، والتفاؤل، أو التشاؤم بأسمائها، وأصواتها، وممراتها؛ فعن العيافة يكون الفأل، أو التشاؤم.

٢ــ **وَجْهُ كونِ الطيرةِ من السحر**: قال ــعليه الصلاة والسلامــ: =**إن العيافة، والطرق، والطيرة من الجبت**+[٢].

قال عوف: =**العيافة**: زجر الطير، **والطَّرْق**: الخط في الأرض، **والجبت**: قال الحسن: إنه الشيطان+.[٣]

قيل في تفسير الجبت: هو كل ما عبد من دون الله، وقيل: هو الكاهن، والساحر، والسحر.[٤]

قال الدكتور أحمد الحمد مبيناً وجه كون الطيرة من السحر من خلال الحديث الماضي: =إن معاني الجبت كلها صادقة في العيافة، والطرق، والطيرة بحسب

---

١ ـ انظر العمدة لابن رشيق القيرواني ٢/٢٥٩ـ٢٦٤.

٢ ـ أخرجه أبو داود(٣٩٠٧)، وحسنه إسناده النووي في رياض الصالحين (١٦٧٠).

٣ ـ أبو داود(٣٩٠٨)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود: «صحيح مقطوع».

٤ ـ انظر المفردات ص٨٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/٢٤٩، ولسان العرب ٢/٣٢٥.

أحوالها، وكل تلك المعاني دالة على عِظَمِ جُرْم فاعلها.

فإن كانت سحراً فلها أحكامه، وما قيل فيه يقال فيها.

ولا شك بأن اعتقاد أن تلك الأفعال مُنْبِئَةٌ عن ما سيحصل من الغيب، أو أن هذا الفعل مباح _ كفرٌ، واعتقادَ أنها تجلب له النفع، أو تدفع عنه الضرر_ شرك، فهذا نوع عبادة لها.

وفاعل هذه الأمور، ومفسرها لنفسه أو للناس _ساحر، وإقدامه على الفعل تبعاً لذلك، أو امتناعه، أو طاعة غيره له _ عبادة لغير الله _تعالى_ لما صح عن رسول الله" أن الطيرة شرك، فقد روى أبو داود بسنده عن عبدالله بن مسعود عن رسول الله" قال: =**الطيرة شرك** =ثلاثاً+ **وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل**+.[1]

وإن كان صاحب تلك الأعمال لا يعتقدها فهو كذب، وغش، وبهتان، ووسيلة إلى الشرك ممن قد يصدقه، وبحسب حاله يكون حكمه من الكفر،أو الفسوق

١ـ رواه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود، وأخرجه الحاكم في المستدرك١/١٧، وصححه، ووافقه الذهبي.

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن رحمه الله: «وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك؛ لما فيها من تعلق القلب على غير الله ـتعالى ـ.

وقال: «قوله: «**وما منا إلا**» قال أبو القاسم الأصبهاني، والمنذري: في الحديث إضمارٌ، والتقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك. انتهى.

وقال الخلخالي: حذف المستثنى؛ لما يتضمنه من الحالة المكروهة، وهذا من أدب الكلام.

قوله: «**ولكن الله يذهبه بالتوكل**»: أي لما توكلنا على الله في جلب النفع، أو دفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده». انظر فتح المجيد ٢/٥٢٣ـ٥٢٤.

والعصيان؛ فالفاسق من يتظاهر بتلك الأعمال كذباً من غير اعتقاد، ولا استعانة بالشياطين، وجعلِ تلك الأمور وسيلة ظاهرة يضلل بها.

والكافر هو فاعلها معتقداً إباحتها، أو صدقها ودلالتها، أو المستعين بالشياطين على كشف بعض الأمور، واتخاذ تلك وسيلة يخفي بها صُنْعَه+.[١]

ومما يؤكد علاقة الطيرة بالسحر أن أهل الجاهلية كانوا يقصدون بالسؤال عن حوادثهم، وما أَمَّلوه مِنْ أعمالهم ــ مَنِ اشْتُهِر عندهم بإحسان الزجر، والطيرة، وسموه عائفاً، وعرافاً.

وممن اشتهر بذلك عرَّاف اليمامة، والأبلق الأسدي، والأجلح، وعروة ابن يزيد، وغيرهم؛ فكان العرب يحكمون بذلك، ويعملون به، ويتقدمون، ويتأخرون في جميع ما يتقلبون فيه، ويتصرفون؛ في حال الأمن، والخوف، والسعة، والضيق، والحرب، والسلم؛ فإن أنجحوا فيما يتفاءلون به مدحوه، وداوموا عليه، وإن عطبوا فيه تركوه وذموه.[٢]

رابعاً: الخط على الرمل، وما يلحق به

الخط على الرمل: هو الطرق الوارد في قوله": =**العيافة والطيرة والطرق من الجبت**+[٣].

وقد مضى وجه كونه ملحقاً بالسحر في الفقرة الماضية عند الحديث عن الطيرة.

وطريقة هذه الصناعة أن الذين يتعاطونها من المنجمين جعلوا من النقط

١ ـ السحر بين الحقيقة والخيال ص١٨١ـ١٨٢.

٢ ـ انظر مفتاح دار السعادة ٢/٢٢٩ـ٢٣٠، وانظر تفصيل الكلام في الطِّيرة في رسالة الطيرة للمؤلف.

٣ ـ مضى تخريجه.

والخطوط ستة عشر شكلاً، وميزوا كلاً منها باسم وشكل يختلف عن غيرها، وقسَّموها إلى سعود ونحوس.

وشأنهم في ذلك شأنهم في الكواكب، ومسائل هذه الصناعة تخمينية يزعمون أنها مبنية على تجارب، ويربطونها بالنجوم، ويقولون: إن البروج الاثني عشر يقتضي كل منها شكلاً معيناً من الأشكال التي اصطلحوا عليها، وقالوا: إنه حين السؤال عن المطلوب تقتضي أوضاع البروج قوى الشكل المعين الذي يرسمه الرمّال على الرمل، وتلك الأشكال تدل على أحكام مخصوصة تناسب أوضاع البروج.[١]

ومما يدخل في علم الرمل، ويأخذ حكمه علم الأسارير، وهو علم باحث في الاستدلال بالخطوط الموجودة في الأكف والأقدام والجباه بحسب التقاطع والتباين والطول والعرض والقصر، وبحسب ما بينها من الفروج المتسعة، أو المتضايقة على أحوال الإنسان من طول الأعمار وقصرها، والسعادة والشقاوة، والغنى والفقر، وما شابه ذلك.

ويلحق به _أيضاً_ ما يسمى بقراءة الفنجان.[٢]

قال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز×: =وقد ظهر من أقواله" ومن تقريرات الأئمة من العلماء، وفقهاء هذه الأمة_ أن علم النجوم، والخط على الرمل، وما يسمى بالطالع، وقراءة الكف، وقراءة الفنجان، ومعرفة الخط، وما أشبه ذلك كلها من علوم الجاهلية، ومن الشرك الذي حرمه الله ورسوله، ومن أعمالهم التي جاء

---

١ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص٢٩٤.

٢ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص٣٠١.

الإسلام بإبطالها، والتحذير من فعلها، أو إتيان من يتعاطاها وسؤاله عن شيء منها، أو تصديقه فيما يخبر به من ذلك؛ لأنه من علم الغيب الذي استأثر الله به+.[1]

---

١ ـ مجلة البحوث العلمية عدد ٢٠ ص٧ـ١١.

الفصل الثاني

أحكام تتعلق بالسحر والسحرة

وتحته سبعة مباحث:

المبحث الأول: حكم تعلم السحر وتعليمه.

المبحث الثاني: حكم الساحر.

المبحث الثالث: حد الساحر.

المبحث الرابع: توبة الساحر.

المبحث الخامس: حكم الذهاب للسحرة وسؤالهم، وتصديقهم فيما يقولون.

المبحث السادس: الحكمة من النهي عن إتيان السحرة والكهان ونحوهم.

المبحث السابع: حكم الأجرة المأخوذة عن السحر والكهانة ونحوهما.

المبحث الأول: حكم تعلم السحر وتعليمه

السحر مما يُعْلم ويُتَعَلَّم، فقد بين الله ـعز وجلـ ذلك في كتابه العزيز؛ فأخبر عن فرعون وقومه في آيات كثيرة وَصْفَهُمُ الساحرَ بكونه عليماً، وأن السحر مما يعلم ويتعلم.

قال الله ـعز وجلـ: [وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ] (البقرة:١٠٢).

وقال عن قوم فرعون: [قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ] (الأعراف:١٠٩).

وقال عنهم: [قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)] الأعراف.

وقال: [إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ] (طه:٧١).

وبناءً على ذلك فالسحر مقدور عليه؛ فهو مما يتعلم، ويحصَّل بحسب ما يتهيأُ لطالبه.

والسحر حرام بلا خلاف بين أهل العلم، وجمهورهم يراه مكفراً، ونصوص الكتاب والسنة صريحة في حرمته، قال ـتعالىـ: [وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي

الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ] (البقرة:١٠٢).

فقيل: إن معنى الآية: لقد علم أهل الكتاب فيما عهد إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة، أو لا دين له.[1]

وجاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة÷ عن النبي" قال: =**اجتنبوا السبع الموبقات**+.

قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: =**الشرك بالله والسحر**..+ الحديث [2].

وبناءً على ذلك فإنه لا يجوز تعلم السحر؛ لأنه لا يخرج عن كونه مبنياً على الشرك، أو الكذب، أو الخداع والغش، ونحو ذلك مما هو ضار بالفرد والجماعة، قال الله ــعز وجلــ: [وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ] (البقرة:١٠٢).

فلا نفع في السحر البتة، وما لا نفع فيه، وكان ضرره متحتماً لا يجوز تعلمه بحال، كيف وقد أخبر الله ــعز وجلــ عن الساحر بقوله: [وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى] (طه:٦٩).

ومن نُفِيَ عنه الفلاحُ فلا يرجى نفعه أبداً، كما لا يمكن أن يكون نصر الحق من هذا الطريق.

وقد ذهب الجمهور إلى عدم جواز تعلم السحر من غير عمل به، وروي عن الإمام مالك تكفيره.[3]

---

١ ـ انظر تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدالله ص٣٨٣، وفتح المجيد للشيخ عبدالرحمن ابن حسن ص٣١٥، و السحر بين الحقيقة والخيال ص١٤٥ـ١٤٧.

٢ ـ البخاري (٢٧٦٦) و(٦٨٥٧) ومسلم (٨٩).

٣ ـ انظر الخرشي على مختصر خليل ٦٣/٨.

كما أن الجمهور ذهبوا إلى تكفير الساحر مطلقاً، ومُتَعَلِّمه لأي غرض هو ساحر، فيعد داخلاً في الحكم؛ فلا يكون ساحرٌ بالفعل إلا من تعلم السحر، كما لا يكون كاتبٌ إلا من تعلم الكتابة؛ فالتعلم محرم لذاته، أو هو ـ في الأقل ـ ذريعةٌ إلى المحرم، والذريعة إلى المحرم يجب سدُّها.

ومما يؤكد كُفْرَ متعلم السحر قوله ـ تعالى ـ في نفس الآية عن الملكين اللذين يعلمان الناس السحر لمن جاء متعلماً: [إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ] (البقرة:١٠٢).

أي بتعلم السحر؛ لهذا كان رأي الجمهور أن تَعَلُّمَ السحرِ حرامٌ.[١]

---

١ ـ انظر السحر بين الحقيقة والخيال ص١٥١ـ١٥٥.

المبحث الثاني: حكم الساحر

لم يختلف العلماء كثيراً في حكم الساحر، وذلك راجع إلى وضوح الرؤية في أمر السحر والسحرة من حيثُ صراحةُ الأدلةِ مع أن الاختلاف في تحديد ماهية السحر واسع جداً، مما يتسع معه الخلاف عادة لولا صراحة النهي العام عن السحر والتحذير منه.

غير أن تحديد المعنى الدقيق الذي يصدق عليه لفظ السحر بمعناه الاصطلاحي المقرون بالكفر يضيِّق الخلاف، ويبقى تحديد السحر هو المهم في الأمر.

ومن أجلى تلك النصوص قوله _تعالى_: [وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ....] الآية.

وفي هذه الآية الكريمة الاستدلال على كفر الساحر من أوجه كثيرة:

١_ نفي الكفر عن سليمان _عليه السلام_ في معرض اتهامه بالسحر في قوله _تعالى_: [وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ].

٢_ التصريح بكفر الشياطين منوطاً بتعليمهم الناسَ السحرَ.

٣_ تحذيرُ الملكين طالبَ تَعَلُّمِ السحرِ بأنه كفر.

٤_ نفيُ النصيبِ عن متخذه، ونفيُ النصيبِ بالكلية لا يكون إلا للكافر _عياذاً بالله_.

ومن النصوص الواردة في ذلك قوله _تعالى_: [وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى] (طه:٦٩).

وفي هذه الآية نَفْيُ الفلاح عن الساحر في أي مكان كان، وهذا دليل على كفره.

وقد ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي× أمرين يدلان على أن نفي

الفلاح في الآية دال على كفره:

الأمر الأول: دلالة آية سورة البقرة السابق ذكرها على كفر الساحر.

الثاني: أنه عُرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظ: =لا يفلح+ يُراد به الكافر.

ثم ضرب× أمثلة على ذلك.[1]

ومن النصوص الصريحة في شأن السحر أن الرسول" عَدَّه من السبع الموبقات، فقال: =**اجتنبوا السبع الموبقات**+.

قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: =**الشرك بالله والسحر**....+الحديث [2].

وهناك أحاديثُ أخرى كثيرة في النهي عن السحر تؤيد معنى الحديث، وأحاديثُ في النهي عن إتيان الكهان، والعرافين، وبيان حكم آتيهم، ومصدقهم، وأن ذلك الصنيع _الكهانة والعرافة_ داخل في السحر مُلحقٌ به _كما سيأتي_.

وإذا كان ذلك شأن الملحق فكيف بالملحق به.

لهذه النصوص الصريحة من الكتاب والسنة اتفق العلماء على كفر الساحر الذي يعتقد أن الكواكب مدبرة مع الله، أو أن الساحر قادر على خلق الأجسام، أو اعتقد أن فعله مباح.

ويكون المسلم بهذا كالمرتد يُستتاب؛ فإن تاب وإلا قُتل عند بعضهم، ويرى

---

١ ـ انظر أضواء البيان ٤/٤٤٢ـ٤٤٣.

٢ ـ مضى تخريجه.

آخرون قتله بلا استتابة.[١]

كما ذهب الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة ومالك وأحمد ـ رحمهم الله ـ إلى القول بكفر الساحر مطلقاً.[٢]

وذهب الإمام الشافعي× إلى عدم التكفير بالسحر لذاته؛ فإذا لم يكن الساحر معتقداً في الكواكب أنها مدبرة، أو أنه قادر على خلق الأجسام، أو أن فعله مباح كان فِعْلُه معصيةً كبيرة.[٣]

يقول الدكتور أحمد الحمد ـ حفظه الله ـ بعد أن ساق كلام الإمام الشافعي: =وكأني بالإمام الشافعي× غفل عن أنواع من السحر تأثيرها يحصل بوساطة مُعين من الشياطين بمقابل ما يُقَدِّم لهم الساحر من طاعة وخضوع في مخالفة الشرع+.[٤]

---

١ ـ انظر أحكام القرآن للجصاص ص٦٣/١ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٧/٢ـ٤٨ ، وشرح النووي على مسلم ١٧٦/١٤.

٢ ـ انظر أحكام القرآن للجصاص ٦٢/١ـ٦٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣٣/١ ، والكافي لابن قدامة ١٦٥/٤ ، وفتح الباري لابن حجر ٢٢٤/١٠ ، وحاشية ابن عابدين ٢٤٠/٤ ، وأضواء البيان ٤٦٢/٤.

٣ ـ انظر أحكام القرآن للجصاص ٦٣/١ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣١/١ ، وشرح النووي على مسلم ١٧٦/١٤ ، وفتح الباري ١٢٤/١٠ ، والسحر بين الحقيقة والخيال ص١٦١ـ١٦٢.

٤ ـ السحر بين الحقيقة والخيال ص١٦٢.

المبحث الثالث: حد الساحر

للعلماء ـرحمهم الله ـ كلام طويل في حد الساحر، وخلاصته ترجع إلى ما يلي:

١ـ **حالات القتل**: أـ يقتل عند القائلين بكفره باعتباره مرتداً، وكذا عند من عدوا الساحر كافراً مطلقاً.

ويقتل عند أبي حنيفة لكونه جمع إلى الردةِ السعيَ بالأرض بالفساد، وهذا موافق لمذهب الذين ورد عنهم قتل الساحر.[١]

ب ـ إذا قَتَلَ بسحره إنساناً قتل حداً عند الإمام أبي حنيفة، والإمام مالك، والإمام أحمد.

ويشترط أبو حنيفة أن يتكرر منه ذلك، أو يُقِرَّ به في حق شخص مُعَيَّن، أو يشهدَ عليه شاهدان.

ويقتل قصاصاً عند الإمام الشافعي.[٢]

٢ـ حالات عدم القتل: أـ ذهب الإمام الشافعي× إلى عدم قتل الساحر الذي لم يشتمل سحره على اعتقاد كون الكواكب مدبرة، أو كون الساحر قادراً على خلق الأجسام، أو أن فعله مباح.

---

١ ـ انظر تفصيل ذلك في أحكام القرآن للجصاص ٦١/١ـ٦٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٣١/١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢١٢/١، وشرح العقيدة الطحاوية ص٥٩٨، و السحر بين الحقيقة والخيال ص١٦٣ـ١٧١.

٢ـ انظر أحكام القرآن للجصاص ٦٣/١، والتفسير الكبير للرازي ٢١٥/٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وشرح النووي على مسلم ١٧٦/١٤، و السحر بين الحقيقة والخيال ص١٦٦.

واستدل على ذلك بأدلة أبرزها أن السحر إذا لم يشتمل على تلك الأمور المكفرة _كما يرى_ لا يعد صاحبه كافراً، بل عاصياً، ومجرد المعصية غير مكفر، وغير مبيح للدم، ودماء المسلمين محظورة.[١]

يقول القرطبي معلقاً على كلام الشافعي _رحمهما الله_: =وهذا صحيح، دماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين، ولا يقين مع الاختلاف+.[٢]

يقول الدكتور أحمد الحمد _حفظه الله_ معلقاً على ما يراه الإمام الشافعي× وعلى كلام القرطبي×: =دليل حرمة دماء المسلمين، وأنها لا تستباح إلا بيقين، ولا يقين مع الاختلاف _ هذا صحيح من حيثُ الحكمُ العام، أما الحالة الخاصة معنا في أمر السحر فالجمهور على أن السحر يعد مروقاً من الدين، وتركاً للجماعة؛ لهذا لم ينكر أحد من الصحابة على من قتل الساحر منهم؛ فيعد هذا بمنزلة الإجماع على العمل بما ورد خاصة في الساحر، والخاص يقضي على العام+.[٣]

ب_ ذهب بعض الأحناف إلى عدم قتل المشعوذ[٤]، وصاحب الطِّلَّسم[٥] إذ

---

١ ـ انظر أحكام القرآن للجصاص ١/٦٣ ، والتفسير الكبير للرازي ٣/٢١٥ـ٢١٦.

٢ ـ أحكام القرآن ٢/٤٨.

٣ ـ السحر بين الحقيقة والخيال ص١٦٨.

٤ ـ الشعوذة أو الشعبذة: لَعِبٌ بخفة يرى الإنسان منه الشيء بخلاف ما عليه أصله في رأي العين، أي يرى ما ليس له حقيقة. انظر لسان العرب مادة شعذ ٥/٢٩، والمصباح المنير للفيومي ١/٣٣٧.

٥ ـ الطِّلَّسم: هو لفظ يوناني، وهو في علم السحر خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية؛ لجلب محبوب أو دفع أذى. انظر المعجم الوسيط مادة طلسم ٢/٥٦٨.

= وقال محمد محمد جعفر: «الطِّلَّسم: هو العمل الذي يقوم به الساحر بمساعدة الشيطان أو بناءً على أمره على الورق أو القماش أو المعدن أو الخشب أو الأحجار الكريمة أو المعجون ـكالشمع والطين ـ =

لا يعدون فاعل هذا ساحراً.[١]

كما ذهب بعض أصحاب الإمام أحمد إلى أن من سحر بأدوية وتدخين وسقي شيءٍ يضر، ومن يعزم على الجن، ويزعم أنه يجمعها وتطيعه، والمشعوذ وقائل بزجر الطير، وضارب بالحصى، والشعير، والقداح، ونحو ذلك_ لا يعد كافراً إذا لم يعتقد الإباحة، أو أنه يعلم الغيب.

وهذا موافق لما ذهب إليه الإمام الشافعي وأصحابه من وجه.[٢]

قال الشيخ سليمان بن عبدالله× موضحاً وجه الاختلاف والجمع بين مذهب الجمهور ومذهب الإمام الشافعي ومن وافقه في بعض أنواع السحر:

=وعند التحقيق ليس بين القولين اختلاف؛ فإن من لم يُكَفِّر؛ لظنه أنه يتأتَّى بدون الشرك، وليس كذلك، بل لا يتأتَّى السحر الذي من قبل الشياطين إلا بالشرك وعبادة الشياطين والكواكب...

وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر، وإن سمي سحراً فعلى سبيل المجاز كتسمية القول البليغ والنميمة سحراً.

ولكنه يكون حراماً لمضرته يعزر من يفعله تعزيراً بليغاً+.[٣]

قال الدكتور أحمد الحمد معلقاً على ما ذكر في أحوال عدم قتل الساحر:

بشكل مخصوص في وقت مخصوص وبحجم وصورة معينة؛ لضرر نفر أو أكثر في شخصه أو ما يملكه...». انظر كتاب السحر لمحمد محمد جعفر ص٢١٥.

١ ـ انظر حاشية ابن عابدين ٤/٢٤٠.

٢ ـ انظر شرح منتهى الإرادات ٣/٣٩٤ـ٣٩٥، وتيسير العزيز الحميد ص٣٨٤.

٣ ـ تيسير العزيز الحميد ص٣٨٤.

=وأقول: إن السحر أنواع كثيرة تختلف في أحكامها بحسب ما يصاحبها من الاعتقاد، وإن شملها اسم السحر من حيث الإطلاق؛ لإمكان أن يعمل أعمال السحرة مَنْ ليس ساحراً؛ فيتسمى بذلك، ولا يتأتَّى له، ومنه ما يتأتى من السحرة ولهم في كل حال، بل قد يكون منه أعمال يلتبس أمرُها على الرائي، وصاحب هذا ساحر؛ لأنه أتى بأمور تخفى على الكثيرين من حيث الشكل والهيئة التي ظهر بها، لا من حيث الواقع والحقيقة ــ أي أنه يمكن أن يعمل شخص نوعاً من أنواع السحر المكفر بصورته وهيئته، لكنه ليس ساحراً بالمعنى الحقيقي ــ فهو لا يعظم أحداً سوى الله، ولا ينسب شيئاً مما هو لغيره، إنما استعمل تلك الطرق احتيالاً؛ فهذا لا يجعلنا نحكم على ذلك النوع بأنه غير مكفر مطلقاً؛ لأن الأصل في تلك الأعمالِ السحرُ بالمعنى الشرعي المحذور.

ومن يحاكيه مع مخالفة الحال يختلف عنه من حيث المآل، لا من حيث الحكم العام؛ لأن الصورة الظاهرة واحدة، وحكمُ الناسِ على الظاهر، والبواطن أمرها إلى الله ــ تعالى ــ.

لكن من خُبِر أمْرُه، وعُلِمَ أن ما يستعمله خالٍ من الاعتقاد الباطل، وإنما خفةُ حركةٍ، أو حدسٌ وتخمينٌ يربطه بجنس أفعال السحرة من خط بالأرض، أو زجر للطير، أو ضرب بالقداح، أو نحو ذلك من الاستقسام الخالي من الاستعانة بالشياطين، ومن ادعاء علم الغيب، أو كان باستعمال خاصةٍ من خواص المواد بطرقٍ تخفى على الآخرين ــ فحكم مثل هذا هو ما أشار إليه بعض الأحناف، وبعض الحنابلة بأنه لا يعتبر مكفراً، وإن اشتمل على أمور باطلة من الغش،

والخداع، والكذب، ونحو ذلك؛ فهي لا تبلغ درجة الكفر، والله أعلم+.[1]

١ ـ السحر بين الحقيقة والخيال ص١٧١ـ١٧٢.

المبحث الرابع: توبة الساحر

اختلف العلماء في قبول توبة الساحر، وخلاصة ذلك يرجع إلى ما يلي:

١ــ ذهب الإمام أبو حنيفة، والإمام مالك، والإمام أحمد في رواية ــ إلى عدم قبول توبة الساحر.

وهذا مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين، وعلل بتعليلات:

منها: أن الردة بفعل السحر باطنة، والمرتد باطناً لا تعرف توبته بإظهاره الإسلام.

ومنها: أن علم السحر لا يزول بالتوبة.

ومنها: أنه جمع إلى الردةِ السعيَ في الأرض بالفساد.

وهذا في حالة ما إذا شُهد عليه بذلك، أما إذا تاب قبل أن يشهد عليه بالسحر قبلت توبته لقوله ــتعالىــ: [إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] (المائدة: ٣٤).

فحكم الساحر يكون كذلك.[1]

٢ــ ذهب الإمام الشافعي، والإمام أحمد في رواية إلى قبول توبة الساحر؛ لأن دينه لا يزيد على الشرك، والمشرك يستتاب؛ فإن تاب قبلت توبته وخُلِّي سبيلُه؛

---

١ ـ انظر أحكام القرآن للجصاص ١/٦١ـ٦٣، والتفسير الكبير للرازي ٣/٢١٥، والكافي لابن قدامة ٤/١٦٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/٤٧، وشرح النووي على مسلم ١٤/١٧٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٢١٢، وفتح الباري ١٠/٢٢٤ـ٢٣٦، وشرح منتهى الإرادات ٣/٣٩٠ـ٣٩٥، و السحر بين الحقيقة والخيال ص١٧٢ـ١٧٣.

فكذلك الساحر.

وعلمه بالسحر لا يمنع توبته بدليل ساحر أهل الكتاب إذا أسلم، ولذلك صح إيمان سحرة فرعون، وتوبتهم.[1]

١ ـ انظر التفسير الكبير للرازي ٢١٥/٣، والكافي ١٩٥/٤ـ١٩٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٨/٢، وتفسير القرآن العظيم ٢١٢/١، وشرح منتهى الإرادات ٣٩٥/٣، والسحر بين الحقيقة والخيال ص١٧٣.

المبحث الخامس: حكم الذهاب للسحرة، وسؤالهم، وتصديقهم فيما يقولون

الذهاب للسحرة، ومن في حكمهم من المنجمين، والكهان، والعرافين، وسؤالهم، وتصديقهم بما يخبرون به ـ فعل محرم، معدود في كبائر الذنوب، بل قد يصل إلى حد الكفر، والشرك الأكبر.

وقد تظاهرت الأدلة على ذلك، ومنها ما رواه مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي÷ أنه قال لرسول الله": إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان.

قال: =**فلا تأتهم**+ الحديث.[1]

وما رواه مسلم عن بعض أزواج النبي" قال: =**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**+.[2]

وما رواه الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة÷ عن رسول الله" قال: =**من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**+.[3]

أحوال الذهاب للسحرة، وسؤالهم، وتصديقهم

من خلال الأحاديث السابقة الدالة على حرمة الذهاب للسحرة ومن في

---

١ ـ مسلم (٥٣٧).

٢ ـ مسلم (٢٢٣٠).

٣ ـ المسند ٤٢٩/٢، والحاكم في المستدرك ٧/١ـ٨، وقال: «على شرطهما» وقال الذهبي: «إسناده قوي» وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٥٩٩).

حكمهم وسؤالهم وتصديقهم يتبين لنا التفصيل في ذلك، ويمكن إجماله فيما يلي:

١ــ أن من سأل الساحر، أو الكاهن، أو المنجم، أو العراف عن شيء فصدقه بما يخبر فقد كفر؛ لاعتقاده أنه يعلم الغيب سواء ادعى المخبِر أن معرفته بذلك عن طريق الشياطين، أو عن طريق النجوم، أو غير ذلك.

٢ــ إذا سأله، ولم يصدِّقْه سواء كان ذلك السؤال استهزاءً، أو تسلية، أو استطلاعاً، أو مقابلة صحفية، أو تلفازية أو نحوَ ذلك ــ فلا يكفر السائل بذلك، وإنما لا تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة؛ فإن الحديث الذي فيه الوعيد بذلك ليس فيه ذكر تصديقه، وإنما مجرد سؤاله.

والأحاديث التي فيها إطلاق الكفر مقيدة بتصديقه.

٣ــ إذا سأله محتسباً عليه؛ ليمتحن حاله، ويختبره، ويفضحه، ويبين زيفه، ويميز صدقه من كذبه ــ فهذا جائز، كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر ــرضي الله عنهماــ أن عمر انطلق مع النبي" في رهط قِبَل ابن صياد، حتى وجدوه يلعب مع الصبيان عند أُطُم بني مَغالة[1] وقد قارب ابن صياد الحلمَ، فلم يشعر حتى ضرب النبي" بيده ثم قال لابن صياد: =**تشهد أني رسول الله**+.

فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأميين.

فقال ابن صياد للنبي": أتشهد أني رسول الله؟ فرفضه[2] وقال: =**آمنت بالله وبرسله**+.

---

١ ـ الأطم: الحصن، ومغالة: بطن من الأنصار. انظر الفتح ٣/٢٦٢.

٢ ـ فرفضه: أي تركه، وفي رواية «فرصَّه»: أي ضغطه وضم بعضه إلى بعض .انظر الفتح ٣/٢٦٢.

فقال له: =**ماذا ترى**+.

قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب.

فقال النبي": =**خُلِّط عليك الأمر**+.

ثم قال له النبي": =**إني قد خبأت لك خبيئاً**+.

فقال ابن صياد: هو الدخُّ.

فقال: =**اخسأ؛ فلن تعدو قدرك**+.

فقال عمر÷: دعني يا رسول الله أضرب عُنُقَه.

فقال النبي": =**إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله**+.[1]

فامتحان النبي" له بالدخان؛ ليتعرف حقيقة أمره؛ فهذا الحديث مخصص لعموم الأحاديث السابقة.[2]

تنبيه: ومما تحسن الإشارة إليه أن الذهاب إلى السحرة ونحوهم لا يقتصر على مجرد الإتيان إليهم ومقابلتهم وجهاً لوجه، وإنما يتعدى ذلك إلى أمور أخرى قد لا تَقِلُّ عن المقابلةِ الشخصيةِ والسؤالِ؛ حيث إن السحرة والمشعوذين والكهان في الأزمان الماضية لا يظهرون أمام الناس، بل يختفون في سراديب، وأماكن لا يعلم عنهم إلا القليل.

أما في هذا العصر فقد تعددت أساليبهم، وصاروا يجاهرون بسوء صنيعهم؛

---

١ ـ البخاري (١٢٥٤) ومسلم (٢٩٣٠).

٢ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص٢٧٧ـ٢٧٨.

حيث أَشْرَع لهم الإعلامُ أبوابَه؛ فصاروا يظهرون على أعمدة الصحف، وفي مواقع الإنترنت، وعبر القنوات الفضائية في برامج مباشرة، وغير مباشرة، وصار المتابعون لهم يسألونهم، ويحاورونهم؛ فصارت الفتنة بهم أشد وأنكى من ذي قبل؛ لذا فإن الحكم في مثل هذه الأحوال يأخذ حكم الذهاب إليهم، وسؤالهم، وتصديقهم؛ لأن علَّة النهي عن الإتيان متحققة في مثل الأحوال المذكورة، بل ربما تكون الأساليب الأخيرة أعظم وأشد خطراً، وذلك من جهة وقوع المحاذير السابقة، ومن جهة تعدي الضرر إلى المتابعين لما يدور في تلك الوسائل.

المبحث السادس: الحكمة من النهي عن إتيان السحرة والكهان ونحوهم

قد يقال: ما المحذور من إتيان السحرة، والكهان ونحوهم، وما المانع من محادثتهم وسؤالهم إذا كان الآتي والسائل لا يعتقد صدقهم، ولا يرى أنهم يعلمون الغيب، بل يرى سوء صنيعهم، وقباحة فعلهم؟

والجواب أن يقال ما يلي:

١ـ أن التحريم حاصل بنهي النبي" عن إتيانهم، وسؤالهم.

٢ـ أن ذلك اعتراف بصنيعهم، ومدعاة للتعلق بهم، أو وسيلة إلى ذلك.

٣ـ أن السحرة والكهان ونحوهم دعاة الشياطين، الناطقون بألسنتهم.[1]

٤ـ أن الشُّبَه خطافة، والفتنة غير مأمونة لمن سعى إليها، واقترب من حماها.

قال النووي×: =قال العلماء: إنما نهي عن إتيان الكهان؛ لأنهم يتكلمون في مغيبات قد يصادف بعضها الإصابة، فيخاف الفتنة على الإنسان، بسبب ذلك؛ لأنهم يلبسون على الناس كثيراً من أمر الشرائع، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن إتيان الكهان وتصديقهم+.[2]

---

١ ـ انظر السحر بين الحقيقة والخيال ص١٧٨.

٢ ـ شرح النووي على صحيح مسلم ٢٢/٥.

المبحث السابع: حكم الأجرة المأخوذة على السحر والكهانة ونحوهما

أجمع المسلمون على تحريم أخذ ودفع الأجرة التي يأخذها الكاهن على كهانته؛ لأنه عوض عن محرم، ولأنه أكلٌ لمال الناس بالباطل.

ويأخذ حكم الكهانة ما جرى مجراها من السحر، والتنجيم ونحو ذلك، مما يتعاطاه مَنْ يستطلع الغيب[1] لما رواه البخاري ومسلم عن أبي مسعود الأنصاري÷أن رسول الله": =نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان[2] الكاهن+.[3]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية×: =حلوان الكاهن الذي تسميه العامة (حلاوته) ويدخل في هذا المعنى ما يعطيه المنجم، وصاحب الأزلام التي يستقسم بها، مثل الخشبة المكتوب عليها =أ، ب، ج، د+ والضارب بالحصى ونحوهم، فيما يعطى هؤلاء _ حرام، وقد حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء كالبغوي، والقاضي عياض، وغيرهما.

ويتبين بذلك أن الأجرة المأخوذة على ذلك، والهبة، والكرامة حرام على الدافع والآخذ، وأنه يحرم على الملاَّك، والنُّظار، والوكلاء، إكراء الحوانيت المملوكة، أو الموقوفة، أو غيرها من هؤلاء الكفار والفساق بهذه المنفعة، إذا غَلَبَ على ظنهم

---

١ ـ انظر التنجيم والمنجون ص٢٧٩.

٢ ـ الحلوان: مصدر حَلَوْتُه حلواناً: إذا أعطيته، وأصله من الحلاوة؛ حيث شُبِّه بالشيء الحلو من جهة أنه يأخذه سهلاً بلا كلفة ولا مشقة. انظر فتح الباري لابن حجر ٤/٤٢٧.

٣ ـ البخاري (٢٢٣٧) ومسلم (١٥٦٧).

أنهم يفعلون فيها هذا الجبت الملعون+.[١]

وقد جاء في صحيح البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: =كان لأبي بكر غلام يُخْرِجُ له الخراجَ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أُحْسِنُ الكهانة إلا أني خدعته فأعطاني بذلك؛ فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه+.[٢]

ومما ينبغي التنبيه عليه ما استجد من أساليب الكهان ونحوهم في العصر الحاضر من دفع الأموال من قبل المتعاملين مع الكهان، وأخذها مِنْ قِبَل الكهان ومَنْ في حكمهم؛ حيث إن الأمر قد اتسع؛ فصار بعض الناس يبذل ماله للكاهن مباشرة، أو يبذله في سبيل الاتصال عليه عبر الهاتف، أو عبر قناة فضائية، أو عبر الإنترنت، أو عبر المراسلة؛ فكلُّ مالٍ يُبْذَلُ في ذلك السبيل فهو حرام.

وكذلك الحال بالنسبة لمن أخذه مقابل كهانته، أو إعانة على ذلك كحال من يفتح قناةً، أو موقعاً إلكترونياً، أو عموداً في صحيفة ثم يخصصه للدجل، والتكهن.

وكذلك من أعان على الاتصال، أو أعان على إخراج البرنامج تصويراً، أو إخراجاً، أو دعاية، أو إجراء مقابلة مع الكاهن أو الساحر ـ كل أولئك داخل في النهي الشديد، وكلهم داخل في التعاون على الإثم والعداون في صورة من أقبح صوره، وأشدها ضرراً، وأعظمها إثماً؛ فليس الأمر ـ إذاً ـ مختصاً بالمعطي، والكاهن

١ ـ مجموع الفتاوى ٣٥/١٩٤ـ١٩٥.

٢ ـ البخاري (٣٦٢٩).

فحسب.

كما يجب على كل من بسط الله يده، وجعل له القدرة والسلطة أن يمنع هؤلاء الدجالين، وألا يمكن لهم ممارسة باطلهم؛ فذلك من أعظم البر، وأجل صور إنكار المنكر.

الفصل الثالث

حل السحر عن المسحور (النُّشْرة)

وتحته أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف النُّشْرة.

المبحث الثاني: إمكانية علاج السحر.

المبحث الثالث: طرق نافعة مباحة لعلاج المسحور.

المبحث الرابع: حل السحر عن المسحور بالسحر.

المبحث الأول: تعريف النُّشْرة

أ_ النُّشرة في اللغة: النُّشْرة مأخوذة من النَّشْر، وهذه المادة تدور حول عدة معان؛ فتطلق على الرائحة الطيبة، يقال لها: النشر، وتطلق على البسط، يقال: نشر المتاع: أي بسطه، وتطلق على الإحياء بعد الإماتة، يقال: نشره الله، أي أحياه.[1]

ب_ النُّشرة في الاصطلاح: هي رقية يعالج بها المريض ونحوه.

قال ابن الأثير ×: =النشرة بالضم من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن أن به مساً من الجن+.[2]

وقال ابن الجوزي×: =النشرة حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر+.[3]

جـ _ سبب التسمية: قال ابن الأثير: =سميت نشرة؛ لأنه يُنْشَر بها عنه ما خامره من الداء: أي يكشف ويزال+.[4]

---

١ ـ انظر غريب الحديث لابن الجوزي ٢/٤٠٨، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/٧٤٢، ولسان العرب لابن منظور ٧/٦٥.

٢ ـ النهاية ٢/٧٤٢.

٣ ـ غريب الحديث لابن الجوزي ٢/٤٠٨.

٤ ـ النهاية ٢/٧٤٢.

المبحث الثاني: إمكانية علاج السحر

لما كان السحر داءً يؤثر، فيمرض الأبدان، ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه _ اقتضى أن يُسعى في علاجه، ويؤخذ بالأسباب المؤدية إلى الشفاء؛ لأن الله _تعالى_ جعل لكل داءٍ دواءً، كما أرشد إلى هذا هادي الأمة" وأمر بذلك.[١]

ومن الأحاديث الواردة في هذا الشأن: ما رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة÷ عن النبي" قال: =**ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً**+[٢].

ومنها: ما رواه الإمام مسلم بسنده عن جابر÷ عن رسول الله" أنه قال: =**لكل داءٍ دواء، فإذا أصيب دواءُ الداء _ برأ بإذن الله _عز وجل_**+[٣].

ومنها: ما رواه الإمام الترمذي بسنده عن أسامة بن شريك قال: =قالت الأعراب: يا رسول الله ألا نتداوى؟ قال: =**نعم، يا عباد الله تداووا؛ فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً، أو قال دواءً، إلا داءً واحداً**+.

قالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال: =**الهرم**+[٤].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً.

---

١ ـ انظر السحر بين الحقيقة والخيال ص١٨٧.

٢ ـ البخاري (٥٦٧٨).

٣ ـ مسلم (٢٢٠٤).

٤ ـ الترمذي (٢٠٣٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

المبحث الثالث: طرق نافعة مباحة لعلاج المسحور

بناءً على ما مضى فإن علاج المسحور ممكن، ويكون بالرقى الشرعية، أو بالتماس الأدوية النافعة، سواء كان بالحجامة، أو بتناول ما يصفه أهل المعرفة مما هو نافع من الأدوية، وقد جاء في بعض روايات حديث سحر لبيد لرسول الله" عند البخاري قول أم المؤمنين عائشة ــرضي الله عنهاــ قالت: فقلت: أفلا: أي تَنَشَّرت؟ فقال: =**أما والله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً**+[1].

وهذا يدل على أن أم المؤمنين ــرضي الله عنهاــ تعلم أن السحر يُعالج بالنشرة، ولا يمكن أن تكون تجهل حالة النشرة؛ من الجواز وعدمه، كما لم ينكر عليها الرسول" ذلك القول، مما يدل على كونه ليس مُنْكَراً، وإنما أجابها بأن الله قد عافاه، فلا داعي لها؛ حيث تمَّ الشفاء.

كما أن ما ورد في أن سبب نزول المعوذتين ما كان من سحر لبيد لرسول الله" وأن التعوذ بهما مما يقي منه[2].

وأيضاً حديث: =**من تصبَّح بسبع تمرات عجوة لم يضره سمٌّ ولا سحر**+[3].

---

١ ـ البخاري (٥٧٦٥).

٢ ـ تيسير العزيز الحميد ص٤١٦.

٣ ـ رواه البخاري (٥٤٣٦).

وإذا كانت تلك الأمور رقية، أو تناولاً مما يقي من السحر_ فهي مما ينفع علاجاً غالباً.

وقد ذكر ابن القيم في ذكر هديه" في علاج هذا المرض نوعين: =أحدهما _وهو أبلغهما_ استخراجه وتبطيله كما صح عنه" أنه سأل ربه _سبحانه_ في ذلك فَدُلَّ عليه؛ فاستخرجه من بئر؛ فكان في مشط ومشاطة، وجَفِّ طَلْعَةٍ ذَكَر، فلما استخرجه ذهب ما به، حتى كأنما نشط من عقال[1].

فهذا من أبلغ ما يعالج به المطبوب.

وهذا بمنزلة إزالة المادة الخبيثة، وقلعها من الجسد بالاستفراغ.

والنوع الثاني: الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر، فإن للسحر تأثيراً في الطبيعة، وهيجان أخلاطها، وتشويش مزاجها، فإذا ظهر أثره في عضو، وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو نفع جداً.

وقد ذكر أبو عبيد في كتاب (غريب الحديث) له بإسناده عن عبدالرحمن بن أبي ليلى: =أن النبي" احتجم على رأسه بقرن حين طُبَّ+[2].

قال أبو عبيد: =معنى: طب: أي سحر+.[3]

وقال ابن القيم _أيضاً_ في علاج السحر: =ومن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلهية، بل هي أدويته النافعة بالذات؛ فإنه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية، ودفع تأثيرها يكون بما يعارضها ويقاومها من الأذكار والآيات والدعوات التي تبطل فعلها

---

١ _ انظر البخاري (٥٧٦٥).

٢ _ انظر غريب الحديث له ٤٣/٢، وتهذيب الآثار للطبري (١٢٤/٢).

٣ _ الطب النبوي لابن القيم ص٩٩.

وتأثيرها، وكلما كانت أقوى وأشد كانت أبلغ في النشرة، وذلك بمنزلة التقاء جيشين مع كل واحد منهما عُدَّته وسلاحه، فأيُّهما غلب الآخر قهره وكان الحكم له؛ فالقلب إذا كان ممتلئاً من الله، مغموراً بذكره، وله من التوجهات، والدعوات، والأذكار، والتعوذات وِرْدٌ لا يخلّ به يطابق فيه قلبه لسانه _ كان هذا من أعظم الأسباب التي تمنع إصابة السحر له، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يصيبه+.[1]

وذكر القرطبي× من علاج السحر ما رُوي عن ابن بطَّالٍ قال: =وفي كتاب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدرٍ أخضر، فيدقَّه بين حجرين، ثم يضربه بالماء، ويقرأ عليه آية الكرسي، ثم يحسو منه ثلاث حسوات، ويغتسل به؛ فإنه يذهب عنه كل ما به _إن شاء الله تعالى_ وهو جيِّدٌ للرجل إذا حُبِسَ عن أهله+.[2]

وذكر الشيخ سليمان بن عبدالله× من النشرة الجائزة، أن يقرأ في إناءٍ فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور[3]: قول الله _تعالى_: [فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)] يونس.

وقوله: [فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١)] الأعراف.

وقوله: [إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى] (طه:٦٩).

---

١ ـ الطب النبوي ص١٠٠ـ١٠١.

٢ ـ الجامع لأحكام القرآن ٤٩/٢ـ٥٠.

٣ ـ انظر تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدالله ص٤٢٠.

المبحث الرابع: حلُّ السحر بالسحر

مر في المبحث الماضي أن السحر يحل بالأدوية النافعة المباحة والمشروعة.

أما حل السحر بمثله فلا يجوز؛ لما في ذلك من التقرب إلى الشياطين، ومعاونة السحرة.

يقول الشيخ حافظ الحكمي×: =يحرم حل السحر عن المسحور بسحر مثله؛ فإنه معاونة للساحر، وإقرار له على عمله، وتَقَرُّبٌ إلى الشيطان بأنواع القُرَب؛ ليبطل عمله عن المسحور، ولهذا قال الحسن: لا يحلُّ السحر إلا ساحر... ولهذا ترى كثيراً من السحرة الفجرة في الأزمان التي لا سيف فيها يردعهم يتعمد سحر الناس ممن يحبه أو يبغضه؛ ليضطرَّه بذلك إلى سؤاله حلَّه؛ ليتوصل بذلك إلى أموال الناس بالباطل؛ فيستحوذ على أموالهم ودينهم+.[1]

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى جواز ذلك؛ حيث فهموا من كلام سعيد بن المسيب، والإمام أحمد _رحمهما الله_ أنهما أجازا ذلك، واستندوا إلى ما جاء في صحيح البخاري عن قتادة قال: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طَبٌّ[2] أو يؤخَّذ[3] عن امرأته أَوَ يُحَلُّ عنه أو يُنَشَّر؟

قال: لا بأس به، إنما يريدون الإصلاح؛ فأما ما ينفع فلم يُنْهَ عنه+.[4]

---

١ ـ معارج القبول ١/٥٣٠.

٢ ـ طَبٌّ: أي سحر.

٣ ـ يؤخَّذ: أي يحبس عن جماع امرأته.

٤ ـ البخاري كتاب الطب باب هل يستخرج السحر؟ ٢١٧٥/٥.

وقد سئل الإمام أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور فقال: =رخص فيه بعض الناس+.[١]

وكلام ابن المسيب والإمام أحمد يحمل على النُّشرة بالقرآن والذكر، والكلام الذي لا بأس به، فيحمل كلام من أجاز النشرة بما هو مشروع وجائز[٢].

يقول الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ـ رحمهم الله ـ:

=قال ابن القيم: النشرة حلُّ السحر عن المسحور، وهي **نوعان**: حلُّ السحر بمثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يُحْمَل قولُ الحسن؛ فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب؛ فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية المباحة فهذا جائز+.

قال الشيخ سليمان معلقاً على الكلام الماضي: =هذا الثاني هو الذي يحمل عليه كلام ابن المسيب، أو على نوع لا يُدْرَى هل هو من السحر أم لا؟

وكذلك ما رُوِيَ عن الإمام أحمد مِنْ إجازة النشرة؛ فإنه محمول على ذلك، وغلط من ظن أنه أجاز النُّشرة السحرية، وليس في كلامه ما يدل على ذلك، بل لما سئل عن الرجل يحلُّ السحر قال: قد رخص فيه بعض الناس.

قيل: إنه يجعل في الطنجير ماءً ويغيب فيه، فنفض يده، وقال: لا أدري ما هذا.

قيل له: أترى أن يؤتى مثل هذا؟ قال: لا أدري ما هذا.

وهذا صريح في النهي عن النشرة على الوجه المكروه.

---

١ ـ انظر الكافي لابن قدامة ٤/١٦٦.

٢ ـ انظر شرح منتهى الإرادات ٣/٣٩٥، وفتح الباري ١٠/٢٣٣، وتيسير العزيز الحميد ص٤١٩.

وكيف يجيزه، وهو الذي روى الحديث أنها من عمل الشيطان؟

لكن لما كان لفظ النشرة مشتركاً بين الجائزة والتي من عمل الشيطان، ورأوه قد أجاز النشرة ــ ظنوا أنه أجاز الذي من عمل الشيطان، وحاشاه من ذلك+.[١]

ومما يُقَوي كلام الشيخ سليمان× أن الإمام أحمد× روى بسنده عن جابر بن عبدالله قال: سئل النبي" عن النشرة فقال: =**من عمل الشيطان**+[٢].

والألف واللام في الحديث: هي (أل) العهدية التي هي للعهد الذهني أي النشرة المعهودة أي المعروفة عند أهل الجاهلية، والتي تكون بالسحر، أو باستخدام الشياطين.

ويقول سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ×: =قال بعض الحنابلة: يجوز الحل بسحرٍ ضرورةً، والقول الآخر أنه لا يحل، وهذا الثاني هو الصحيح.

وحقيقته أنه يتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب من ذبح شيء، أو السجود له، أو غير ذلك، فإذا فعل ذلك ساعد الشيطان، وجاء إلى إخوانه الشياطين الذين عملوا ذلك العمل، فيبطل عمله عن المسحور.

وكلام الأصحاب هنا بين أنه حرام ولا يجوز إلا لضرورة فقط، ولكن هذا يحتاج إلى دليل، ولا دليل إلا كلام ابن المسيب.

ومَعَنا حديث جابر في ذلك، وقول ابن مسعود، وقول الحسن لا يحلُّ السحر إلا ساحر، وهو لا يتوصل إلى حلّه إلا بسحر، والسحر حرام وكفر، أفيفعل الكفر

---

١ ـ تيسير العزيز الحميد ص٣٦٧، وانظر عالم السحر والشعوذة د. عمر الأشقر ١٩٦ـ١٩٨ وهو من أحسن الكتب في هذا الباب.

٢ ـ المسند (٣٨٦٨)، وانظر سنن أبي داود (٣٨٦٨).

لتحيا نفوس مريضة أو مصابة؟ مع أن الغالب في المسحور أنه يموت أو يختل عقله، فالرسول"منع وسدَّ الباب، ولم يُفَصِّل في عمل الشيطان ولا في المسحور+.[١]

وقال الدكتور أحمد الحمد بعد أن ساق الأقوال الواردة في النشرة: =بهذا النوع[٢] وما سبق ذكره من الحل والنشرة يحمل عليه قول المجيزين من السلف، لا ما كان معلوماً من النشرة التي عليها أهل الجاهلية؛ حيث إنها لا تكون إلا من السحرة، وأمثالهم.

وسبب ذلك أن الإصابة بالسحر تكون خفية، وتحصل غالباً بوساطة معين من الشياطين، فيصعب تحديد المرض، ومعرفةُ السحر من غيره على من ليس ساحراً، أو مستعيناً بالشياطين؛ لاشتباه الإصابة بالعين بما يحصل بالسحر من الألم، وغير ذلك من الأمراض، فجاء التحذير من النشرة ليس لذات العلاج، وإنما لما يَلْجَأُ إليه مَنْ يُصيبهم شيءٌ منه من الذهاب إلى السحرة؛ لاستكشاف ما بهم من مرض وعلاجه؛ لأن كثيراً منه يعالج بإتلاف السحر وحله، كالذي وضعه لبيد لما سحر النبي" في البئر، والأشياء المختفية عن الأعين قد لا تخفى على الشياطين؛ فالاستعانة بهم للاهتداء إلى ما أخفاه السحرة لا تحصل إلا بما تتم به الاستعانة بهم في الأمور الأخرى السحرية، لهذا جاء التحذير من إتيان السحرة لحل السحر، وهو ما يسمى (النشرة) التي هي من عمل الشيطان+.[٣]

---

١ ـ فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ١/١٦٥.

٢ ـ يعني بالرقية الشرعية، والأدوية المباحة.

٣ ـ السحر بين الحقيقة والخيال ص١٩٣.

ومن خلال ما مضى يتبين معنى النشرة، وحكمها، والتفصيل الوارد في ذلك.

الفصل الرابع

أسباب انتشار السحر وبطلان زيف السحرة

وتحته مبحثان:

المبحث الأول: أسباب انتشار السحر.

المبحث الثاني: بطلانُ زيفِ السحرة، وفسادُ صناعتهم.

المبحث الأول: أسباب انتشار السحر

في هذا المبحث ذكر لبعض الأسباب التي ساعدت على انتشار السحر، مع ملاحظة أن بعضها داخل في بعض، وأن منها ما يعود إلى السحرة والمشعوذين، ومنها ما يعود إلى المتلقين والمخدوعين، ومنها أسباب خارجة عن ذلك.

وبمجموع تلك الأسباب تنتشر الخرافة، ويستطير شر السحر والدجل؛ فإلى تلك الأسباب:

١ـ الجهل: فهو على رأس الأسباب التي تمكن للخرافة والسحر والسحرة؛ فتجد من المخدوعين من يجهل حكم الشرع في الذهاب إلى الكهان والسحرة، ويجهل حُكْمَ سؤالهم وتصديقهم، ويجهل عواقب الأمور، ويجهل الأسباب الحقيقية الصحيحة للشقاء والسعادة، وتحصيل الخير.

وتجد منهم من يجهل حقيقة السحرة والمشعوذين والكهان، وتراه يغتر ببعض ما يقومون به من مخاريق وأمور خارجة عن العادة، ويغتر بما يشاع عنهم من أخبار تفيد أنهم يعالجون، أو يجلبون السعادة، أو ما يدَّعونه من العلم، والولاية، والديانة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية×: =وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فيجب أن يفرَّق بين هؤلاء وهؤلاء، كما فرق الله ورسوله بينهما، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، كما قال ـتعالىـ: [أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)] يونس.[1]

---

١ ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص٨.

وقال×: =وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع، فيظن في شخص أنه ولي لله، ويظن أن ولي الله يُقبل منه كل ما يقوله، ويسلِّم إليه كلَّ ما يقوله، ويسلِّم إليه كل ما يفعله، وإن خالف الكتاب والسنة+.(١)

وقال: =وكل من خالف شيئاً مما جاء به الرسول مقلداً في ذلك لمن يظن أنه ولي لله فإنه بنى أمره على أنه ولي لله، وأن ولي الله لا يخالُف في شيء.

ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة، فكيف إذا لم يكن كذلك؟!

وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه ولياً لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض التصرفات الخارقة للعادة مثل أن يشير إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة، أو غيرها، أو يمشي على الماء أحياناً، أو يملأ إبريقاً من الهواء، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب، أو أن يختفي أحياناً عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب، أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته، أو يخبر الناس بما سرق لهم، أو بحال غائب لهم، أو مريض أو نحو ذلك من الأمور.

وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء، أو مشى على الماء لم يُغْتَرّ به حتى يُنْظر متابعته لرسول الله " وموافقته لأمره ونهيه+.(٢)

---

١ ـ الفرقان ص٥٨.

٢ ـ الفرقان ص٦١.

إلى أن قال: =وكرامات أولياء الله _تعالى_ أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة، وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله فقد يكون عدواً لله؛ فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار، والمشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم، وأفعالهم، وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة، وشرائع الإسلام الظاهرة .

مثال ذلك أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد في أشخاص، ويكون أحدهم لا يتوضأ، ولا يصلي الصلوات المكتوبة، بل يكون ملابساً للنجاسات، معاشراً للكلاب، يأوي إلى الحمامات، والقمامين، والمقابر، والمزابل، رائحته خبيثة لا يتطهر الطهارة الشرعية، ولا يتنظف+.(١)

إلى أن قال: =فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان، أو يأوي إلى الحمامات، والحشوش التي تحضرها الشياطين، أو يأكل الحيات، والعقارب، والزنابير، وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق، أو يشرب البول، ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان، أو يدعو غير الله، فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها، أو يسجد إلى ناحية شيخه، ولا يخلص الدين لرب العالمين، أو يلابس الكلاب، أو النيران، أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة، أو يأوي إلى المقابر، ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى، أو المشركين، أو

---

١ ـ الفرقان ص٦١ـ٦٢.

يكره سماع القرآن وينفر عنه، ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن _ فهذه علامات أولياء الشيطان لا علامات أولياء الرحمن+.[1]

٢_ **ضعف الإيمان والتقوى:** قال الله _عز وجل_ في حق الذين يؤثرون السحر: [وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ] (البقرة:١٠٢).

قال ابن رجب× في بيان معنى هذه الآية: =والمراد أنهم آثروا السحر على التقوى والإيمان؛ لما رجوا فيه من منافع الدنيا المعجلة مع علمهم أنهم يفوتهم بذلك ثواب الآخرة.

وهذا جهل منهم؛ فإنهم لو علموا لآثروا الإيمان والتقوى على ما عداهما، فكانوا يحرزون أجر الآخرة، ويأمنون عقابها، ويتعجلون عز التقوى في الدنيا، وربما وصلوا إلى ما يأملونه أو إلى خير منه وأنفع؛ فإن أكثر ما يطلب بالسحر قضاءُ حوائجَ محرمةٍ أو مكروهة عند الله_عز وجل_.

والمؤمن المتقي يعوضه الله في الدنيا خيراً مما يطلبه الساحر ويؤثره مع تعجيله عز التقوى وشرفها، وثواب الآخرة وعلو درجاتها؛ فتبين بهذا أن إيثار المعصية على الطاعة إنما يحمل عليه الجهل؛ ولذلك كان كل من عصى الله جاهلاً، وكل من أطاعه عالماً، وكفى بخشية الله علماً، وبالاغترار به جهلاً+[2].

---

١ ـ الفرقان ص٦٣ـ٦٤.

٢ ـ لطائف المعارف لابن رجب ص٣٨٠ـ٣٨١.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية× مبيناً فضل التقوى، وأنها سبب للولاية، وأن من كان ولياً لله أمكنه التفريق بين الصادق والكاذب.

قال: =فإذا كان العبد من هؤلاء ـ يعني من أولياء الله المتقين ـ فرَّق بين حال أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، كما يُفَرِّق الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزيف، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديء، وكما يفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان، وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق، وبين المتنبئ الكذاب؛ فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين، وموسى، والمسيح، وغيرهم، وبين مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي، والحارث الدمشقي، وباباه الرومي، وغيرهم من الكذابين، وكذلك يفرق بين أولياء الله المتقين وأولياء الشيطان الضالين+.[1]

٣ـ كثرة الوسائل المعينة على انتشار السحر، وسهولة الوصول إلى السحرة: حيث يوجد من القنوات الفضائية، والصحف، والمجلات، والكتب، ومواقع الإنترنت، وشركات الاتصالات ـ ما يعين على انتشار السحر، ونَفَاقِ سوقه.

٤ـ الطمع، والرغبة في كسب المال: سواء كان ذلك من قبل السحرة، أو قِبل القنوات الفضائية التي تُمكِّن لهم، أو من قبل شركات الاتصال، أو الصحف أو غير ما ذكر.

فإذا اجتمع إلى ذلك ضعفُ الإيمان أو انعدامه، وقلة المبالاة بمصدر الكسب ـ

١ ـ الفرقان ص٦٥ـ٦٦.

فلا تسل عما سيحدث من شرخ وبلاء.

٥ـ **الرغبة في استشراف المستقبل:** فذلك يبعث إلى البحث، والسؤال؛ فالنفس الإنسانية مولعة بمعرفة الغيب.

يقول ابن خلدون×: =اعلم أنَّ من خواص النفوس البشرية التَّشَوُّفَ إلى عواقب أمورهم، وعِلْمِ ما يحدث لهم من حياة وموت، وخير وشر، سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا، ومعرفة مُدَد الدول أو تفاوتها.

والتطلعُ إلى هذا طبيعةُ البشر، مجبولون عليها، ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام+.[١]

فإذا اجتمع إلى ذلك الجهلُ، والفراغُ، وضعفُ التقوى ـ قاد إلى استشراف الغيب من أي مصدر ولو كان عبر السحر والشعوذة.

ولقد أشبعت الشرائع الإلهية، والرسل المبعوثون من عند الله هذه النزعة البشرية في النفس الإنسانية، فحدَّثت عن عالم الغيب، كالحديث عن الله ـعز وجلـ وأسمائه وصفاته، وعن عالم الملائكة والجن، وعن الموت وسكراته، والقبر وفتنته، والبعث والنشور والجنة، والنار.

وكالحديث عن كثير من الحوادث المستقبلية كأشراط الساعة الصغرى والكبرى إلى غير ذلك من أخبار الغيب التي امتدح الله المؤمنين بها، وذم المكذبين بها.[٢]

٦ـ **كثرة الأمراض والأوهام:** فهذا مريض مرضاً استعصى على العلاج، وذاك

١ ـ مقدمة ابن خلدون ص٥٨٧.

٢ ـ انظر السحر والشعوذة د. عمر الأشقر ص٢٦٣ـ٢٦٦.

يعيش أوهاماً تقض مضجعه، وتؤرق جفنه، وهلم جرا.

فالرغبة في العلاج، والشفاء من تلك الأمراض قد تجعل المصاب يتعلق بأدنى شيء يوصله إلى ذلك.

٧ـ **قلة العقوبات الرادعة للسحرة:** ففي كثير من البلدان يسرح فيها السحرة، ويمرحون، ويزاولون أعمالهم دون رقيب عليهم.

بل ربما وجدوا الحماية، والتصريح لهم بفتح مراكز تعلم السحر، والكهانة.

٨ـ **مشاهدة الصغار للأفلام الكرتونية المشتملة على الخرافة:** كبعض ألعاب البلايستيشن وغيرها، مما يحتوي على ممارسات المشعوذين والدجالين، مما يجعل المشاهد يستمرئ ما يراه في صغره؛ فلا يكاد ينكره حال كبره.

٩ـ كثرة المشكلات وتعقيدات الحياة: فالحياة ـ بطبيعتها ـ مليئة بذلك؛ فهذه زوجة تعاني من ظلم زوجها، وإعراضه، وذاك يعاني من البطالة، والفقر، وثالث يواجه الهم والغم والمرض، ورابع قد خسر أمواله في تلك المساهمة أو غيرها، إلى غير ذلك من المشكلات والتعقيدات.

فإذا اجتمع إلى ذلك الجهلُ، ورقةُ الدين، وقلة الناصح ـ لم يبال أولئك وأمثالهم بالركون إلى أهل الدجل والخرافة مما يمنونهم بالأماني الباطلة، والوعود الكاذبة.

المبحث الثاني: بطلانُ زيفِ السحرة، وفسادُ صناعتهم

بطلان زيف السحرة واضح لكل ذي لب، وفساد صناعتهم يغني عن إفسادها ودحضها، وإذا اجتمع إلى ذلك بيان لباطلهم فهو زيادة في التنفير منهم.

والحديث فيما سيأتي بيان لشيء من ذلك على سبيل البسط.

١ـ **قيام صناعتهم على الكذب والدجل:** فالسحرة والدجالون يسعون لإضلال الناس، ونهب أموالهم بِشُبَهٍ تروج على السُّذج، وأوهام يوحون بها أنها من أسرار الحكمة، وهي ـفي الحقيقةـ من أسرارِ الغواية، وأكبرِ الأدلة على بطلان صناعتهم، وبُعْدها عن منهج التشريع مع زعمهم أن ما هم عليه هو الحقُّ، وأن ما يقولونه هو الطريق السوي الموصل إلى السعادة والحق.

يقول البوني[1] في خاتمة كتابه شمس المعارف المليء بالدجل والسحر والشر، يقول مخبراً عن هذا الكتاب: =فإنه نعم الرفيق، ونعم الأنيس الشفيق، ونعم الجليس الصديق لأهل الطريقة والحقيقة، ونعم السلاح للمجاهدة، ونعم الرماح للمشاهدة حتى أني ما نطقت عن الهوى، بل هي نار اقتبستها من أيمن وادي السعادة أشعلته من وادي طور النور على أغصان شجرة الحضور.

واعلم أن كتابي هذا لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر

---

١ ـ هو أحمد بن علي بن يوسف أبو العباس البوني، متصوف مغربي الأصل له مصنفات عديدة جعلها في الضلالات منها شمس المعارف، واللمعة النورانية، ومنبع أصول الحكمة، والسلك الزاهر، وغيرها، توفي في القاهرة سنة ٦٢٢. انظر كشف الظنون لحاجي خليفة ١٠٦٢/٢، والأعلام للزركلي ١٧٤/١، والسحر للحمد ص٢٠٣.

الله كما قال _تعالى_: [لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ] (الرعد:١١)+.

فما وجدته فيه فاعلم أن الأمر فيه كما وجدته، وبالله أقسم لا ألقيه لك إلا ظاهراً، ولا أدعك فيه متفكراً+.[1]

٢_ **أن كتبهم مليئة بالمخالفات الشرعية العظيمة**: كالحلف بغير الله، وتعظيم من ليسوا على دين صحيح، وإلغاء معنى التكليف والابتلاء من الله _عز وجل_ وإسناد ما يجري إلى أسباب يروها موجبة لما يحدث.

يقول البوني: =يا معشر الإخوان: ضمنوا الحكمة النفس الحية، ونزهوها من الصحف، والقراطيس، ولا تضمنوا ما يفتقر إلى غيره، بل اضمنوا ما الغير مفتقر إليه، فأولى الفنون بالتضمن فن البسط، والتكسير؛ إذ عليه أعمال الكون أجمعه، ومنه الطلاسم الدائمة إلى يوم البعث والنشور، والتأثير الذي لا ينكر، والسر الذي لا يجحد..+.[2]

يقول الدكتور أحمد الحمد _حفظه الله_: =ومن اطلع ولو على فهرس كتاب من كتب هؤلاء القوم _ أدرك أنهم يرون أن كل حادث في الكون من خصائص ما ذكروه، ونتيجةٍ طَبَعِيَّةٍ لما وصفوه من علم الحرف، والأوقات المختارة للأعمال، والطبائع الأربعة، والكواكب، وطبائعها، ومعادنها، وحروفها، وأفلاكها، وأعوانها، وخدمها، وعلم الكسر، والبسط، وكيفية استخدام الأفلاك العلوية، والأرواح السفلية، وغير هذا من مذهبهم، وشروطهم.

---

١ ـ شمس المعارف ٥٣٤/٤ ، وانظر السحر بين الحقيقة والخيال ص٢٠٣.

٢ ـ منبع أصول الحكمة ص٥ ، وانظر السحر بين الحقيقة والخيال ص٢٠٤.

وهذا، ونحوهُ مُؤَدَّاه إبعادُ البشر عن التعلق بالله ـ تعالى ـ وإخلاصِ العبادة له؛ لاعتقادهم أن ما يُنال من أسرار تلكَ الأسماء إذا علم وباشره المتعلق بما يناسبه حصل له أثره، وكأن الأمر حتمي، لا ارتباط له بالخالق المتصرف الذي يعطي ويمنع، ويقبل ويرد.

وما قرره الشارع الحكيم من طلب الإخلاص في العبادة، والتضرع، والخيفة في الدعاء، مع ما أرشد إليه من سلوك مسببات إجابة الدعاء من إطابة المطعم والمشرب، ونحو ذلك ـ يرد ما ذكروه، ويبطل ما وصفوه.

وإن اللبيب ـ حتى وإن قل علمه بالشرع ـ ليعلم تمام العلم أن ما يذكره هؤلاء بعيد عن الصواب؛ لاختلاف الأحداث، وتباين الظواهر الكونية في كل الأعوام، ولو كان الأمر كما يذكر أولئك لحصل التشابه بين الحوادث، أو كان ما يحصل متقارباً في جميع الأعوام، وعلى مر العصور والأيام، فالحق ما أخبر الله ـ تعالى ـ عنه بقوله: [وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ] (الأنبياء: ٣٥).[1]

٣ـ **أن هناك أموراً كثيرة ترد مزاعم أولئك:** خصوصاً من يرون تأثير الكواكب من المنجمين وغيرهم، ومن ذلك ما يلي:

أ ـ أن آلاف الناس يولدون في دقيقة واحدة، ولو عُمِلَتْ دراسة على المواليد من واقع سجلات المستشفيات الكبرى في أي قطر من العالم لَوُجِدَ من الفروق ما يكذب ما يدعيه المنجمون الذين يرون أن من ولد في ذلك الوقت أو البرج سيكون حاله كذا وكذا.

---

١ ـ السحر بين الحقيقة والخيال ص٢٠٤ـ٢٠٥.

ب_ **ما يرى من آثار التربية، والثقافة، والصداقة على سلوك البشر:** فالناس كلهم يولدون على الفطرة، كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة÷ قال: قال رسول الله": =**ما من مولود إلا يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**+[١].

ففي هذا الحديث دليل على أن جميع البشر يولدون على الفطرة، وهي الإسلام الدين الحق.

وأن ما يحصل من فسادٍ وَتَغَيُّرِ سلوكٍ خارجٍ عن الفطرة إنما هو بسبب أثر التربية من الوالدين والمعلمين والأصدقاء وغيرهم؛ فلا أثر لوقت الولادة من الطوالع، أو أحرف الاسم، أو غير ذلك في سَيْرِ حَياة الإنسان.[٢]

ج_ **أن الرسول" حكم بكفر من نسب المطر إلى الأنواء:** فقد روى البخاري ومسلم عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى لنا رسول الله" صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: =**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**+ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: =**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب**+[٣].

فالحديث دليل على بطلان أثر الكواكب في نزول المطر، حيث إن الرسول" بيَّن

---

١ ـ البخاري (٦٥٩٩)، ومسلم (١٣٥٨).

٢ ـ انظر السحر بين الحقيقة والخيال ص٢٠٧.

٣ ـ أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

أن من نسب ذلك إليها فهو كافر، ومن أضافه إلى الله _عز وجل_ فهو المؤمن.[١]

٤_ **حال السحرة والمشعوذين:** فهي تنبي عن بطلان دعاواهم، وتخبر عن فساد صناعتهم؛ إذ لو كان ما يدعونه حقاً لنالوا الخيرات، ولسلموا من السيئات.

ولكن واقعهم عكس ذلك؛ فالغالب على أحوالهم الفقر، والتعاسة، والحرمان، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك.[٢]

٥_ **اعتراف كثير من زعمائهم بأن هذه الصناعة تقوم على التخرص والتوهم وأنها لا تفيد العلم ألبتة:** يقول أبو نصر الفارابي: =واعلم أنك لو قلبت أوضاع المنجمين؛ فجعلت السعد نحساً، والنحس سعداً، والحار بارداً، والبارد حاراً، والذكر أنثى، والأنثى ذكراً، ثم حكمت _لكانت أحكامك من جنس أحكامهم تصيب تارة، وتخطئ تارة+.[٣]

٦_ **أن هؤلاء القوم أنفسهم أقروا بفساد صناعتهم:** إذ إن كل فريق يحكم بفساد أصول الفريق الآخر، وكلما جاءت أمة نقضت أصول من سبقها، وادعت أن أصولها هي الصحيحة دون من سواها.

وهذا يبرهن على أن أصولهم المزعومة إن هي إلا محض دجل، وحدس.[٤]

٧_ **أن دعاوى السحرة، والمنجمين مما أنكره الناس على مر العصور:**

---

١ ـ انظر السحر بين الحقيقة والخيال ص٢٠٨.

٢ ـ انظر السحر بين الحقيقة والخيال ص٢٠٨، والتنجيم والمنجمون ص١٩٧.

٣ ـ مجموع الفتاوى المصرية لابن تيمية ١/٣٣٢، وانظر التنجيم والمنجمون ص١٨٥، وقد ذكر صاحب هذا الكتاب عدداً من أقوالهم. انظر ص١٨٥ـ١٨٧.

٤ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص١٨٧ـ١٩٠.

حيث أدركوا ضلال هذا العلم، وكذب أهله، حتى صار بهتانهم مشهوراً بين الناس كافة من كثرة ما قيل فيه.

يقول قسٌّ بن ساعدة:

علــم النجــوم علــى العقــول وبــال	وطِــلابُ شــيءٍ لا ينــال ضــلال
مــاذا طِلابــك عِلــمَ شــيءٍ غُيِّبــتْ	مــن دونــه الخضــراءُ لــيس ينــال
هيهــات مــا أحــد بغــامضِ فطنــةٍ	يــدري كــمِ الأرزاق والآجــال
إلا الــذي فــوق الســماء مكانــه	فَلِوَجْهِــه الإكــرام والإجــلال[1]

وقد أودع كثير من العلماء في مصنفاتهم كثيراً من الشواهد والأقوال على بيان دجل الكهان والمنجمين.

ومن هؤلاء العلماء ابن القيم في كتابه مفتاح دار السعادة؛ حيث ذكر كثيراً من الأدلة على فساد أقوالهم.

٨ـ **فساد إجماعاتهم**: فهم إذا أجمعوا على وقوع شيء فإنه لا يقع غالباً.

وهذا دليل على فساد صناعتهم، وعلى أن أحكامهم مجرد ظنون كاذبة.

وقد حمل لنا التاريخ قصصاً كثيرة في هذا السياق.

ومن أشهر ذلك ما زعمه المنجمون من أن المعتصم لا يفتح عمورية، وراسلته الروم بأنا نجد في كتبنا أنه لا تُفتح مدينتنا إلا في وقت التين والعنب، وبيننا وبين ذلك الوقت شهور يمنعك من المقام بها البرد والثلج؛ فأبى المعتصم أن ينصرف، وأصرَّ على فتحها، وأبطل ما قالوا؛ فأنشأ أبو تمام قصيدته المشهورة التي مدح فيها

---

١ ـ انظر المحاسن والمساوئ للبيهقي ص٣٢٧ـ ٣٢٨، والتنجيم والمنجمون ص١٠٨ و ١٩٠ـ١٩١.

المعتصم، وبيّن كذبَ المنجمين، وفسادَ علومهم، فقال:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتب ... في حده الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريبِ

والعِلْمُ في شُهُبِ الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهبِ

أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذب

تخرصاً وأحاديثاً ملفقةً ... ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

عجائباً زعموا الأيام مجفلةً ... عنهن في صفر الأصفار أو رجبِ

وخوّفوا الناس من دهياءَ مظلمةٍ ... إذا بدا الكوكبُ الغربي ذو الذنبِ

وصيّروا الأبرُجَ العليا مُرَتَّبةً ... ما كان منقلباً أو غير منقلبِ

يقضون بالأمر عنها وهي غافلةٌ ... ما دار في فلكٍ منها وفي قطبِ

لو بينت قط أمراً قبل موقعهِ ... لم تُخْفِ ماحل بالأوثان والصلبِ[١]

وقد ذكر الشيخ الدكتور عبدالمجيد المشعبي _حفظه الله_ في كتابه التنجيم والمنجمون عدداً من القصص في هذا القبيل.[٢]

٩_ **أن صناعة السحر والدجل بأنواعها ضرر على من يتطلبها**: وصدق الله إذ يقول: [وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ].

وذلك أن متوقع السعادة من تلك الصناعة يحصل له من قلق المتَوقَّع، وحرقة الانتظار ما يقطعه عن مصالحه؛ فإذا تأخر السعد أو تخلّف _وهذا هو الأغلب_

---

١ ـ شرح ديوان أبي تمام للتبريزي ٢٤/١.

٢ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص١٩٣ـ١٩٦.

وقع في حسرات وندامات على ما فاته من السعد الموهوم؛ فآل إلى ضرر محض.

أما متوقع النحس فهو حاصل له قبل وقوعه؛ فيبقى في غم، وفي انتظار غم؛ حيث جمع إلى انتظار الخوف خوفاً؛ فانتظار الشر أشد من وقوع الشر.[١]

ومن خلال ما ذُكِرَ وما لم يذكر يتبين فساد هذه الصناعة، وضررها المحض على الدين والدنيا، والمقام لا يحتمل مزيداً من التفصيل.

١ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص١٩٧.

الفصل الخامس

السحر في العصر الحاضر، والموقف من السحرة

وتحته أربعة مباحث:

المبحث الأول: السحر في العصر الحاضر: وفيه حديث عن مظاهر السحر الحديثة، والوسائل المستخدمة في نشر السحر والكهانة.

المبحث الثاني: اتخاذ السبل الواقية من السحر والعين.

المبحث الثالث: العناية بفقه الرقية الشرعية.

المبحث الرابع: الوقوف في وجه السحرة.

المبحث الأول: السحر في العصر الحاضر

انتشرت صناعة السحر بكافة صورها في العصر الحاضر، وبلغت أوجها؛ وأخذت مظاهر كثيرة، وصوراً شتى، وأصبح السحر ـ في أغلب صوره ـ وسيلة من أعظم وسائل الصدِّ عن الهدى، وأكل أموال الناس بالباطل.

وفِعْلُ أولئك الأفاكين يقوم ـ غالباً ـ على التمويه على الناس، ودراسة أحوال الضحية بما يتضح من شكلها، وبما ينطق به لسانُها من خلال استدراج ذكي، يُرتَّب عليه إخبار بأمور عامة يتعرض لها الإنسان ـ غالباً ـ في حياته اليومية، وتتفق مع دراستهم السابقة لحاله كالأمور العاطفية، والمالية، والصحية، ونحو ذلك.

فإذا وقع ما يحصل للمرء عادة، ووافق تمويهات ذلك الأفاك شُهر بين الناس؛ فصار الزور والبهتان يغزو العقول الخاوية من العلم والبصيرة، ويعمل عمله في القلوب الخالية من الإيمان والهدى؛ فَيَبْعُد صِيْتُ أولئك الفجرة، ويروج إفكهم، فيكون لهم زبائن ومروجون.

وبعد أن كان السحر ـ بكافة صوره ـ مقصوراً على أناس محدودين في أماكن أقرب للسرية والخصوصية ـ صار له في عصرنا الحاضر رواج، وأخذ مظاهر كثيرة، وأساليب متنوعة، وساهمت وسائل الإعلام في انتشار تلك الظاهرة، فصار التعامل مع السحرة سهلاً ميسوراً.[١]

وفيما يلي ذكر لبعض المظاهر، والوسائل المستخدمة في نشر السحر

---

١ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص١٣٥.

والكهانة:

١ــ **انتشار السحر والدجل عبر القنوات الفضائية:** وتعد هذه الوسيلة أوسع طرق انتشار السحر والدجل.

ومن أبرز المظاهر والأساليب في هذا الباب ما يلي:

أــ ما ظهر في بعض القنوات الفضائية كالبرنامج المسمى بعلم الحجارة الكريمة، حيث يُحدد لكل متصل نوعٌ من هذه الحجارة، ومن خلالها يمكن استشراف مستقبله.

ب ــ ظهرت قنوات متخصصة في الكهانة والسحر والشعوذة، وجعلت جُلَّ وقتها لبث مثل هذه الأفكار، وجذب المشاهدين لها.

جـ ــ بعض هذه القنوات قد لا يظهر السحر والشعوذة فيها بالصورة الواضحة، لكنهم في الحقيقة يستفيدون من وسائل السحرة وطرقهم، كطريقة (الخادم والتابع).

وبعضهم يمرر بعض أفكاره بأشكال وقوالب شرعية، كالرقية الشرعية، وهي بعيدة كل البعد عن ذلك.

د ــ بعض هذه القنوات يظهر على شاشتها من يكتب الأحراز والتعاويذ على لوحة في القناة، ويأمر المشاهدين بكتابتها، وأغلب هذه التعاويذ والأحراز طِلِّسْمات أقرب ما تكون لطِلِّسْمات السحرة والمشعوذين.[1]

٢ــ **عناية بعض المواقع الإلكترونية بالسحر والدجل:** حيث يوجد بعض

---

١ ـ هذه الفقرة مستفادة من حلقة نقاش بعنوان: (السحر والكهانة في ثوبها الجديد) وقد عقدت في اللقاء الشهري لقسم العقيدة بكلية الشريعة وأصول الدين بجامعة القصيم ١٤٢٨/٦/١٧هـ.

المواقع عبر الشبكة العالمية الإنترنت وهي تمارس الشعوذة والكهانة، وتُعَلِّم الناس ذلك الإفك.

٣ــ الاتصال الهاتفي العشوائي: حيث يتصل بعض المشعوذين بأرقام غير مقصودة، ثم يقول للمُتَّصَل عليه: إنك مريض، أو مسحور، وإن لدي علاجاً لمشكلاتك الصحية والنفسية؛ فما عليك إلا أن تتواصل معي، وترسل لي مبلغاً معيناً من المال، وسترى الصحة والعافية، والسعادة.

٤ــ نشر الدجل والسحر والشعوذة عبر الصحف والمجلات: وهذا من أوسع الطرق انتشاراً، ويكون التنجيم فيها تحت عنوان: الأبراج، أو الحظ والأبراج، أو حظك والنجوم، أو ما شاكل هذه العنوانات.

ويستخدم كتابُها طريقَ التمويه، والكلام المجمل الذي يَصْدُقُ على كثير من الناس.

وإليك هذا المثال من مجلة (كل العرب) تحت برنامج الحظ والنجوم يقول المحرر: =الحمل: العشر الأول: على تيار عاطفي، قد يؤدي إلى النجاح أو السعادة، رغم نزعة بالغة نحو التردد أو الإهمال، أو الهجومية في الكلام، اهدأ.

العشر الثاني: اندفاعك مُجْدٍ في هذه الأيام، وقد تكون أهدافك في متناول اليد، ومبادراتك مثمرة مع نتائج مادية واضحة ملموسة+[1].

ويتضح من هذا المثال طريقة هؤلاء في التمويه والكلام المجمل، وبالإضافة إلى ما ذكر فإن أحكام بروجهم المزعومة متناقضة فيما بينها، ولعل نجومهم تدلي لكل منهم

---

١ ـ مجلة كل العرب العدد ٣٧٠ ص٦٩.

بحكم يختلف عن الحكم الذي تدلي به للآخر، فنجد المحرر في المجلة السابقة الذكر يذكر صفات مواليد برج الأسد من (٢٤ يوليو إلى ٢٣ أغسطس) وما سيحدث لهم في مستقبل أيامهم فيقول: =العشر الأول: أجواء قد تكون ملائمة على الصعيد الفكري أو الدراسي، مع سهولة في الابتكار أو الكتابة، قد تشعر بأن الظروف ليست مائة في المائة في صالحك، مما قد يسبب تأخيراً في مشاريعك.

العشر الثاني: جدي، العشر الثالث: على تيار عصبي مع نزعة خفيفة نحو خوض المعارك كلامياً+.[١]

أما في مجلة الصياد، وفي نفس المواليد يقول المحرر: =حافظ على أسرار الناس، ولا تخن الأصدقاء، وتضعهم في موقف حرج، استمتع بكل لحظة من حياتك هذا الأسبوع؛ لأنها قد تبعدك عن الجو لفترة طويلة، خطر يهدد حياتك العاطفية، لا تتردد في قول الحقيقة+.[٢]

ولا يُدرى كيف تنفق الأجواءُ الملائمة على الصعيد الفكري والدراسي مع وجود أخطار على الحياة العاطفية؟ أم كيف تتفق الجدية مع خيانة الأصدقاء، وإفشاء أسرار الناس؟

ولو أردتَ تَتَبُّعَ هذه الفجوات لوجدتَ أن جدرانهم كلَّها مهلهلة من كثرة الخروم والفجوات، ولطال بك المقام، وهو لا يحتمل الإطالة، وما أشير إليه فيه كفاية عن ذكر أمور لا تخرج عن ذلك.[٣]

٥ـ **تأليف الكتب ونشرها:** حيث يُنْشَر السحرُ والخرافة عبر الكتب المؤلفة في

---

١ ـ مجلة كل العرب العدد ٣٧٠ ص٦٩.

٢ ـ مجلة الصياد العدد ٢٣٤١ ص٧٦.

٣ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص١٣٦ـ١٣٧.

هذا الفن في كثير من البلاد مع سهولة بيعها وشرائها، وتداولها؛ مما يُمَكِّن للخرافة، ويجعل لها أرضاً خصبة تنمو فيها، وتثمر.

ويوجد مكتباتٌ تتبنى طباعة مثل هذه الكتب ونشرها، كمكتبة الجمهورية العربية بمصر، ومطبعة دار الطباعة المحمدية بمصر، والمكتبة الحديثة والمكتبة الأهلية في بيروت.

أما الكتب التي تُنشر فمنها ما هو قديم ككتاب (بغية الطالب في معرفة الضمير للمطلوب والطالب والمغلوب والغالب) لأبي معشر الفلكي، وكتاب (شمس المعارف) وكتاب (منبع أصول الحكمة) وكلاهما لأحمد البوني.

ومنها ما هو مؤلفٌ حديثاً ككتاب (مفاتيح الحظ) وكتاب (حظك معك) وكلاهما لأحمد الصباحي.[1]

وكتاب (من اسمك تعرف حظك) وكتاب (من شهر ميلادك تعرف حظك) و(التنويم المغناطيسي) وثلاثتها لمن يسمى عميد الفلكيين العرب حميد الأزري.

كما تصدر الآن بانتظام آلاف الكتب حول كيفية الاستفادة من التنجيم في مسائل المال، والأعمال، والسفر، والزواج.[2]

٦ـ وجود معاهد تقوم بتعليم التنجيم، وإعطاء المتعلمين شهاداتٍ بذلك: وذلك منتشر في كثير من أنحاء العالم، وهذه المعاهد تتيح للباحث دراساتٍ جادةً في كيفية صناعة التنجيم، حتى إن جامعة هارفارد قبلت عام ١٩٦٠م رسالة دكتوراه تقدم بها طالب في موضوع التنجيم، وأنشئت في بريطانيا كلية الدراسات التنجيمية.

---

١ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص١٣٧ـ١٣٨.

٢ ـ المرجع السابق ص١٣٨.

كما أنشئ في مصر معهد للغرض نفسه يسمى بمعهد الفتوح الفلكي العام لمصر والأقطار الشرقية، ويقوم المعهد بتدريس العلوم الفلكية الروحانية داخل المعهد وخارجه، ويتم تدريس الذين هم خارج المعهد عن طريق المراسلة، وذلك بإرسال برامج الدروس إلى عمله، أو منزله، أو بلده، أو دولته، وتقع هذه الدروس في مائتي درس مشتملة على دراسة المسائل الشخصية والطوالع الميلادية، والأحوال الجوية وتأثيرها على الأرض، والأحوال الزراعية، والتخرص بغلائها ورخصها، وكثرتها، وقلتها في أي زمان ومكان، وغير ذلك من مسائل التنجيم، فإذا اجتاز الطالب هذه المراحل منح شهادةً على ذلك.[١]

٧ـ **إنشاء اتحاد للمنجمين:** حيث أنشئ في العالم أكثر من اتحاد للمنجمين، ولكن أشهرها وأوسعها صيتاً هو الاتحاد العالمي للفلكيين الروحانيين في فرنسا، والذي يقوم على إدارته حميد الأزري[٢] كرئيس لهذا الاتحاد، والألوسي[٣] نائباً عنه، ويضم هذا الاتحاد خمسة وخمسين ألف عضو لا يؤخذ منهم رسومٌ

---

١ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص١٣٨ـ١٣٩.

٢ ـ نشأ في بغداد، ثم رحل إلى باريس، حيث أصبح رئيساً لهذا الاتحاد هناك، وقد هلك قريباً. انظر مجلة الوطن العربي عدد ٤٩ـ٥٧٥ ص٥٩، وجريدة المسلمون عدد ٣٦ ص٨ـ٩، وانظر التنجيم والمنجمون ص١٤٠.

٣ ـ أشهر الفلكيين الروحانيين في لندن، ونائب الأزري، يدعي أنه يعلم حقيقة الروح، وأنه يعلم الغيب، ومتى يموت كل إنسان، وأنه يؤمن بتناسخ الأرواح، وأن ما يحدث في هذا العالم من انفجارات وحروب واغتيالات إنما هو بسبب لعنته عليهم، ويقيم الآن في جناح خاص بفندق انتركونتيننتال، أحد أشهر الفنادق الإنجليزية، ورواده من الفنانين والمطربين والشخصيات العامة، ويرأس مجلة البلورة السحرية. انظر جريدة المسلمون عدد ٣٢، ص٧،١، وعدد ٣٦ ص١، وانظر التنجيم والمنجمون ص١٤٠.

للاشتراك، ويتردد عليهم أناس من طبقات مختلفة، ومن جنسيات متنوعة.

والشيء الذي يؤكد كذب هؤلاء وبطلان ادعاءاتهم أن الرئيس ونائبه عندما سُئِلا عن مصدر هذا العلم صرح الرئيس بأنه عن طريق الجن، وصرح الآخر أنه أخذه عن طريق الوراثة، وهل سَمِعْتَ من قبل أن العلوم تنتقل عن طريق الوراثة إلا من هذا؟!

بل اعترف رئيس الاتحاد بأن ٩٩% من السحرة دجالون، لكن هناك ١% صادق حسب زعمه، ولفظ السحرة يريد به المنجمَ والعرافَ ونحوَهم.

ومن غير شك أنه يُدْخِلُ نفسه ضمن النزر القليل الذين استثناهم من الدجالين، بل يَعُدُّ نفسه أنه أفضلهم؛ فإذا أثبتنا أنه من ضمن الدجالين كملت النسبة؛ حيث إن أقواله اشتملت على تناقضات كثيرة مما يبين أن صناعتهم هذه قائمة على الكذب على الناس وإيهامهم أن النجوم هي التي دلت على هذه الأحكام، والنجوم بريئة من ذلك، فمثلاً ذكر الأزري في موضع: =أن قراءة الأشياء هذه _يعني المغيبات_ تعود إلى حسابات فلكية، وتعود إلى أمور تعلمناها بعون الله+.

وذكر في موضع آخر أن معرفته هذه كانت عن طريق الجن فقال: =عندما كان عمري خمس عشرة سنة، كنت أسير في أحد أزقة بغداد، وإذا بصوت يقول: قف يا حميد! ووقفت فلم أجد أحداً.. فمشيت فإذا بالصوت يقول: يا حميد قف! ارتبكت.. وضعت جلبابي في فمي، وحاولت الجري، فَوَقَفَتْ قدماي تماماً لمدة سبع ثوان، فإذ بماء يسقط!!

وفي يوم ثان حدثت أمور ثانية، وكنت أنظر إلى شخص، فأقول عنه: إنه

سيموت، وبالفعل يحدث ذلك، فخفت من ذلك، كنت أقول لنفسي: غداً سيحدث كذا، فإذا به يحدث!

ثم بعد فترة قابلت شخصاً أشك أنه جني! وقال لي: ألا تعرف إنساناً يعرف قراءة الكف؟ ثم أعاد السؤال، فقلت: أنا أعرف، فقال: تعال، وعندما أمسكت كَفَّه رحت في حالة من الغيبوبة، فإذا بي أذكر له كل شيء عنه+.

والذي يدل على دجله _أيضاً_ أنه ذكر كل شيء عنه وما زال يشك هل هو جني أَوْ لا؟

أما الألوسي نائبه فهو أشد تناقضاً، وأكثر جرأة في الباطل؛ إذ إنه تارة يدعي معرفة مستقبل الدول من النجوم، وتارة يدعي أنه يغمض عينيه ويستطيع أن يخبر بكل ما سيحدث، وتارة يدعي أنه يستطيع أن يخبر بكل ما سيحدث عن طريق المراسلة من الشخص السائل، وقد أتى بما لم تأت به الأوائل؛ فإذا كانت هذه أحوال رؤسائهم، فما بالك بمن تحتهم؟[1]

٨_ **الجهود الشخصية**: تتمثل في وجود منجمين دجالين يعملون لأنفسهم، دون أن تكون لهم مشاركة مع غيرهم من المنجمين.

وهؤلاء ينتشرون _تقريباً_ في جميع أرجاء العالم إما متسترين أو ظاهرين بحسب محاربة الدولة لهم أو سكوتها عنهم.

ويعلن هؤلاء عن أنفسهم في الجرائد والمجلات، ويقومون أحياناً بالدعاية لأنفسهم في دليل الهاتف، وأحياناً في محطات الحافلات، وقطارات الأنفاق، وقد يوزعون

---

١ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص١٤٠ـ١٤١.

منشورات تشرح الخدمات التي يقدمونها، ويزعمون فيها أنهم أفضل من منافسيهم، كما هو الحال في أمريكا والمغرب ومصر وغيرها من البلدان.

وبعض المشعوذين يستخدمون نساءً للترويج لهم في الأماكن العمومية: كالحمامات، والأسواق، والمستشفيات مقابل عمولة نقدية.[1]

٩_ **استخدام بعض الدول للتنجيم في الأمور السياسية:** كاستخدام المخابرات الأمريكية التنجيم في هذا الغرض، حيث نقلت جريدة المدينة عن مدير سابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وهو مايلز كوبلند أنه ذكر: =أن علم التنجيم والطوالع كان يقع ضمن اهتمامات الوكالة المركزية خلال الفترة التي عمل فيها بالوكالة في الستينات، وقال في رسالة نشرتها له صحيفة التايمز البريطانية في عددها الصادر هنا أمس الأول في باب رسائل من القراء أن الوكالة كانت تنظم في عهده دورات منتظمة، وخاصة حول ما أسماه بفنون التنجيم الحديثة؛ لتدريب عملائها في هذا المجال، وأضاف أن الوكالة المركزية قامت في السابق بزرع المتخرجين من هذه الدورات في قصور عدد كبير من زعماء العالم الثالث+.[2]

ويلاحظ المتابعون لأخبار الانتخابات في العالم الغربي أن المتنبئين والمتنبئات ينشطون في فترة الانتخابات في التنبؤ فيمن سيكون الرئيس المقبل، كما تكثر التنبؤات فيما سيكون عليه مستقبل البلادِ، والأخبارُ في ذلك كثيرةٌ جداً.[3]

١٠_ **ظهور ما يسمى بالروحية الحديثة:** وهي تقوم على استحضار الأرواح

---

١ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص١٤١ـ١٤٢.

٢ ـ جريدة المدينة عدد٧٦٩٥، وانظر التنجيم والمنجمون ص١٤٢ـ١٤٣.

٣ ـ انظر عالم السحر والشعوذة ص٦٤.

ويدعي أصحابها أنهم يستحضرون أرواح الموتى من مسلمين، ويهود، ونصارى، وبوذيين، وأهل جاهلية على تباين نحلهم، ويزعمون أنهم يعيشون جميعاً في سعادة وهناء.

ومعنى ذلك: أن السعادة والهناء لا تتوقف على الدين الذي يختاره الناس لأنفسهم، وذلك يؤدي إلى الاستخفاف بالأديان.

والذين يتبنون هذه الدعوة يزعمون استدعاء أرواح من مات، ومناجاتهم، واستفتاءهم في مشكلات الغيب ومعضلاته، والاستعانة بهم في علاج مرضى الأبدان والنفوس، وفي الإرشاد إلى المجرمين، وفي الكشف عن الغيب، والتنبؤ عن المستقبل.

وقد اجتذبت هذه الدعوة كثيرين، فظنوا أنهم على الحق تحت تأثير ما يصوره لهم الوهم، وما قد يقع لهم من الغرائب.[١]

قال د.محمد محمد حسين×: =وقد لَقِيَتْ هذه المزاعم فوق ما يتوقعه أصحابها من رواج، حتى تسابقت إلى تتبع أخبارها ونشر دعاواها صحف ومجلات لم تكن من قبل تنشط لشيء يمس الروح أو الحياة الآخرة، ولم تكن في يوم من الأيام داعية إلى الدين أو الإيمان بالله، وكان كثير مما تنشره تلك الصحف والمجلات في هذا الباب أدنى إلى الدعاية منه إلى الخبر.

فنشرت مجلة صباح الخير ـوهي فيما أعلم ويعلم القراء أبعد شيء عن شؤون

١ ـ انظر الروحية الحديثة دعوة هدامة تحضير الأرواح وصلته بالصهيونية العالمية د. محمد محمد حسين ص٥ و٦ و٩ و١٣ ، وقد بيّن رحمه الله في هذا الكتاب خلاصة تجربته مع هذه الخرافة ، وبيّن بطلانها وزيفها بالأدلة العقلية والنقلية.

الروح كلها_ مقالاً في عددها الصادر في ٤ سبتمبر عام ١٩٥٨م تحت عنوان: =مدرس بكلية العلوم يشتغل في تحضير الأرواح+.

روت فيه عن الدكتور علي راضي المدرس بكلية العلوم بجامعة عين شمس كلاماً كله خلط وتحريف وتزييف للحقائق الدينية، وتلبيس لها في أذهان الناس يؤدي إلى زعزعتها، واضطراب مفاهيمها، فمن ذلك مثلاً قوله: =إن عطارد مهبط الأرواح الخاطئة، تذهب في أول الأمر؛ لتكفر عن ذنوبها، فجهنم موجودة في هذا الكوكب+.

ومن هذا الخلط والافتراء المضل المفسد _مثلاً_ ما رواه الدكتور راضي حين قال: =إن أكبر وسيط عالمي قد حضر إلى القاهرة منذ عدة أشهر، إنه أمريكي لا يزيد عمره عن ٢١سنة، وتسميه بعض الصحف الأمريكية نبي القرن العشرين؛ لكثرة ما أتى من المعجزات... كتبتُ ورقة لأمي أسألها عن حالها، وأَحْضَرَ الوسيط الرد كتابة باللغة العربية رغم أنه لا يعرف منها حرفاً+.

ويمضي في سرد هذه الشعوذات حتى يلقي بفريته الكبرى حين يقول: =وأغرب ما حدث في هذه الجلسة هو ما أعلنته الروح الكبرى سوزان؟!

وفجأة أعلنت سوزان أن جبريل معنا.. ولم يعرف أحد من هو جبريل، فضحكت وقالت: ألا تعرفون جبريل الذي كان ينزل بالقرآن على محمد؟!

إنه يبارك هذا الاجتماع+.

وأكثر من هذا جرأة وأوغل منه في التدليس ما روته الصحيفة عقب هذا الخبر من أن الدكتور علي راضي قد أبدى أسفه؛ لأنه لم يكن يملك وقتذاك آلة لالتقاط صور بالأشعة تحت الحمراء؛ لكي يلتقط بها صورة سيدنا جبريل _عليه

السلام_!!

ويختم الدكتور علي راضي حديثه _أو تختمه له المجلة_ بالدعاية لجمعيته الروحية الجديدة التي سماها (جمعية الأهرام الروحية) والتي تم تسجيلها فيما روت الصحيفة وقتذاك منذ أسابيع، وقد اختير هو رئيساً لها، واختير حسن عبدالوهاب مدير السكرتارية والمحفوظات بوزارة الشؤون البلدية والقروية سكرتيراً لها.

وضمت إليها عدداً كبيراً من المثقفين فيما يروي رئيسها بين مهندس وطبيب وقاضٍ وسفير ووزير سابق+.[1]

١١_ ما يسمى بـ: الدنبوشي: وهو نوع من سحر التأثير، وكثيراً ما يستعمل في الأوساط الرياضية؛ للتأثير على نتيجة مباراة قادمة، أو لمعرفة الفائز فيها.

فهذه بعض مظاهر السحر والدجل الموجودة في عصرنا.

---

١ ـ الروحية الحديثة ص١٦ـ١٨.

المبحث الثاني: اتخاذ السبل الواقية من السحر، والعين، والمس، والحسد، وما شاكلها

ما من ريب أن أعظم مرتادي السحرة هم من أصيب بتلك المصائب أو تَوَهَّم ذلك؛ لذا فإن اتخاذ سبل الوقاية عاصم ـبإذن اللهـ من الوقوع بتلك الآفات، ومنجٍ من التردد على السحرة.

ومن تلك السبل على سبيل الإجمال ـ ما يلي:

١ـ سلامة العقيدة من التلبُّس بالشرك والبدع؛ فذلك حصن حصين ـبإذن اللهـ ويعني ذلك ابتعاد المسلم عن كل ما يضعف إيمانه ويقينه، أو يتسبب في خروجه عن دائرة الإسلام.

٢ـ قوة التوكل على الله، واليقين بأنه وحده هو النافع الضار؛ فالتوكل من أعظم الأسباب لدفع البلايا ورفعها [وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ] (الطلاق: ٣).

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق، وعدوانهم؛ فإن الله ـ هو حسبه وكافيه.

ومن كان الله كافيه، وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، لا يضره إلا أذىً لا بد منه كالحر، والبرد، والجوع، والعطش ـكما قال ابن القيم×ـ.

قال الله ـعز وجلـ عن الشيطان وسلطانه: [إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)] النحل.

٣ــ تجريد الخوف لله وحده، وترك الخوف من غيره.

٤ــ تجنُّب الاسترسال مع الأوهام والخيالات.

٥ــ الحرص على الاستعاذة بالله.

٦ــ صفاء القلب، وسلامة النية، والبعد عن الغِلِّ للمسلمين.

٧ــ المحافظة على الصلوات في أوقاتها مع الجماعة، وأداؤها كما ينبغي؛ فتركها أو التهاون بها سبب لتسلُّط الشياطين.

٨ــ كثرة ذكر الله، والتحرُّز بالأوراد في الصباح والمساء.

٩ــ تعويذ الأولاد.

١٠ــ التوبة، والاستغفار؛ فما يصيب العبد من بلاء إنما هو بسبب ذنوبه، فإذا تاب صُرف عنه ذلك.

١١ــ الطهارة؛ فإن الشياطين تنفر منها ومن أهلها.

١٢ــ ستر المحاسن على ألا يترتب على ذلك ترك طاعة يجب إظهارها، أو فعل معصية.

١٣ــ تطهير المنزل من التماثيل، والكلاب، وآلات اللهو، وأجهزة الفساد، وسائر المنكرات.

١٤ــ الدعاء؛ فإنه ينفع مما نزل ومما لم ينزل.

١٥ــ كثرة قراءة القرآن في المنزل وغيره وخصوصاً سورة البقرة.

١٦ــ أن يقول الإنسان إذا رأى ما يعجبه من نفسه أو من ولده أو غير ذلك: تبارك الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله.

١٧ــ أكل سبع تمرات عجوة، وهو نوع من أجود أنواع التمر بالمدينة، وقيل:

سبع تمرات من أي تمر.

١٨_ حفظ الله . عز وجل . بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه؛ فمن حفظ الله حفظه الله.

١٩_ الصبر، والاحتساب، وانتظار الفرج، وإحسان الظن بالله _جل وعلا_.

المبحث الثالث: العناية بفقه الرقية الشرعية

قد يبتلى الإنسان بشيء من الأدواء، كالسحر، والعين، والضيق، والاكتئاب، وما جرى مجرى ذلك؛ فلا بأس على من أصيب بمثل هذه الأمور، أو توهم ذلك أن يأخذ بالأسباب المباحة والمشروعة؛ فيعرض نفسه على الأطباء، سواء كانوا من الأطباء النفسيين أو غيرهم؛ لعله يجد عندهم دواءه؛ إذ كثير من الأمراض التي يتوهم أنها سحر أو عين قد لا تكون كذلك.

وإذا أراد الأخذ بالرقية الشرعية فلا بأس بذلك؛ فالرقية الشرعية نافعة _بإذن الله_.

وفيما يلي نبذة عن الرقية وبعض ضوابطها:

أولاً: تعريف الرقية: هي القراءة على المريض، وتكون من العين، واللدغة، والسحر، والسم، والألم، والمرض، والهم، والغم، والمس، والجنون، والفزع، والصرع، وغير ذلك.

ثانياً: شروط الرقية:

١_أن تكون بكلام الله أو بالأدعية الشرعية، أو بالأدعية التي لا تصادم الأدعية الشرعية.

٢_أن تكون باللسان العربي إلا إذا لم يمكن ذلك.

٣_ألا يُعتمد عليها بنفسها؛ فهي سبب فقد تجدي، وقد لا تجدي.

٤_أن تكون واضحة المعنى.

٥_ألا تشتمل على شيء من دعاء غير الله.

٦_ ألا تشتمل على شيء من عبارات محرمة كالسبِّ أو الشتم.

٧_ألا تكون بهيئة محرَّمة كفعل بعض القراء؛ حيث يَتَقَصَّد حالة كون المريض جنباً، أو في مقبرة، أو في حالة تلطُّخه بنجاسة أو غير ذلك من الأمور المريبة الغريبة.

ثالثاً: آداب الراقي: أن يكون معروفاً بصلاح العقيدة، وبالاستقامة، والمحافظة على الصلوات مع جماعة المسلمين، وأن يكون ذا نفس مشرقة، مفعمة بالأمل وقوة الرجاء، بعيداً عن اليأس والقنوط، حافظاً لأسرار المرضى، وأن يكون قوي الشخصية، رابط الجأش؛ حتى لا تتلاعب به الشياطين.

رابعاً: حكم طلب الرقية من الآخرين: يجوز ذلك بالشروط السابقة، ولكن الأولى أن يقرأ الإنسان على نفسه أو على مريضه؛ فذلك أكمل لتوحيده، ثم إنه أحرص من غيره على شفاء نفسه ومريضه، فكلما اشتد اضطراره قرب فرجه، فليرقَ، وليثق بالله، ولا يستعجل النتائج.

خامساً: الذهاب للعرافين والسحرة للاستشفاء عندهم:

لا يجوز؛ لأن الله لم يجعل شفاء الأمة فيما حرم عليها، قال": =**من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**+.[1]

وقال: =**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**+.[2]

فواجب على المسلم أن يحذر من الذهاب لهؤلاء، وحري به أن يأخذ بالأسباب المشروعة والمباحة، ويستحضر أن الشفاء قد يتأخر لحكمة، وأن بعض الأمراض قد

---

١ ـ رواه أحمد ٤٢٩/٢، والحاكم في المستدرك ٧/١ـ٨، وقال «على شرطهما» ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٥٩٩).

٢ ـ رواه مسلم (٢٢٣٠).

تستعصي، ويتأخر شفاؤها.

سادساً: بعض علامات السحرة والعرافين والدجالين:

١ـأن يسأل عن اسم المريض أو أمه أو والده؛ ليستعين بذلك على معرفة المريض عن طريق الشياطين، ولا يَدْخُلُ في ذلك سؤالُ الطبيب؛ لأنه لا يُرتّب على الاسم شيء سوى تنظيم العمل.

٢ـأن يأخذ أو يطلب أثراً من آثار المريض كشعر، أو ثوب، أو صورة، أو غير ذلك.

٣ـأن يعطيه حرزاً في كتابات.

٤ـأن تكون قراءته غير مفهومة.

٥ـأن يطلب من المريض أن يذبح حيواناً، وقد يأمره بألا يذكر اسم الله عليه.

٦ـقد يطلب من المريض ألا يمس الماء مدة معينة.

٧ـوقد يعطيه أشياء يدفنها في الأرض.

٨ـوقد يعطيه أوراقاً؛ ليحرقها، ويتبخَّر بها.

٩ـقد يخبر المريض باسمه واسم أمه، ويخبره بعلته التي جاء من أجلها.

١٠ـقد يطلب من المرأة أن تتكشف، وتتبرج أمامه.

١١ـأن يشتمل كلامه على استغاثات بالجن كأن يقول: يا بدوح ونحو ذلك.

وأخيراً فإنه يحسن بالإنسان ألا يستعجل بوصف الراقي بالسحر، أو الشعوذة.

المبحث الرابع: الوقوف في وجه السحر والسحرة

الوقوف في وجه السحر والسحرة واجب شرعي، لا يسع أحداً يقدر عليه أن يتنصل منه؛ فالواجب ـ إذاً ـ أن تتضافر الجهود في سبيل الوقوف أمام ذلك السيل الجارف الذي يسعى للقضاء على الأديان، والأموال، والصحة، والعقول.

وفيما يلي ذكر لبعض تلك السبل على سبيل الإجمال[1]:

١ـ بيان خطورة هذه الأعمال على العقيدة، والوعيد المترتب على إتيان السحرة، والكهان.

٢ـ فضح السحرة، والمشعوذين، وإسقاط ثقة الجمهور بهم ببيان كذبهم، وافترائهم.

٣ـ تقوية العلم الشرعي، وزيادة نشره بكافة الوسائل الممكنة كوسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة، وعن طريق الدروس والخطب، والمؤلفات.

٤ـ دعم المناهج التعليمية بما يقوي الجانب الإيماني في مثل هذه القضايا، والتحذير من مغبتها على أمن المجتمع ودينه، وأفراده.

٥ـ أن يكون للمعلمين والمعلمات دور في مثل هذه القضايا بالتوعية والتوجيه.

٦ـ نشر البيانات والفتاوى المنددة بتلك الأعمال من قبل المؤسسات والهيئات الشرعية.

---

١ ـ أكثر ما في هذا المبحث مستفاد من الورقة المعدة من قبل حلقة النقاش التي هي بعنوان (السحر والكهانة في ثوبها الجديد) وذلك في اللقاء الشهري لقسم العقيدة في كلية الشريعة وأصول الدين في جامعة القصيم ١٤٢٨/٥/١٧هـ.

٧ـ العناية بترسيخ الإيمان بالغيب، وأن الله هو المتفرد بالخلق، المتصرف بالكون، والعالم بالغيب وحده.

٨ـ القيام بالمستطاع من الأسباب التي تقطع دابر السحرة، وتقف في سبيل الوصول إليهم، والتمكين لهم.

٩ـ المكاتبة، والمناصحة لملاك القنوات والمجلات والصحف والمواقع التي تمكن للسحرة والمشعوذين.

ويحسن هذا من ذوي الجاه، والمنزلة؛ فذلك أدعى للقبول.

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

ففي نهاية البحث هذه خلاصة لأهم ما ورد فيه:

١ــ السحر في اللغة يُطلق على الخداع، وعلى صرف الشيء عن حقيقته، وعلى إخراج الباطل في صورة الحق، وعلى كل ما لَطُفَ ودقَّ مأخذُه.

٢ــ السحر ليس نوعاً واحداً يشمله حدٌّ جامعٌ مانعٌ؛ لكثرة الأنواع الداخلة تحته، ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حدِّه اختلافاً متبايناً.

ومن التعريفات التي يمكن أن يُعرَّف بها أن يُقال: هو المخادعة أو التأثير في عالم العناصر بمقتضى القدرة المحدودة بمُعِيْنٍ من الجن أو بأدوية؛ أثر استعدادات لدى الساحر.

٣ــ اختلف العلماء في مقدار ما يبلغه الساحر بسحره تأثيراً على غيره، أو فعلاً يفعله هو، أو يفعله في غيره، وقد ورد في البحث بيانٌ لشيء من ذلك.

٤ــ هناك أعمال يمكن إلحاقها بالسحر؛ لما بينهما من التشابه، والاشتراك في ادعاء علم الغيب، أو سلوك الطرق المحرمة في الوصول إلى ذلك، ومن أشهر تلك الأنواع التي ذكرت في البحث ما يلي:

أــ الكهانة والعرافة: ويُطلقان على من يتعاطى الخبر من الكائنات في مستقبل الزمان، ويدَّعي معرفة الأسرار.

ب ــ التنجيم: وهو ادعاء معرفة أحكام النجوم المتعلقة بالعالم السفلي،

وتأثيرات النجوم فيه.

جـ ــ الطيرة: وهي التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع.

والتشاؤم: عدُّ الشيء مشؤوماً، أي يكون وجوده سبباً في وجود ما يحزن، ويضر.

د ــ الخط على الرمل وما يلحق به.

وقد بُيِّن في البحث وجه إلحاق هذه الأنواع بالسحر.

٥ــ السحر حرام بلا خلاف عند أهل العلم، وجمهورهم يراه مكفراً، ونصوص الكتاب والسنة صريحة في حرمته.

وجمهور أهل العلم على أن تعلم السحر حرام، وأن الساحر كافر مطلقاً.

٦ــ للعلماء كلام طويل في حد الساحر، وقد ورد في البحث شيء من التفصيل في ذلك.

٧ــ اختلف العلماء في توبة الساحر؛ فمنهم من يرى عدم قبولها، ومنهم من يرى قبولها، وهو الراجح.

٨ــ الذهاب للسحرة ومن في حكمهم محرم معدود في كبائر الذنوب، بل قد يصل إلى الكفر والشرك الأكبر؛ وقد ورد في البحث تفصيلٌ لتلك الأحوال.

٩ــ أجمع المسلمون على تحريم أخذ أو دفع الأجرة التي يأخذها الكاهن على كهانته؛ لأنه عوض عن محرم، ولأنها أكل لأموال الناس بالباطل.

ويأخذ حكم الكهانة ما جرى مجراها من السحر والتنجيم، ونحو ذلك مما يتعاطاه من يتطلع الغيب.

ويدخل في تحريم أخذ أو دفع الأجرة التي يأخذها الكاهن ــ ما استجد من

أساليب الكهان ونحوهم في هذا العصر سواء كان ذلك مباشرة، أو عبر الهاتف، أو الانترنت، أو القنوات الفضائية.

ويدخل في ذلك من أعان على ذلك بأي نوع من الإعانة.

١٠ــ النُّشْرَة: رقيةٌ يُعالج بها المريضُ، ومن يُظن أن به مساً من الجنون، وتُطلق على حل السحر عن المسحور؛ لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء، أي يُكشف ويُزال.

١١ــ علاج المسحور ممكن، ويكون بالرقى الشرعية، أو بالتماس الأدوية النافعة المباحة؛ وهذه هي النُّشْرة المباحة.

أما حل السحر عن المسحور بالسحر فتلك النُّشْرة المحرمة التي لا تجوز.

١٢ــ ورد في البحث تفصيلٌ لبعض أسباب انتشار السحر، ومنها: الجهل، وضعف الإيمان والتقوى، وكثرة الوسائل المعينة على انتشار السحر، وسهولة الوصول إلى السحرة، والطمع والرغبة في كسب المال، والرغبة في استشراف المستقبل، وكثرة الأوهام، وقلة العقوبات الرادعة للسحرة، ومشاهدة الصغار للأفلام الكرتونية المشتملة على الخرافة، وكثرة المشكلات وتعقيدات الحياة.

١٣ــ بطلانُ زيف السحرة واضح لكل ذي لب، وفساد صناعتهم يُغني عن إفسادها، وقد ورد في البحث بيان لشيء من ذلك، ومما ورد: أن صناعتهم قائمة على الكذب والدجل، وأن كتبهم مليئة بالمخالفات الشرعية، وأن أحوال السحرة تُنبي عن بطلان دعاواهم، وأن كثيراً من زعمائهم يعترف بأن صناعتهم تقوم على التخرص.

١٤ــ انتشرت صناعة السحر بكافة صورها في العصر الحاضر، وبلغت أوجها،

وأخذت مظاهر كثيرة، وصوراً شتى، وقد ذُكر في البحث بعض المظاهر، والوسائل المستخدمة في نشر السحر والكهانة.

١٥ــ ورد في البحث ذكرٌ لبعض السبل الواقية من السحر، والعين، والمس، والحسد وما شَاكَلَها.

١٦ــ ورد في البحث نبذة عن فقه الرقية الشرعية.

١٧ــ ورد في البحث ذكرٌ لبعض علامات السحرة.

١٨ــ ورد في البحث ذكرٌ لبعض السبل التي تقف في وجه السحر والسحرة.

فهذه خلاصة البحث، والله الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الرسالة الخامسة عشرة

الطِّيَرَة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على خير الأنام نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فإن دين الإسلام دين الكمال والسمو، ودين العزة والسعادة؛ فما من خير إلا ودلَّ عليه وأمر به، وما من شر إلا وحذر منه، ونهى عن سلوك سبيله.

وإن مما دل عليه الإسلام، وأمر به _ استعمالَ الفألِ، وتركَ الطيرة؛ ذلك أن الفأل مقوٍّ للعزائم، حاضٌّ على البغية، فاتحٌ أبوابَ الخير.

بخلاف الطيرة؛ فهي تكسر النية، وتصد عن الوجهة، وتفتح أبواب الشر.

بل هي نقص في العقل، وانحراف في المعتقد، وضلال عن سواء الصراط.

ومع أن الطيرة سنة جاهلية جاء الإسلام بنفيها، وإبطالها إلا أنها لا تزال باقية تعمل عملها، وتفري فريها في قلوب كثير من الناس.

وفيما يلي من صفحات جمع لبعض ما تناثر في باب الطيرة؛ رغبة في إلقاء الضوء حول هذا المسلك، وتبيان ضرره، وعلاجه من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم الطيرة.

المبحث الثاني: إبطال الإسلام للطيرة، وتحريمه لها.

المبحث الثالث: أشياء يُتَطَيَّر بها قديماً وحديثاً.

المبحث الرابع: إشكالات في الطيرة.

المبحث الخامس: أحوال المتطيرين، والمتفائلين.

المبحث السادس: علاج الطيرة.

فهذه المباحث، وما يندرج تحتها من مسائل هي مدار الحديث في الصفحات التالية، والله المستعان، وعليه التكلان.

المبحث الأول: مفهوم الطِّيَرة

أولاً: تعريف الطِّيَرَة

الطيرة، والتطير بمعنى واحد؛ فالتطير مصدر الفعل تطير يتطير، والطيرة اسم المصدر.

مثل تخير يتخير تخيراً، وخيرةً، ويقال: تطيَّرت من الشيء، وبالشيء [1].

والطيرة هي: التشاؤم من الشيء المرئي، أو المسموع، أو المعلوم [2].

والتشاؤم: هو عَدُّ الشيء مشؤوماً، أي يكون وجوده سبباً في وجود ما يحزن ويضر [3].

اشتقاق الطيرة، وسبب تسميتها بذلك:

الطيرة مشتقة من أحد أمرين:

١ـ إما من الطيران: فكأن الذي يرى ما يكره أو يسمع ـ يطير، كما قال بعضهم:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوَّت إنسان فكدت أطير

٢ـ وإما من الطير: وهذا هو الأصل، والمختار من الوجهين؛ إذ كانت العرب تزجر الطير والوحش، أي تُنَفِّرها، وترسلها، وتتفاءل أو تتشاءم بها.

١ـ انظر لسان العرب لابن منظور ٥١٢/٤ـ٥١٣.

٢ـ انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٤٦/٢، والآداب الشرعية لابن مفلح ٣٥٧/٣ـ٣٦٣.

٣ـ انظر تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٦٦/٥.

فمن قال بالأول احتج بأن الوحش يُتطيَّر به، وزُجِرت مع الطير.

ومن قال بالقول الثاني قال: إنما كان الأصل في الطير، ثم صار في الوحش، وقد يجوز أن يُغَلَّب أحد الشيئين على الآخر؛ فيذكر دونه، ويرادان جميعاً، كما قيل:

ما يعيف اليوم في الطير الرَّوَح ... من غراب البين أو تيس برح

فجعل التيس من الطير؛ إذ قدم ذكر الطير، وجعله من الطير بمعنى التطير [1].

فالتطير ــ إذاً ــ مأخوذ من الطير في الأصل، ثم أطلق على كل ما يتوهم أنه سبب في لحاق الشر، سواءً كان مسموعاً، أو مرئياً، أو معلوماً، وسواء كان طيراً، أو حيواناً، أو جماداً، أو زماناً، أو مكاناً، أو شخصاً، أو نباتاً، أو عدداً، أو نحو ذلك.

قال العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور × عن التطير: =هو تَفَعُّلٌ من اسم الطير، كأنهم صاغوه على وزن التفعل؛ لما فيه من تكلف معرفة حظ المرء بدلالة حركات الطير، أو هو مطاوعة[2] سمي بها؛ لما يحصل من الانفعال من إثر طيران الطير+[3].

١ـ انظر العمدة لابن رشيق القيرواني ٢/٢٥٩ـ٢٦٤.

٢ـ يقصد بقوله: مطاوعة: أن التاء في التطير هي تاء المطاوعة المعروفة عند النحاة، ومعنى المطاوعة: الموافقة، والتاء من أحرف الزيادة التي تعني عند زيادتها في الفعل حدوث الموافقة، مثل: عَلَّمته فتَعَلَّم، وكسَّرته فتكَسَّر.

٣ـ التحرير والتنوير ٥/٦٥.

وقال: =إنما غلب لفظ الطيرة على التشاؤم؛ لأن للأثر الحاصل من دلالة الطيران على الشؤم دلالةً أشد على النفس؛ لأن توقع الضر أدخل في النفوس من رجاء الخير+[١].

وقال في موضع آخر: =الطيرة في الأصل تكلف معرفة دلالة الطير على خير أو شر؛ من تَعَرُّض نوع الطير، من صفة اندفاعه، أو مجيئه، ثم أطلق على كل حدث يتوَهَّم منه أحدٌ أنه كان سبباً في لحاق شرٍّ به، فصار مرادفاً للتشاؤم+[٢].

تعريف العيافة:

هي مصدر الفعل عاف يعيف، والمصدر عيافة.

والعيافة هي: زجر الطير، وتنفيرها، وإرسالها، والتفاؤل، أو التشاؤم بأسمائها، وأصواتها، وممراتها؛ فعن العيافة يكون الفأل، أو التشاؤم.

ثانياً: فروق بين الطيرة والعيافة، وبين الطيرة والفأل

١ـ فروق بين الطيرة والعيافة:

أـ يختلفان في التعريف ـ كما مر ـ.

ب ـ **العيافة** قد ينشأ عنها تفاؤل وتَيَمُّنٌ، وقد ينشأ عنها تشاؤم، **أما الطيرة** فلا ينشأ عنها إلا تشاؤم.

ج ـ **العيافة** تكون بالطير فقط، **أما الطيرة** فتكون بالطير، والوحش، والزمان، والمكان، والأشخاص، والأرقام، وغير ذلك.

د ـ **الطيرة** قد لا يعمد إليها الإنسان، بل قد توافيه، وتصادفه دون أن يعمد

١ـ التحرير والتنوير ٥/٦٦.

٢ـ التحرير والتنوير ١١/٣٦٢.

إليها، بخلاف **العيافة**؛ فإنها تقصد؛ حيث تُزْجَر الطيرُ، وينشأ عن ذلك ما ينشأ من تفاؤل، أو تشاؤم.

هـ ـ **العيافة والطيرة** يتفقان في تأثيرهما في القلوب؛ فهما قد يوجبان إمضاءاً أو رَداً.

٢ـ فروق بين الطيرة والفأل [(١)]:

أـ **يتفقان** بأن لهما تأثيراً في القلوب.

بـ **يختلفان** بالمقاصد، ويفترقان بالمذاهب؛ فما كان محبوباً تفاءلوا به، وسموه الفأل، وأحبوه، ورضوا به.

وما كان مكروهاً قبيحاً منفراً تشاءموا به، وكرهوه، وتطيروا منه، وسموه طيرة؛ تَعْرِفَةً بين الأمرين، وتفصيلاً بين الوجهين.

جـ **الفأل** تقوية للعزائم، وتحضيض على البغية، وإطماع في النية، ورجاء للخير.

والطيرة تكسر النية، وتصد عن الوجهة، وتثني عن العزيمة، وتجلب سوءَ الظنِّ، وتوقُّعَ البلاء.

دـ **أن الإنسان إذا استعمل الطيرة**، فرجع بها من سفره، وامتنع بها مما عزم عليه فقد قرع باب الشرك، بل ولجه، وبرئ من التوكل على الله، وفتح على نفسه باب الخوفِ والتعلقِ بغير الله، فَيَفْسُد عليه قلبه، وإيمانه، وحاله، ويبقى هدفاً

١ـ انظر العمدة لابن رشيق ٢/٢٥٩، ومفتاح دار السعادة ٢/٢٤٥، والقول السديد لابن سعدي ص٨٩ـ٩٠.

لسهام الطيرة، ويساق إليها من كل طريق، ويقيِّض له الشيطانُ من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه، وكم هلك بذلك من هلك، وخسر الدنيا والآخرة.

بخلاف الفأل الصالح، السَّار للقلوب، المؤيد للآمال، الفاتح أبواب الرجاء، المسكن للخوف، الرابط للجأش، الباعث على الاستعانة بالله، والتوكل عليه، والاستبشارِ المقوي لأمله، السار لنفسه؛ فهذا ضد الطيرة؛ فالفأل يفضي بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد.

والطيرةُ تفضي بصاحبها إلى المعصية والشرك؛ فلهذا استحب النبي " الفأل، وأبطل الطيرة.

ثالثاً: حدُّ الطِّيَرَة المنهي عنها

جاء عند أحمد من حديث الفضل بن عباس ــرضي الله عنهماــ قول النبي": =**إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك**+[1].

قال الشيخ سليمان بن عبدالله × في شرح هذا الحديث: =هذا حد الطيرة المنهي عنها بأنها ما أوجب للإنسان أن يمضي لما يريده، ولو من الفأل؛ فإن الفأل إنما يستحب؛ لما فيه من البشارة والملاءمة للنفس.

فأما أن يعتمد عليه، ويمضي لأجله مع نسيان التوكل على الله ــ فإن ذلك من الطيرة المنهي عنها.

١ـ أحمد ٢١٣/١، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية ٣٥٨/٣: «رواه أحمد من رواية محمد ابن عبدالله بن علاثة، وهو مُخْتَلفٌ فيه، وفيه انقطاع».

وكذلك إذا رأى، أو سمع ما يكره؛ فتشاءم به، أو رده عن حاجته؛ فإن ذلك _أيضاً_ من الطيرة+[1].

رابعاً: وجه كون الطيرة من الشرك

مرَّ شيء من بيان كون الطيرة من الشرك، ويمكن إجماله فيمايلي:

١_ **أن فيها شركاً بالربوبية؛** لما فيها من ادعاء علم الغيب، ولما فيها من اعتقاد جلب النفع، ودفع الضر.

٢_ **أن فيها شركاً في الألوهية؛** لما فيها من تعلق القلب بغير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله.

٣_ **أنها تضعف قلب الإنسان،** وتفتح عليه باب الخوف من غير الله، وتقوده إلى الدجل والخرافة.

٤_ **أن فيها اعتماداً على ما ليس سبباً لا شرعاً، ولا قدراً.**

خامساً: الطيرة عند العرب وسبب اختلافهم فيها

اشتهر العرب بالتطير في الجاهلية، واشتهر عندهم أناس كثيرون بالزجر، واشتهر عندهم أشياء يُتطير بها، و اختلفت مذاهبهم في التشاؤم، والتفاؤل؛ حيث اختلفوا في مراتب الطيرة، ومذاهبها.

وسبب ذلك أنها كانت خواطرَ، وحدوساً، وتخميناتٍ لا أصل لها؛ فمن تبرك بشيء مدحه، ومن تشاءم بشيء ذمه.

١ـ تيسير العزيز الحميد ص ٤٤٠ـ٤٤١.

ومَن اشتهر بإحسان الزجر عندهم، ووجوهه حتى قصده الناس بالسؤال عن حوادثهم، وما أمَّلوه من أعمالهم ــ سَمَّوه عائفاً، وعَرّافاً.

وممن اشتهر بذلك عرَّاف اليمامة، والأبلق الأسدي، والأجلح، وعروة ابن يزيد، وغيرهم؛ فكان العرب يَحْكُمون بذلك، ويعملون به، ويتقدمون، ويتأخرون في جميع ما يتقلبون فيه، ويتصرفون؛ في حال الأمن، والخوف، والسعة، والضيق، والحرب، والسلم؛ فإن أنجحوا فيما يتفاءلون به مَدَحوه، وداوموا عليه، وإن عطبوا فيه تركوه وذموه[1].

١ ـ انظر مفتاح السعادة ٢/٢٢٩ـ٢٣٠.

المبحث الثاني: إبطال الإسلام للطيرة، وتحريمه لها

لقد جاء الإسلام بنفي الطيرة، وتحريمها، وبيان ضررها، وبيان أنها من صنيع أعداء الرسل.

ولقد صرَّحت نصوص الوحيين بذلك، وتظاهرت أقوال أهل العلم في بيانه، وفيما يلي ذكرٌ لشيء من ذلك.

أولاً: تحريم الطيرة في القرآن الكريم

لقد تظاهرت آيات الكتاب العزيز في إبطال الطِّيَرة، وذمها، ومن ذلك ما يلي:

١_ قال _تبارك وتعالى_ عن قوم فرعون: [فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ] (الأعراف: ١٣١).

والمعنى: أن آل فرعون إذا أصابتهم الحسنة: أي الخِصَب، والسعة، والعافية _كما فسره مجاهد وغيره_ قالوا: =لنا هذه+ أي نحن الجديرون، والحقيقون به، ونحن أهله.

وإن تصبهم سيئةٌ: أي بلاء، وقحط يطَّيروا بموسى، ومن معه، فيقولوا: هذا بسبب موسى وأصحابه، أصابنا بشؤمهم.

فقال الله _تعالى_:[أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ].

قال ابن عباس _ رضي الله عنهما _: طائرهم: ما قضى عليهم، وقدَّر لهم.

وفي رواية: شؤمهم عند الله، ومن قِبَلِه: أي إنما جاءهم الشؤم من قبله؛ بكفرهم، وتكذيبهم بآياته، ورسله.

وقوله: [وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ]: أي: أن أكثرهم جهال لا يدرون، ولو

فهموا، وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى _عليه السلام_ إلا الخير، والبركة، والسعادة، والفلاح لمن آمن به [١].

قال الشيخ ابن عاشور × في تفسير الآية السابقة: =والمراد به _يعني التطير_ في الآية أنهم يتشاءمون بموسى ومن معه، فاستعمل التطير في التشاؤم بدون دلالة من الطير؛ لأن قوم فرعون لم يكونوا ممن يزجر الطير فيما علمنا من أحوال تاريخهم، ولكنهم زعموا أن دعوة موسى فيهم كانت سبب مصائب حَلَّتْ بهم، فَعُبِّر عن ذلك بالتطير على طريقة التعبير العربي+.

إلى أن قال: =فمعنى [يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى] يحسبون حلول ذلك بهم مُسَبَّباً عن وجود موسى ومن آمن به، وذلك أن آل فرعون كانوا متعلقين بضلال دينهم، وكانوا يحسبون أنهم إذا حافظوا على اتِّباعه كانوا في سعادة عيشٍ؛ فحسبوا وجودَ من يخالف دينهم بينهم سبباً في حلول المصائب، والإضرار بهم؛ فتشاءموا بهم، ولم يعلموا أن سبب المصائب هو كفرهم وإعراضهم؛ لأن حلول المصائب بهم يلزم أن يكون مُسَبَّباً عن أسباب فيهم لا في غيرهم.

وهذا من العماية في الضلالة، فيبقون منصرفين عن معرفة الأسباب الحقيقية؛ ولذلك كان التطير من شعار أهل الشرك؛ لأنه مبني عن نسبة المسببات لغير أسبابها، وذلك من مخترعات الذين وضعوا لهم ديانة الشرك وأوهامها+[٢].

٢_ وقال الله _تعالى_ في سورة (يس) عن أصحاب القرية التي جاءها المرسلون: [قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا

١_ انظر تفسير البغوي ٢/١٩٠ ، وفتح المجيد للشيخ عبدالرحمن ابن حسن ٢/٥٠٦_٥٠٧.

٢_ التحرير والتنوير ٥/٦٦.

طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ(١٩)] (يس).

والمعنى _والله أعلم_: حظكم وما نابكم من شرٍّ بسبب أفعالكم، وكفركم، ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا، ولا بسببنا، بل ببغيكم، وعداوتكم؛ فطائرُ الباغيْ الظالمِ معه؛ فما وقع به من الشرور فهو سببه الجالب له، وذلك بقضاء الله، وقدره، وحكمته، وعدله كما قال _تعالى_:[أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٦)](القلم).

ويحتمل أن يكون المعنى: [طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ] أي: راجع عليكم؛ فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم، وهذا من باب القصاص في الكلام، ونظيره قوله _عليه الصلاة والسلام_: =**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم**+[1].

وقوله:[أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ] أي: مِنْ أَجْلِ أنَّا ذكَّرناكم، وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام [بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ].

وقال قتادة ×: =أئن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا؟+[2].

ثانياً: تحريم الطيرة في السنة النبوية

أما الأحاديث النبوية التي تطرقت لتحريم الطيرة، ونفيها، وبيان ضررها _ فكثيرة جداً.

١_ البخاري (٦٢٥٨) و (٦٩٢٦) ومسلم (٢١٦٣).

٢_ انظر فتح المجيد ٢/٥٠٧_٥٠٨.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ÷ عن النبي " قال: =**لا عدوى ولا طيرة، وأُحب الفأل الصالح**+[١].

ولهما عن النبي ": =**لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل**+.

قال: قيل: وما الفأل؟ قال: =**الكلمة الطيبة**+[٢].

وفي رواية: =**الكلمة الحسنة، الكلمة الطيبة**+.

وعن ابن مسعود مرفوعاً: =**الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل**+[٣].

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن ×: =وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك؛ لما فيها من تعلق القلب على غير الله _تعالى_+[٤].

وقال: =قوله =**وما منا إلا**+ قال أبو القاسم الأصبهاني، والمنذري: في الحديث إضمارٌ، والتقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك. ا.هـ.

وقال الخلخالي: حذف المستثنى؛ لما يتضمنه من الحالة المكروهة، وهذا من أدب الكلام.

قوله: ولكن الله يذهبه بالتوكل: أي لما توكلنا على الله في جلب النفع، أو دفع

١ـ البخاري (٥٧٥٤ و٥٧٥٥) ومسلم (٢٢٢٣).

٢ـ البخاري (٥٧٧٦) ومسلم (٢٢٢٤).

٣ـ رواه أبو داود (٣٩١٠) والترمذي (١٦١٤) وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١٧/١، وصححه، ووافقه الذهبي.

٤ـ فتح المجيد ٥٢٣/٢.

الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده+[١].

ولأحمد من حديث ابن عمرو: =**من ردَّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**+.

قالوا: وما كفارة ذلك؟ قال: =**أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**+[٢].

ولقد شفى النبي " أمته في الطيرة؛ ففي صحيح مسلم من حديث معاوية ابن الحكم السلمي ÷ أنه قال: يا رسول الله! ومنا أناس يتطيّرون.

فقال: =**ذاك شيء يجدونه في صدورهم؛ فلا يصدَّنَّهم**+[٣].

قال ابن القيم ×: =فأخبر أن تَأَذِّيَهُ، وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به؛ فَوَهْمُه، وخَوفُه، وإشراكُه هو الذي يُطَيِّره، ويصده، لا ما رآه وسمعه؛ فأوضح " لأمته الأمر، وبيَّن لهم فساد الطيرة؛ ليعلموا أن الله _سبحانه_ لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سبباً لما يخافون، ويحذرونه؛ لتطمئن قلوبهم، ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته _تعالى_+[٤].

وقال: وفي أثر: =**إذا تطيرت فلا ترجع**+.

أي: امض لما قصدت، ولا يصدَّنَّك عنه الطيرةُ+[٥].

وقال ابن مفلح × في الحديث السابق حديث معاوية ابن الحكم: =ومعناه أن الطيرة شيءٌ تجدونه في نفوسكم ضرورةً، ولا تكليف به، لكنْ لا تمنعوا بسببه

١ـ فتح المجيد ٢/٥٢٣ـ٥٢٤.

٢ـ أحمد ٢/٢٢٠، وفي إسناده ابن لهيعة، وبقية رجاله ثقات كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/١٠٥.

٣ـ مسلم ٥٣٧.

٤ـ مفتاح دار السعادة ٢/٢٣٤.

٥ـ مفتاح دار السعادة ٢/٢٣٠.

من التصرف؛ لأنه مكتسب، فيقع به التكليف+[١].

وعن عروة بن عامر÷ قال:ذُكرت الطيرة عند رسول الله " فقال: =**أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً؛ فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**+[٢].

قال عكرمة×: =كنا جلوساً عند ابن عباس فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير، خير، فقال ابن عباس: لا خير، ولا شر.

فبادره ابن عباس بالإنكار عليه؛ لئلا يعتقد أن له تأثيراً في الخير، أو الشر+[٣].

وخرج طاووس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: =خير، فقال طاووس: وأي خير عنده؟ والله لا تصحبني+[٤].

ثالثاً: إنكار الطيرة عند بعض العرب [٥]

من العرب من أنكر الطيرة بعقله، وأبطل تأثيرها بنظره، وذمَّ من اغترَّ بها، واعتمد عليها، وتوهم تأثيرها.

قال أحدهم:

ولقـــــد غـــــدوت وكنـــــت لا	أغـــــدو علـــــى واقٍ وحـــــاتم
فـــــإذا الأشـــــائم كالأيـــــا	مـــــنِ والأيـــــامنُ كالأشـــــائم
وكـــــــذاك لا خـــــــير ولا	شـــــر علـــــى أحـــــد بـــــدائم

١ـ الآداب الشرعية ٣/٣٥٨.

٢ـ رواه أبو داود (٣٧١٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦٤٤٣)، وصحح النووي إسناده في رياض الصالحين (٦٣٩).

٣ـ٤ـ انظر مفتاح دار السعادة ٢/٢٣٥.

٥ـ انظر أدب الدنيا والدين ص٣١٥، والعمدة ٢/٢٦٢، ومفتاح دار السعادة ٢/٢٣٠.

لا يمنعنَّك من بغا ء الخير تَعْقَاد التمائم
لا والتشاؤم بالعطا سِ ولا التيامنُ بالمقاسم
قد خط ذلك في السطو ر الأوَّلِيَّات القدائم[1]

وقال جهم الهذلي:

ألم تر أن العائفين وإن جرت لك الطير عما في غدٍ عميانِ
يظنان ظنًّا مرة يخطيانه وأخرى على بعض الذي يصفان
قضى الله أَنْ لا يعلم الغيب غيره ففي أي أمر الله يمتريان[2]

وقال لبيد بن أبي ربيعة ÷:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ
سَلُوهُنَّ إن كذَّبتموني متى الفتى يذوق المنايا أو متى الغيثُ واقع[3]

قال آخر:

تَعَلَّمْ أنه لا طير إلا على متطير وهي الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينًا وباطله كثير[4]

وقال آخر:

طيرة الناس لا ترد قضاءً فاعذر الدهر لا تَشُبْه بلومِ
أي يومٍ تخصه بسعود والمنايا ينزلن في كل يوم
ليس يوم إلا وفيه سعود ونحوس لقوم وقوم[5]

١ـ العمدة ٢/٢٦٢.
٢ـ مفتاح دار السعادة ٢/٢٣٠.
٣ـ ديوان لبيد بن ربيعة ص٩٠.
٤ـ مفتاح دار السعادة ٢/٢٣١.
٥ـ أدب الدنيا والدين ص٣٥١.

المبحث الثالث: أشياء يتطير بها قديماً وحديثاً[1]

اشتهرت العرب في الجاهلية بالتطير ــ كما مر ــ وكانوا يتطيرون من أشياء كثيرة، وسيرد فيما يلي ذكر لبعض ما يتطيرون به، كما سيرد ذكر لبعض ما يتطير به الناس إلى يومنا هذا؛ فمن ذلك:

١ــ **العطاس**: وسبب تطيرهم منه دابةٌ يكرهونها يقال لها العاطوس.

وكانوا إذا عطس من يحبونه قالوا: عُمْراً، وشباباً، وإذا عطس من يبغضونه قالوا: وَرْياً، وقُحاباً، والوري: داء يصيب الكبد فيفسدها، والقُحاب: كالسُّعال وزناً ومعنى.

وقد أبطل الإسلام هذا الدعاء، وشرع بأن يجعل مكانه الحمد من العاطس، والدعاء له ممن يسمع.

قال امرؤ القيس متطيراً من العطاس:

وقد أغتدي قبل العطاس بهيكل ... شديدٍ مِشَكِّ الجنب فَعْم المنطَّقِ[2]

أراد أنه ينتبه للصيد قبل أن ينتبه الناس من نومهم؛ لئلا يسمع عَطَّاساً، فيتشاءم بعطاسه.

وشَبَّه جواده بالهيكل المبني؛ لاستحكام خلقه.

٢ــ السانح. ٣ــ البارح. ٤ــ القعيد. ٥ــ الناطح:

١ـ انظر العمدة لابن رشيق ٢/٢٦٠ـ٢٦٣، ومفتاح السعادة ٢/٢٢٩ـ٢٣٠ و ٢٦١ـ٢٦٣.

٢ـ ديوان امرؤ القيس، ص١٠٥.

وأصل ذلك أنهم يزجرون الطير، والوحش، ويثيرونها؛ فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سموه سانحاً، وما تياسر منها سموه بارحاً، وما استقبلهم منها فهو الناطح، وما جاءهم من خلفهم سموه القعيد.

فمن العرب من يتشاءم بالبارح، ويتبرك بالسانح، ومنهم من يرى خلاف ذلك.

قال المدائني: =سألت رؤبة بن العَجَّاج: ما السانح؟ قال: ما ولاك ميامنه، قال: قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاك مياسره، قال: والذي يجيء من قدامك فهو الناطح والنطيح، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد.

وقال المفضل الضبي: البارح ما يأتيك عن اليمين يريد يسارك، والسانح ما يأتيك عن اليسار فيمر على اليمين+[1].

وقال ابن دريد: =السانح يتيمن به أهل نجد، ويتشاءمون بالبارح، ويخالفهم أهل العالية؛ فيتشاءمون بالسانح، ويتيمنون بالبارح+[2].

٦ـ الغراب: وهو أعظم ما يتطيرون به، والقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد؛ فاسمه يوحي لهم بالغربة والبين، ويسمونه ـ أيضاً ـ حاتماً؛ لأنه يحتم عندهم بالفراق.

ويسمونه الأعور على جهة التطير بذلك؛ إذ كان أصح الطير بصراً، ويقال: سمي أعور؛ لقولهم: عوَّرت الرجل عن حاجته، إذا رددته عنها؛ فالغراب ـ على هذا ـ يعوِّر الحاجة، ويصد عن الوجهة.

ومن أقوالهم التي يتطيرون فيها من الغراب قول النابغة الذبياني:

١ـ مفتاح دار السعادة ٢/٢٢٩، وانظر العمدة ٢/٢٦٢ـ٢٦٣.

٢ـ العمدة ٢/٢٦٣.

زعـــم البـــوارحُ أن رحلتنـــا غـــداً　　وبـــذاك خبرنـــا الغـــداف [١] الأســـودُ

لا مرحبـــاً بغـــدٍ ولا أهـــلاً بـــه　　إن كـــان تفريـــق الأحبـــة في غَـــدِ [٢]

ويروى الشطر الثاني من البيت الأول:

. . . .　　وبـــذاك تنعـــابُ الغـــرابِ الأســـودِ [٣]

وقال علقمة بن عبدة:

ومـــن تعـــرض للغربـــان يزجرهـــا　　علـــى ســـلامته لابـــد مشـــؤوم [٤]

وقال آخر:

يبشـــرني الغـــراب بـــين أهلـــي　　فقلـــت لـــه: ثَكِلْتُـــكَ مِـــنْ بشـــير

وقال آخر:

مشـــائيمُ ليســـوا مصـــلحين عشـــيرةً　　ولا ناعـــبٍ إلا بـــين غرابهـــا [٥]

وقد اعتذر أبو الشيص للغراب، وتطير بالإبل، فقال:

النـــاس يَلْحَـــون غـــرا　　بَ البـــينِ لمـــا جهلـــوا

ومـــا علـــى ظهـــر غُـــرا　　ب البـين تطـوى الرِّحَـل

١ـ الغداف: الغراب.

٢ـ ديوان النابغة الذبياني ص١٠٥.

٣ـ على الرواية الأولى يكون في البيت عيب عروضي وهو الإقواء، وهو الانتقال بحركة الروي المطلق من الكسر إلى الضم أو العكس، ويروى أن النابغة كان له قدر وجلالة في الجاهلية؛ فاستحيوا أن يواجهوه بخطئه، فلما قدم المدينة، أمروا جارية أن تنشد ذلك أمامه، ففطن لما وقع فيه، فغير في البيت حتى أصبح مناسباً لما قبله وما بعده كما هو مذكور في الرواية الثانية.

٤ـ المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق أحمد شاكر، وعبدالسلام هارون ص٤٠١.

٥ـ هذا البيت يستشهد به النحاة على عطف التوهُّم، حيث جُرَّت كلمة ـ ناعب ـ المعطوفة على خبر ليس وهي كلمة (مصلحين) على توهم أن الباء دخلت على خبر ليس، فعطف بالجر على توهم ذلك.

مـــا فـــرَّق الأحبـــابَ بعـــ ـــــــد الله إلا الإبـــــــل

ومـــــا غـــــراب البـــين إلا ناقـــــــة أو جمـــــــل[1]

٧ــ الهامة: فقد كان أهل الجاهلية يتشاءمون بها، وقد جاء الحديث عن ابن مسعود ÷ مرفوعاً: =**لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر**+[2].

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن ×: =قوله: =**ولا هامة**+ بتخفيف الميم على الصحيح، قال الفراء: الهامة طير من طيور الليل كأنه يعني البومة.

قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم، يقول: نَعَتْ إليَّ نفسي أو أحداً من أهل داري؛ فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله+[3].

٨ــ الواق: وهو الصرد، قال أحدهم يمدح منكر الطيرة:

ولـــيس بهيـــاب إذا شـــد رحلـــه يقـــول عـــدا في اليـــوم واقٍ وحـــاتمُ

ولكنـــه يمضـــي علـــى ذاك مقـــدماً إذا حـــاد عـــن تلـــك الهِنـــاتِ الختـــارمُ

ويعني بالواق: الصرد، والختارم: العاجز الضعيف الرأي المتطير[4].

٩ــ الثور المكسور القرن: قال الكميت ينفي الطيرة عن نفسه:

ومـــا أنـــا ممـــن يزجـــر الطـــيرَ همُّـــه أصـــاح غـــرَابٌ أم تعـــرض ثعلـــب

١ـ ديوان أبي الشيص ص٩٥ـ٩٦، صنعه عبد الله الجبوري، والعمدة ٢/٢٦١، والمحاسن والمساوئ لإبراهيم البيهقي ص٣٨١.

٢ـ رواه أحمد ١/٤٤٠، والترمذي (٢١٤٤)، وأبو يعلى في المسند (٥١٨٢)، وأخرجه أحمد من حديث أبي هريرة ٢/٣٢٧، وأصله عند البخاري ٥٧١٧ـ٥٧٧٠ـ٥٧٧٥، ومسلم (٢٢٢٠).

٣ـ فتح المجيد ٢/٥١٤ـ٥١٥.

٤ـ مفتاح دار السعادة ٢/٢٣٠.

ولا السانحات البارحات عشية أمرَّ سليمُ القرن أم مرَّ أعضب[1]

١٠ـ التطير ببعض الأسماء، وذوي العاهات: فبعضهم إذا سمع سفرجلاً، أو أهدي إليه تطير به، وقال: سفرٌ وجلاءٌ، وإذا رأى ياسميناً، أو سمع اسمه تطير به، وقال: يأسٌ ومَيْنٌ، وإذا رأى سوسنةً، أو سمعها قال: سوءٌ يبقى سنة، وإذا خرج من داره فاستقبله أعور، أو أعمى، أو أشل، أو صاحب آفة تطير به، وتشاءم من يومه.

١١ـ التشاؤم بالأيام والشهور: حيث كان بعضهم يتشاءم ببعض الأيام كيوم الأربعاء، كما قال أحدهم:

يا للرجال ليوم الأربعاء أما ينفك يحدث لي بعد النهى طربا

وكتشاؤم بعض العامة بالزواج ليلة الأحد؛ ولهذا يَقِلُّ في بعض المناطق الزواجُ ليلة الأحد؛ لهذه الخرافة الدارجة؛ حيث يقولون: ليلة الأحد لا يريد أحدٌ أحداً.

ومن التطير بالأيام تطير بعض الناس في بعض المناطق باليوم الحادي والعشرين من الشهر؛ حيث يزعمون أنه نكد على المسافر، أو مُؤْذنٌ بموته، ويتطيرون بالمولود إذا ولد يوم الحادي والعشرين من الشهر زاعمين أنه شؤم يمحق المال والعيال، فيلقبونه: حادية؛ بمعنى أنه يُهْلِكُ ما كان قِبَلَه، وكلما أصيب أحد والديه بمصيبة في نفس أو مال، أو عيال قال: من هذا الولد المشؤوم!.

ومن ذلك تطيرهم بكنس دار المسافر يوم سفره، أو سفر أحد عياله، أو مواشيه؛ زاعمين أن ذلك سبب في هلاكه!

ويتطيرون بكنس الدار ليلاً أو نهاراً؛ زاعمين أن ذلك سبب في محق البركة

١ـ شرح هاشميات الكميت ص٤٤، وانظر مفتاح دار السعادة ٢/٢٣٠.

والرزق[١].

ومن التشاؤم بالشهور تشاؤم أهل الجاهلية بشهر صفر، وبشهر شوال في النكاح خاصة[٢].

وقد أبطل الإسلام هذا الزعم، فعن ابن مسعود ÷ مرفوعاً =**لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر، خلق الله كل نفس، وكتب حياتها، ومصائبها، ورزقها**+[٣].

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن ×: قوله: =**ولا صفر**+ بفتح الفاء، روى أبو عبيدة في غريب الحديث عن رؤبة أنه قال: هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب.

وعلى هذا فالمراد بنفيه: ما كانوا يعتقدونه من العدوى.

وممن قال بهذا سفيان بن عيينة، والإمام أحمد، والبخاري، وابن جرير.

وقال آخرون: المراد به شهر صفر، والنفي لِمَا كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء، وكانوا يحلون المحرم، ويحرمون صفراً مكانه، وهو قول مالك.

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول: إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه شهر مشؤوم؛ فأبطل النبي "ذلك[٤].

١ـ انظر الإيضاحات السلفية لبعض المنكرات والخرافات الوثنية للشيخ عبد الله بن سعدي الغامدي العبدلي ص٤٦ـ٤٧.

٢ـ انظر لطائف المعارف لابن رجب ص١١٤.

٣ـ مضى تخريجه.

٤ـ أبو داود (٣٩١٥).

قال ابن رجب×: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح خاصة+[١].

وكما أن هناك من يتطير بشهر صفر فهناك من يعكس ذلك، فتراه إذا ذكر شهر صفر قال: صفر الخير.

والحقيقة أن الباطل لا يرد بباطل؛ فصفر كغيره لا يقال في حقه صفر الشر، ولا صفر الخير.

١٢ـ التشاؤم ببعض الأرقام: وهذا معروف عند المحْدَثين وخاصة عند الغربيين، حيث يتشاءمون من بعض الأرقام، وأشهر رقم يتشاءمون به هو الرقم ١٣، ولذلك حذفته بعض شركات الطيران من ترقيم المقاعد، وحذفته بعض العمارات من أرقام الشقق؛ لأن الناس يتشاءمون من ذلك الرقم.

ويقال: إن قصة ذلك سببها خرافة نصرانية تزعم أن حواريِّي عيسى ـعليه السلامـ عددهم اثنا عشر حوارياً، فانضم إليه يهوذا الأسخريوطي فصاروا ثلاثة عشر.

وهذا الأخير هو الذي وشى بعيسى ـعليه السلامـ وتسبب في صلبه؛ فلذلك يكرهون هذا الرقم، ويتشاءمون منه.

وهذه خرافة ظاهر بطلانها؛ ذلك أن الأرقام لا تقدم ولا تؤخر، ولأن عيسى ـعليه السلامـ لم يصلب، ولم يقتل، بل رفعه الله إليه.

١ـ فتح المجيد ٢/٥١٥ وانظر لطائف المعارف ص٧٤.

ويقال: إن لهذه الخرافة أسباباً أخرى غير الذي ذكر[١].

ومن الأرقام التي يتشاءم بها الجهلة الرقم ١٠؛ فالشيعة يكرهون التكلم بلفظ العشرة، أو فعل شيء يكون عشرة، حتى في البناء لا يبنون على عشرة أعمدة، ولا بعشرة جذوع ونحو ذلك؛ لكونهم يبغضون خيار الصحابة، وهم العشرة المشهود لهم بالجنة إلا علي بن أبي طالب ÷.

ومعلوم أنه لو كان في العالم عشرة من أكفر الناس لم يجب هجر هذا الاسم لذلك السبب.

ومن العجب أنهم يوالون لفظ التسعة، وهم يبغضون التسعة من العشرة إلا علياً[٢].

وفي مقابل ذلك نجد أن بعض الطوائف الضالة تعظم بعض الأرقام وتقدسها؛ فمن معتقدات الفرقة البابية الضالة تقديس الرقم ١٩؛ فهم يقدسونه، ويجعلون عدد الشهور ١٩ شهراً، وعدد أيام الشهر ١٩ يوماً.

والبابية تأمر معتنقيها بإبقاء الأموات في البيت ١٩ يوماً وليلة، وتفرض زيادة على ذلك ألا يبتعد عنها أحد من أهل بيتها.

والصلاة عندهم ١٩ ركعة، والصيام ١٩ يوماً من كل سنة في شهر العلاء، وحد السارق أن تحرم عليه زوجته ١٩ يوماً، ويدفع ١٩ مثقالاً من الذهب إلى علماء البابية؛ ليقدموها إلى المسروق منه.

١ـ للدكتور محمد الشويعر مقالة لطيفة حول هذا الرقم.

٢ـ انظر منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/٣٨.

والعيد عندهم هو عيد النيروز، ومُدَّته ١٩ يوماً[1].

١٣_ فتح الآي: وهذا نوع من التطير، حيث يفتح أحدهم المصحف؛ فيتفاءل، أو يتشاءم بأول آية يراها؛ فإذا رأى آية وعيد وعذاب تشاءم، وإذا رأى آية رحمة أو جنة تفاءل.

قال الماوردي ×: =وحكي أن الوليد بن يزيد ابن عبدالملك تفاءل يوماً في المصحف، فخرج له قوله _تعالى_: [وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ] (إبراهيم:١٥) فمزَّق المصحف، وأنشأ يقول:

أتوعِدُ كلَّ جبارٍ عنيدٍ ... فها أنا ذاك جبارٌ عنيدُ

إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل: يا ربِّ مزقني الوليدُ

فلم يلبث إلا أياماً حتى قُتل شر قتلة، وصلب رأسه على قصره، ثم على سور بلده، فنعوذ بالله من البغي، ومَصَارِعِه، والشيطانِ ومكائده، وهو حسبنا، وعليه توكلنا+[2].

١٤_ التطير بأهل الصلاح: كحال كثير من أعداء الإسلام من الملحدين والمنافقين قديماً وحديثاً؛ حيث يظنون أن ما يصيبهم من بلاء وشر إنما هو بسبب أهل الخير والصلاح، كما أخبر الله _عز وجل_ عن أوائلهم أنهم تطيروا بالمرسلين كما في قوله _تعالى_ عن أصحاب القرية التي جاءها المرسلون:[قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ

١_ انظر البابية للكاتب ص٢٥_٢٩.

٢_ أدب الدنيا والدين للماوردي ص٣١٧.

ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ(١٩)](يس).

هذا وقد مر تفسير الآية عند الحديث عن إبطال الإسلام للطيرة.

١٥ـ التطير بالمصائب والبلايا: فمن الناس من إذا أصيب بمصيبة أو بلية مهما كان نوعها من مرض، أو خسارة، أو نحو ذلك ظن أنها قاصمة ظهره، وأنها ضربة لازب لن تبارحه.

وإذا أصيب بعض ولده بمرضٍ مَا ـ أظن أن ذلك المرض لن يشفى منه، وقام في قلبه شعور أن الأيام سَتَسْوَدُّ في وجهه، وأن العيش سيضيق عليه، وأن الشفاء بعيد كل البعد عنه.

إلى غير ذلك من الأوهام التي تقوم في الأذهان الحائرة المبلبلة، فتصدها عن الخير، وتحول بينها وبين السعادة.

وإلا فإن العاقل الرشيد يعلم أن قَدَرَ اللهِ نافذ، وأنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، وأن الذي ابتلى بالضر قادر على كشفه.

١٦ـ التشاؤم من أحوال المسلمين المزرية: فمن الناس من إذا رأى ما عليه الباطل من صولة، وجولة، وما عليه أهل الحق من ضعف وتخاذل، وحطة، وذلة، وتبعية للأعداء ـ تَطَيَّرَ من ذلك، وتشاءم من المستقبل، ويأس من إصلاح الأحوال، وظن أن الباطل سيستمر، وأن الحق وأهله إلى زوال واضمحلال.

وهذا المسلك جِدُّ خطيرٍ، وهو مما يعتري النفوس التي ضعف إيمانها، وقل يقينها.

وهو مخالف لما جاء به الشرع المطهر، ومناقض لما أخبر الله به من أن العاقبة للتقوى وللمتقين؛ فمن ظن تلك الظنون فقد ظن بربه السوء، ونسبه إلى خلاف

ما يليق بجلاله، وكماله، وصفاته؛ فإن حمده، وعزته، وحكمته، وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة والغلبة لأعدائه.

ومن ظن تلك الظنون فما عرف الله حقاً، ولا عرف ربوبيته، وملكه، وعظمته؛ إذ لا يجوز في حقه شرعاً ولا عقلاً أن يظهر الباطل على الحق، بل إنه يقذف بالحق على الباطل فإذا هو زاهق[١].

فالمؤمن بالله وقدره، العالِمُ بسننه في كونه لا تراه إلا متفائلاً في جميع أحواله، منتظراً الفرج من ربه، عالماً بأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسراً؛ فلا يتسلل اليأس إليه مهما احلولكت ظلمة الباطل؛ فاعتماد القلب على قدرة الله، ولطفه، وكرمه يستأصل جراثيم اليأس، ومنابت الكسل، ويشد ظهر الأمل الذي يلج به الساعي أغوار البحار العميقة، ويقارع به السباع الضارية في فلواتها.

كيف لا وهو يعلم بأنه الله قد كتب النصر في الأزل، وأن كلمته قد سبقت بأن العاقبة للتقوى وللمتقين، وأن جنده هم الغالبون، وهم المنصورون، وأن الأرض يرثها عباده الصالحون؟!

أما ما يُشاهد من تسلط الكفار واستعلائهم فإنما ذلك استعلاء استثنائي، واستدراج وإملاءٌ من الله لهم، وعقوبة للأمة المسلمة؛ بسبب بعدها عن دينها.

ثم إن سنة الله ماضية فـ: [مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ] (النساء: ١٢٣).

وهذه الأمة تذنب، وتعاقب بذنوبها عقوباتٍ متنوعةً؛ كي تعود إلى رشدها، وتؤوب إلى ربها؛ فتأخذ مكانها اللائق بها [وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ]

١ـ انظر زاد المعاد لابن قيم الجوزية ٣/٢١٨ـ٢٤١، ففيه كلام عظيم حول هذه المسألة، وحول الحكمة من إدالة الكفار على المسلمين.

(المنافقون: ٨).

وهذه الأمة _كذلك_ أمةٌ مرحومة؛ تعاقب في هذه الدنيا حتى يخف العذاب عنها في الآخرة، أو يغفر لها بسبب ما أصابها من بلاء.

المبحث الرابع: إشكالات في الطِّيَرة

أولاً: التوجيه لما يقع من الطيرة

فقد يقول قائل: إن هناك وقائعَ تدل على وقوع الطيرة لمن تَطَيَّر، أو تُطُيِّر له، فما التوجيه لذلك؟

والجواب: أن الوقائع التي تذكر، وتدل على وقوع الطيرة صحيحة كثيرة.

ولا يُنْكَر موافقةُ القضاء لهذه الأسباب؛ وذلك لأن البلاء مُوَكَّل بالمنطق،ولأن الطيرة على من تطير، والله ــعز وجلــ نصب لها أسباباً تدفعها من التوكل عليه، وحسن الظن به، وإعراض القلب عن غيره.

ثم إن أكثر ما يتطير به لا يقع، ولكن الناس ينقلون ما صح وما وقع، ويعتنون به؛ فيُرى كثيراً مع أن الكاذب أكثر من أن ينقل[١].

ثانياً: التوجيه لحديث: (إذا كان الشؤم ففي ثلاث ...)

قال النبي ": =**الشؤم في الدار، والمرأة، والفرس**+ متفق عليه [٢].

وفي لفظ في الصحيحين: =**لا عدوى، ولا طيرة، وإنما الشؤم في ثلاثة: المرأة، والفرس، والدار**+[٣].

وجاء في الصحيحين ــأيضاًــ: =**إن يكن من الشؤم شيء حقاً ففي الفرس،**

١ـ انظر مفتاح دار السعادة ٢/٢٦١.

٢ـ البخاري (٥٠٩٣) و (٥٧٧٢) ومسلم (٢٢٢٥).

٣ـ البخاري (٢٠٩٩) و (٢٨٥٨) و (٥٧٥٣) ومسلم (٢٢٢٥).

والمرأة، والدار+[١].

وقد وردت أحاديث كثيرة على هذا النحو، والأحاديث المذكورة جاءت على وجهين:

أحدهما: بالجزم كما في الحديث الأول والثاني.

وثانيهما: جاء بصيغة الشرط كما في الحديث الثالث.

وهذه الأحاديث لا تدل على الطيرة، ولا تعارض الأحاديث التي جاءت بنفي الطيرة.

ومما قاله العلماء في توجيه هذه الأحاديث ما يلي[٢]:

١ـ قالت طائفة: شؤم الدار ضيقها ومجاورة جار السوء. وشؤم الفرس ألا يُغْزى عليها في سبيل الله، وقيل: حرانها، وغلاء ثمنها.

وشؤم المرأة عدم ولادتها، وسلاطة لسانها، وسوء خلقها، وتعرُّضها للريب.

٢ـ وقالت طائفة: هذا مستثنى من الطيرة، أي أن الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس أو خادم؛ فليفارق الجميع بالبيع، والطلاق، ونحوه، ولا يقيم على الكراهة والتأذي؛ فإنه شؤم.

٣ـ وقالت طائفة: الشؤم في هذه الثلاثة إنما يلحق من تشاءم بها وتطير؛ فيكون شؤمها عليه، ومن توكل على الله، ولم يتشاءم، ولم يتطير ــ لم تكن مشؤومة عليه.

١ـ البخاري (٥٠٩٣)، ومسلم (٢٢٢٥).

٢ ـ انظر مفتاح دار السعادة ٢/٢٥٣ـ٢٥٧، والآداب الشرعية ٣/٣٥٩.

قالوا: ويدل عليه حديث أنس: =**الطيرة على من تطير**+.

وقد يجعل الله تطير العبد وتشاؤمه سبباً لحلول المكروه كما يجعل الثقةَ به، والتوكلَ عليه، وإفرادَه بالخوفِ، والرجاءِ من أعظم الأسباب التي يدفع بها الشر المتَطَيَّر به.

٤_ **وقالت طائفة**: معنى الحديث: إخباره عن الأسباب المثيرة للطيرة، الكامنة في الغرائز.

يعني أن المثير لغرائز الناس هي هذه الثلاثة؛ فأخبرنا بهذا؛ لنأخذ الحذر منها.

٥_ **قال ابن القيم** ×: =وبالجملة فإخباره " بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها.

وإنما غايته أن الله _سبحانه_ قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها، وسكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منه شؤم ولا شر.

وهذا كما يعطي _سبحانه_ الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولداً مشؤوماً نذلاً يريان الشر على وجهه.

وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها فكذلك الدار، والمرأة، والفرس.

والله _سبحانه_ خالق الخير والشر، والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة، ويقضي سعادة من قارنها، وحصول اليُمْن له، والبركة.

ويخلق بعض ذلك نحوساً يَتَنَحَّس بها من قارنها.

وكل ذلك بقضاء الله وقدره؛ كما خلق الأسباب، وربطها بمسبباتها المتضادة المختلفة؛ فكما خلق المسك وغيره من حامل الأرواح الطيبة، ولَذَّذ بها من قارنها من الناس _ خلق ضدها، وجعلها سبباً لإيذاء من قارنها من الناس.

والفرق بين هذين النوعين يدرك بالحس؛ فكذلك في الديار، والنساء، والخيل؛ فهذا لون، والطيرة الشركية لون آخر+[١].

ثالثاً: الذي تضره الطيرة، والذي يسلم منها

قال ابن القيم ×: =واعلم أن التطير إنما يضر من أشفق منه، وخاف، وأما من لم يبال به ويعبأ به شيئاً لم يضره البتة، ولا سيما إذا قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه: =**اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**+.

فالطيرة باب من الشرك، وإلقاءِ الشيطان، وتخويفه، ووسوسته يكبر، ويعظُم شأنها على من أَتْبَعَها نفسَه، واشتغل بها، وأكثر العناية بها.

وتذهب وتضمحل عمن لم يلتفت إليها، ولا ألقى إليها بالَه، ولا شغل بها نفسَه وفكرَه+.

إلى أن قال: =واعلم أن من كان معنياً بها، قائلاً بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره، وتفتَّحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه، ويراه، ويعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينَه، وينكِّد عليه عيشَه+.

إلى أن قال: =ومن كان هكذا فالبلايا إليه أسرع، والمصائب به أعلق، والمحن

١ـ مفتاح دار السعادة ٢/٢٥٧.

به ألزم، بمنزلة صاحب الدّمَّلِ[1] والقُرحةِ الذي يُهدى إلى قرحته كلُّ مؤذٍ، وكل مصادم؛ فلا يكاد يُصْدَم من جسده، أو يصاب غيرها+[2].

وقال الماوردي ×: =واعلم أنه قلما يخلو من الطيرة أحد لاسيما من عارضته المقادير، وصدته عن طلبَته؛ فهو يرجو واليأس عليه أغلب، ويأمل والخوف إليه أقرب؛ فإذا عاقه القضاءُ، وخانه الرجاء جعل الطيرةَ عُذْرَ خيبتهِ، وغَفَل عن قضاء الله ـ عز وجل ـ ومشيئته.

فإذا تطير أحجم عن الإقدام، ويئس من الظفر، وظن أن القياس فيه مطَّرد، وأن العبرة فيه مستمرة، ثم يصير ذلك له عادة؛ فلا ينجح له سعي، ولا يتم له قصد.

فأما من ساعدته المقادير، ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة؛ لإقدامه؛ ثقة بإقباله، وتعويلاً على سعادته؛ فلا يصده خوف، ولا يكفه حزن، ولا يؤوب إلا ظافراً، ولا يعود إلا مُنْجِحاً؛ لأن الغُنْم بالإقدام، والخيبة مع الإحجام؛ فصارت الطيرة من سمات الإدبار، واطراحها من أمارات الإقبال؛ فينبغي لمن مُني بها وبُلي أن يصرف عن نفسه وساوس النوكى[3] ودواعي الخيبة، وذرائع الحرمان، ولا يجعل للشيطان سلطاناً في نقض عزائمه، ومعارضته خالقه، ويعلم أن قضاء الله ـ تعالى ـ عليه غالب، وأن رزقه له طالب، إلا أن الحركة سبب؛ فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقاً، ولا يدفع مقدوراً،

١ـ الدمل: واحد دماميل، والدمل الخُرَّاج.

٢ـ مفتاح دار السعادة ٢/٢٣٠ـ٢٣١.

٣ ـ النوكى: جمع أَنْوك، وهو الأحمق؛ فالنوكى: الحمقى وزناً ومعنى.

وليمض في عزائمه، واثقاً بالله _تعالى_ إن أعطى، وراضياً به إن منع+[1].

١ـ أدب الدنيا والدين ص ٣١٥ـ٣١٦.

المبحث الخامس: أحوال المتطيِّرين، والمتفائلين

أولاً: حالة المتَطَيِّر

المتطير إنسان ضيِّق الصدر، مغلق النفس، فاتر الهمة، ثقيل الظل، كسول متبلد، لا تحدوه غاية، ولا يدفعه هدف.

والمتطير ضيق الأفق، جبان رعديد، يشتد فزعه من الحوادث التافهة، ويغضب أشد الغضب لأدنى تصرف لا يروقه.

والمتطير يعيش في عالم الخيال، والأحلام والأوهام، ويشعر دائماً بالخيبة، والخسارة والخذلان.

والمتطير مولع بالعبوس، مُغرىً بالنكد؛ فإذا سمع كلمة سيئة أوَّلها أسوأ تأويل، وحملها على أسوأ محمل، فتراه بعد ذلك وقد اسودت الدنيا في نظره، ثم هو يسوِّدها على من حوله.

والمتطير لديه قدرة على المبالغة في الشر؛ فتراه يجعل من الحبة قبة، ومن البذرة شجرة، وليس عنده قدرة على الخير، ولا على تحرِّيه، فلا تراه يفرح بما أوتي ولو كان كثيراً، ولا ينعم بما نال ولو كان عظيماً.

يقول ابن القيم ×: =والمتطير متعب القلب، مُنَكَّد الصدر، كاسف البال، سيئ الخلق، يتخيل من كل ما يراه أو يسمعه، أشدُّ الناس خوفاً، وأنكدهم عيشاً، وأضيق الناس صدراً، وأحزنهم قلباً، كثير الاحتراز والمراعاة لما لا يضره ولا ينفعه، وكم قد حرم نفسه بذلك من حظ، ومنعها من رزق، وقطع عليها من فائدة+[1].

ثانياً: نموذج من شعر التشاؤم عند المحْدَثين

١ـ مفتاح دار السعادة ٢/٢٣١.

يكثر في شعر المحدثين نزعة التشاؤم، والإغراق في النظر إلى الجانب المظلم من الحياة، وتظهر هذه النزعة عند شعراء الاتجاه الرومانسي.

ومن اشتهر بهذه النزعة في العصر الحديث الشاعر حمد الحجي × ومن قصائده في هذا الشأن قوله في هذه القصيدة التي يبين فيها ما جرَّه عليه التشاؤم من البؤس والشقاء، يقوله:

أأبقى على كرِّ الجديدين في جوىً   ويسعد أقوامٌ وهم نظرائي
ألست أخاهم قد فُطِرنا سويةً   فكيف أتاني في الحياة شقائي
أرى خَلقهم مثلي وخلْقيَ مثلهم   وما قصَّرت بي همتي وذكائي
يسيرون في درب الحياة ضواحكاً   على حين دمعيْ ابتلَّ منه ردائي
أكان لساني إذ نطقت مُلَعثَماً   وكانوا إذا ناجوا من الفصحاء
وهل كنت إما أشكل الأمر عاجزاً   وكانوا لدى الجُلَّى من الحكماء

إلى أن يقول:

وهل ضربوا في الأرض شرقاً ومغرباً   وكنت مَلَلْتُ اليومَ طولَ ثُوائي
وهل كلهم أوفوا بكل عهودهم   ومن بينهم قد غاضَ ماءُ وفائي
بلى أخذوا يستبشرون بعيشهم   سواي فقد عاينت قربَ بلائي
وهم نظروا في الكون نظرةَ عابرٍ   يمر على الأشياء دون عناء
وأصبحت في هذي الحياة مفكراً   فجانبت فيها لذتي وهنائي

ثم يقول بعدَ ذلك محذراً من التشاؤم، حاثاً على التفاؤل، والنظر إلى الجانب المشرق من الحياة:

ومَنْ يُطِلِ التفكير يوماً بما أرى   من الناس لم يَرْتَحْ ونال جزائي

ومن يمشِ فوق الأرض جذلان مظهراً بشاشته يَمْرُرْ بكل رُواءِ
تُغني على الدَّوح الوَريق حمامةٌ فيحسبه المحزون لَحْنَ بكاءِ
وتبكي على الغصن الرطيب يظنها حليف الهنا تُشجي الورى بغناءِ
ألا إنما بشر الحياة تفاؤلٌ تفاءلْ تَعِشْ في زمرة السعداء [1]

ويقول في قصيدة أخرى:

يا إلهي أظلم الكون فلم ترَ عيني في دجاه ألقا [2]
أملٌ يخبو وقلبٌ يرتمي فوق أشواق الضنى منسحقا
ومساء ليس فيه نجمه وصباح نبعه ما اندفقا
ظلماتُ اليأسِ ما فيها سوى جمرة فيها فؤادي احترقا
أعشق الشمس فيا ويح فتى في بلادٍ للضحى قد عشقا
سوف يحيا في صراع والمنى والردى عن دربه ما افترقا
يا لعينيْ من تصاريف النوى يا لروحي من تباريح الشقى
كَفِّني يا شمس مني هيكلاً كَفِّنِيْهِ هيكلاً محترقا
وادفنيه جانب النهر فقد يتلقى الصبح غصناً مورقا
إيه يا دنيا اعبسي أو فابسمي إن كأساً بالأسى قد فَهِقا [3]

١ـ الشاعر حمد الحجي. تأليف د. محمد بن سعد بن حسين ص ١٦ـ١٧.
٢ـ الألق: الالتماع.
٣ ـ الفهق: الامتلاء.

ياحيــاتي مــا الــذي فيــكِ يــرى ... يــبهج الــنفس ويغــري بالبقــا[١]

ويقول في قصيدة أخرى:

إن نظـــرتُ الجمـــال غضَّـــاً طريـــاً ... يتجلـــــى في المنظـــــر الخـــــلاب

لاح لي أســـــود المصـــــير كمســـــو ... دِّ الليـــــالي مُكَشَّـــــر الأنيـــــاب

إلى أن يقول:

ألحـــظ القـــاتم المريـــر مـــن العيـــ ... ـــش وأبكـــي علـــى الضـــياء الخـــابي

وإذا لاح ليْ البهـــــاء وضـــــيئاً ... قلــت: يــادهر لــيس ذا مــن حســابي

وإذا أُعجـــــب الأنـــــام بشـــــيء ... بـــتُّ منـــه في موقـــف المرتـــابِ

هكـــذا أصـــحب الحيـــاةَ فـــؤادي ... في عنـــاء وللشـــقاء ذو تصـــابي

إن تغنـــت حمـــائم ملـــت عنهـــا ... ثم أرهفـــت مســـمعي للغـــرابِ

لا أرى في الهضــــاب إلا وحوشــــاً ... أيــن مــني مــا يزدهــي في الهضــاب[٢]

إلى آخر ما قال في قصيدته الطويلة التي يدور أكثرها حول هذه المعاني.

ثالثاً: حالة المتفائل

التفاؤل ــ كما مرَّ ــ يبعث الهمة، ويدعو إلى اطراح الكسل، وإلى الإقبال على الجد والعمل.

والمتفائل واسع النظرة، فسيح الصدر، عالي الهمة، موفور النشاط؛

---

١ ـ الشاعر حمد الحجي ص٢٩ـ٣٠.

٢ ـ الشاعر حمد الحجي ص٤٢ـ٤٤.

فتفاؤله يزيده قوة إلى قوته؛ فيكون أقدر على الجد، وحسن الإنتاج، ومقابلة الصعاب من الرجل المتشائم المنقبض الصدر، الممتلئ بالهم، والغم.

والتجربة خير شاهد على أن المتفائلين خير الناس صحة، وأقدرهم على الجد والنشاط، وأقربهم إلى النجاح والفلاح، وأكثرهم سعادة، واستفادة مما في أيديهم ولو كان قليلاً.

فالتفاؤل يضيء الحياة، ويعين على احتمال متاعبها؛ فالعمل الشاق العسير يَخِفُّ حِمْلُه بالنفس المشرقة المتفائلة.

ومن النعم الكبرى على الإنسان أن يعتاد النظر إلى الجانب المشرق في الحياة لا المظلم منها، وأن يمنح القدرة على السرور والتفاؤل.

ثم إن المتفائلين ليسوا أسعد الناس حالاً لأنفسهم ومن حولهم فحسب، بل هم مع ذلك أقدر على العمل، وأكثر احتمالاً للمسؤولية، وأصلح لمواجهة الشدائد، ومعالجة الصعاب، وأجدر بالإتيان بعظائم الأمور التي تنفعهم وتنفع الناس؛ فذو النفس المشرقة يرى الصعاب، فيلذه التغلب عليها، ينظرها فيبتسم، ويعالجها فيبتسم، وينجح فيبتسم، ويخفق بعد فعل الأسباب فيبتسم.

ومن أحكم ما قالته العرب:

ولربما ابتسم الكريم من الأذى ... وفؤاده من حَرِّهِ يتأوَّهُ

والمتفائل رجل شجاع؛ فلا تراه يفكر في احتمال الشر كثيراً، ثم إن وقع لم يطر له قلبه شعاعاً.

بل يصبر، ويتحمله بثبات، إن مرض لم يضاعف مرضه بوهمه، وإن نزل به مكروه قابله بجأش رابط فخفَّف حدَّته؛ فمن الحكمة والعقل ألا يجمع الإنسان

على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحصول الشر؛ فليسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه، فإذا حدثت فليقابلها بشجاعة و اعتدال[1].

قال أبو علي الشبل:

ودع التوقــــع للحــــوادث إنهـــا للحـــي مـــن قبـــل الممـــات ممـــاتُ[2]

١ـ انظر الهمة العالية ص٢١٢ـ٢١٨ و٢٦٠للكاتب، وفيض الخاطر لأحمد أمين ٢/١٩٧ـ٢٠٥ و٤/٢٠٣ و٦/١٢٦ـ١٢٩ و٢٤٤ و١٠/٢٠٦ـ٢٠٩ و٢٢٣..

٢ـ صيد الخاطر لابن الجوزي ٣٣٩.

المبحث السادس: علاج الطيرة

الطيرة داء عضال، وسمٌّ قتَّال؛ لما لها من الأثر على عقل المتطير، ودينه، وخلقه.

ولكن علاجها ـ بحمد الله ـ ميسور لمن أراده، وسعى له سعيه.

ولقد مرَّ شيء من ذلك في غضون الصفحات الماضية، وفيما يلي ذكر لبعض العلاجات لمن وقع في الطيرة.

١ـ استحضار ضرر الطيرة: فهي نقص في العقل، وفساد في التصور، وانحراف عن سواء الصراط.

وهي موجبة لانقباض النفس، وسوء الخلق، وفوات الخير.

وهي من كيد الشيطان، وتخويفه، ووسوسته، وإغوائه.

وهي مفسدة للتدبير، منغصة للعيش، مسببة للخذلان.

وأعظم من ذلك أن الطيرة باب إلى الشرك؛ إذ هي منازعة لله في شرعه وقدره، وهي مفضية إلى أبواب الدجل والخرافة.

فإذا استحضر العاقل ضرر الطيرة أقصر عنها، ولم يعد يلتفت إليها.

٢ـ المجاهدة: فقد تكون الطيرة مستحكمة في الإنسان، متمكنة من عقله.

وعلاج ذلك بالمجاهدة، وترك الاسترسال مع ما يلقيه الشيطان في رُوعه، وبتكلف ذلك مرة إثر مرة حتى يزول أثر الطيرة من قلبه.

٣ـ الإيمان بالقضاء والقدر: وذلك بأن يعلم الإنسان علم اليقين بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه لن يصيبه إلا ما كتب له؛

فذلك يحسم مادة الطيرة، ويزيل أثرها من القلب؛ فمن سلم لله، واستسلم له لم يبق للخوف في قلبه موضع.

=وفي التسليم _ أيضاً _ فائدة لطيفة، وهي أنه إذا سلَّم نفسه لله فقد أودعها عنده، وأحرزها في حرزه، وجعلها تحت كنفه؛ حيث لا تنالها يدُ عدوٍّ عادٍ، ولا بغي باغٍ عاتٍ+[1].

٤_ إحسان الظن بالله: فذلك موجب لراحة القلب، وطمأنينة النفس، فالله _عز وجل_ عند ظن العبد به؛ فالمؤمن الحق يحسن ظنه بربه، ويعلم بأنه _عز وجل_ لا يقضي قضاءً إلا وفيه تمام العدل، والرحمة، والحكمة؛ فلا يتهم ربَّه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره.

وذلك يوجب له استواء الحالات عنده، ورضاه بما يختار له سيده، كما يوجب انتظار الفرج، وترقُّبَه.

وذلك يخفف حمل المشقة، ولا سيما مع قوة الرجاء، أو القطع بالفرج؛ فإنه يجد في حشو البلاء من رَوْح الفرج ونسيمه وراحته ما هو من خفي الألطاف، وما هو فرج مُعَجَّل.

٥_ التوكل على الله _عز وجل_: والتوكل في لسان الشرع إنما يراد به توجه القلب إلى الله حال العمل، واستمداد المعونة منه، والاعتماد عليه وحده؛ فذلك سر التوكل وحقيقته.

والشريعة أمرت العامل بأن يكون قلبه مطوياً على سراج من التوكل والتفويض،

---

١ ـ مدارج السالكين ٢/٣٢.

والذي يحقق التوكل هو القيام بالأسباب المأمور بها؛ فمن عطَّلها لم يصحَّ توكله.

فإذا توكل العبد على ربه، وسلم له، وفوض إليه أمره _ أمده الله بالقوة، والعزيمة، والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عُرْضةُ اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

وهذا يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات، والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى.

ومتى صح تفويضه، ورضاه اكتنفه في المقدورِ العطفُ عليه، واللطف فيه؛ فيصير بين عطفه ولطفه؛ فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهوِّن عليه ما قدِّر له.

ومع هذا فلا خروج للعبد عما قدر عليه؛ فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود، مشكور، ملطوف به[1].

وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به.

وصدق الله إذ يقول: [فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ] (آل عمران: ١٥٩).

٦_ الاستعاذة بالله: فالطيرة _كما مر_ من وساوس الشيطان، وتخويفه؛ فإذا استعاذ الإنسان بالله من الشيطان أعاذه الله منه، ووقاه من كيده ووسوسته.

قال _تعالى_: [وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ](فصلت:٣٦).

٧_ استعمال الاستخارة: فالاستخارة علاج نبوي ناجع لمن تعارضت عنده

---

١ ـ انظر الفوائد لابن القيم ص١٣٧ـ١٣٩ و١٧٨ـ١٧٩ و٢٠٠ـ٢٠٢.

الأمور، وصعب عليه الاختيار؛ فحري بمن أراد الإقدام على أمر يترتب عليه ما يترتب ألا يستهين بأمر الاستخارة؛ فهي تفتح له الأبواب، وتزيل عنه الحيرة، والتردد والاضطراب؛ فإذا أقدم على أمره _ أقدم ونفسه مطمئنة، وإذا أحجم أحجم وقد طابت نفسه منه.

ولهذا كان النبي "يعلم أصحابه الاستخارة.

عن جابر ÷ قال: =كان النبي "يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن يقول: =**إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري، أو قال: في عاجل أمري وآجله _ فاقدره لي.**

وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري، أو قال: في عاجل أمري وآجله _ فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رَضِّني به، ويسمي حاجته+[1].

قال ابن حجر ×: =الاستخارة هي استفعال من الخير، أو من الخِيَرَة بكسر أوله وفتح ثانيه بوزن العِنبة: اسم من قولك: خار الله له.

واستخار الله: طلب منه الخِيَرة، وخار الله له: أعطاه ما هو خير له.

١ ـ رواه البخاري (٦٣٨٢).

والمراد طلب خير الأمرين لمن احتاج إلى أحدهما+[١].

قال النووي ×: =وقال العلماء: تستحب الاستخارة بالصلاة، والدعاء المذكور، وتكون الصلاة ركعتين من النافلة، والظاهر أنها تحصل بركعتين من السنن الرواتب، وبتحية المسجد، وغيرها من النوافل، ويقرأ في الأولى بعد الفاتحة: [قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ]، وفي الثانية: [قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ].

ولو تعذرت عليه الصلاة استخار بالدعاء+[٢].

قال ابن حجر ×: =وأفاد النووي أنه يقرأ في الركعتين: الكافرون، والإخلاص.

قال شيخنا في شرح الترمذي: لم أقف على دليل ذلك، ولعله ألحقهما بركعتي الفجر، والركعتين بعد المغرب.

قال: ولهما مناسبة بالحال؛ لما فيهما من الإخلاص والتوحيد، والمستخيرُ محتاجٌ لذلك+[٣].

وقال ابن حجر ×: =قال ابن أبي جمرة: الحكمة في تقديم الصلاة على الدعاء أن المراد بالاستخارة حصول الجمع بين خيري الدنيا والآخرة؛ فيحتاج إلى قرع باب الملك، ولا شيء لذلك أنجع ولا أنجح من الصلاة؛ لما فيها من تعظيم الله، والثناء عليه، والافتقار إليه مآلاً وحالاً+[٤].

قال النووي ×: =ثم إن الاستخارة مستحبة في جميع الأمور، كما صرح به

---

١ ـ فتح الباري لابن حجر ١١/١٨٧.

٢ ـ الأذكار للنووي ص١١٠ـ١١١.

٣ ـ فتح الباري ١١/١٨٩.

٤ ـ فتح الباري ١١/١٨٩.

نص هذا الحديث الصحيح، وإذا استخار مضى بعدها لما ينشرح له صدره، والله أعلم+[١].

هذه بعض الأمور المعينة على علاج الطيرة، بل والوقاية منها لمن لم يقع فيها.

١ ـ الأذكار ص١١١.

خلاصة البحث

١ــ **الطيرة، والتطير** بمعنى واحد، **والطيرة**: هي التشاؤم من الشئ المرئي، أو المسموع، أو المعلوم.

٢ــ **سميت بذلك** إما من الطير؛ لأن العرب كانت تزجر الطير، أي ترسلها، وتتفاءل في أصواتها، وممراتها.

وإما من الطيران؛ وذلك لأن الإنسان إذا سمع أو رأى ما يكره ــ كأنه يطير بسبب ذلك.

ثم أطلق التطير على كل ما يتوهم أنه سبب في لحاق الشر أياً كان.

٣ــ **العيافة**:هي زجر الطير، وتنفيرها، وإرسالها، والتفاؤل بأسمائها، وأصواتها، وممراتها؛ فعن العيافة يكون الفأل، أو الطيرة.

٤ــ **الفأل** يقوي العزائم، ويحض على البغية، ويفتح أبواب الخير.

والطيرة تكسر النية، وتصد عن الوجهة، وتفتح أبواب الشر، وهذا من الفروق بينهما.

٥ــ جاء الإسلام بنفي الطيرة، وتحريمها، وبيان ضررها، وبيان أنها من صنيع أعداء الرسل.

٦ــ جاء الإسلام بالوقاية والعلاج من الطيرة، وذلك بإحسان الظن بالله، وصدق التوكل عليه، وترك الالتفات إلى الطيرة.

٧ــ حد الطيرة المنهي عنها أنها ما أمضى الإنسان، أو رَدَّه.

٨ــ الطيرة شرك بالربوبية؛ لما فيها من اعتقاد جلب النفع، ودفع الضر؛ وشرك

بالألوهية؛ لما فيها من التعلق بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

٩_ الطيرة كانت معروفة عند العرب، وكانوا مختلفين في مذاهبها ومراتبها؛ لأنها كانت خواطرَ، وحدوساً، وتخميناتٍ لا أصل لها.

١٠_ كانت العرب تتطير بأشياء كثيرة؛ فكانت تتطير بالعطاس، وبالغراب، وبالسوانح، والبوارح، وبالصرد، وبالثور المكسور القرن، وببعض الأسماء، وذوي العاهات، وبعض الأيام، والشهور.

١١_ من العرب من أنكر الطيرة بعقله، ونفى تأثيرها بنظره، وذم من اغترَّ بها، واعتمد عليها، وتوهم تأثيرها.

١٢_ هناك وقائع تذكر، وتدل على وقوع الطيرة.

وتوجيه ذلك أنه لا ينكر موافقة القضاء لهذه الأسباب؛ لأن البلاء قد يكون موكلاً بالمنطق، ولأن الطيرة على من تطير، والله _عز وجل_ نصب لها أسباباً تدفعها من التوكل عليه، وإحسان الظن به، وإعراض القلب عن غيره.

ثم إن أكثر ما يُتطير به لا يقع، ولكن الناس ينقلون ما صح، وما وقع، ويُعْنَون به، فَيُرَى كثيراً مع أن الكاذب أكثر من أن ينقل.

١٣_ الطيرة تضر من أشفق منها، وخاف، وأتبعها نفسه، وأكثر العناية بها، أما من لم يبال بها فلا تضره شيئاً، ولاسيما إذا قال عند رؤية ما يتطير به، أو سماعه: =**اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**+.

١٤_ المتطير إنسان ضيق الصدر، مغلق النفس، فاتر الهمة، ثقيل الظل، كسول متبلد؛ جبان رعديد.

١٥_ المتفائل واسع النظرة، فسيح الصدر، عالي الهمة، موفور النشاط.

١٦_ هناك أمور كثيرة تُدفع بها الطيرة، وقد ورد ذكر لشيء منها.

هذا ملخص لأهم ما ورد في البحث، وأخيراً أسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن يرزقنا خوفه، وخشيته، والتوكل عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

الرسالة السادسة عشرة

الإيمان: حقيقته
وما يتعلق به من مسائل

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد.

فإن باب الإيمان وما يتعلق به من مسائل يعد من أعظم أبواب العقيدة، وأجلِّها قدراً؛ وذلك لما للإيمان من أهمية بالغة، وثمرات يانعة؛ فهو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة؛ وبوجوده تقبل الأعمال وإن قلت، وبعدمه تُرَدُّ وإن كثرت وتنوعت؛ فإذا كان مع العبد قُبِلت منه أعمالُ الخير، وإذا فَقَده لم يُقْبَل منه عدل ولا صرف؛ فالإيمان الصحيح عنوان سعادة العبد، وسبيل فلاحه في العاجل والآجل؛ فخير الدنيا والآخرة كلُّه فرعٌ عن الإيمان، ومترتبٌ عليه.

والهلاك والنقص إنما هو بسبب فَقْدِهِ، أو نقصِه؛ لذا فإن العنايةَ بباب الإيمان، والوقوفَ على مسائله، وفَهْمَها ــ ولو على سبيل الإجمال ــ من الأهمية بمكان؛ فذلك موصلٌ ــ بإذن الله ــ إلى رضوان الله، وعاصم من الانحراف في العمل، وقائد إلى الاعتدال في الأحكام بعيداً عن إفراط الغالين، وتفريط الجافين.

وكم ضلَّ بسبب الجهل والانحراف فيه من أفهام، وزلَّ من أقدام.

والكلام في هذا الكتاب مشتمل على خلاصات مختصرة، ونُبَذٍ موجزة في هذا الباب، وقد جاء عنوانه حاملاً المسمَّى الآتي:

(الإيمان: حقيقته، وما يتعلق به من مسائل).

وسيكون البحث فيه من خلال مدخلٍ، وستة فصول، وخاتمة، وذلك على النحو التالي:

ــ مدخل

الفصل الأول: ثمرات الإيمان، ومفهوم الإسلام والإيمان.

الفصل الثاني: زيادة الإيمان ونقصانه، ومراتبه.

الفصل الثالث: الاستثناء في الإيمان.

الفصل الرابع: في الكفر والتكفير.

الفصل الخامس: موانع التكفير.

الفصل السادس: الصغائر والكبائر، وموانع إنفاذ الوعيد.

الخاتمة: وتحتوي على ملخص لأهم ما ورد في البحث.

فهذه الفصول وما يندرج تحتها من مباحث ستكون محور الحديث في الصفحات التالية التي آمل أن تجمع أكثر ما تناثر من مسائل الإيمان بشيء من الإيجاز.

ومن أراد التفصيل في هذا الباب فهناك كتب عُنيت بكل مسألة على حدة، وقد ذكر شيء منها في تضاعيف هذا الكتاب.

وقد يسر الله تقييد هذه المسائل؛ لكي تكون معينةً لي على إلقاء بعض الدروس في هذا الباب، ثم رغبت في نشرها؛ رجاء عموم النفع؛ فأسأل الله ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ـ أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مدخل

مدخل

باب الإيمان ــكما مرــ في المقدمة من أعظم أبواب العقيدة، وهو مشتمل على مسائل كثيرة ذُكرت أصولُها في المقدمة من خلال استعراض فصول الكتاب، وسيرد ذكر تفاصيلها في تضاعيفه.

وللعلامة الشيخ حافظ الحكمي منظومة في العقيدة اسمها (سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد) وعدد أبياتها ٢٩٠ بيتاً.

وقد شرحها في كتاب عظيم نافع اسمه (معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد).

وهذه المنظومة حوت مباحث العقيدة عموماً، وفي ضمنها تسعة أبيات تَعَرَّضَ من خلالها لجملة من أهم مسائل الإيمان؛ فرغبت في أن تكون تلك الأبيات مدخلاً لهذا الكتاب؛ ليسهل على القارئ حفظها، واستحضار تلك المسائل من خلالها.

يقول ×:

إيمانُنا يزيدُ بالطاعاتِ ونقصُه يكون بالزلاتِ

وأهلُه فيه على تفاضلِ هل أنتَ كالأملاكِ أو كالرُّسُلِ

والفاسقُ المِلِّيُّ ذو العصيانِ لم يُنْفَ عنه مطلَقُ الإيمانِ

لكنْ بقدرِ الكفرِ والمعاصي إيمانُه ما زال في انتقاصِ

ولا نقولُ إنه في النارِ مخلدٌ بل أمرُه للباري

تحتَ مشيئةِ الإلهِ النافذهْ إن شَا عفا عنه وإن شَا آخذه

بقـــــدرِ ذنبِـــــه وإلى الجنـــــانِ يُخْـــرَجُ إن مـــات علـــى الإيمـــانِ

ولا نُكَفِّـــرْ بالمعاصـــي مؤمنـــا إلا مـــع اســـتحلالِه لمـــا جَـــنَى

وتُقْبَـــلُ التوبـــةُ قبـــل الغَرْغَـــرَهْ كمـــا أتـــى في الشِّـــرْعَةِ المطهـــرهْ[1]

---

١ ـ معارج القبول ١/٧٠ تحقيق الشيخ محمد صبحي بن حسن حلاق.

الفصل الأول

ثمرات الإيمان، ومفهوم الإسلام والإيمان

وتحته:

المبحث الأول: ثمرات الإيمان.

المبحث الثاني: مفهوم الإسلام والإيمان.

المبحث الثالث: العلاقة بين الإسلام والإيمان.

المبحث الأول: ثمرات الإيمان

مر في مقدمة الكتاب ذِكْرٌ مجمل لبعض ثمرات الإيمان، ولا ريب أن أهمية الشيء تتجلى أعظم التجلي بمعرفة ثمراته، وفوائده.

وقد عقد الشيخ عبدالرحمن السعدي × في كتابه القيم (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن) فصلاً خاصاً بثمرات الإيمان، وقد ذكر تحته جملة نافعة في هذا الشأن.[1]

قال ×: =اعلم أن خير الدنيا والآخرة من ثمرات الإيمان الصحيح، وبه يحيى العبد حياة طيبة في الدارين، وبه ينجو من المكاره والشرور، وبه تخف الشدائد، وتُدْرَك جميع المطالب، ولْنُشِرْ إلى هذه الثمرات على وجه التفصيل؛ فإن معرفة فوائد الإيمان وثمراته من أكبر الدواعي إلى التزود منه+[2].

ثم شرع×في ذكر تفاصيل ثمرات الإيمان وفوائده، وإليك ملخصها فيما يلي:

١ــ أنه سبب رضا الله الذي هو أكبر شيء.

٢ــ أن ثواب الآخرة ودخول الجنة والتنعم بنعيمها، والنجاة من النار وعقابها، إنما يكون بالإيمان.

٣ــ أن الله يدفع ويدافع عن الذين آمنوا شرور الدنيا والآخرة.

٤ــ أن الله وعد المؤمنين القائمين بالإيمان حقيقةً بالنصر والتأييد.

---

١ ـ انظر الشيخ عبدالرحمن السعدي، وجهوده في توضيح العقيدة للشيخ د. عبدالرزاق البدر ص٢٩٦ـ٢٩٨.

٢ ـ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ص١٣٠.

٥ــ أن الهداية من الله للعلم والعمل، ولمعرفة الحق وسلوكه هي بحسب الإيمانِ، والقيامِ بحقوقه.

٦ــ أن الإيمان يدعو إلى الزيادة من علومه، وأعماله الظاهرة والباطنة.

٧ــ أن المؤمنين بالله، وبكماله، وعظمته، وكبريائه، ومجده ــ أعظم الناس يقيناً، وطمأنينةً، وتوكلاً على الله، وثقةً به.

٨ــ أنه لا يمكن للعبد أن يقوم بالإخلاص لله، ولعباد الله، ونصيحتهم على وجه الكمال ــ إلا بالإيمان.

٩ــ أن المعاملاتِ بين الخلق لا تَتِم، وتقوم إلا على الصدق، والنصح، وعدم الغش، ولا يقوم بذلك حقيقةً إلا المؤمنون.

١٠ــ أن الإيمانَ أكبرُ عونٍ على تحمل المشقات، والقيام بأعباء الطاعات، وترك الفواحش التي في النفوس داعٍ قويٌّ إلى فعلها؛ فلا تتم هذه الأمور إلا بقوة الإيمان.

١١ــ أن العبد لابد أن يصاب بشيء من الخوفِ، والجوع، ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمراتِ، والإيمانُ أكبرُ عونٍ على تحمل هذه المصائب.

١٢ــ أن الإيمان يوجب للعبد قوةَ التوكل على الله؛ لعلمه وإيمانه أن الأمور كلَّها راجعةٌ إلى الله، ومندرجةٌ في قضائه وقدره.

١٣ــ أن الإيمان يشجع العبد، ويزيد الشجاع شجاعة؛ فإنه لاعتماده على الله العزيز الحكيم، ولقوة رجائه، وطمعه فيما عنده ــ تهون عليه المشقات، ويُقْدِمُ على المخاوف واثقاً بربه، راجياً له، راهباً من نزوله من عينه؛ لخوفه من المخلوقين.

١٤ــ أن الإيمان هو السبب الأعظم؛ لتعلق القلب بالله في جميع مطالبه الدينية

والدنيوية.

١٥_ أن الإيمان يدعو إلى حسن الخلق مع جميع الناس، وإذا ضعف الإيمان، أو نقص، أو انحرف _ أثّر ذلك في أخلاق العبد انحرافاً بحسب بُعده عن الإيمان.

١٦_ أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار بالكلية، كما منع صاحبه في الدنيا من عمل المعاصي، والإيمان الناقص يمنع الخلود في النار.

١٧_ أن الإيمان يوجب لصاحبه أن يكون مُعْتَبَراً عند الخلق أميناً، ويوجب للعبد العفة عن دماء الناس، وأموالهم، وأعراضهم.

١٨_ أن قويَّ الإيمان يجد في قلبه من ذوق حلاوته، ولذةِ طعمِه، واستحلاءِ آثاره، والتلذذِ بعبادة ربه، وأداء حقوقه، وحقوق عباده التي هي موجب الإيمان وأثره؛ فالمؤمن يتقلب في لذات الإيمان، وحلاوته المتنوعة.

١٩_ أن الإيمان هو السبب الوحيد للقيام بذروة سنام الدين، وهو الجهاد البدني، والمالي، والقولي في سبيل الله.

ثم قال × بعد ذكره لهذه الجملة الكبيرة النافعة من ثمرات الإيمان: =وهذا كله من ثمرات الإيمان، ومن تمامه وكماله.

و بالجملة فخير الدنيا والآخرة كله فرع عن الإيمان ومترتب عليه، والهلاك والنقص إنما يكون بفقد الإيمان ونقصه+[1].

---

١ ـ تيسير اللطيف المنان ص١٣٠ـ١٣٤.

المبحث الثاني: مفهوم الإسلام والإيمان

أولاً: مفهوم الإسلام

أـ **الإسلام لغة:** هو الاستسلام، والانقياد، وإظهار الخضوع، والقبول.[1]

بـ **الإسلام في الشرع:** هو إظهار الخضوع لله، وإظهار الشريعة، والتزام ما أتى به النبي".[2]

أو: هو استسلام العبد لله ظاهراً وباطناً، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

وعلى هذا يكون الإسلام شاملاً للدين كله، قال الله ـتعالىـ: [وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً] المائدة:٣.

وقال ـعز وجلـ: [إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسلام] آل عمران:١٩.

وقال: [وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ]آل عمران: ٨٥.[3]

ثانياً: مفهوم الإيمان

أـ **الإيمان في اللغة:** للإيمان في لغة العرب استعمالان:

أحدهما: أن يتعدى لفظ الإيمان بنفسه؛ فيكون بمعنى التأمين، أي إعطاء الأمان، وآمنته: ضد أخفته.

ومنه قوله ـتعالىـ: [وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ] قريش:٤.

---

١ ـ انظر لسان العرب لابن منظور ١٢/٢٩٣ـ٢٩٤.

٢ ـ انظر لسان العرب ١٢/٢٩٣.

٣ ـ انظر فتح البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد بن عثيمين ص٩٤.

والثاني: أن يتعدى بحرف الجر؛ فيكون معناه التصديق، كما في قوله ـ تعالى ـ: [وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا] يوسف:١٧، أي بمصدق.[١]

ب ـ الإيمان في الشرع: ذهب عامة أهل السنة إلى أن الإيمان الشرعي: اعتقاد، وقول، وعمل.

وبعضهم يقول: قول، وعمل.

وبعضهم يقول: قول، وعمل، ونية.

وبعضهم يقول: قول، وعمل، وعقيدة.

وقال بعضهم: هو التصديق بالقلب، والعمل بالأركان.

والنصوص عن الأئمة كثيرة جداً في قولهم: إن الإيمان قول وعمل.

وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم كابن عبدالبر × في كتابه التمهيد.[٢]

ولا فرق بين تلك الأقوال السابقة؛ فكل ذلك من باب اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد؛ فمن قال من السلف: إن الإيمان قول وعمل أراد قولَ القلبِ واللسانِ، وعملَ القلبِ والجوارحِ.

ومن زاد الاعتقاد رأى أن لَفْظَ القولِ لا يُفْهَمُ منه إلا القولُ الظاهر، أو خَشِيَ

---

١ ـ انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٦٩/١ـ٧١، ونواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف د. محمد الوهيبي ٣١/١ـ٣٤.

٢ ـ انظر التمهيد لابن عبدالبر ٢٣٨/٩، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٠٨/٧ و٤٧٢/١٢، وانظر تفسير ابن كثير ٣٩/١، وفتح الباري لابن حجر ٤٧/١، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٨٣٢/٤.

ذلك؛ فزاد الاعتقاد بالقلب.

ومن قال: قول وعمل ونية، أراد أن القول يتناول الاعتقادَ (قول القلب) وقولَ اللسان.

وأما العمل فقد لا يفهم منه النية التي هي عمل القلب؛ فزاد ذلك.[١]

وخلاصة ما سبق من حقيقة الإيمان الشرعي: **أنها حقيقة مركبة من قول، وعمل.**

والقول قسمان: قول القلب: وهو إقراره، واعتقاده.

وقول اللسان: وهو التكلم بكلمة الإسلام، أي النطق بالشهادتين، والإقرار بلوازمهما.

والعمل قسمان: عمل القلب: وهو نيتُه وإخلاصه، ومحبته، وانقياده، ونحوها من القربات التي هي من عمل القلب، كالخشية، والإنابة، والخشوع، والتوكل، والمحبة، والخوف، والرجاء.

وعمل اللسان والجوارح: وذلك كثير جداً؛ فعمل اللسان هو سائر القربات التي لا تؤدى إلا به كتلاوة القرآن، وسائر الأذكار، ونحو ذلك مما طريقه اللسان.

وعمل الجوارح: هو مما لا يُؤَّدى إلا بها كالقيام، والركوع، والسجود، والمشي إلى مراضي الله كالخطا إلى المساجد، وإلى الحج، ونحو ذلك.[٢]

وبهذا يتبين لنا: أن الإيمان اسم جامع لعقائد القلب، وأعماله، وأعمال

---

١ ـ انظر نواقض الإيمان الاعتقادية ١/٣٦.

٢ ـ انظر الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص٥٤.

الجوارح، وأقوال اللسان؛ فجميع الدين أصوله، وفروعه داخل في الإيمان.

فهذا هو الإيمان الشرعي عند السلف؛ فهو شامل للعقائد، وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح.

وفي هذا من النصوص ما لا يعد ولا يحصى.[1]

ومن أجلى الأدلة على ذلك ما جاء في حديث جبريل المشهور، قال النبي": =الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره+.[2]

وقال _عليه الصلاة والسلام_ في حديث الشعب: =الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان+.[3]

فالإيمان بالله وملائكته.....: اعتقاد القلب.

وقول لا إله إلا الله: قول اللسان.

وإماطة الأذى عن الطريق: عمل الجوارح.

والحياء: عمل القلب.

بل إن تعريف الإيمان يمكن تنزيله على جميع الأعمال الصالحة.

ومن الأمثلة على ذلك: الصلاة؛ فالصلاة تشتمل على قول القلب من جهة أن المؤمن يُقِرُّ بقلبه بوجوبها وفرضيتها.

---

١ ـ انظر توضيح الكافية الشافية لابن سعدي ص٨، والفتاوى السعدية ص١٧.

٢ ـ أخرجه مسلم (٨).

٣ ـ أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥).

وتشتمل على قول اللسان من جهة أن المؤمن يقول ذلك بلسانه؛ بحيث لو سئل لقال بوجوبها.

وتشتمل على عمل القلب من جهة أن المؤمن يؤدي الصلاة بنية، وإخلاص وخشوع، ومحبة لله، ورغبة فيما عنده، وخوفاً من عقابه ـ عز وجل ـ.

وتشتمل على عمل اللسان من جهة أن المصلي يؤدي بلسانه جميع أقوال الصلاة من أذكار، وتلاوة، وأدعية.

وتشتمل على عمل الجوارح من جهة أن المصلي يقوم، ويقعد، ويركع ويسجد، ويحرك سائر جوارحه في الصلاة.

وهكذا انطبق تعريف الإيمان على الصلاة؛ ولهذا سميت إيماناً كما قال الله ـ عز وجل ـ: [وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ] البقرة:١٤٣.

أي صلاتكم إلى بيت المقدس.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً كالصيام، والحج، وسائر القربات؛ حيث يمكن تنزيلُ تعريف الإيمان عليها.

المبحث الثالث: العلاقة بين الإسلام والإيمان

من خلال ما مضى يتبين لنا أن الإسلام يشمل الدين كله، والإيمان يشمل الدين كله، وذلك حينما ينفرد أحدهما عن الآخر، أما إذا اقترن أحدهما بالآخر **فإن الإسلام يفسر بالاستسلام الظاهر** الذي هو قول اللسان، وعمل الجوارح، ويَصْدُرُ من المؤمن كامل الإيمان، وضعيف الإيمان.

قال الله ــتعالىــ: [قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] الحجرات:١٤ .

ويصدر ــكذلكــ من المنافق لكن يُسمّى مسلماً ظاهراً، ولكنه كافر باطناً.

ويفسر الإيمان بالاستسلام الباطن الذي هو إقرار القلب، وعمله، ولا يصدر إلا من المؤمن حقًّا، كما قال ــتعالىــ: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣)] الأنفال.

وبهذا المعنى يكون الإيمان أعلى، فكل مؤمن مسلم؛ ولا عكس.[1]

وبالجملة فإن الإسلام والإيمان إذا أطلق أحدهما شمل الدين كلَّه أصولَه وفروعَه من اعتقاداتِه، وأقوالِه، وأفعالِه؛ فيكونان بهذا الاعتبار مترادفين يدل أحدُهما على الآخر.

أما إذا قُرِنَ بينهما، وذُكِرا معاً في سياق واحد فإنهما بهذا الاعتبار يفترقان،

١ ـ انظر فتح رب البرية ص٩٤ـ٩٥.

ويكونان متباينين؛ فيراد بالإسلامِ حينئذٍ الأعمالُ والأقوالُ الظاهرةُ، ويراد بالإيمانِ الاعتقاداتُ.

ومن تأمل النصوصَ الواردة في ذلك تبين له هذه العلاقةُ بين الإسلام والإيمان كما في النصوص التي مرت، وكما في قوله _تعالى_:[إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ] الأحزاب:٣٥.

وكما في حديث جبريل _عليه السلام_ الذي رواه عمر ÷: =ما الإسلام، وما الإيمان+.

يقول العلامة الشيخ عبدالرحمن السعدي × مقرراً هذا الأصل: =اعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح.

وهو _بهذا الاعتبار_ يدخل فيه الإسلام، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها؛ فهي من الإيمان، وأثر من آثاره؛ فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر.

وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان.

فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسماً لما في القلب من الإقرار، والتصديق، والإسلامُ اسماً للأعمال الظاهرة+[1].

---

١ _ تفسير السعدي ١/١٤٤.

الفصل الثاني

زيادة الإيمان ونقصانه، ومراتبه

وتحته:

المبحث الأول: زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث الثاني: المخالفون في باب الإيمان.

المبحث الثالث: مراتب الإيمان، وطبقات الناس فيه.

المبحث الرابع: أسباب زيادة الإيمان.

المبحث الخامس: أسباب نقص الإيمان.

المبحث الأول: زيادة الإيمان ونقصانه

من أصول أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة.

فمن أدلة الكتاب، قوله _تعالى_: [لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ] الفتح:٤.

ومن أدلة السنة، قوله " في النساء: =ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن+[١].

ففي الآية إثبات زيادة الإيمان، وفي الحديث إثبات نقص الدين.

وكلُّ نصٍّ يدل على زيادة الإيمان فإنه يتضمن الدلالة على نقصه، وبالعكس؛ لأن الزيادة والنقص متلازمان، لا يُعْقَل أحدهما دون الآخر.[٢]

ومن الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه قوله _تعالى_: [وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)] التوبة.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي في تفسير هذه الآيات: =وفي هذه الآيات دليل

١ ـ أخرجه البخاري (٣٠٤) و(١٤٦٢) و(٨٠).

٢ ـ انظر فتح رب البرية ص٩٦.

على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه، ويتعاهده، فيجدده، وينميه؛ ليكون دائماً في صعود+[1].

وقال × عند تفسيره لقوله _تعالى_: [وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى] مريم:٧٦: =وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه كما قال السلف الصالح.

ويدل عليه قوله _تعالى_: [وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً] المدثر:٣١، [وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانَاً] الأنفال:٢.

ويدل عليه _أيضاً_ الواقع؛ فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت+[2].

وقد ثبت لفظ الزيادة والنقص في الإيمان عن الصحابة، ولم يعرف منهم مخالف فيه، وجمهور السلف على ذلك.

قال الإمام البخاري ×: =لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار؛ فما رأيت أحداً يختلف في أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص+[3].

---

١ ـ تفسير السعدي ٣/٣١٧.

٢ ـ تفسير السعدي ٥/٣٣.

٣ ـ ذكره الحافظ في الفتح ١/٤٧، وانظر إلى معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي ٣/١١٧٧ـ١١٨٠، وزيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه للشيخ الدكتور عبدالرزاق البدر ص١٢٣ ـ ١٤٩ حيث أورد نقولاً كثيرة عن السلف في هذا السياق، والكتاب المذكور يكاد يكون أحسن ما كتب في بابه.

وانظر كذلك إلى كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية ١/٨٢ـ٩٣.

المبحث الثاني: المخالفون في باب الإيمان

أشهر من خالف في باب الإيمان طائفتان:

الأولى: الوعيدية من الخوارج[١] **والمعتزلة**[٢]، الذين أخرجوا أهل الكبائر من الإيمان، وقالوا: إن الإيمان إما أن يوجد كله، وإما أن يعدم كله، ومنعوا من تفاضله[٣].

الثانية: المرجئة[٤] **الخالصة** الذين يقولون: إن الإيمان إقرار القلب، وزعموا أن

---

١ ـ الخوارج: فرقة ظهرت في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه عام ٣٧هـ، حيث اعترضوا على قبول التحكيم مع أنهم هم الذين أكرهوا عليًّا على قبوله عندما رفع أصحاب معاوية رضي الله عنه المصاحف.

ولمّا ذكَّرهم بإكراههم له، قالوا: «ولكنَّ ذلك كان منَّا كفراً؛ فقد تبنا إلى الله ـعز وجل ـ منه؛ فتب كما تبنا نبايعْك».

ثم بعد ذلك خرجوا عن جماعة المسلمين، وصاروا يكفِّرون بالكبائر ولو كانت دون الشرك.

وكانت مقالتهم أول مقالة فرَّقت الأمة. انظر الملل والنحل للشهرستاني ١/١١٤، والمقالات ١/٥٦، وتاريخ الطبري ١/٥٧ و٦٦ و٧٢.

٢ ـ المعتزلة: فرقة نشأت ما بين سنة ١٠٥هـ ـ ١١٠هـ، حين انفصل واصل بن عطاء عن الحسن البصري، حين خالف الحسنَ في حكم مرتكب الكبيرة، وزعم أنه في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، فسُمِّي هو ومن تابعه المعتزلة؛ لاعتزالِهم الحسنَ، وقولِ الأمة في حكم مرتكب الكبيرة، وزعمِهم أن صاحب الكبيرة قد اعتزل الكافرين والمؤمنين. انظر الفرق بين الفرق ص٢٠ـ٢١، والمعتزلة وأصولهم الخمسة، وموقف أهل السنة منها، د. عواد بن عبدالله المعتق ص٢٨٣.

٣ ـ انظر فتح رب البرية ص٩٧.

٤ ـ المرجئة: سُمُّوا بذلك من الإرجاء، وهو تأخير العمل عن مسمى الإيمان، وأول ما ظهر الإرجاء إنما كان ردَّ فعل للخوارج عندما كفَّروا الحكمين، وعليَّ بن أبي طالب.

=

إقرار القلب لا يتفاوت؛ فالفاسق والعدل عندهم سواء في الإيمان.

فالوعيدية والمرجئة يرون أن الإيمان حقيقة واحدة، إما أن يوجد كله، أو أن يذهب كله.

ولكنهم اختلفوا في كيفية وجوده وعدمه؛ **فالوعيدية** يرون أنه لا بد في الإيمان من الإتيان بجميع الواجبات، وترك جميع المحرمات؛ فإذا تخلف شيء من ذلك ذهب الإيمان.

والمرجئة يرون أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

يقول الشيخ حافظ الحكمي × مبيناً مذهب الوعيدية من الخوارج والمعتزلة في باب الإيمان: =وما تمسك به الخوارج والمعتزلة وأضرابهم من التشبث بنصوص الكفر، والفسوق الأصغر، واستدلالهم به على الأكبر ــ فذلك مما جَنَتْهُ أفهامُهم الفاسدةُ، وأذهانُهم البعيدة، وقلوبُهم الغلفُ؛ فضربوا نصوص الوحي بعضَها ببعض، واتبعوا ما تشابه؛ منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله

فقالت الخوارج: المصِرُّ على كبيرة من زناً، أو شربِ خمرٍ، أو رباً ــ كافرٌ مرتدٌ، خارجٌ من الدين بالكلية لا يُصَلَّى عليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين، ولو أقر لله ــتعالىــ بالتوحيد وللرسول"بالبلاغ، وصلى، وصام، وزكى، وحجَّ، وجاهد.

= وأول من تكلم في الإرجاء: الحسن بن محمد بن الحنفية المتوفى عام ٩٩، وقد ذكر ذلك كلَّ مَنْ ترجم له، وكان رَحِمَهُ اللهُ يقول: «لوددت أني كنت مِتُّ، ولم أكتبه».

وهو محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقد اشتهر بالنسبة إلى أمه، وهي من بني حنيفة، وكان من أعلم الناس بالاختلاف، وكان من أوثق الناس. انظر طبقات ابن سعد ٥/٣٢٨، والفَرْق بين الفِرَق للبغدادي ٢٠٢، والتهذيب لابن حجر ٢/٣٢٠.

وهو مخلد في النار أبداً مع إبليس وجنوده، ومع فرعون وهامان وقارون

وقالت المعتزلة: العصاةُ ليسوا مؤمنين ولا كافرين، ولكن نُسمِّيهم فاسقين؛ فجعلوا الفِسْقَ منزلةً بين المنزلتين، ولكنهم لم يحكموا به بمنزلة في الآخرة بين المنزلتين، بل قضوا بتخليده في النار أبدا كاالذين قبلهم فوافقوا الخوارج مآلاً، وخالفوهم مقالاً، وكان الكلُّ مخطئين ضلالاً+[1].

وقال × مقرراً مذهب المرجئة: =وقابل ذلك _أي ضلال الخوارج_ المرجئة؛ فقالوا: لا تضر المعاصي مع الإيمان لا بنقصٍ، ولا منافاةٍ، ولا يدخل النار أحدٌ بذنب دون الكفر بالكلية، ولا تفاضل عندهم بين إيمان الفاسق الموحد وبين إيمان أبي بكر وعمر، حتى ولا تفاضل بينهم وبين الملائكة، لا ولا فرق عندهم بين المؤمنين والمنافقين؛ إذ الكل مستوفي النطقِ بالشهادتين+[2].

فهذه هي خلاصة مذاهب المخالفين في باب الإيمان من الوعيدية، والمرجئة.

أما أهل السنة فيرون _كما مر_ أن الإيمان حقيقة مركبة؛ فليس كل ذنب يذهب بالإيمان؛ بل هناك من الذنوب ما يُذْهِبُ أصلَ الإيمان، وهناك ما يُذْهِبُ كمالَهُ الواجب، وهناك ما يُذْهِبُ كمالَه المستحبَّ.

ويرون أن الإيمان يتفاوت؛ فليس على درجة واحدة.

---

١ ـ معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد للشيخ حافظ الحكمي ١١٩٣/٣_١١٩٤.

٢ ـ معارج القبول ١١٩٤/٣.

يقول الشيخ العلامة محمد بن عثيمين×بعد إيراده كلام المرجئة والوعيدية: =وكل من هاتين الطائفتين محجوج بالسمع والعقل.

أما السمع فقد تقدّم في النصوص ما دل على إثبات زيادة الإيمان ونقصه.

وأما العقل فنقول للمرجئة: قولكم: إن الإيمان هو إقرار القلب، وإقرار القلب لا يتفاوت، ممنوع في المقدمتين جميعاً.

أما المقدمة الأولى: فتخصيصكم الإيمان بإقرار القلب مخالف لما دلّ عليه الكتاب والسنة من دخول القول والعمل في الإيمان.

وأما المقدمة الثانية: فقولكم: إن إقرار القلب لا يتفاوت مخالف للحس؛ فإن من المعلوم لكل أحد أن إقرار القلب إنما يَتْبَعُ العلمَ؛ ولا ريب أن العلمَ يتفاوت بتفاوت طرقه؛ فإن خبر الواحد لا يفيد ما يفيده خبرُ الاثنين وهكذا، وما أدركه الإنسانُ بالخبر لا يساوي في العلم ما أدركه بالمشاهدة؛ فاليقين درجاتٌ متفاوتةٌ، وتفاوتُ الناس في اليقين أمرٌ معلومٌ.

بل الإنسان الواحد يجد من نفسه أنه يكون في أوقات وحالات أقوى منه يقيناً في أوقات وحالات أخرى+.

ويضيف × قائلاً: =كيف يصح لعاقل أن يحكم بتساوي رجلين في الإيمان **أحدهما**: مثابر على طاعة الله ــتعالىــ فرضها ونفلها، متباعد عن محارم الله، وإذا بدرت منه المعصية بادر إلى الإقلاع عنها والتوبة منها.

والثاني: مُضيّع لما أوجب الله عليه، ومنهمك فيما حرّم الله عليه، غير أنه لم يأت ما يكفره، كيف يتساوى هذا وهذا؟!

وأما الوعيدية، فنقول لهم: قولكم: إن فاعل الكبيرة خارج من الإيمان مخالف

لما دل عليه الكتاب والسنة، فإذا تبين ذلك فكيف نحكم بتساوي رجلين في الإيمان؟ **أحدهما**: مقتصد فاعل للواجبات، تارك للمحرّمات.

والثاني: ظالم لنفسه يفعل ما حرم الله عليه، ويترك ما أوجب الله عليه من غير أن يفعل ما يكفر به؟!

ونقول ثانياً: هب أننا أخرجنا فاعل الكبيرة من الإيمان، فكيف يمكن أن نحكم على رجلين بتساويهما في الإيمان وأحدهما مقتصد، والآخر سابق بالخيرات بإذن الله؟!+.[1]

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة في المبحث التالي عند الحديث عن مراتب الإيمان، وطبقات الناس فيه.

---

١ ـ فتح رب البرية ٩٧ـ٩٨.

المبحث الثالث: مراتب الإيمان، وطبقات الناس فيه

الإيمان مراتب، والناس فيه على طبقات، وهم فيه على تفاوت وتفاضل؛ فمنهم من ليس معه إلا أصلُ الإيمان، والحدُّ الأدنى منه.

ومنهم من بلغ فيه درجات الكمال الواجب أو المستحب، وفيما يلي بيان لمراتب الإيمان، وطبقات الناس فيه بإيجاز.

١ـ الإيمان المجمل، أو مطلق الإيمان: والمقصود به الحد الأدنى من الإيمان الذي هو شرطُ صحةِ الإيمان، والنجاةِ من الخلود في النار في الآخرة إن مات صاحبه على ذلك.

وبه تثبت الأحكام من فرائض، ومواريث، وحقوق، وحدود، وذبائح، ومناكحة، ونحو ذلك.

وهذه المرتبة يُطلق على صاحبها اسم: الإسلام، أو الإيمان المقيِّد، فيقال: مسلم، أو مؤمن ناقص الإيمان، أو: فاسق؛ فيدخل تحت هذه المرتبة أهل الكبائر عموماً، وكذلك مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أهل الطاعة ممن لم تدخلْ حقائقُ الإيمان قلوبهم.[1]

ويَصِحُّ أن يطلق على من كان من أهل تلك المرتبة: مرتبة الظالم لنفسه.

٢ـ الإيمان المطلق الواجب: ويقال عنه الإيمان الكامل الواجب، أو الإيمان المفصَّل، أو حقيقة الإيمان.

ويكون صاحبه ممن يؤدي الواجبات، ويجتنب الكبائر، وهو ممن وعد بالجنة بلا

---

١ ـ انظر كتاب الإيمان لابن تيمية ٢٥٧ـ٢٥٨، ونواقض الإيمان الاعتقادية ١/ ٩٦ـ٩٧.

عذاب.

وأهل هذه المرتبة متفاوتون على حسب تورعهم عن الصغائر التي تُكَفَّرُ بفعل الحسنات، واجتناب الكبائر؛ فمن كان أحرص على اجتناب الصغائر كان أكمل ممن يغشاها.[1]

وهذه المرتبة يصح أن تسمى مرتبة المقتصدين الأبرار.

٣_ الإيمان المطلق المستحب: وهي مرتبةُ الإيمان الكامل بالمستحبات، ومرتبةُ الإحسان، ومرتبةُ المقربين السابقين بالخيرات.

وصاحب هذه المنزلة لا يكتفي بفعل الواجبات، وترك المحرمات، بل يضيف إليها فعل المستحبات، وترك المكروهات.

وهذا حالُه في عامة الأعمال، كالصلاة، والصدقة، والصوم، والحج، وغيره.

فهذه مراتب الإيمان؛ فمن قَصَّر بالواجبات فهو الظالم لنفسه، ومن أتى بالواجبات فحسب فهو من أهل الإيمان الواجب، ومن زاد على ذلك فأتى بالمستحبات، وتَجَنَّبَ المكروهاتِ فهو من أهل الإيمان المستحب.

وقد ورد في القرآن الكريم الإشارة إلى ذلك في عدة مواطن كما في قوله _تعالى_: [ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ] فاطر:٣٢.[2]

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي ×: =قسم الله المؤمنين إلى ثلاث طبقات:

---

١ ـ انظر الإيمان لابن تيمية ص٣٣٧، ومعارج القبول ١١٨١/٣ـ١١٩٠، ونواقض الإيمان الاعتقادية ٩٧/١.

٢ ـ انظر نواقض الإيمان الاعتقادية ٩٨/١.

سابقون بالخيرات: وهم الذين أدوا الواجبات، والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات؛ فهؤلاء هم المقربون.

ومقتصدون: وهم الذين أدوا الواجبات، وتركوا المحرمات.

وظالمون لأنفسهم: وهم الذين تجرؤوا على بعض المحرمات، وقصروا في بعض الواجبات على بقاء أصل الإيمان معهم+[١].

ويمكن أن تنزل مراتب الدين الثلاث على الطبقات الثلاث الماضية، فتنزل مرتبة الإسلام على الطبقة الأولى _طبقةِ أهل الإيمان المجمل أو مطلق الإيمان_.

وتنزل مرتبة الإيمان على الطبقة الثانية _طبقةِ أهل الإيمان المطلق الواجب_.

وتنزل مرتبة الإحسان على الطبقةِ الثالثة _طبقةِ أهل الإيمان المطلق المستحب_.

قال الشيخ حافظ الحكمي × في كتابه القيم معارج القبول بعد أن ساق جملة من الآيات، والأحاديث، والآثار عن الصحابة والتابعين في بيان تفاضل الناس في الإيمان، وكونهم فيه على طبقات: =والآيات والأحاديث وآثار الصحابة والتابعين في هذا الباب أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر+[٢].

ثم قال ×: =والمقصود بيان بأن الناس متفاوتون في الدين بتفاوت الإيمان في قلوبهم، متفاضلون فيه بحسب ذلك؛ فأفضلهم وأعلاهم أولو العزم من الرسل، وأدناهم المخَلِّطون من أهل التوحيد، وبين ذلك مراتب، ودرجات لا يحيط بها إلا

---

١ ـ التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة للشيخ عبدالرحمن السعدي ص٥٠.

٢ـ معارج القبول ١١٨٩/٣

الله ــعز وجلــ الذي خلقهم ورزقهم.[(١)]

ثم بيَّن بعد ذلك أن الناس كما يتفاوتون في الإيمان فإنهم كذلك يتفاوتون في أعمال الإيمان الظاهرة، قال ×: =وكما يتفاوتون في مبلغ الإيمان من قلوبهم يتفاوتون في أعمال الإيمان الظاهرة، بل والله يتفاضلون في عمل واحد يعمله كلهم في آن واحد، وفي مكان واحد؛ فإن الجماعة في الصلاة صافُّون كلهم في رأي العين، مستوون في القيام، والركوع، والسجود، والخفض، والرفع، والتكبير، والتحميد، والتسبيح، والتهليل، والتلاوة، وسائر الأذكار، والحركات، والسكنات في مسجد واحد، ووقت واحد، وخلف إمام واحد، وبينهم من التفاوت والتفاضل ما لا يحصى؛ فهذا قرة عينه في الصلاة يودُّ إطالتَها ما دام عمرَه، وآخرُ يرى نفسه في أضيق سجن يود انقضاءها في أسرع من طرفه عين، أو يود الخروج منها، بل يتندم على الدخول فيها.

وهذا يعبد الله على وجه الحضور والمراقبة كأنه يشاهده.

وآخر قلبه في الفلوات قد تشعَّبت به الضَّيعات، وتفرقت به الطرقات، حتى لا يدري ما يقول ولا ما يفعل ولا كم صلى.

وهذا تُرْفع صلاتُه تَتَوَهَّج بالنور حتى تخترق السموات الى عرش الرحمن ــعز وجلــ.

وهذا تخرج مظلمةً لظلمة قلبه؛ فتغلق أبواب السماء دونها؛ فتلف كما يُلَفُّ الثوب الخَلِقُ، فَيُضْرَبُ بها وجهُ صاحبها.

وهذا يكتب له أضعافُها وأضعافٌ مضاعفةٌ.

١ـ معارج القبول ١١٨٩/٣

وهذا يخرج منها وما كتب له إلا نصفها، إلا ربعها، إلا ثمنها، إلا عشرها.

وهذا يَحْضُرها صورةً، ولم يكتب له منها شيء.

وهذا منافق يأتيها رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وهذا والناظر إليهم يراهم مستوين في فعلها، ولو كشف له الحجاب لرأى من الفرقان ما لا يقدر قدرة إلا الله الرقيب على كل نفس بما كسبت الذي أحاط بكل شيء علماً لا تخفى عليه خافية+[1].

إلى أن قال × ذاكراً بعض الأعمال التي يتفاضل أصحابها فيها مع أن صورتها واحدة: =وكذلك الجهاد ترى الأمة من الناس يخرجون فيه مع إمام واحد، ويقاتلون عدواً واحداً على دين واحدٍ، متساوين ظاهراً في القوى والعدد؛ فهذا يقاتل حميةً وعصبيةً، وهذا يقاتل رياء وسمعة؛ لِتُعْلَمَ شجاعتُه، ويُرى مكانُه، وهذا يقاتل للمغنم ليس له هم غيره، وهذا يقاتل؛ لتكون كلمةُ الله هي العليا، وذا هو المجاهد في سبيل الله لا لغيره، وهذا هو الذي يكتب له بكلِّ حركةٍ أو سكونٍ أو نصبٍ أو مخمصةٍ عملٌ صالحٌ.

وهكذا الزكاةُ، والصومُ، والحجُ، والأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر، وجميع أعمال الإيمانِ الناسُ فيها على هذا التفاوتِ والتفاضلِ بحسب ما وقر في قلوبهم من العلم واليقين وعلى ذلك يموتون، وعليه يبعثون، وعلى قدره يقفون في عَرَقِ الموقف، وعلى ذلك الوزنُ والصحفُ، وعلى ذلك تُقسم الأنوار على الصراط وبحسب ذلك يمرون عليه ومن يُبَطِّئْ به عمله لم يسرع به نسبه+[2]

١ـ معارج القبول ١١٨٩/٣ـ١١٩٠

٢ـ معارج القبول ١١٩٠/٣

ثم ختم كلامه مبيناً أن ذلك التفاضل بين أهل الإيمان كما يكون في الدنيا يكون كذلك في الآخرة، فقال ×: =وبذلك يتسابقون في دخول الجنة، وعلى حسبه رفع درجاتهم، وبقدره تكون مقاعدهم من ربهم _تبارك وتعالى_ في يوم المزيد وبمقدار ذلك ممالكهم فيها، ونعيمهم، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم+[١]

١ـ معارج القبول ١١٩٠/٣

المبحث الرابع: أسباب زيادة الإيمان

تقدم أن الإيمان يزيد وينقص، والحديث ههنا سيكون عن أسباب زيادة الإيمان ونقصانه؛ فهناك أسباب كثيرة إذا صدرت من العبد زاد إيمانه، وسار في طريق الكمال.

كما أن هناك أسباباً أخرى إذا فعلها العبد نقص إيمانه، وضعف، وأوشك أن ينحط في مهاوي الردى.

ومعرفة أسباب زيادة الإيمان ونقصانه من الأهمية بمكان؛ فالحاجة إليها ماسة، بل الضرورة مُلِحَّة؛ لأن الإيمان هو كمال العبد، وسبيل سعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة.

ونقصُ الإيمان أو زوالُه سببُ شقائه في الدارين.

والموفق كل التوفيق هو من يسعى في تحقيقِ الإيمان، وفروعه، والتَحقُّقِ بها علماً، وعملاً، وحالاً.

ويسعى ـ كذلك ـ في دفع ما ينافي ذلك، ويَنْقُضُه، أو يُنْقِصُه من الفتن الظاهرة والباطنة، ويحرص كل الحرص على مداواة ما قَصَّر فيه من الطاعات، وتجرأ عليه من المعاصي بالتوبة النصوح، وتدارك ما فات من الأمر؛ فتحقيقُ الإيمان وتقويته يكون بمعرفة أسباب زيادته؛ والقيام بها.

والسعيُ في دفع ما ينافيه أو يضاده يكون بمعرفة أسباب نقصه، والحذر من الوقوع فيها.[1]

---

١ ـ انظر التوضيح والبيان لشجرة الإيمان للشيخ عبدالرحمن السعدي ص٣٨، وزيادة الإيمان ونقصانه ص١٨١.

هذا وإن لزيادة الإيمان أسباباً منها على سبيل الإيجاز ما يلي:

١ـ **تعلم العلم النافع**: المستمد من الكتاب والسنة؛ فمن وفّق لذلك وُفِّق لأعظم سبب من أسباب زيادة الإيمان.

ومن تأمل نصوص الوحيين، وكلام العلماء في ذلك الشأن أدرك ذلك، والمقامُ لا يسمح بالتفصيل.[1]

٢ ـ **معرفة أسماء الله وصفاته**، فإن العبد كلما ازداد معرفة بها وبمقتضياتها، وآثارها ـ ازداد إيماناً بربه، وحبّاً، وتعظيماً له.

٣ ـ **النظر في آيات الله الكونية**: فإن العبد كلما نظر فيها، وتأمل ما اشتملت عليه من القدرة الباهرة، والحكمة البالغة، ازداد إيماناً ويقيناً بلا ريب.

قال الله ـتعالىـ: [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] البقرة:,١٦٤

٤ـ **قراءة القرآن الكريم وتدبره**: فإن ذلك من أعظم أبواب العلم المؤدية إلى زيادة الإيمان، وثباته، وقوته.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي × متحدثاً عن القرآن، وكونه من أعظم أسباب تقوية الإيمان: =ويُقَوّيه من وجوه كثيرة؛ فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما رُكِّب عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة يحصل له من أمور الإيمان

---

١ ـ انظر مقدمة مفتاح دار السعادة لابن القيم، فقد ذكر ما يزيد على مائة فائدة من فوائد العلم.

خير كثير؛ فكيف إذا أحسن تَأَمُّلَهُ، وفَهْمَ مقاصدِه وأسراره+[١].

٥ ـ **فعل الطاعة تقرباً إلى الله ـ تعالى ـ**: فإن الإيمان يزداد بذلك بحسب حسن العمل، وجنسه، وكثرته؛ فكلما كان العمل أحسن كانت زيادةُ الإيمانِ به أعظم، وحسنُ العمل يكون بحسب الإخلاص والمتابعة.

وأما جنس العمل فإن الواجب أفضل من المسنون، وبعض الطاعات أوكد وأفضل من بعضها الآخر، وكلما كانت الطاعة أفضل كانت زيادة الإيمان بها أعظم.

وأما كثرة العمل فإن الإيمان يزداد بها؛ لأن العمل من الإيمان فلا جرم أن يزيد بزيادته.

ومما يرفع من شأن الطاعة، ويعظم أثرها في زيادة الإيمان ـ زيادة على ما مضى ـ مراعاة الأسباب والأعمال التي يضاعف بسببها الثواب، وتترك آثارها الطيبة على القلوب، وهي كثيرة مبسوطة في كتب أهل العلم.[٢]

٦ ـ **ترك المعصية خوفاً من الله ـ عزّ وجل ـ**: لأن المعصية تضعف القلب، وتعطل سيره إلى الله ـ جل وعلا ـ.

وكلما قوي الداعي إلى فعل المعصية كانت زيادة الإيمان بتركها أعظم؛ لأن تركها مع قوة الداعي إليها دليل على قوة إيمان العبد، وتقديمه ما يحبه الله ورسوله على ما تهواه نفسه.[٣]

---

١ ـ التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ص٢٧، وانظر زيادة الإيمان ونقصانه ص١٩٢ـ٢٠٣.

٢ ـ انظر الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب للشيخ عبدالرحمن السعدي، وشرحها للكاتب.

٣ ـ انظر فتح رب البرية ص٩٨ـ٩٩.

المبحث الخامس: أسباب نقص الإيمان

كما أن للإيمان أسباباً تزيده، وتنميه فكذلك هناك أسباب تنقصه، وتضعفه، بل قد تذهب به.

وكما أن المسلم مطالب بمعرفة أسباب زيادة الإيمان؛ فهو كذلك مطالب بمعرفة أسباب نقصه؛ ليحذرها.

وفيما يلي ذكر لبعض تلك الأسباب على سبيل الإجمال:

١ _ الجهل بالله _تعالى_ وأسمائه وصفاته: فالجهل بالله _عز وجل_ أساس كل شر؛ فهو يجر صاحبه إلى الويلات، والعواقب الوخيمة.

وأعظم الجهل: الجهل بخالق الأرض والسموات، وبأسمائه، ومقتضياتها، وآثارها.

٢ _ **الغفلة والإعراض عن النظر في آيات الله وأحكامه الكونية والشرعية،** فإن ذلك يُوجب مرض القلب، أو موته باستيلاء الشهوات والشبهات عليه.

٣ _ **فعل المعصية:** فينقص الإيمان بحسب جنسها، وقدرها، والتهاون بها، وقوة الداعي إليها، أو ضعفه.

فأما جنسها وقدرها فإن نقص الإيمان بالكبائر أعظم من نقصه بالصغائر، ونقص الإيمان بقتل النفس المحرمة أعظم من نقصه بأخذ مال محترم، ونقصه بمعصيتين أكثر من نقصه بمعصية واحدة، وهكذا.

وأما التهاون بها فإن المعصية إذا صدرت من قلبٍ متهاونٍ بمن عصاه ضعيفِ الخوف منه كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت من قلبٍ معظمٍ لله

ـتعالى ـ شديدِ الخوف منه، لكن فَرَطَتْ منه المعصية.

وأما قوة الداعي إليها فإن المعصية إذا صدرت ممن ضعفت منه دواعيها كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت ممن قويت منه دواعيها، ولذلك كان زنا الشيخ، وكذب الملك، واستكبارُ الفقيرِ ـ أعظمَ إثماً من زنا الشاب، وكذب السوقة، واستكبار الغني، كما في قوله: =ثلاثة لا يُكلّمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم شيخ زانٍ، وملكٌ كذابٌ، وعائل مستكبر+[1].

وما ذلك إلا لقلة دواعي تلك المعاصي في الأصناف المذكورة.

٤ ـ ترك الطاعة؛ فإن الإيمان ينقص به، والنقص به على حسب تَأَكُّد الطاعة، فكلما كانت الطاعة أوكد كان نقص الإيمان بتركها أعظم، وربما فقد الإيمان كله كترك الفرائض.

ثم إن نقص الإيمان بترك الطاعة على نوعين: نوع يعاقب عليه، وهو: ترك الواجب بلا عذر، كترك الصلاة المفروضة بدون عذر.

ونوع لا يعاقب عليه وهو: ترك الواجب لعذر شرعي، أو حسي كترك المرأة الصلاة أيام الحيض، وترك المستحب كترك صلاة الضحى.

٥ـ صحبة قرناء السوء: فهم أضرُّ ما يكون على إيمان الإنسان، وسلوكه، وأخلاقه؛ فمخالطتهم سبب عظيم من أسباب نقص الإيمان، وضعفه، أو تلاشيه.

٦ـ الانهماك في الدنيا: فمتى قويت رغبة العبد في الدنيا، وسكونه إليها ـ

---

١ ـ أخرجه مسلم (١٠٧).

زاد تعلقه بها، وقلت رغبته في الطاعة.[1]

وذلك من أعظم أسباب نقص الإيمان.

---

١ ـ انظر فتح رب البرية ص٩٩ـ١٠٠ ، وزيادة الإيمان ونقصانه ص٢٤٥ـ٢٧٦.

الفصل الثالث

الاستثناء في الإيمان

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم الاستثناء في الإيمان، ومنشؤه.

المبحث الثاني: الأقوال في مسألة الاستثناء في الإيمان.

المبحث الثالث: الآثار الواردة عن السلف في الاستثناء، وتوجيهها.

المبحث الأول: مفهوم الاستثناء في الإيمان، ومنشؤه

أولاً: مفهوم الاستثناء في الإيمان

الاستثناء في الإيمان إحدى المسائل التي تبحث في باب الإيمان، وصورتها أن يقول الإنسان: أنا مؤمن إن شاء الله.

أو أن يُسأل أحدٌ، فيقال له: هل أنت مؤمن؟

فيجيب بصيغة من إحدى صيغ متعددة تشعر بعدم القطع كأن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو أن يقول: أرجو، أو آمنت بالله، أو نحو ذلك من الصيغ التي تشعر بعدم الجزم.

وهذه المسألة تبحث في كتب الاعتقاد بعد مسألة زيادة الإيمان ونقصانه؛ للارتباط بين المسألتين، ولتعلق نتائج كل واحدة بالأخرى، ولأن كلاً منهما حدث الخوض فيه في وقت واحد.[1]

ثانياً: منشأ القول بالاستثناء في الإيمان

نشأ القول بالاستثناء في الإيمان أول ما نشأ بسبب الإرجاء الذي حدث في الأمة؛ فالمرجئة هم أول من خاض في مسألة الاستثناء في الإيمان.

قال عبدالرحمن بن مهدي ×: =أول الإرجاء ترك الاستثناء+[2].

وفي لفظ آخر: =أصل الإرجاء من قال: إني مؤمن+[3].

---

١ ـ انظر زيادة الإيمان ونقصانه ص ٤٥٣ـ٤٥٧.

٢ ـ رواه الخلال في السنة ٣/٥٩٨.

٣ ـ رواه الطبري في تهذيب الأثار (١٠٢٣).

ولهذا كان أئمة السلف كأحمد وغيره يكرهون سؤال الرجل لغيره: أمؤمن أنت؟ ويكرهون الجواب عن ذلك؛ لأن هذه بدعة أحدثها المرجئة؛ ليحتجوا بها على قولهم؛ فإن الرجل يعلم من نفسه أنه ليس بكافر، بل يجد قلبه مصدقاً بما جاء به الرسول " ولا يجزم بأنه فعل ما أمر به من فعل الطاعات وترك المعاصي.[1]

فلما علم السلف مقصدهم صاروا يكرهون الجواب، أو يفصلون فيه، بل يعدون ذلك السؤال بدعة؛ فصاروا يعاملونه معاملة الكلمات المجملة التي تحتمل حقاً وباطلاً؛ فاحتاجت إلى الاستفصال.

ثم لما شاعت صاروا يقولون في الاستثناء _على ما سيأتي تفصيلُه_.

---

١ ـ انظر زيادة الإيمان ونقصانه ص٤٥٣ـ٤٥٧.

المبحث الثاني: الأقوال في مسألة الاستثناء في الإيمان

أقوال الناس في مسألة الاستثناء تنحصر إجمالاً في ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم الاستثناء: وهو قول المرجئة، والجهمية ونحوهم من الماتريدية، وبعض الحنفية.

ومأخذ هذا القول: أن الإيمان شيء واحد يعلمه الإنسان من نفسه، وهو التصديق الذي في القلب، فإذا استثنى فيه كان دليلاً على شكه في إيمانه، ولذلك كانوا يسمون الذين يستثنون في الإيمان =شُكَّاكاً+.

بل لقد غلا بعضهم في ذلك؛ فمنع تزويج من يستثني في إيمانه، أو أَكْلَ ذبيحته، كما قال أبو بكر الفضلي: =من قال: أنا مؤمن إن شاء الله فهو كافر لا تجوز المناكحة معه+.

وقال أبو حفص السفكردري، وبعض أئمة خوارزم من الحنفية: =لا ينبغي للحنفي أن يزوج بنته من رجل شافعي المذهب، ولكن يتزوج من الشافعية؛ تنزيلاً لهم منزلة أهل الكتاب؛ بحجة أن الشافعية يرون جواز الاستثناء في الإيمان، وهو كفر+[1].

وهذا القول لا يقول به جميع الحنفية، بل منهم من أنكر ذلك، كما قال الفرهاري معلقاً على كلمة الفضلي السابقة: =هذه عظيمة، وتعصب لا يرضاه الحق _سبحانه_+[2].

القول الثاني: وجوب الاستثناء: وأشهر من ذهب إلى ذلك، وانتصر له

١ ـ انظر البحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم المصري ٢/٤٦، وزيادة الإيمان ونقصانه ص٥٢١.

٢ ـ النبراس شرح العقائد ص٤٢٠، وزيادة الإيمان ونقصانه ص٥٢٢.

الكُلاَّبية، والأشعرية وهذا القول له مأخذان:

١ــ **أن الإيمان هو ما مات الإنسان عليه**؛ فالإنسان إنما يكون مؤمناً وكافراً بحسب الموافاة، وهذا شيء مستقبل غير معلوم؛ فلا يجوز الجزم به.

وهذا مأخذ كثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم.

لكن هذا المأخذ لم يُعْلَمْ أن أحداً من السلف علل به، وإنما كانوا يُعللون بالمأخذ الثاني وهو:

٢ــ **أن الإيمان المطلق يتضمن فعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات**، وهذا لا يجزم به الإنسان من نفسه، ولو جزم لكان قد زكى نفسه، وشهد لها بأنه من المتقين الأبرار، وكان ينبغي على هذا أن يشهد لنفسه بأنه من أهل الجنة، وهذه لوازم ممتنعة.

القول الثالث: **التفصيل**: فإن كان الاستثناء صادراً عن شك في وجود أصل الإيمان فهذا مُحرّم، بل كفر؛ لأن الإيمان جزم، والشك يُنافيه.

وإن كان صادراً عن خوفِ تزكيةِ النفس والشهادةِ لها بتحقيق الإيمان قولاً، وعملاً، واعتقاداً ــ فهذا واجب؛ خوفاً من هذا المحذور.

وإن كان المقصود من الاستثناء التبركَ بذكر المشيئة، أو بيان التعليل، وأن ما قام بقلبه من الإيمان بمشيئة الله ــ فهذا جائز.

والتعليق بالمشيئة على هذا الوجه ــأعني بيان التعليلــ لا ينافي تَحَقُّقَ المعَلَّقِ؛ فإنه قد ورد التعليق على هذا الوجه في الأمور المحققة، كقوله ــتعالىــ: [لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُون] الفتح: ٢٧ .

وبهذا عُرِفَ أنه لا يصح إطلاق الحكم على الاستثناء، بل لا بد من التفصيل

السابق.

وهذا _أعني الثالث_ هو الذي عليه السلف الصالح؛ فهم يرون أن الاستثناء جائز مشروع على هذا النحو؛ فهذا مأخذ عامة السلف الذي كانوا يستثنون؛ لأن الإيمان عندهم قول وعمل، والقول _ الذي هو الاعتقاد _ كل يجزم أنه أتى به.

وأما العمل فلا؛ إذ الناس متفاوتون فيه تفاوتاً عظيماً.

وأقوال السلف في هذا كثيرة جداً[1] وسيرد في المبحث الآتي ذكر لشيء منها مع توجيه ما ورد عنهم في ذلك.

---

١ ـ انظر فتح رب البرية ص١٠١ـ١٠٢، وزيادة الإيمان ونقصانه ص٤٥٣ـ٥٣٩.

المبحث الثالث: الآثار الواردة عن السلف في الاستثناء، وتوجيهها

مرَّ بنا في المبحث الماضي أن السلف الصالح ــرضي الله عنهمــ يرون الاستثناء في الإيمان، وقد ورد عنهم آثار كثيرة في ذلك.

وقد يردُ إشكال عند بعض الناس في كون بعض السلف يرون الاستثناء، وبعضهم لا يرونه.

وفيما يلي ذكر لبعض تلك الآثار مع توجيهها.

قال يحيى بن سعيد القطان ×: =ما أدركت أحداً من أصحابنا، ولا بلغنا إلا على الاستثناء+[1].

وقال الوليد بن مسلم ×: =سمعت أبا عمرو ــيعني الأوزاعيــ ومالك بن أنس، وسعيد بن عبدالعزيز ينكرون أن يقول: أنا مؤمن، ويأذنون في الاستثناء أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله+[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: =وأما مذهب سلف أصحاب الحديث كابن مسعود وأصحابه، والثوري، وابن عيينة، وأكثر علماء الكوفة، ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء البصرة، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمة السنة؛ فكانوا يستثنون في الإيمان، وهذا متواتر عنهم+[3].

وقال الإمام أحمد ×: =إنما نصير إلى الاستثناء على العمل؛ لأن القول قد جئنا به+.

---

١ ـ رواه الخلال في السنة ٣/٥٩٥.

٢ ـ رواه عبدالله بن أحمد في السنة ١/٣٤٧.

٣ ـ مجموع الفتاوى ٧/٤٣٨ـ٤٣٩.

وقال: =أذهب إلى حديث ابن مسعود في الاستثناء في الإيمان؛ لأن الإيمان قول وعمل، والعمل: الفعل؛ فقد جئنا بالقول، ونخشى أن نكون قد فرطنا في العمل؛ فيعجبني أن نستثني في الإيمان بقول: أنا مؤمن إن شاء الله+[١].

وقال: =لو كان القول كما تقول المرجئة: إن الإيمان قول ثم استثنى بَعْدُ على القول لكان هذا قبيحاً أن تقول: لا إله إلا الله إن شاء الله، ولكن الاستثناء على العمل+[٢].

هذا وقد ورد عن بعض السلف[٣] ترك الاستثناء كما جاء عن إبراهيم التيمي× قال: =وما على أحدكم أن يقول: أنا مؤمن؛ فوالله لئن كان صادقاً لا يعذبه الله على صدقه، وإن كان كاذباً لَمَا دخل عليه من الكفر أشد عليه من الكذب+[٤].

ومراده بقوله: =أنا مؤمن+ أصل الإيمان، كما يدل على ذلك آخر قوله: =لِمَا دخل عليه من الكفر...+.

وعن أبي عبدالرحمن السلمي × قال: =إذا سئل أحدكم: أمؤمن أنت فلا يشك في إيمانه+[٥].

فهذه الآثار وغيرها لا تَشْكِلُ؛ فإن من استثنى من السلف في إيمانه إنما قصد به الإيمان التام الكامل المقبول عند الله.

ومن لم يستثنِ قَصَدَ الإيمانَ الباطنَ الذي هو أصل الإيمان وأساسه، وهذا لا

---

١ ـ رواه الخلال ٦٠٠/٣.

٢ ـ رواه الخلال ٦٠١/٣.

٣ ـ انظر زيادة الإيمان ونقصانه ص٤٨٤ـ٤٨٥.

٤ ـ رواه ابن أبي شيبة في المصنف ١٥/١١.

٥ ـ رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٢٩/١١.

استثناء فيه.

وعلى هذا ينبغي لمن سئل: هل هو مؤمن أَوْ لا؟ أن يستفصل مِن السائل ماذا يريد من الإيمان؛ فإن أراد الإيمان الكامل فلا بد من الاستثناء، وإن أراد الثاني وهو أصل الإيمان فلا استثناء.[1]

يقول الشيخ الدكتور عبدالرزاق البدر _حفظه الله_ بعد أن ساق جملة من الأثار عن السلف في الاستثناء وعدمه، وذَكَر توجيهَ تلك الأثار: =ولكن لما كان ترك الاستثناء شعاراً للمرجئة، ومتضمناً لتزكية النفس والثناء عليها _وهذا منهي عنه شرعاً_ فإني أرى أن لزوم الاستثناء أولى وأكمل، وألا يترك الاستثناء إلا إذا بُيِّن المقصود والمراد.

ولهذا كان الإمام أحمد لا يعجبه تركُ الاستثناء+[2].

إلى أن قال: =ولم يكن أحمد × ينكر على من ترك الاستثناء إذا لم يكن قصده قصد المرجئة أن الإيمان مجرد القول.

قال الأثرم: قلت لأبي عبدالله: فكأنك لا ترى بأساً أن لا يستثني؟ فقال: إذا كان ممن يقول: الإيمان قول وعمل فهو أسهل عندي+.

ثم قال أبو عبدالله: =إن قوماً تضعف قلوبهم عن الاستثناء؛ فتعجب منهم+.

فبهذا التفصيل عن السلف يستبين السبيل في مسألة الاستثناء في الإيمان+[3].

---

١ ـ انظر زيادة الإيمان ونقصانه ص٤٨٦.

٢ ـ زيادة الإيمان ونقصانه ص٤٨٨.

٣ ـ زيادة الإيمان ونقصانه ص٤٨٩.

الفصل الرابع

في الكفر والتكفير

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم الكفر والتكفير.

المبحث الثاني: التكفير المطلق، وتكفير المعين.

المبحث الثالث: ضوابط في التكفير.

المبحث الأول: مفهوم الكفر والتكفير

أولاً: تعريف الكفر في اللغة

الكاف، والفاء، والراء (كفر) أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية، يقال لمن غَطَّى درعه بثوب: قد كفر درعه.

ويسمى الليل كافراً لتغطيته كلَّ شيء.

يقول لبيد بن ربيعة في معلقته المشهورة:

حتى إذا ألقت يداً في كافر وأجن عورات الثغور ظلامها

يعني بذلك الشمس، والكافر الليل، أو مغيب الشمس، أو البحر، وكل هذه الأشياء تستر الشمس عن الأعين.

ويقول ـأيضاًـ في معلقته في وصف البقرة الوحشية مع المطر:

يعلو طريقة متنها متواترٌ في ليلة كفر النجومَ غمامُها

وسمى الفَلاَّحُ كافراً لتغطيته الحب في الأرض.

ومن ذلك الكفارة؛ لتغطيتها الإثم.

والتكفير: مصدر الفعل كَفَّر يُكَفِّر تكفيراً: أي نَسَبَ أحداً إلى الكفر، وحكم عليه به؛ فالتكفير نسبة الإنسان إلى الكفر، والحكم عليه به.

والكفر ضد الإيمان، سُمِّي؛ لأنه تغطية الحق، وستره.

وسمي الكافر كافراً؛ لأنه ستر آيات الله، وغطى دلائل التوحيد والإيمان بجحده، وعناده.[1]

---

١ ـ انظر معجم مقاييس اللغة ١٩١/٥ـ١٩٢، ولسان العرب ١٤٤/٥ـ١٤٧، والمفردات للأصفهاني ص٦٥٣ـ٦٥٥.

ثانياً: الكفر في اصطلاح الشرع

تنوعت عبارات العلماء في تعريف الكفر في الشرع، وفيما يلي إيراد لبعض تلك التعريفات:

١ـ يقول ابن تيمية ×: =الكفر عدم الإيمان باتفاق المسلمين سواء اعتقد نقيضه وتكلم به، أو لم يعتقد شيئاً ولم يتكلم به+[١].

٢ـ وقال: =الكفر عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب، أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب، أو إعراض عن هذا كله حسداً، أو كبراً، أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة+[٢].

٣ ـ ويعرف ابن حزم × الكفر بقوله: =وهو في الدين: صفة مَنْ جَحَدَ شيئاً مما افترض الله ـتعالىـ الإيمان به بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه بقلبه دون لسانه، وبلسانه دون قلبه، أو بهما معاً، أو عمل عملاً جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان+[٣].

٤ـ وعرفه الشيخ عبدالرحمن السعدي × بقوله: =وحد الكفر الجامع لجميع أجناسه، وأنواعه وأفراده هو جحد ما جاء به الرسول، أو جحد بعضه+[٤].

ومن خلال ما مضى يمكن أن يعرف الكفر الذي لا يجامع الإيمان بأنه: **اعتقادات، وأقوال، وأفعال حكم الشارع بأنها تناقض الإيمان وهو على شعب، ومراتب متفاوتة.**[٥]

---

١ ـ مجموع الفتاوى ٢٠/٨٦.

٢ ـ مجموع الفتاوى ١٢/٣٣٥.

٣ ـ الأحكام ١/٤٥.

٤ ـ الإرشاد إلى معرفة الأحكام ص٢٠٣ـ٢٠٤.

٥ ـ انظر نواقض الإيمان القولية والفعلية ص٤٦.

ثالثاً: أنواع الكفر

الكفر شعب متعددة، وله مراتب كثيرة، ويمكن إرجاعها إلى نوعين:

١ـ كفر أكبر: وهو المخرج من الملة، وهو ما ارتكب صاحبه ما يوجب خروجه من الدين كالتكذيب لله، ورسوله ".

٢ـ كفر أصغر: وهو غير مخرج من الملة، كالاقتتال بين المسلمين، والنياحة، والتبرؤ من النسب.

وإذا تقرر هذا فلا يلزم مَنْ قام به شعبة من شعب الكفر أن يصير كافراً الكُفْرَ المطلقَ، حتى تقوم به حقيقة الكفر.

كما أنه لا يلزم مَنْ قام به شعبة من شعب الإيمان أن يصير مؤمناً حتى يقوم به أصل الإيمان.[١]

يقول ابن تيمية ×: =فرق بين الكفر المعَرَّف باللام كما في قوله ": =ليس بين العبد وبين الكفر والشرك إلا ترك الصلاة+[٢].

وبين كُفْرٍ مُنَكَّرٍ في الإثبات.

وفرق ـأيضاًـ بين معنى الاسم المطلق إذا قيل كافر، أو مؤمن، وبين المعنى المطلق للاسم في جميع موارده كما في قوله: =لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب

---

١ ـ انظر اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ٢٠٨/١، وكتاب الصلاة لابن القيم ص٦٠، ونواقض الإيمان القولية والعملية ص٤٦.

٢ ـ رواه مسلم (٨٢) بلفظ: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر تركَ الصلاة» وبلفظ: «بين الرجل...».

بعضكم رقاب بعض+[1].

فقوله: =يضرب بعضكم رقاب بعض+: تفسير الكفار في هذا الموضع، وهؤلاء يسمون كفاراً تسمية مقيدة، ولا يدخلون في الاسم المطلق إذا قيل: كافر، مؤمن+[2].

---

١ ـ أخرجه البخاري (٧٠٧٦) ومسلم (١٦ و٦٤)

٢ ـ اقتضاء الصراط المستقيم ١/٢٠٨ـ٢٠٩.

المبحث الثاني: التكفير المطلق، وتكفير المعين، والحكم الأخروي المطلق، وعلى المعيَّن

أولاً: التكفير المطلق، وتكفير المعيَّن

هذه مسألة التكفير المطلق، وتكفير المعين، ويقال ـ أيضاً ـ: كفر الإطلاق، وكفر التعيين.

وأهل السنة يُفَرِّقون بين التكفير المطلق، وتكفير المعين؛ **فالتكفير المطلق** هو التكفير بالعموم، بحيث يقال: من قال كذا، أو فعل كذا فهو كافر، أو فَقَدْ كفر.

وتكفير المعين: أن يقال: إن فلاناً الذي قال: كذا، أو فعل كذا ـ كافر بعينه.

فالأول ـ وهو التكفير المطلق لا بأس به، بل يجب القول بعمومه، وإطلاقه.

وأما تكفير المعين، والحكم عليه بأنه كافر فلا يجوز ذلك إلا إذا اجتمعت في حقه الشروط، وانتفت عنه الموانع؛ فعندئذٍ تقوم عليه الحجة التي يُكَفَّر تاركُها.

يقول ابن تيمية ×: =وليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين ـ وإن أخطأ وغلط ـ حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة.

ومن ثبت إسلامه بيقين لم يَزُلْ عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة+[1].

ثم يقول: =إن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين.

---

١ ـ مجموع الفتاوى الكيلانية ١٢/٢٦٦.

وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع.

يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه+[١].

ويَذْكُرُ ابنُ تيمية بعضَ الأعذارِ الواردةِ على المعين، فيقول: =الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تَبْلُغْهُ النصوصُ الموجبةُ لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون عرضت له شبهات يَعْذُرُه الله بها؛ فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطاياه كائناً من كان، سواء في المسائل النظرية، أو العملية، هذا الذي عليه أصحاب النبي " وجماهير أئمة الإسلام+[٢].

وبهذا يتضح لنا الفرق بين التكفير العام المطلق، والحكم على المعين بأنه كافر؛ فالكفر من الوعيد الذي نطلق القول به، ولكن لا نحكم على المعين بدخوله في ذلك المطلق العام حتى يقوم فيه المقتضي الذي لا معارض له.

وإذا ظهر لنا الفرق بين التكفير المطلق وتكفير المعين، فسيتبين خطأُ فريقين من الناس؛ فريقٍ غلا؛ فادعى تكفير المعين بإطلاق دون النظر إلى اجتماع الشروط وانتفاء الموانع.

---

١ ـ مجموع الفتاوى الكيلانية ١٢/٤٨٧ـ٤٨٨، وانظر نواقض الإيمان القولية والعملية ص٥٤.

٢ ـ مجموع الفتاوى ٢٣/٣٢٦.

وفريقٍ آخر امتنع عن تكفير المعين بإطلاق؛ فأغلق باب الردة.[1]

ثانياً: الحكم الأخروي المطلق، وعلى المعيَّن

والمقصود من هذه المسألة: الشهادة لأحدٍ بالجنة أو النار، فهناك فرق بين الشهادة والحكم بالعموم بالجنة أو النار وبين الشهادة لأحد معيَّن بذلك.

ويتضح ذلك من خلال ما يلي:

١ـ الشهادة لأحد بالجنة أو النار: لا يُشهد لأحد مُعَيَّن من أهل القبلة بالجنة أو النار إلا عن طريق النص؛ ذلك أن الشهادة بالجنة أو النار موقوفةٌ على الشرع، وليس للعقل فيها مدخل؛ فمن شهد له الشارع بذلك شهدنا له، وما لا فلا، لكننا نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء[2].

٢ـ أقسام الشهادة بالجنة أو النار: تنقسم الشهادة بالجنة أو النار إلى قسمين: **عامة، وخاصة:**

فالعامة: هي المعلقة بالوصف، كأن نشهد لكل مؤمن بأنه في الجنة، أو لكل كافر بأنه في النار، أو نحو ذلك من الأوصاف التي جعلها الشارع سبباً لدخول الجنة أو النار.

والخاصة: هي المعلقة بشخص، مثل أن نشهد لشخص معين بأنه في الجنة، أو لشخص معين بأنه في النار؛ فلا نعين إلا ما عينه الله ورسوله".

٣ـ أمثلة للمعينين من أهل الجنة: العشرة المبشرون بالجنة: أبو بكر، وعمر،

---

١ ـ انظر نواقض الإيمان القولية والعملية ص٥٣ـ٥٤، وضوابط تكفير المعين د. عبدالله بن عبدالعزيز الجبرين.

٢ ـ انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٨، ولمعة الاعتقاد للشيخ محمد بن عثيمين ص١٤٤.

وعثمان، وعلي، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن ابن عوف، وطلحة بن عبيدالله، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، والزبير بن العوام ـرضي الله عنهمـ.

وكذلك الحسن، والحسين، وثابت بن قيس بن شماس، وعكاشة بن محصن ـرضي الله عنهمـ[1].

٤ـ أمثلة للمعينين من أهل النار: أبو لهب عبدالعزى بن عبدالمطلب، وامرأته أم جميل أروى بنت حرب أخت أبي سفيان.

وكذلك أبو طالب، وعمرو بن لحي الخزاعي، وغيرهم[2].

فهؤلاء المبشرون بالنار، ومن جاء قبلهم من المبشرين بالجنة جاء النص في شأنهم.

---

١ ـ انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٨، ولمعة الاعتقاد ص١٤٥ـ١٤٧.

٢ ـ المرجع السابق.

المبحث الثالث: ضوابط في التكفير

مر بنا أن التكفير: هو نسبة الإنسان إلى الكفر، والحكم عليه به.

ومر بنا _كذلك_ الفرق بين التكفير المطلق، وتكفير المعين، وأن تكفير المعين لا بد فيه من اجتماع شروط، وانتفاء موانع.

والحديث ههنا عن بعض الضوابط في التكفير، وذلك من خلال المسائل التالية:

١_ أن الحكم على الناس إنما يكون بالظاهر من أحوالهم: وهذه من المسائل العظيمة في مذهب أهل السنة في الحكم على الناس، فليس ذلك مبنياً على ظنون، وأوهام، أو دعاوى دون بينات.

وهذا من رحمة الله بعباده، وتيسيره عليهم، ومن باب تكليفهم ما يطيقون.

والمقصود من الحكم على الناس إنما هو الحكم الدنيوي على المعين بالكفر أو الإسلام.

أما الحكم على الحقيقة فلا سبيل إليه.[1]

والأدلة على هذا الأصل العظيم كثيرة جداً، ومنها قوله _تعالى_: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] النساء:٩٤.

قال الشوكاني ×: =والمراد هنا: لا تقولوا لمن ألقى بيده إليكم، واستسلم لست

---

١ ـ انظر نواقض الإيمان الاعتقادية ١/٢٠١.

مؤمناً؛ فالسلم والسلام بمعنى الاستسلام.

وقيل: هما بمعنى الإسلام.

أي لا تقولوا لمن ألقى إليكم التسليم، فقال: السلام عليكم لست مؤمناً.

والمراد نهي المسلمين عن أن يهملوا ما جاء به الكافر مما يستدل به على إسلامه، ويقولوا: إنما جاء بذلك تعوذاً وتقية+[1].

ومنها قوله _ عليه الصلاة والسلام _: =أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة؛ فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالَهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله+[2].

والشاهد من الحديث قوله: =وحسابهم على الله+.

قال الحافظ ابن رجب × في شرح الحديث: =والمعنى: إنما عليك تذكيرهم بالله، ودعوتهم إليه.

ولست مُسَلَّطاً على إدخال الإيمان في قلوبهم قهراً، ولا مكلفاً بذلك+[3].

وقال الحافظ ابن حجر×: =أي أمر سرائرهم، وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة، والحكم بما يقتضيه الظاهر+[4].

٢_ أن الإسلام يثبت بأدنى بينة، والتكفير ينتفي بأدنى شبهة: ومن الأدلة على ذلك حديث أسامة بن زيد المشهور لما صبحوا الحرقات من جهينة وهو ما

---

١ ـ فتح القدير ١/٥٠١.

٢ ـ رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

٣ ـ جامع العلوم والحكم لابن رجب ١/٢٣٦.

٤ ـ فتح الباري لابن حجر ١/٧٧.

جاء في الصحيحين عن أسامة بن زيد ــرضي الله عنهما ــ قال: بعثنا رسول الله" في سرية فَصَبَّحْنا الحُرُقات من جهينة، فَصَبَّحْنا القوم، فهزمناهم، ولَحِقْتُ أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري، وطعنته برمحي؛ حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي" فقال لي: =يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟+.

قال: قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذاً.

قال: فقال: =أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟+ قال: فما زال يكررها علي؛ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم [1].

فانظر كيف أنكر ــ عليه الصلاة والسلام ــ على أسامة ÷ قتله ذلك الرجل الذي نطق بالشهادة، مع أنه يظهر من حاله ــ كما تبادر إلى ذهن أسامة ــ أنه إنما قال ذلك تعوذاً، وتقية.

ولكن الإسلام ــكما مرــ يثبت بالظاهر من الناس، وبأدنى بينة من أحوالهم.

وكذلك حديث الجارية، وهو ما جاء في صحيح مسلم من حديث معاوية ابن الحكم السلمي ÷ قال: =كانت لي جاريةٌ ترعى غنماً لي قبل أحد والجوانيَّة، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاةٍ من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكَّةً، فأتيت رسول الله " فعظَّم ذلك علي، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: =ائتني بها+ فأتيته بها، فقال لها: =أين الله؟+ قالت: في السماء، قال: =من أنا؟+ قالت: أنت رسول الله، قال: =أعتقها

---

١ ـ البخاري (٤٢٦٩ و٦٨٧٣) ومسلم (٩٦).

فإنها مؤمنة+ [1].

ففي هذا الحديث تَنَزَّل النبي _عليه الصلاة والسلام_ مع الجارية، وحَدَّثها بما تعقل، وسألها عن أمرين من أعظم أمور الدين، وهما: =أين الله+ و=من أنا+؛ فأجابت بأن الله في السماء، وأن محمداً " رسول الله.

ومع عظم هذين الأمرين فَهُما من الوضوح والبيان بمكان؛ حيث إنهما أمران يدركان بالفطرة، وببادئ الرأي، وأول النظر؛ فلا يحتاجان إلى كبير فهم، أو إعمال للذهن.

لذا أجابته الجارية على الفور؛ فكان ذلك علامَة إيمانها، واستحقاقَها للعتق؛ حيث ثبت إيمانها بأدنى بينة.

وكما أن الإسلام يثبت بأدنى بينة _كما في المثالين الماضيين_ فإن التكفير ينتفي بأدنى شبهة _كما سيأتي أمثلة على ذلك في المبحث الآتي _موانع التكفير_.

٣_ مذهب أهل السنة الاحتياط في تكفير المعين فلا بد فيه من توافر شروط، وانتفاء موانع؛ فلا يكون جاهلاً، ولا متأولاً، ولا مكرهاً _كما سيأتي بيان ذلك_.

فإذا أتى بِمُكَفِّر، وتوافرت فيه الشروط وانتفت في حقه الموانع حُكم بردته؛ فيستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

ثم إن الحكم بالكفر على الشخص المعين ليس كلأً مباحاً، وإنما هو شأن أهل

---

١ ـ رواه مسلم (٥٣٧).

العلم، والبصيرة، والحلم، والحكمة.

واستتابته، وإقامة الحدِّ عليه ليست شأن كل أحد، وإنما هي شأن الحاكم المسلم.

ولهذا التزم أهل السنة الاحتياط في التكفير بعكس الفرق الأخرى التي تتهافت عليه.[(١)]

ومن خلال ما مضى يتبين لنا أنه لا يجوز التساهل في تكفير المسلم؛ لأن في ذلك افتراءَ الكذب على الله في الحكم، وعلى المحكوم عليه في الوصف الذي نُبِزَ فيه، ولما في ذلك من رجوع التكفير على المكَفِّر إذا كان المكَفَّر سالماً منه؛[(٢)] ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر ــرضي الله عنهماــ أن النبي" قال: =إذا كَفَّر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما+ .

وفي رواية: =إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه+[(٣)].

وفيه عن أبي ذر ÷: =ومن دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه+[(٤)].

٤ ــ أن التكفير والتعذيب لا يكون إلا بعد قيام الحجة؛ فلا مؤاخذة قبل الإنذار؛ فمن تمام حكمة الله ــعز وجلــ وعدله أنه لا يُعذِّبَ أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه كما قال ــتعالىــ: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً] الإسراء:١٥.

وقال الرسول ": =والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا

١ ـ انظر نواقض الإيمان الاعتقادية ١/٢٠٩ـ٢١٧.

٢ ـ انظر القواعد المثلى للشيخ محمد بن عثيمين ص١٤٨.

٣ ـ مسلم (٦٠) و(١١١).

٤ ـ مسلم (٦١) و(١١٢).

نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به _ إلا كان من أصحاب النار+[١].

يقول ابن تيمية ×: =الكتاب والسنة قدْ دلاًّ على أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إبلاغ الرسالة؛ فمن لم تَبْلُغْهُ جملةً لم يعذبه رأساً، ومن بلغته جملةً دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية+[٢].

ومن خلال ما مضى وغيره يتقرر أن العذاب والمؤاخذة لا يقع إلا بعد النذارة وقيام الحجة، وأن أهل الفترة ومن في حكمهم يمتحنون يوم القيامة كما جاءت بذلك الأحاديث، والله أعلم[٣].

٥_ توجُّه الكفرِ إلى المعين: يتوجَّه الكفر على الشخص المعين إذا ارتكب أمراً مكفراً، وكان عالماً بمخالفته، وكان قاصداً للمعنى الكفري إذا كان اللفظ يحتمل أكثر من معنى، وقامت الحجة على فاعله _كما مر_ ولم يكن مجتهداً مخطئاً، ولا جاهلاً، ولا مكرهاً، ولا عاجزاً عن أداء ما أوجبه الله.

فإذا وجد شيء من هذه الموانع، أو انتفى شيء من الشروط انتفى التكفير؛ فالتكفير _كما مر_ ينتفي بأدنى شبهة.[٤]

٦ _ معنى قيام الحجة: فقيام الحجة في حق المسلم يعني إخباره بما أخبر به النبي " وأن قيامها يشترط فيمن كان قريب عهد بالإسلام، أو فيمن نشأ في بادية بعيدة، أو في بلد قد اندرست فيه تعاليم الإسلام، هذا إذا كان الأمر الشرعي

---

١ ـ رواه مسلم (٢٤٠).

٢ ـ مجموع الفتاوى ١٢/٤٩٣ـ٤٩٤.

٣ ـ انظر نواقض الإيمان القولية والعملية ص٥٨.

٤ ـ انظر منهج ابن تيمية في مسألة التكفير د. عبدالمجيد المشعبي ٢/٥٥٤.

الذي أنكره المعين ظاهراً عِلْمُه، لا يخفى على أحد غالباً كالصلاة مثلاً.

ولا يشترط ذلك فيمن نشأ ببلد علمٍ، وأمورُ الشرع منتشرةٌ مشهورةٌ فيه بين عامة الناس وخاصتهم.

أما إذا كان الأمر الشرعي خفياً، أو كانت أدلته غير ظاهرة ـ فيشترط قيام الحجة فيه على كل حال.

وقيام الحجة يشمل توضيحها، وكشف شبهها إن وجدت.[1]

٧ـ عدم التكفير بكل ذنب: فمن الأصول المجمع عليها عند أهل السنة أنهم لا يكفرون أحداً بذنب ما لم يستحله.

ويقصدون بالذنب: الذنب الذي هو دون الكفر، والذي لا يكفر صاحبه به، كفعل الكبائر التي هي دون الشرك.

فأهل السنة لا يكفرون بكل ذنب كما تفعل الخوارج، وفرقٌ بين النفي العام، ونفي العموم؛ **فالنفي العام** قد يفهم منه عدم تكفير المعين مطلقاً مهما عمل من الذنوب ولو عمل النواقض.

أما نفي العموم فيفهم منه أنهم يكفرون ببعض الذنوب، ولا يكفرون ببعضها؛ فمن الذنوب التي يُكَفَّر مُرْتَكِبُها: نواقضُ الإسلام الكبرى المعلومة.

ومن ذلك ـأيضاًـ الخلاف المشهور عند أهل السنة في التكفير بترك الأركان، وخاصة الصلاة.[2]

---

١ ـ انظر منهج ابن تيمية في مسألة التكفير ٢/٢٢٥.

٢ ـ انظر نواقض الإيمان الاعتقادية ١/٢٢١.

٨ـ الأمور التي يطلق عليها الكفر: هناك أفعال، وأقوال، واعتقادات يطلق عليها الكفر، ويُكَفَّرُ مرتكبها بعد استيفاء الشروط، وانتفاء الموانع، ومنها: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوها، وتارك أركان الإسلام بالكلية، ورادُّ شرع الله، أو بعضه، ومَنْ سَبَّ الله ـتعالىـ أو استهزأ به أو بآياته، ومَن سب أحد الأنبياء، أو استهزأ به، أو كَفَّره، ومن استحل الحكم بغير ما أنزل الله، ومن نفى صفات الله، أو شَبَّه الله بخلقه، أو أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله، ومَنْ تَشَبَّه بالكفار مطلقاً، أو والاهم ولاءً مطلقاً، أو لم يكفر الكافرين، او شك في كفرهم، أو سوَّغ اتباع دينهم، ومن استحل قتل المسلم، إلى غير ذلك من الأمور التي يطول شرحها وتفصيلها[1].

١ ـ انظر منهج ابن تيمية في مسألة التكفير ١/٣٧ـ١٥٣.

الفصل الخامس

موانع التكفير

وتحته:

_ تمهيد

المبحث الأول: مانع الجهل.

المبحث الثاني: مانع الخطأ.

المبحث الثالث: مانع الإكراه.

المبحث الرابع: مانع التأويل.

المبحث الخامس: مانع التقليد.

المبحث السادس: مانع العجز.

تمهيد

موانع التكفير: هي الصوارف التي تمنع من الحكم على المعين بالكفر.

والتكفير ـ كما مر ـ هو الحكم بالكفر.

والتكفير ينتفي بانتفاء شيء من الشروط، أو وجود شيء من الموانع.

وموانع التكفير تكاد تنحصر في ستة موانع، وهي الجهل، والخطأ، والإكراه، والتأويل، والتقليد، والعجز.

وبعضهم يدخل بعض هذه الموانع في بعض.[1]

فهذه أوضح، وأشهر موانع التكفير، ويدخل تحتها من التفاصيل ما يطول ذكره، وفيما يلي من المباحث توضيح موجز لهذه الموانع.

---

١ ـ انظر نواقض الإيمان القولية والعملية ص٥٥ـ٩٢، ونواقض الإيمان الاعتقادية ٢٢٣/١ـ٣١٣ و٢/١ـ٥٥، ومنهج ابن تيمية في مسألة التكفير ٢٢٩/١ـ٢٧٠.

المبحث الأول: مانع الجهل

فالجهل مانع من إلحاق التكفير بالمعين.

ومقصود العلماء بالجهل الذي يعذر صاحبه أوْ لا يعذر: هو أن يقول، أو يفعل، أو يعتقد خلاف الحق.

والجهل يمنع من التكفير؛ لأن الإيمان متعلق بالعلم، ووجود العلم بالمؤْمَن به شرط من شروط الإيمان.

والجهل ببعض الأمور الاعتقادية حصل لبعض الصحابة، ومع ذلك لم يكفرهم النبي " بل ولم يؤثِّمْهُمْ.

والعذر بالجهل له حالات؛ فهو يختلف باختلاف الأزمنة، والأمكنة، من حيث انتشار العلم، أو عدم انتشاره.

والأشخاص يختلفون من جهة قيام الحجة عليهم وعدم قيامها؛ فمنهم من قامت عليه الحجة، ومنهم من لم تقم عليه باعتباره _مثلاً_ حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة.

وكذلك الجهل يختلف إن كان جهلاً بما هو معلوم من الدين بضرورة، أو ما دون ذلك، وهل يفرق بين أصول وفروع؟

ولعل من أظهر الأدلة في اعتبار الجهل عذراً، ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ÷ قال: قال رسول الله ": =قال رجل لم يعمل خيراً قط لأهله _ وفي رواية: أسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه _ إذا مات فحرقوه، ثم اذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر؛ فو الله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين؛ فلما مات فعلوا ما أمرهم، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر

فجمع ما فيه، ثم قال له: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب، وأنت أعلم؛ فغفر له+[١] .

يقول ابن قتيبة × عن هذا الحديث: =وهذا رجل مؤمن بالله، مقر به، خائف له، إلا أنه جهل صفة من صفاته، فظن أنه إذا أُحرق وذُري في الريح أنه يفوت الله _تعالى_ فغفر الله _تعالى_ له بمعرفته ما بنيته، وبمخافته من عذابه جهلَه بهذه الصفة من صفاته+[٢].

ويقول ابن تيمية ×: =وكنت دائماً أذكر هذا الحديث.. فهذا رجل شك في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذُريَ، بل اعتقد أنه لا يعاد.

وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مؤمناً يخاف الله أن يعاقبه؛ فغفر له بذلك+[٣].

ويفصل ابن تيمية ذلك بقوله: =فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله _تعالى_ على إعادة ابن آدم بعدما أحرق، وذُرِي، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك، وهذان أصلان عظيمان:

أحدهما: متعلق بالله _تعالى_: وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير.

والثاني: متعلق باليوم الآخر: وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت، ويجزيه على أعماله.

ومع هذا فلما كان مؤمناً بالله في الجملة، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملة، وهو

---

١ ـ البخاري (٧٥٠٦)، ومسلم (٢٧٥٦).

٢ ـ تأويل مختلف الحديث ص١٣٦ .

٣ ـ مجموع الفتاوى ٢٣١/٣، وانظر مجموع التفاوى ٥٠١/٢٨، ٤٠٩/١١ـ٤١٠، وانظر الفِصَل لابن حزم ٢٩٦/٣.

أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل عملاً صالحاً وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه ـ غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح+[1].

ويضيف ابن تيمية في بيان هذا الحديث قائلاً: =فإن هذا الرجل جهل قدرة الله على إعادته، ورجا أن لا يعيده بجهل ما أخبر به من الإعادة.

ومع هذا لما كان مؤمناً بالله، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، خائفاً من عذابه، وكان جهله بذلك جهلاً لم تقم عليه الحجة التي توجب كفر مثله ـ غفر الله له.

ومثل هذا كثير في المسلمين، والنبي " كان يخبر بأخبار الأولين؛ ليكون ذلك عبرة لهذه الأمة+[2].

وبالجملة فمسألة العذر بالجهل من المسائل التي يكثر فيها الكلام، وتتداخل جزئياتها؛ فلا ينبغي تضخيم هذه القضية، وتضليل المخالف فيها، إذا كان يسير وفق الدليل الشرعي.

والمقام هنا لا يسمح بالتفصيل.[3]

---

١ ـ مجموع الفتاوى ١٢/٤٩١، انظر السبعينية لابن تيمية ص٣٤٢.

٢ ـ الصفدية ١/٢٣٣، وانظر مدارج السالكين ١/٣٣٨ـ٣٣٩، وإيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص٤٣٦، ومجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب ٣/١١، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد ابن عثيمين ٣/٦٠٥.

٣ ـ من أحسن من تكلم في هذه المسألة د. عبدالعزيز العبداللطيف في كتابه نواقض الإيمان القولية والعملية ص٥٩ـ٧٠، ود. محمد الوهيبي في كتابه نواقض الإيمان الاعتقادية ١/٢٣٥ـ٣٠١، وانظر منهج ابن تيمية في مسألة التكفير ١/٢٥١ـ٢٦١.

المبحث الثاني: مانع الخطأ

وهو كل ما يصدر عن المكلف من قول، أو فعل خالٍ عن إرادته، وغير مقترن بقصد منه.[1]

فوقوع الخطأ من المسلم مانع من تكفيره إذا وقع في مُكَفِّر.

وخلاصة القول في هذا المانع أن النصوص من الكتاب والسنة قد تواترت في إعذار المخطئ، وأنَّ حُكْمَهُ حكمُ الجاهل، أو المتأول؛ فلا يُكفَّر إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه إن كان مجتهداً فيما يَسُوغُ فيه الاجتهادُ فله أجرٌ باجتهاده ولو أخطأ.

أما إن لم يكن مجتهداً، وأخطأ فيأثم؛ لتفريطه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =وأما التكفير فالصواب أن من اجتهد من أمة محمد " وقصد الحق فأخطأ _ لم يُكَفَّر، بل يُغْفَرُ له خطؤه.

ومن تبين له ما جاء به الرسول، فشاق الرسول من بعد ما تبين له الحق، واتبع غير سبيل المؤمنين _ فهو كافر.

ومن اتبع هواه، وقصر في طلب الحق، وتكلم بلا علم _ فهو عاصٍ مذنبٌ، قد يكون له حسنات ترجح على سيئاته+[2].

وقال ×: =هذا مع أني دائماً ومن جالسني يعلم ذلك مني أني من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب مُعَيَّنٌ إلى تكفير، وتفسيق، ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت

---

١ ـ انظر عوارض الأهلية عند الأصولية د. حسين الجبوري ٣٩٥ـ٣٩٦.

٢ ـ مجموع الفتاوى ١٢/١٨٠.

عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً مرة، وفاسقاً مرة، وعاصياً أخرى.

وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العملية.

وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحدٌ منهم على أحد لا بكفر، ولا بفسق، ولا بمعصية+[1].

وقال ×: =وليس لأحد أن يُكَفِّر أحداً من المسلمين، وإن أخطأ وغلط، حتى تقام عليه الحُجة، وتبين له المحَجَّة.

ومن ثبت إسلامه بيقين لم يَزُلْ ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة+[2].

ومن الأدلة المشهورة في هذا الشأن قوله _تعالى_: [رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا] البقرة:٢٨٦.

وثبت في صحيح مسلم أن الله _سبحانه_ استجاب هذا الدعاء، فقال: =قد فعلت+[3].

ومن الخطأ الوارد المانع من إلحاق التكفير بالمعين أن يستغلق على الإنسان فِكْرُه؛ فلا يدري ما يقول لشدة فرح، أو حزن، أو خوف، أو نحو ذلك.

ودليله ما ثبت في صحيح مسلم عن أنس بن مالك ÷ قال: قال رسول الله": =لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض

---

١ ـ مجموع الفتاوى ٢٢٩/٣.

٢ ـ مجموع الفتاوى ٤٦٦/١٢.

٣ ـ مسلم (١٢٦).

فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه، وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته؛ فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح+[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =وكنت دائمًا أذكر الحديث الذي في الصحيحين في الرجل الذي قال: =إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليم، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا من العالمين.

ففعلوا به ذلك، فقال الله له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك، فغفر له+[2].

فهذا رجل شك في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذُريَ، بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مؤمناً يخاف الله أن يعاقبه، فغفر له بذلك، والمتأول من أهل الاجتهاد الحريص على متابعة الرسول " أولى بالمغفرة من مثل هذا+اهـ[3].

---

١ ـ مسلم (٢٧٤٧).

٢ ـ البخاري (٧٥٠٦) و(٢٧٥٦).

٣ ـ مجموع الفتاوى ٢٢٩/٣، وانظر تفصيل هذه المسألة في نواقض الإيمان الاعتقادية ٣٠٢/١ـ٣١٣.

المبحث الثالث: مانع الإكراه

وهو أحد موانع إلحاق التكفير بالمعين.

والإكراه في الأصل إلزام شخص بأمر هو كارهٌ له.[1]

وفي الاصطلاح: هو كل ما أدى بشخص لو لم يفعل المأمورَ به إلى ضرب، أو حبس، أو أخذِ مالٍ، أو قطعِ رزقٍ يستحقه، أو نحو ذلك.

فإذا أكره شخص _على هذا النحو_ على فعل ما يوجب الكفر، ففعله لداعي الإكراه لا اطمئناناً به _ فإن ذلك مانع من موانع التكفير.[2]

ويشترط في الإكراه أربعة شروط:

الأول: أن يكون الآمر قادراً على إيقاع ما هدد به، والمأمور عاجز عن الدفع عن نفسه.

الثاني: أن يغلب على ظن المكْرَه وقوع ما هُدِّد به إذا امتنع.

الثالث: أن يكون ما هدد به فورياً، أو قريباً.

الرابع: ألا يظهر من المكْرَهِ اختيارٌ، أو رضاً بهذا الفعل.[3]

والدليل على أن الإكراه مانع من موانع إلحاق التكفير بالمعين قوله _تعالى_: [مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ

---

١ ـ انظر لسان العرب ١٣/٥٣٥، وفتح الباري لابن حجر ٣١١/١٢.

٢ ـ انظر مجموعة الفتاوى المصرية لابن تيمية ٥٦/١، والقواعد المثلى ص١٥٠.

٣ ـ انظر منهج ابن تيمية في مسألة التكفير ٢٧٠/١.

بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] النحل:١٠٦.

قال ابن تيمية ×: =فأباح _سبحانه_ عند الإكراه أن ينطق الرجل بالكفر بلسانه إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان، بخلاف من شرح بالكفر صدراً.

وأباح للمؤمنين أن يتقوا من الكافرين تقاةً مع نهيهم عن موالاتهم.

وعن ابن عباس قال: =إن التقية باللسان+.

ولهذا لم يكن عندنا نزاع في أن الأقوال لا يثبت حكمها في حق المكْرَه بغير حق؛ فلا يَصِحُّ كُفْرُ المكره بغير حق، ولا إيمان المكره بغير حق+[١].

وهناك مسألة في الإكراه، وهي هل يشمل الإكراه الأفعال كما يشمل الأقوال؟

والجواب: أن هذه المسألة مختلف فيها على قولين _ كما يقول ابن تيمية _ والجمهور على أنه شامل للأفعال كما أنه شامل للأقوال...

وهذا هو الذي مال إليه ×.[٢]

فهذه خلاصة موجزة لمسألة الإكراه، وكونه مانعاً من موانع التكفير.

وهناك تفصيلات أخرى في هذه المسألة يطول ذكرها، والمقام لا يحتملها.[٣]

---

١ ـ الاستقامة لابن تيمية ٢/٣١٩ـ٣٢٠.

٢ ـ انظر مجموعة الفتاوى المصرية ١/٥٦ ، وانظر منهج ابن تيمية في مسألة التكفير ١/٢٦٩.

٣ ـ انظر نواقض الإيمان الاعتقادية ٢/٥ـ١٩.

المبحث الرابع: مانع التأويل

فالعذر بالتأويل أحد موانع إلحاق التكفير بالمعين.

والعذر بالتأويل متفق عليه عند الأئمة كالعذر بالجهل والخطأ.

وإنما وقع الخلاف في حدود التأويل الذي يعذر صاحبه، والذي لا يعذر.[1]

يقول ابن حزم ×: =ومن بلغه الأمر عن رسول الله "من طريق ثابتة وهو مُسْلِمٌ، فتأوَّلَ في خلافه إياه، أو ردَّ ما بلغه بنص آخر، فما لم تقم عليه الحجة في خطئه في ترك ما ترك، وفي الأخذ بما أخذ _ فهو مأجور معذور؛ لقصده إلى الحق، وجهله به، وإن قامت عليه الحجة في ذلك، فعاند فلا تأويل بعد قيام الحجة+[2].

وقرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية × في مواضع، واستدل بقصة الرجل من بني إسرائيل، وقدامة بن مظعون وغيرها، قال ×: =والتكفير هو من الوعيد؛ فإنه وإن كان القول تكذيباً لما قاله الرسول " فقد يكون الرجل حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص، أو سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئاً[3].

وقال _أيضاً_: =إن القول قد يكون كفراً كمقالات الجهمية الذين قالوا: إن

---

١ ـ انظر نواقض الإيمان الاعتقادية ٢/٢٣.

٢ ـ الدرة فيما يجب اعتقاده لابن حزم ص٤١٤.

٣ ـ مجموع الفتاوى ٣/٢٣١.

الله لا يتكلم، ولا يُرَى في الآخرة.

ولكن قد يخفى على بعض الناس أنه كفر؛ فيطلق القول بتكفير القائل، كما قال السلف: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، ومن قال: إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر، ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم عليه الحجة _كما تقدم_ كمن جحد وجوب الصلاة، والزكاة، واستحل الخمر والزنا وتأول؛ فإن ظهور تلك الأحكام بين المسلمين أعظم من ظهور هذه، فإن كان المتأول المخطىء في تلك لا يحكم بكفره إلا بعد البيان له واستتابته _ كما فعل الصحابة في الطائفة الذين استحلوا الخمر[١]_ ففي غير ذلك أولى وأحرى ...+[٢].

ويقول: =وكذلك التكفير حق الله، فلا يكفر إلا من كفره الله ورسوله.

وأيضاً فإن تكفير الشخص المعين، وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يكفر من خالفها، وإلا فليس كلُّ مَنْ جهل شيئاً من الدين يكفر، ولهذا لما استحل طائفة من الصحابة والتابعين كقدامة بن مظعون وأصحابه شرب الخمر، وظنوا أنها تباح لمن عمل صالحاً على ما فهموه من آية المائدة [٣] واتفق علماء الصحابة كعمر وعلي وغيرهما على أنهم يستتابون، فإن أصروا على الاستحلال كفروا، وإن أقروا به جلدوا، فلم يكفروهم بالاستحلال ابتداءاً؛ لأجل

١ ـ كقدامة بن مظعون وأصحابه ـرضي الله عنهمـ روى ذلك عبد الرزاق في المصنف ٢٤٠/٩، ٢٤٢، وابن أبي شيبة ٩/ ٥٤٦، والبيهقي في سننه ١٦/٨، وأخرجها أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وابن المنذر كما في الدر المنثور ١٦١/٣، ١٧٤، وابن السكن كما في الإصابة ٢٢٨/٣، ٢٢٩، والجوزجاني كما في منهاج السنة ٨٤/٦، وفي بعض الروايات ذكر قدامة، وبعضها لم يذكر.

٢ ـ مجموع الفتاوى ٦١٩/٧.

٣ ـ والآية هي قوله ـتعالىـ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا...الآية﴾ المائدة: ٩٣.

الشبهة التي عرضت لهم حتى يتبين لهم الحق+[1].

وكذلك الحُكْمُ على كل مَنْ استحل محرماً من المحرمات الظاهرة المتواترة إذا لم تقم عليه الحجة، وعَرَضَتْ له شبهاتٌ مِنْ جِنْس ما عرض لهؤلاء؛ فالتكفير يكون بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة.

يقول الإمام ابن القيم × بعدما بَيَّن كُفْرَ مَنْ جَحد فريضة مِنْ فرائض الإسلام، أو تحريمَ مُحَرَّمٍ من محرماته: =وأما من جحد ذلك جهلاً، أو تأويلاً يعذر فيه صاحبه _ فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه، أمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح، ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه لجهله؛ إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة الله على إعادته عناداً أو تكذيباً+[2].

وقال ابن الوزير ×: =إن المتأولين غير كفار؛ لأن صدورهم لم تنشرح بالكفر قطعاً، أو ظناً، أو تجويزاً، أو احتمالاً+[3].

واستدل بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ÷عن الخوارج: =من الكفر فروا+.

فقال ابن الوزير: =فكذلك جميع أهل التأويل من أهل الملة، وإن وقعوا في أفحش البدع، والجهل؛ فقد علم منهم أن حالهم في ذلك هي حال الخوارج+.[4]

---

١ ـ الرد على البكري ٢٥٨ .

٢ ـ مدارج السالكين ١/٣٦٧ .

٣ ـ إيثار الحق ص٤٣٧.

٤ ـ إيثار الحق ص٤٣٧ ، وانظر نواقض الإيمان الاعغتقادية ٢/٢٣ـ٣٠ ، ففيه تفصيل لهذه المسألة.

المبحث الخامس: مانع التقليد

فالتقليد أحد موانع إلحاق التكفير بالمعين.

والتقليد في الاصطلاح: هو قبول قول القائل، دون عِلْمِ مَأْخَذِه، أو اتباع قول من ليس بحجة.[1]

وخلاصةُ مسألةِ التقليدِ، وكونِه أحدَ موانعِ التكفيرِ _ أنه يجوز التقليد في العقائد للعامي الذي لا يستطيع النظر والاستدلال، كجواز ذلك في الأحكام.

أما مَنْ يستطيع الاستدلال فلا يجوز له التقليد في العقائد والأحكام، لكن لا يشترط النظر، والاستدلال؛ لصحة الإيمان.

وبناءاً على ذلك يتبين لنا إعذارُ الأئمة لمن وقع في الكفر تقليداً إن كان جاهلاً لا بصيرة له، ولا فقه.

أما من كان قادراً على فهم الحجة، وفَرَّط في طلبها فإنه يأثم، ولكنه لا يُكَفَّر إلا بعد قيام الحجة _ والله أعلم[2].

يقول ابن القيم × مبيناً ومفصلاً أقسام أهل البدع: =وأما أهل البدع الموافقون أهل الإسلام، ولكنهم مخالفون في بعض الأصول كالرافضة، والقدرية، والجهمية، وغلاة المرجئة، ونحوهم _ فهؤلاء أقسام:

---

١ ـ انظر الأحكام لابن حزم ٨٣٦/٢، وإرشاد الفحول للشوكاني ص٢٦٥، ونواقض الإيمان الاعتقادية ٣٩/٢.

٢ ـ انظر نواقض الإيمان الاعتقادية ٤٨/٢ و٥١.

أحدها: الجاهل المقَلِّد الذي لا بصيرةَ له، فهذا لا يُكَفَّر، ولا يُفَسَّق، ولا تُرَدُّ شهادته إذا لم يكن قادراً على تعلم الهدى.

وحكمُهُ حُكْمُ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً؛ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله غفوراً رحيماً.

القسم الثاني: المتمكن من السؤال، وطلب الهداية ومعرفة الحق، ولكنْ يترك ذلك؛ اشتغالاً بدنياه، ورئاسته، ولذته، ومعاشه وغير ذلك؛ فهذا مُفَرِّطٌ مستحق للوعيد، آثم بترك ما وجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته؛ فهذا حكمه حكم أمثاله من تاركي بعض الواجبات؛ فإن غلب ما فيه من البدعة والهوى على ما فيه من السنة والهدى ردت شهادته، وإن غلب ما فيه من السنة والهدى قُبِلَت شهادته.

القسم الثالث: أن يسأل، ويطلب، ويتبين له الهدى، ويتركه تقليداً أو تعصباً، أو بغضاً ومعاداة لأصحابه _ فهذا أقل درجاته أن يكون فاسقاً، وتكفيره محل اجتهاد وتفصيل ...+[1].

١ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم ص١٧٤ـ١٧٥.

المبحث السادس: مانع العجز

ويعده بعض العلماء مانعاً من موانع إلحاق التكفير بالمعين، وبعضهم يلحقه بغيره من الموانع التي مرت.

والذين جعلوا العجز مانعاً من موانع التكفير انطلقوا من مثل قوله ــتعالىــ: [لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا] البقرة:٢٨٦، وقوله: [لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا] الطلاق:٧.

ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية × حيث عَدَّ العجز عن أداء ما شرع الله ــعز وجلــ من الموانع التي تمنع التكفير؛ فمن عجز عن ذلك، واتقى الله ما استطاع فإنه معذور غير مؤاخذ على ما تركه[1].

وذلك كأن تبلغ دعوة النبي " لبعض الكفار، وهم في دار كفر، فعلموا أنه رسول الله فآمنوا به، وآمنوا بما أنزل عليه، واتقوا الله ما استطاعوا، ولم يتمكنوا من الهجرة إلى دار الإسلام، ولا الالتزام بجميع شرائع الإسلام؛ لكونهم ممنوعين من الهجرة، وممنوعين من إظهار دين الله، وليس عندهم مَنْ يُعَلِّمهم جميع شرائع الإسلام ــ فهؤلاء مؤمنون من أهل الجنة.[2]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبيناً هذا المانع: =فمن ترك بعض الإيمان الواجب؛ لعجزه عنه، إما لعدم تمكنه من العلم، مثل ألا تبلغه الرسالة، أو لعدم

١ ـ انظر منهج ابن تيمية في مسألة التكفير ٢/٢٦٢ـ٢٦٥.

٢ ـ انظر مجموع الفتاوى ١٩/٢١٧.

تَمكُّنه من العمل لم يكن مأمورًا بما يعجز عنه، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب في حقه، وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل، بمنزلة صلاة المريض، والخائف، والمستحاضة، وسائر أهل الأعذار، الذين يعجزون عن إتمام الصلاة؛ فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه، وبه أمروا إذ ذاك، وإن كانت صلاة القادر على الإتمام أكمل وأفضل، كما قال النبي ": =المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير+[1][2].

واستدل شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك بما يأتي:

الدليل الأول: أن النجاشي كان ملك النصارى، فلم يُطِعْهُ قومُه في الدخول في الإسلام، ولم يدخلْ معه سوى نفرٍ يَسيرٍ منهم، فلما مات، صلى عليه النبي" بالمدينة، خرج بالمسلمين إلى المصلى، فصفهم صفوفاً، وصلى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات، فقال: =قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش، فَهَلُّمَ؛ فصلوا عليه+.[3]

وكثيرٌ من شرائع الإسلام لم يكن دخل فيها؛ لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر، ولم يجاهد، بل قد روي أنه لم يصلِّ الصلوات الخمس، ولا يصوم شهر رمضان، ولا يؤدي الزكاة الشرعية؛ لأن ذلك كان يظهر عند قومه؛ فينكرونه، ولا يمكنه مخالَفَتُهم.

ويُعلم قطعاً أنه لم يكنْ يُمْكِنُهُ أن يحكمَ بينهم بحكم القرآن؛ لأن قومه لا يُقِرُّونه على ذلك، ولهذا جعل الله هؤلاء من أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي" قال الله ــتعالىــ: [وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ

---

١ ـ الحديث رواه مسلم(٢٦٦٤).

٢ ـ مجموع الفتاوى ٤٧٨/١٢ـ٤٧٩.

٣ ـ رواه البخاري (١٣٢٠)، ومسلم (٩٥٢).

خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ]آل عمران:١٩٩.

وهذه الآية قد قال طائفة من السلف: إنها نزلت في النجاشي، ومنهم من قال: فيه، وفي أصحابه.[١]

الدليل الثاني: قوله _تعالى_: [إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً (٩٩)]النساء.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذه الآيات في جماعة من المؤمنين كانوا يستخفون بإيمانهم بمكة، وهم عاجزون عن الهجرة؛ فعذرهم الله _تعالى_.[٢]

الدليل الثالث: قوله _تعالى_: [وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً] النساء:٧٥.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبيناً وَجْهَ الدلالةِ من هذه الآية: =فأولئك كانوا عاجزين عن إقامة دينهم؛ فقد سقط ما عجزوا عنه، فإذا كان هذا فيمن كان

---

١ ـانظر مجموع الفتاوى ٢١٧/١٩ـ٢١٩، والأول مروي عن جابر بن عبدالله وأنس، وابن جريج، والآخر مروي عن قتادة، انظر تفسير الطبري ٢١٨/٤ـ٢١٩، والدر المنثور ١١٣/٢، ومنهج ابن تيمية في مسألة التكفير ٢٦٣/١ـ٢٦٤.

٢ ـ انظر مجموع الفتاوى ٢٢٠/١٩، وانظر منهج ابن تيمية في مسألة التكفير ٢٦٤/١.

مشركاً وآمن، فما الظن بمن كان من أهل الكتاب وآمن؟+.[(١)]

الدليل الرابع: ما أخبر به عن حال مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون، وعن حال امرأة فرعون، وكما كان يوسف _عليه السلام_ مع أهل مصر؛ فإنهم كانوا كفاراً، ولم يُمْكِنْهُ أن يفعلَ معهم كلَّ ما يعرفه من دين الإسلام؛ لأنه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه.[(٢)]

---

١ ـ مجموع الفتاوى ١٩/٢٢٠ـ٢٢١، وانظر منهج ابن تيمية في مسألة التكفير ١/٢٦٤ـ٢٦٥.

٢ ـ انظر المصدر السابق ١٩/٢١٧، وانظر منهج ابن تيمية في مسألة التكفير ١/٢٦٥.

الفصل السادس

الصغائر والكبائر، وموانع إنفاذ الوعيد

وتحته:

ــ **تمهيد**

المبحث الأول: تقسيم الذنوب.

المبحث الثاني: ماهية الصغائر والكبائر.

المبحث الثالث: تكفير الأعمال الصالحة للصغائر والكبائر.

المبحث الرابع: موانع إنفاذ الوعيد.

المبحث الخامس: وسطية أهل السنة في باب الإيمان.

تمهيد

مصطلح الكبائر والصغائر يرد في كتب العقائد، وذلك إذا تحدثوا عن الذنوب، وتقسيمها، وحكم مرتكب الكبيرة في الدنيا والآخرة، وهكذا...

ومسألة الصغائر والكبائر لها ارتباط وثيق بباب الإيمان؛ من جهة حكم مرتكب الكبيرة، والخلاف فيه _كما مر_.

وكذلك الحال بالنسبة لمسألة موانع إنفاذ الوعيد، فلها ارتباط بباب الإيمان _على ما سيأتي بيانه_.

وكذلك وسطية أهل السنة والجماعة في باب الإيمان؛ فهي خلاصةٌ لكثير من مسائل هذا الكتاب.

وفيما يلي نبذة عن تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر، والأدلة على ذلك، مع بيان ماهية الصغائر والكبائر سواء عند من حصروا الكبائر بعدد، أو حَدُّوها بِحَدٍّ، ثم ينتقل الحديث إلى مسألة تكفير الكبائر بالأعمال الصالحة، وهل هذا ممكن؟ أو أنه لا بد من التوبة؟ فإلى التفصيل في ذلك الشأن.

وبعد ذلك ينتقل الحديث إلى مسألة إنفاذ الوعيد، ثم إلى وسطية أهل السنة في باب الإيمان.

المبحث الأول: تقسيم الذنوب

الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، قال الغزالي ×: =اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها؛ فقال قائلون: لا صغيرة ولا كبيرة، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة.

وهذا ضعيف؛ إذ قال _تعالى_: [إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً] النساء:٣١، وقال _تعالى_: [الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ] النجم:٣٢.

وقال": =**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر**+ وفي لفظ آخر: =**كفارات لما بينهن إلا الكبائر**+[1].

وقد قال"فيما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص _رضي الله عنهما_: =**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**+[2][3].

وقال ابن القيم ×: =وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائرَ وصغائر+[4].

وقال ×: =والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا: الذنوب كلها _بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره_ كبائر؛ فالنظر إلى من عُصي

١ـ رواه مسلم (٢٣٣).

٢ـ رواه البخاري (٦٦٥٦).

٣ـ إحياء علوم الدين ١٧/٤.

٤ـ الجواب الكافي ص٣٠٦.

أمرُه، وانتُهك محارمه يوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر، وهي مستوية في هذه المفسدة+[١].

وقال ـبعد أن ساق بعض ما أورده مَنْ قال: إن الذنوب كلها كبائرـ: =فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل؛ فما كان أشدَّ منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشدَّ موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات، وأفرض الطاعات؛ فتأمل هذا الأصل حق التأمل، واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده، وحرمه عليهم، وتفاوتَ مراتب الطاعات والمعاصي+[٢].

وبعد أن تبيَّنَ أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر ينتقل الحديث إلى بيان ماهية الصغائر والكبائر.

١ـ الجواب الكافي ص ٣٠٩.

٢ـ الجواب الكافي ٣١٢.

المبحث الثاني: ماهية الصغائر والكبائر

أولاً: ما هية الصغائر والكبائر عند من حصروها بعدد

اخْتُلِفَ في تحديد الكبائر وحصرها؛ فقيل في ذلك أقوال منها[١]:

١ـ قال عبدالله بن مسعود÷: هي أربع.

٢ـ وقال عبدالله بن عمر ـرضي الله عنهماـ: هي سبع.

٣. ـ وقال عبدالله بن عمرو بن العاص ـرضي الله عنهماـ: هي تسع.

٤ـ وكان ابن عباس ـرضي الله عنهماـ إذا بلغه قول ابن عمر: الكبائر سبع يقول: هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع.

٥ ـ وقال آخر: هي إحدى عشرة.

٦ـ وقال أبو طالب المكي: جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعةً في القلب وهي: الإشراك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله.

وأربعةً في اللسان، وهي: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر[٢].

وثلاثةً في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا.

واثنين في الفرج: الزنا، واللواط.

١ـ انظر إحياء علوم الدين ٤/١٧ـ١٨، والجواب الكافي ٣٠٨ـ٣٠٩.

٢ـ السحر لا يقتصر على اللسان، بل تشترك الجوارح في عمله.

واثنين في اليدين: وهما القتل والسرقة.

وواحداً في الرجلين: وهو الفرار من الزحف.

وواحداً يتعلق بجميع الجسد: وهو عقوق الوالدين.

هذه خلاصة أقوال الذين حصروها بعدد.

ثانياً: ماهية الكبائر والصغائر عند من حَدُّوها بحدٍّ

وأما الذين لم يحصروا الكبائر بعدد، وإنما حدوها بحد فقد اختلفوا في ذلك على أقوال منها:

١ـ أن ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن، أو غضب، أو عقوبة ـ فهو كبيرة، وما لم يقترن به شيء فهو صغيرة.

٢ـ وقيل: كل ما ترتب عليه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة ـ فهو كبيرة، وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة[1].

٣ ـ وقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

٤ـ وقيل: كل ما لعن الله ورسوله فاعله فهو كبيرة.

٥ـ وقيل: هي كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله: [إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ] النساء: ٣١.

١ـ وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى ٦٥٠/١١، وقال في ٦٥٠/١١: «إنه أمثل الأقوال في هذه المسألة»، وقال في ٦٥٤/١١: «وإنما قلنا: إن هذا الضابط أولى من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه...» ثم ذكر خمسة وجوه.

المبحث الثالث: تكفير الأعمال الصالحة للصغائر والكبائر

هذا المبحث يدور حول سؤال مفاده:

هل الحسنات والأعمال الصالحة تكفر الصغائر والكبائر على حد سواء، أَوْ لا بد في الكبائر من التوبة؟

والجواب عن ذلك أن هذه المسألة قد اختلف فيها على قولين:

قال ابن رجب ×: =وقد اختلف في مسألتين: إحداهما: هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر والصغائر؟ أو لا تكفر سوى الصغائر؟

فمنهم قال: لا تكفِّر سوى الصغائر، وقد روي هذا عن عطاء، وغيره من السلف في الوضوء أنه يكفر الصغائر، وقال سلمان الفارسي في الوضوء: إنه يكفر الجراحات الصِّغار، والمشي إلى المساجد يكفر أكبر من ذلك، والصلاة تكفر أكبر من ذلك، خرجه محمد بن نصر المروزي.

وأما الكبائر فلا بد لها من التوبة؛ لأن الله أمر العباد بالتوبة، وجعل من لم يتب ظالماً، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض، والفرائض لا تؤدى إلا بنية وقصد، ولو كانت الكبائر تقع مكفرة بالوضوء، والصلاة، وأداء بقية أركان الإسلام _ لم يحتج إلى التوبة، وهذا باطل بالإجماع+[1].

ثم ساق × جملة من الأقوال والآثار في تأييد هذا القول.

وانتقل بعد ذلك إلى القول الثاني في هذه المسألة، فقال: =وذهب قوم من أهل الحديث، وغيرهم إلى أن هذه الأعمال تكفر الكبائر، ومنهم ابن حزم الظاهري، وإياه عنى ابن عبد البر في كتاب (التمهيد) بالرد عليه، وقال: =قد كنت أرغب

١ـ جامع العلوم ١/ ٤٢٥ـ٤٢٦.

بنفسي عن الكلام في مثل هذا الباب لولا قول ذلك القائل، وخشيت أن يغتر به جاهل، فينهمك في الموبقات؛ اتكالاً على أنها تكفرها الصلوات دون الندم، والاستغفار والتوبة+ا. هـ [(١)]

ثم قال ابن رجب ×: =والصحيح قول الجمهور: إن الكبائر لا تكفَّر بدون التوبة؛ لأن التوبة فرض على العباد+[(٢)].

ثم ساق جملة من الآثار التي تؤيد هذا القول.

ثم قال: =والأظهر ـ والله أعلم في هذه المسألة ـ أعني مسألة تكفير الكبائر بالأعمال ـ أنه أريد أن الكبائر تمحى بمجرد الإتيان بالفرائض، وتقع الكبائر مُكَفَّرة بذلك كما تكفر الصغائر باجتناب الكبائر ـ فهذا باطل.

وإن أريد أنه يوازَن يوم القيامة بين الكبائر وبين بعض الأعمال، فتمحى الكبيرة بما يقابلها من العمل، ويسقط العمل؛ فلا يبقى له ثواب فهذا يقع+[(٣)].

إلى أن قال: =وظاهر هذا أنه تقع المقاصَّةُ بين الحسنات والسيئات، ثم تسقط الحسنات المقابلة للسيئات، وينظر إلى ما يَفْضُل بعد المقاصة.

وهذا يوافق قول من قال بأن من رجحت حسناته على سيئاته بحسنة واحدة أثيب بتلك الحسنة خاصة، وسقط باقي حسناته في مقابل سيئاته، كأنها لم تكن.

وهذا في الكبائر، أما الصغائر فإنها تمحى بالأعمال الصالحة مع بقاء ثوابها+ا.هـ.[(٤)]

---

١ ـ جامع العلوم والحكم ١/٤٢٨.
٢ ـ جامع العلوم والحكم ١/٤٢٩
٣ ـ جامع العلوم والحكم ١/٤٣٨.
٤ ـ جامع العلوم والحكم ١/٤٤٠.

هذا وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية × أن الحسنات الماحية تكفر الكبائر بدون التوبة.

قال × بعد أن ذكر السبب الثالث من الأسباب التي تزول بها عن العبد عقوبة الذنوب، وهو الحسنات الماحية قال: =وسؤالهم على هذا الوجه أن يقولوا: الحسنات إنما تكفر الصغائر فقط.

أما الكبائر فلا تغتفر إلا بالتوبة كما جاء في بعض الأحاديث: =ما اجتنبت الكبائر+ فيجاب عن هذا بوجوه+ ا. هـ .[1]

ثم ذكر × خمسة وجوه بيَّن من خلالها أن الحسنات تكفِّر الكبائر.

ومما قال × من الوجوه التي أيَّد بها كلامه ما يلي:

=**هما**: أن هذا الشرط _يعني ما اجتنبت الكبائر_ جاء في الفرائض، كالصلوات الخمس، والجمعة، وصيام رمضان، وذلك أن الله _تعالى_ يقول: [إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ] النساء: ٣١.

فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات، وأما الأعمال الزائدة من التطوعات فلا بد أن يكون لها ثواب آخر؛ فإن الله _سبحانه_ يقول: [فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ(٨)] الزلزلة.

الثاني: أنه قد جاء التصريح في كثير من الأحاديث بأن المغفرة قد تكون مع الكبائر، كما في قوله ": =غفر له وإن كان فر من الزحف+.

وفي السنن: =أتينا رسول الله " في صاحب لنا قد أوجب، فقال: =**أعتقوا عنه يعتقِ الله عنه بكل عضو عضواً من النار**+.

---

١ ـ مجموع الفتاوى ٤٨٩/٧.

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر: =**وإن زنا وإن سرق**+.

الثالث: أن قوله لأهل بدر ونحوهم: =**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**+ إن حُمِل على الصغائر، أو على المغفرة مع التوبة لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم؛ فكما لا يجوز حمل الحديث على الكفر؛ لما قد عُلِمَ أن الكفر لا يغفر إلا بالتوبة _ لا يجوز حمله على الصغائر المكَفَّرةِ باجتناب الكبائر+.

ثم ذكر × الوجهين الرابع، والخامس، وأطال فيهما.

والمقام لا يتسع لإيرادهما، وإنما المقصود هو الوقوف على رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة.

وبعد أن تبين _من خلال ما مضى_ بعض أقوال أهل العلم في هذه المسألة، وأن بعضهم _ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية_ يرى أن الحسنات الماحية، والأعمال الصالحة تكفر الكبائر بدون التوبة_ **فإنه يحسن الوقوف على مسالة مهمة** في هذا الباب تتبين من خلال التساؤل الآتي:

هل الأعمال الصالحة تقوى على تكفير الكبائر بإطلاق؟

والجواب: أن الأعمال الصالحة قد لا تقوى على تكفير الكبائر؛ ذلك أن الأعمال إنما تتفاضل بحسب إحسان العمل، وبحسب ما يقوم بالقلب من حقائق الإيمان؛ فتكفير العمل للسيئات بحسب كماله، ونقصانه.

ولا ريب أن الكبائر والذنوب عموماً تضعف القلب، وتعطل سيره إلى الله والدار الآخرة، وعلى هذا فقد تكون الأعمال الصالحة ناقصة، ضعيفة لا تقاوم الكبائر؛ ولا تقوى على تكفيرها.

ولا يَرِدُ على هذا أن بعض النصوص صرحت بأن هناك أعمالاً غفر الله

لأصحابها بسبب عمل صالح، كما في حديث البغي[1]، وحديث صاحب البطاقة[2]؛ ذلك أن الحالات الخاصة لا تعمم، ولا تكون قاعدة مطردة بكل حال؛ فليس كل امرأة بغي تسقي كلباً يغفر لها، وليس كل من قال: =لا إله إلا الله+ تنفعه كما نفعت صاحب البطاقة.

---

١ ـ وهو ما رواه البخاري (٣٤٦٧) ومسلم (٢٢٤٥): قال النبي ﷺ: «بينما كلب يطيف ـيدورـ بركية ـبئرـ كاد يقتله العطش؛ إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل؛ فنزعت موقها ـخفهاـ واستقت له به، فسقته إياه؛ فغُفر لها به».

فهذه المرأة قام بقلبها من الإخلاص، وتوابعه ما كان سبباً لمغفرة ذنوبها.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين ١/٣٤١ مقرراً هذا المعنى: «وقريب من هذا ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب، وقد اشتد به العطش يأكل الثرى، فقام بقلبها ذلك الوقتـمع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملهاـما حملها على أن غَرَّرَت بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحَمْلِها خُفَّها بفيها وهو ملآن، حتى أمكنها الرقيُّ من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً؛ فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء، فَغُفِر لها.

فهكذا الأعمال والعمال عند الله، والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهباً والله المستعان».

ويُقصد بقوله: «الإكسير الكيماوي»: الإخلاص، والإكسير مادة يقال: إنها إذا وضعت مع المعادن غير الذهب حولتها إلى ذهب.

٢ ـ هو ما جاء في قوله ﷺ: «إن الله سيخلِّصُ رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فَيَنْشُرُ عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجلٍ مثل مدِّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: أَفَلَكَ عذر؟ فيقول: لا يا ربِّ.

فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنةً؛ فإنه لا ظلم اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك.

فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تُظْلَم.

قال: فتوضع السجلات في كفةٍ، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء».

رواه الترمذي (٢٦٣٩) وحسَّنه، وابن ماجة (٤٣٠٠) وابن حبان (٢٥٢٣) وصححه، والألباني في صحيح الجامع (١٧٧٦).

المبحث الرابع: موانع إنفاذ الوعيد

لهذه المسألة ارتباط بباب الإيمان؛ ذلك أن الوعيدية من الخوارج والمعتزلة ـ كما مر ـ يرون أنه لا بد من إنفاذ الوعيد على من تَلَبَّس بالكبائر؛ لأنه خارج عن الملة ـ بزعمهم ـ.

والمرجئة لا يرون أن مرتكب الكبيرة خارج عن الملة، بل هو مؤمن كامل الإيمان؛ فلا وعيد عليه ـ كما يزعمون ـ لأن الإيمان عندهم هو مجرد التصديق بالقلب؛ فطالما أنه موجود فلا يضر معه معصية.

ومسألة موانع إنفاذ الوعيد ترد في كتب العقائد خصوصاً في باب الإيمان، وحكم مرتكب الكبيرة، وعند مناقشة الوعيدية كالخوارج والمعتزلة.

وهذه المسألة تسمى: **موانع إنفاذ الوعيد**، وتسمى بـ: **الأسباب التي تندفع بها العقوبة**.

ومما يوضح هذه المسألة أن يقال: إن الذنوب موجبة لدخول النار، وصاحبها متوعد بالعذاب إلا أن هناك أسباباً تندفع بها العقوبة، وينتفي بسببها الوعيد، ويزول موجب الذنوب.

وهذه الأسباب تسمى موانع إنفاذ الوعيد، أي موانع إيقاع العذاب على مستحقه؛ لأن الوعيد إنما يكون بالشر.

وهذه الأسباب عشرة عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب: أحدها: التوبة، وهذا متفق

عليه بين المسلمين+[١].

ثم شرع × في ذكر باقي الموانع بالتفصيل.

وقال في موضع آخر: =والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب:

١ــ أن يتوب فيتوب الله عليه؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

٢ــ أو يستغفر، فيغفر الله له.

٣ــ أو يعمل حسناتٍ تمحوها؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات.

٤ــ أو يدعو له إخوانه المؤمنون، ويستغفرون له حياً وميتاً.

٥ــ أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

٦ــ أو يشفع فيه نبيه محمدٌ ".

٧ــ أو يبتليه الله ـ تعالى ـ في الدنيا بمصائب تكفَّر عنه.

٨ــ أو يبتليه في البرزخ بالصعقة، فيكفر بها عنه.

٩ــ أو يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفِّر عنه.

١٠ــ أو يرحمه أرحم الراحمين.

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه، كما قال ــتعالىــ فيما يرويه عنه رسول الله " =يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم أياها؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه+.[٢][٣]

وقال في الاستقامة: =فإن الذنوب التي يُبتلى بها العبادُ يسقط عنهم عذابُها إما بتوبة تَجُبُّ ما قبلها، وإما باستغفار، وإما بحسنات ماحية يذهبن السيئات، وإما

١ـ مجموع الفتاوى ٤٨٧/٧.

٢ـ رواه مسلم (٢٥٧٧).

٣ـ مجموع الفتاوى ٤٥/١٠ـ٤٦.

بدعاء المسلمين وشفاعتهم، أو بما يفعلونه له من البر، وإما بشفاعة النبي " وغيره فيه يوم القيامة، وإما أن يكفِّر الله عنه خطاياه بما يصيبه من المصائب+[1].

ومما يحسن التنبيه عليه ههنا أن التوبة وحدها هي التي يزول بها موجب الذنوب للمؤمن والكافر، أما باقي الموانع فهي خاصة بالمؤمن.

ثم إن الوعيدية لا يرون من هذه الموانع إلا التوبة، وأما باقي الموانع فلا يرون أنها تمنع من إنفاذ الوعيد، بل يرون أنه يجب على الله ـعز وجلـ أن يعاقب من عصاه، كما يجب عليه أن يثيب من أطاعه، ولم يلتفتوا إلى باقي الموانع.

أما أهل السنة فهم يرون هذه الموانع؛ وذلك لأنهم ينظرون إلى النصوص كافة، ويحرصون على الجمع بينها.

١ـ الاستقامة ٢/١٨٤ـ١٨٥.

المبحث الخامس: وسطية أهل السنة في باب الإيمان ومسائله

الوسطية من أعظم ما يميز أهل السنة والجماعة، فكما أن أهل أمة الإسلام وسط بين الأمم التي تجنح إلى الغلو الضار، والأمم التي تميل إلى التفريط المهلك_ فكذلك أهل السنة والجماعة وسط بين فرق الأمة المبتدعة التي انحرفت عن الصراط المستقيم.

وتتجلى هذه الوسطية في شتى الأمور سواء في باب العقيدة أو الأحكام، أو السلوك، أو غيرها.

ولعل أجلى مظاهر تلك الوسطية وسطيتها في باب العقيدة، ومن ذلك وسطيتها في باب الإيمان ومسائله، وقد مر شيء من ذلك بإيجاز، وفيما يلي ذكر لبعض تلك المظاهر:

١_ وسط في باب الوعد والوعيد بين المرجئة وبين الوعيدية: فالمرجئة قالوا: لا يضر مع الأيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وزعموا أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب، وأن لم ينطق به، وأخروا الأعمال عن الإيمان، وجوَّزوا أن يعذب الله المطيعين، ويُنَعِّم العاصين.

أما الوعيدية فهم القائلون بان الله يجب عليه عقلاً أن يعذب العاصي كما يجب عليه أن يثيب المطيع؛ فمن مات على كبيرة، ولم يتب منها لا يجوز عندهم أن يغفر الله له.

أما أهل السنة فوسط بين نفاة الوعيد من المرجئة، وبين موجبيه من الوعيدية؛ فمن مات على كبيرة دون الشرك عندهم فَأَمْرُه مفوَّض إلى الله، إن شاء عاقبه،

وإن شاء عفا عنه، وإذا عاقبه بها فإنه لا يخلد خلود الكفار، بل يخرج من النار، ويدخل الجنة.[1]

٢ــ وسط في مسألة التكفير: فبينما نَجِد فريقاً يتسرعون في إطلاق الكفر، فيكفرون بالكبيرة، ولا يحكمون بإسلام مَنْ نطق بالشهادتين، وصلى، وصام، وأدى فرائض الإسلام . ما لم يتحققوا إسلامه بشروط حَدَّدوها لم تَرِدْ في الكتاب ولا السنة . وذلك كحال الخوارج ومن سار على نهجهم . نجد فريقاً آخر فَرَّط أيما تفريط، فمنع التكفير البتة، ورأى أن من تلفظ بالشهادتين لا يمكن تكفيره بحال، بل قالوا:إنه لا يجوز تكفير شخص بعينه، وإنما إطلاق الكفر يكون على الأعمال .

ومن هنا فَهُمْ لا يكفِّرون أحداً أبداً حتى المرتدين، ومدعي النبوة، وجاحدي وجوب الصلاة، ونحو ذلك من الأمور التي اجمع أهل العلم على خروج أصحابها من دائرة الإسلام .

أما أهل السنة فقد هداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه؛ لالتزامهم بالدليل الشرعي؛ فهم لا يمنعون التكفير بإطلاق، ولا يكفرون بكل ذنب، ولم يقولوا: إن تكفير المعين غير ممكن، ولم يقولوا بالتكفير بالعموم دون تحقق شروط التكفير، وانتفاء موانعه في حق المعين، ولم يتوقفوا في إثبات وصف الإسلام لمن دخل فيه، أو ظهر منه إرادة الدخول فيه.

بل يحسنون الظن بأهل القبلة الموحدين، وبمن دخل في الإسلام، أو أراد الدخول فيه.

ومن أتى بمكفر، واجتمعت فيه الشروط، وانتفت في حقه الموانع . فإنهم لا

---

١ ـ انظر التنبيهات اللطيفة ص٦٢ ، وشرح الواسطية للهراس ص١٨٨ـ١٨٩.

يتحرجون من تكفيره؛ لأنهم يرون أن التكفير ليس حقاً لأحد، وإنما هو حق لله ورسوله، فلا يكفرون إلا من كفره الله ورسوله، على أنهم لا يرون أن تنزيل أحكام التكفير كلأٌ مباح، بل هو متروك لأهل العلم والبصيرة، والرزانة، والركانة.[1]

٣. وسط في باب أسماء الدين والإيمان، أو مسألة الأسماء والأحكام بين الخوارج والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية: والمراد بالأسماء هنا: أسماء الدين، مثل: مؤمن، ومسلم، وكافر، وفاسق.

والمراد بالأحكام أحكام أصحابها في الدنيا والآخرة.

فالخوارج والمعتزلة ــ كما مر ــ ذهبوا إلى أنه لا يستحق اسم الإيمان إلا من صدق بجنانه، وأقر بلسانه، وقام بجميع الواجبات، واجتنب جميع المنهيات.

وعلى هذا فمرتكب الكبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر، فهو بمنزلة بين المنزلتين.

أما في أحكام الآخرة فاتفق الفريقان على أن من مات على كبيرة ولم يتب منها . فهو مخلد في النار .

أما المرجئة فكما سبق بيان مذهبهم، وهو أنه لا يضر مع الإيمان معصية، فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان، ولا يستحق دخول النار .

أما أهل السنة والجماعة فمذهبهم وسط بين هذين المذهبين، فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أو هو مؤمن ناقص الإيمان، أو يسمُّونه

---

١ ـ انظر مجموع الفتاوى ٢٨/٥٠٠ـ٥٠٨ ، وضوابط التكفير د. عبدالله القرني ص٩ـ١٠ ، وظاهرة التكفير تاريخها ـ خطرها ـ أسبابها ـ علاجها للأمين الحاج محمد أحمد ص٧.

فاسقاً مِلِّيّاً قد نقص إيمانه بقدر ما ارتكب من معصية، فلا ينفون عنه الإيمان أصلاً، ولا يقولون: إنه خرج من الملة كالخوارج والمعتزلة، ولا يقولون: بأنه كامل الإيمان كالمرجئة .

وحكمه في الآخرة عندهم أنه قد يتجاوز الله عنه فيدخل الجنة ابتداءً، أو يعذبه بقدر معصيته ثم يخرجه، ويدخله الجنة كما سبق.[1]

---

١ ـ انظر شرح الواسطية للهراس ص١٩٠ـ١٩١.

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد

ففي خاتمة البحث هذا ملخص لأهم ما ورد فيه:

١ــ **باب الإيمان، وما يتعلق به من مسائل** يُعدُّ من أعظم أبواب العقيدة، وأهمها، وأجلها قدراً.

٢ــ **للإيمان الصحيح ثمراتٌ عظيمةٌ**؛ فخير الدنيا والآخرة إنما هو بسبب الإيمان؛ فبه يحيى العبدُ حياةً طيبة، وبه ينجو من المكاره والشرور، وبه تخف الشدائد، وتُدرك جميع المطالب؛ فمعرفة ثمراته من أكبر الدواعي إلى التزود منه.

وقد ورد في البحث ذكرٌ لكثير من تلك الثمرات.

٣ــ **الإسلام في اللغة** هو: الاستسلام، والانقياد، وإظهار الخضوع، والقبول.

وفي الشرع هو: استسلام العبد لله ظاهراً، وباطناً، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

٤ــ **الإيمان في اللغة له استعمالان:** أحدهما بمعنى التأمين، أي إعطاء الأمان، والثاني بمعنى التصديق.

وفي الشرع: قول، وعمل يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

٥ــ **الإسلام والإيمان** إذا أطلق أحدهما شمل الدين كله أصوله وفروعه.

وإذا قرن بينهما، وذُكِرَا في سياق واحد فُسِّر الإسلام بالأعمال والأقوال الظاهرة، وفسر الإيمان بالاعتقادات الباطنة.

٦ــ **من أصول أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص،** وقد خالف في هذا

الأصل: الوعيدية من المعتزلة والخوارج، والمرجئة الخالصة.

٧ــ الإيمان مراتب، والناس فيه على تفاوت وتفاضل؛ فمنهم من ليس معه إلا أصل الإيمان والحد الأدنى منه.

ومنهم من بلغ فيه درجات الكمال الواجب أو المستحب.

٨ــ **الإيمان المجمل أو مطلق الإيمان:** هو الحد الأدنى من الإيمان الذي هو شرط صحة الإيمانِ والنجاةِ من الخلود في النار في الآخرة إن مات صاحبه على ذلك.

وبه تثبت الأحكام من فرائض، ومواريث، وحقوق.

٩ــ **الإيمان المطلق الواجب**: ويقال عنه: الإيمان المفصَّل، أو حقيقة الإيمان، أو الإيمان الكامل الواجب، أو مرتبة المقتصدين الأبرار.

ويكون صاحبه ممن يؤدي الواجبات، ويجتنب الكبائر.

١٠ــ **الإيمان المطلق المستحب:** وهو مرتبة الإيمان الكامل بالمستحبات، ومرتبة الإحسان، ومرتبة المقربين السابقين بالخيرات.

وصاحب هذه المرتبة لا يكتفي بفعل الواجبات، وترك المحرمات، بل يضيف إلى ذلك فعل المستحبات، وترك المكروهات.

١١ــ **هناك أسبابٌ كثيرة إذا صدرت من العبد زاد إيمانه،** وسار في طريق الكمال، ومنها: تعلمُ العلمِ النافع، ومعرفةُ أسماءِ الله وصفاتِه، والنظرُ في آيات الله الكونية، وقراءةُ القرآن الكريم وتدبُّرُه، وفعلُ الطاعةِ؛ تقرباً إلى الله ــعز وجلــ وتركُ المعصيةِ؛ خوفاً من الله ــتبارك وتعالىــ.

١٢ــ **هناك أسبابٌ إذا فعلها العبد تنقص إيمانه،** أو تَذْهَب به، ومنها:

الجهلُ بالله ـ تعالى ـ وبأسمائه وصفاته، والغفلةُ والإعراضُ عن النظر في آيات الله وأحكامه، وفعلُ المعصيةِ، وصحبةُ قرناءِ السوء، والانهماكُ في الدنيا.

١٣ـ **الاستثناءُ في الإيمان**: أن يقول الإنسان: أنا مؤمنٌ إن شاء الله، أو يجيب إذا قيل له: هل أنت مؤمن؟ فيجيب بصيغة تشعر بعدم القطع، كأن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو أرجو، أو آمنت به.

١٤ـ **منشأ القول في الاستثناء**: الإرجاء؛ فالمرجئة هم أول من تكلم في مسألة الاستثناء في الإيمان.

١٥ـ **الأقوالُ في مسألة الاستثناء** في الإيمان تنحصر في ثلاثة: أحدها: تحريم الاستثناء، والثاني: وجوبه، والثالث: التفصيل.

وقد ورد في البحث بيان لذلك.

١٦ـ **الكفر في اللغة**: يدل على معنى واحد، وهو الستر، والتغطية.

والتكفير: نسبة الإنسان إلى الكفر، والحكم عليه به.

١٧ـ **الكفر في الشرع**: اعتقادات، وأقوال، وأفعال، حكم الشارع بأنها تناقض الإيمان، وهو على شعب، ومراتب متفاوتة.

١٨ـ **الكفر أنواع**، ويمكن إرجاعه إلى نوعين:

أـ **كفر أكبر**: وهو المخرج من الملة، وهو ما ارتكب صاحبه ما يوجب خروجه من الدين كالتكذيب بالله، ورسوله ﷺ.

بـ **كفر أصغر**: وهو غير مخرج من الملة، كالاقتتال بين المسلمين، والنياحة على الميت.

١٩ـ لا يلزم من قام به شعبة من شعب الكفر أن يكون كافراً الكُفْرَ المطلقَ، حتى تقوم به حقيقةُ الكفرِ، كما لا يلزم من قام به شعبة من شعب

الإيمان أن يصير مؤمناً حتى يقوم به أصلُ الإيمان.

٢٠_ **التكفير المطلق، أو كفر الإطلاق:** هو التكفير بالعموم، كأن يقال: من قال: كذا وكذا، أو فعل كذا وكذا فهو كافر، أو فَقَدْ كَفَرَ.

وهذا النوع لا بأس بإطلاقه، بل يجب القول بعمومه.

وتكفير المعين، أو كفر التعيين: أن يقال: إن فلاناً الذي قال: كذا، أو فعل كذا _ كافر بعينه.

وهذا النوع لا يجوز إلا إذا اجتمعت فيه _ أي المعين _ الشروط، وانتفت في حقه الموانع.

٢١_ الحكم الأخروي المطلق، وعلى المعيَّن: هو الشهادة لأحدٍ بالجنة والنار، وهناك فرق بين الشهادة والحكم بالعموم بالجنة والنار وبين الشهادة لأحد معيَّنٍ بذلك.

فيُشهد بالعموم أنَّ كلَّ مؤمنٍ في الجنة، وكلَّ كافرٍ في النار.

ولكن لا يُشهد لمعيَّنٍ بالجنة أو النار إلا عن طريق النص.

٢٢_ التكفير من أعظم المسائل التي يجب تعلمُها وفهمُها، وهناك ضوابط في التكفير، وقد ورد في البحث ذكر لبعضها، ومن ذلك:

أ_ أن الحكمَ على الناس إنما يكون بالظاهر من أحوالهم.

ب_ أن الإسلام يثبت بأدنى بيِّنة، والتكفير ينتفي بأدنى شبهة.

جـ_ أن مذهبَ أهلِ السنةِ الاحتياطُ في التكفير؛ فلا بد فيه من اجتماعِ الشروط، وانتفاعِ الموانع، واستحضارِ أن ذلك هو شأن أهل العلم، والبصيرة، والعقل.

د ـ التكفيرُ لا يكون إلا بعد قيام الحجة، وتوضيحها، وكشف شبهها.

هـ ـ من الأصول المجمع عليها عند أهل السنة أنهم لا يكفرون أحداً بذنب ما لم يستحله.

ويقصدون بالذنب: الذنب الذي هو دون الكفر، والذي لا يَكْفُر صاحبه كفعل الكبائر التي هي دون الشرك.

٢٣ـ هناك أفعال، وأقوال، واعتقادات يطلق عليها الكفر، ويكفر مرتكبها إذا اجتمعت فيه الشروط، وانتفت الموانع، وذلك كحال مَنْ جعل بينه وبين الله وسائط يدعوها، وكتارك أركان الإسلام بالكلية، ورادّ شرع الله، أو بعضه، ومن استهزأ بالله أو آياته.

٢٤ـ **موانع التكفير**: هي الصوارف التي تمنع من الحكم على المعين بالكفر؛ فالتكفير ينتفي بانتفاء شيء من الشروط، أو وجود شيء من الموانع.

٢٥ـ **موانعُ التكفيرِ تكاد تنحصر في ستة**، وهي: الجهل، والخطأ، والإكراه، والتأويل، والتقليد، والعجز.

وقد ورد في البحث تفصيل لكل واحد من هذه الموانع.

٢٦ـ **تنقسم الذنوب إلى صغائر، وكبائر**، وقد ورد في البحث بيان لذلك، وتوضيح لما هية الصغائر، والكبائر.

٢٧ـ ورد في البحث مسألة إمكان تكفير الحسنات للصغائر والكبائر على حد سواء.

٢٨ـ **موانع إنفاذ الوعيد**: هي الأسباب التي تندفع بها العقوبة، ويزول مُوجَب الذنوب، وهي عشرة أسباب عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة، وقد ورد في البحث بيان لها.

٢٩_ **أهل السنة وسط في باب الإيمان ومسائله،** فهم وسط في باب الوعد والوعيد بين المرجئة والوعيدية، ووسط في مسألة التكفير، ووسط في باب أسماء الدين والإيمان.

هذا هو أهم ما ورد في البحث، والحمد لله رب العالمين.

الرسالة السابعة عشرة

معالم في الصحابة والآل

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: فهذه معالم في الصحابة الكرام الأخيار، وآل البيت السادة الأطهار، يتبين من خلالها شيء من معنى الصحبة والآل، وما لهم من الفضائل والحقوق، وما جرى مجرى ذلك من المسائل التي تتعلق بهذا الباب، وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم الصحابة، وفضلهم، والاعتقاد الحق فيهم.

المبحث الثاني: الخلفاء الراشدون: فضلهم، وتفاضلهم.

المبحث الثالث: مسائل في المفاضلة بين عثمان وعلي، وفي المبشرين بالجنة.

المبحث الرابع: فضائل الصحابة، ومراتبهم، وأسس البحث في تاريخهم.

المبحث الخامس: مفهوم الآل، وعقيدتهم.

المبحث السادس: عقيدة المسلمين في آل البيت.

المبحث السابع: دعوى اتِّباع آل البيت، والعلاقة بين الآل والأصحاب.

فهذه المباحث، وما يندرج تحتها هي محور الحديث في الصفحات التالية، والله المستعان، وعليه التكلان.

المبحث الأول: مفهوم الصحابة، وفضلهم، والاعتقاد الحق فيهم

أولاً: تعريف الصحابي

الصحابي هو من لقي النبي " مؤمناً به، ومات على الإسلام.

قال الحافظ ابن حجر ×: =وأصحُّ ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي النبي " مؤمناً به، ومات على الإسلام؛ فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له، أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يروِ، ومن غزا معه، أو لم يَغْزُ، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى+[1].

إلى أن قال: =وهذا التعريف مبني على الأصح المختار عند المحققين كالبخاري، وشيخه أحمد بن حنبل، ومن تبعهما، ووراء ذلك أقوال أخرى شاذة+[2].

ثانياً: فضل الصحابة، ومنزلتهم في الأمة:

صحابة رسول الله " أفضل جيل، وأكرم رعيل، وصفوة الخلق بعد الأنبياء _عليهم السلام_.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =ومن استقرأ أحوال العالم في جميع الفرق تبين له أنه لم يكن قط طائفة أعظم اتفاقاً على الهدى، وأبعد عن الفتنة والتفرق والاختلاف _ من أصحاب رسول الله " الذين هم خير الخلق بشهادة الله بذلك؛ إذ يقول _تعالى_: [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ] (آل عمران: ١١٠) [3].

ولقد شهدت نصوص القرآن بعدالتهم وفضلهم، وتواترت السنة بالثناء عليهم، كما

١ـ الإصابة لابن حجر ١/١٠.

٢ـ الإصابة ١/١٢.

٣ـ منهاج السنة، لابن تيمية ٦/٣٦٤.

شهدت لكثير منهم على وجه التخصيص بالعدالة، والفضل.

كما تكاثرت وتظاهرت النصوص عن السلف الصالح في بيان ذلك كله.

قال الله ـعز وجلـ: [مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٢٩)] (الفتح).

وقال ـتعالىـ: [وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)] (التوبة).

وقال ـسبحانه وتعالىـ: [لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨)]الفتح.

وقال:[لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠)] (الحديد).

وقال النبي ": =**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**+[١].

وعن أبي هريرة ÷ قال: قال رسول الله ": =**لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**+[٢].

قال البيضاوي ×: =وسبب التفاوت ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص، وصدق

١ـ رواه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (١٥٣٣).

٢ـ رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٥٤٠).

النية+[١].

وقيل: السبب في التفاضل أن تلك النفقة أثمرت في فتح الإسلام، وإعلاء كلمة الله ما لا يثمر غيرها.

وكذلك الجهاد بالنفوس لا يصل المتأخرون فيه إلى فضل المتقدمين؛ لقلة عدد المتقدمين، وقلة أنصارهم، فكان جهادهم أفضل[٢].

وعن ابن عباس ــرضي الله عنهماــ في قول الله ــعز وجلــ: =[قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى] قال: هم أصحاب محمد "+[٣].

وقال ابن مسعود ÷: =إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد " خير قلوب العباد؛ فاصطفاه لنفسه؛ فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون عن دينه+[٤].

وبالجملة فالآيات، والأحاديث، والآثار الواردة في الثناء عليهم، وتعداد فضائلهم لا تكاد تحصر[٥].

ثالثاً: الاعتقاد الحق فيهم

الاعتقاد الحق في الصحابة الكرام ــرضي الله عنهمــ: يتلخص في حبهم، والترضي عنهم، واعتقاد عدالتهم، والاعتراف بسابقتهم، والحرص على نشر فضائلهم، والكف عما شجر بينهم، والتبرؤ من طريقة الذين يبغضونهم ويسبونهم[٦].

١ـ فتح الباري، لابن حجر ٣٤/٧.

٢ـ انظر تحفة الأحوذي ٣٣٨/٨.

٣ـ رواه الطبري ٢/٢٠.

٤ـ رواه أحمد ٣٧٩/١.

٥ـ انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١٢٣٧/٨ ـ ١٤٥٢، وهداية الحيارى لابن القيم ص٢٣٤ ـ ٢٤٨، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٤٦٧ ـ ٤٨٥.

٦ـ انظر منهاج السنة ٢٦١/٥ ـ ٢٦٢، و ٦٧/٢ و ٣٦٤/٦.

فهذا هو مجمل الاعتقاد الحق فيهم، وسيأتي شيء من البسط في ذلك في الفقرات التالية.

رابعاً: وسطية أهل السنة في أصحاب رسول الله "

أهل السنة والجماعة وسط في أصحاب رسول الله " بين من يسبون الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ويلعنونهم، وربما كفروهم، أو كفروا بعضهم، والغالبية منهم ـ مع سبهم لكثير من الصحابة والخلفاء ـ يغلون في علي وأولاده ـ رضي الله عنهم ـ ويعتقدون فيهم الإلهية.

وبين الخوارج الذين كفروا عليّاً ومعاوية، ومن معهم من الصحابة، وقاتلوهم، واستحلوا دماءهم وأموالهم.

وأما أهل السنة والجماعة فكانوا وسطاً بين غلو هؤلاء، وجفاء هؤلاء، فهداهم الله إلى الاعتراف بفضل الصحابة، وأنهم أكمل الأمة إيماناً وإسلاماً وعلماً وحكمة، ولكنهم لم يغلوا فيهم، ولم يعتقدوا عصمتهم، بل أحبوهم لحسن صحبتهم، وعظم سابقتهم، وحسن بلائهم في نصرة الإسلام، وجهادهم مع رسول الله "[1].

خامساً: حكم سب الصحابة أو تكفيرهم

هذه المسألة فيها تفصيل، وذلك كما يلي:

١ ـ من زعم أنهم ارتدوا إلا قليلاً منهم ـ فهو كافر بلا ريب؛ لأنه مكذب لكلام الله ـ عز وجل ـ وكلام رسوله " بالرضا عنهم، والثناء عليهم، وتزكيتهم ـ كما سيأتي بيانه ـ.

٢ ـ من زعم فسق عامتهم فلا ريب في كفره ـ أيضاً ـ.

٣ ـ من سبهم سبّاً يقدح في عدالتهم ودينهم ـ فيحكم بكفره.

٤ ـ من سبهم سباً لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم ـ مثل وصف بعضهم بالبخل، أو الجبن، أو قلة العلم، أو عدم الزهد ـ فهذا يستحق التعزير والتأديب، ولا يُحكم بكفره بمجرد

---

١ ـ انظر شرح الواسطية للهراس ص١٩٢ ـ ١٩٣.

ذلك[١].

سادساً: لوازم سبِّ الصحابة وتكفيرهم

يلزم من سب الصحابة، أو تكفيرهم لوازم باطلة منها:

١ــ الشك في القرآنِ، والحديثِ، ودينِ الإسلام؛ لأن الطعن في الناقل طعن في المنقول؛ فالصحابة ــرضي الله عنهمــ هم الذين نقلوا ذلك إلينا.

٢ــ أن ذلك يقتضي أن هذه الأمة شر أمة أُخرجت للناس، وخيرُ هذه الأمة هم أولُها؛ فإن كانوا كفاراً أو فسّاقاً فإن هذه الأمة شر الأمم.

٣ــ يلزم من ذلك ــأيضاًــ أحد أمرين، **أولهما**: نسبة الجهل إلى الله ــتعالىــ.

ثانيها: العبث بالنصوص التي فيها ثناء على الصحابة.

٤ــ الشك في تربية الرسول " لأصحابه؛ فإذا كان عجز هو عن تربيتهم وهو المؤيد بالوحي والكمالات ونحو ذلك ــ فإن هذا يقود إلى اليأس من إصلاح الناس، والشك في تربية الإسلام لأتباعه[٢].

١ـ انظر اعتقاد أهل السنة في الصحابة، د. محمد الوهيبي ص٣٧ ـ ٥٤.

٢ـ انظر الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية ص٥٨٦ـ٥٨٧، واعتقاد أهل السنة في الصحابة ص٦٦ـ٧٥.

المبحث الثاني: فضل الصحابة، وتفاضلهم

أولاً: الخلفاء الراشدون أفضل الصحابة:

الصحابة ــكما مرــ هم أفضل الناس بعد الأنبياء، وأفضل الصحابة المهاجرون؛ لجمعهم بين الهجرة والنصرة، ثم الأنصار، وأفضل المهاجرين الخلفاء الأربعة الراشدون:

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ــرضي الله عنهمــ.

وإليك نبذة يسيرة عنهم:

١ــ أبو بكر الصديق: عبدالله بن عثمان بن عامر من بني تيم بن مرة ابن كعب، أول من آمن برسول الله " من الرجال، وصاحبه في الهجرة، ونائبه في الصلاة والحج، وخليفته في أمته، أسلم على يديه خمسة من المبشرين بالجنة: عثمان، والزبير، وطلحة، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص.

توفي في جمادى الآخرة سنة ١٣هـ عن ٦٣ سنة.

وهؤلاء الخمسة مع أبي بكر وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة هم الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام.

قاله ابن إسحاق، يعني من الذكور بعد الرسالة.

٢ــ عمر بن الخطاب: هو أبو حفص الفاروق عمر بن الخطاب من بني عدي ابن كعب بن لؤي، أسلم في السنة السادسة من البعثة بعد نحو أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة، ففرح المسلمون به وظهر الإسلام بمكة بعده.

استخلفه أبو بكر على الأمة، فقام بأعباء الخلافة خير قيام إلى أن قتل شهيداً في ذي الحجة سنة ٢٣هـ عن ٦٣ سنة.

٣ــ عثمان بن عفان: هو أبو عبدالله ذو النورين عثمان بن عفان من بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

أسلم قبل دخول النبي " دار الأرقم كان غنياً سخياً تولى الخلافة بعد عمر ابن الخطاب باتفاق أهل الشورى إلى أن قتل شهيداً في ذي الحجة سنة ٣٥هـ عن ٩٠ سنة على أحد

الأقوال.

٤ــ **علي بن أبي طالب:** وهو أبو الحسن علي بن أبي طالب، واسم أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب، أول من أسلم من الغلمان، أعطاه رسول الله" الراية يوم خيبر؛ ففتح الله على يديه، وبويع بالخلافة بعد قتل عثمان ــرضي الله عنهماــ فكان هو الخليفة شرعاً إلى أن قتل شهيداً في رمضان سنة ٤٠ هـ عن ٦٣ سنة[1].

ثانياً: المفاضلة بين الخلفاء الراشدين

قبل الدخول في تفاصيل المفاضلة بين الخلفاء الراشدين يحسن الإجابة لمن قد يعترض على ذلك، ويقول: الأولى أن نحب أصحاب رسول الله " جميعاً، ولا نفاضل بينهم.

ويقال لهذا: إن السنة هي المفاضلة بينهم على ما جاءت به الأحاديث الصحيحة، ودرج عليه السلف الصالح من تفضيل أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي ــرضي الله عنهم أجمعينــ.

وقد سئل الإمام أحمد عن رجل يحب أصحاب رسول الله " ولا يفضل بعضهم على بعض، وهو يحبهم قال: =السنة أن يفضل أبا بكر، وعمر، وعثمان وعلياً من الخلفاء+[2].

وإنما الذي ذمه السلف هو التعرض لما شجر بين الصحابة من قتال وفتن بعد مقتل عثمان، ثم النزاع الذي حصل بين علي ومعاوية ــرضي الله عنهماــ.

وبناءاً على ما مضى فإن أفضل الأمة بعد نبيها " أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي ــرضي الله عنهمــ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =فهذا متفق عليه بين أئمة المسلمين المشهورين بالإمامة في العلم والدين من الصحابة، والتابعين وتابعيهم.

١ـ انظر لمعة الاعتقاد لابن قدامة شرح الشيخ محمد بن عثيمين ص١٤١.

٢ـ المسند من مسائل الإمام أحمد للخلال مخطوط ورقة ٥٤ ، وانظر الإمامة العظمى للدميجي ص٣٢٧ـ٣٢٨.

وهو مذهب مالك، وأهل المدينة، والليث بن سعد، وأهل مصر، والأوزاعي، وأهل الشام، وسفيان الثوري، وأبي حنيفة، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وأمثالهم من أهل العراق، وهو مذهب الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبي عبيد وغير هؤلاء من الأئمة.

وحكى مالك إجماع أهل المدينة على ذلك فقال: ما أدركت أحداً ممن يقتدى به يشك في تقدم أبي بكر وعمر+[١].

وقال ×: =ويقرون ــأي أهل السنةــ بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ÷ وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر، ويثلثون بعثمان، ويربِّعون بعلي ــرضي الله عنهمــ كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة+[٢].

والأدلة على ما ذهب إليه الأئمة المذكورون في مسألة التفضيل كثيرة منها ما رواه البخاري عن نافع عن عبدالله بن عمر ــرضي الله عنهماــ قال: كنا نُخَيِّر بين الناس في زمن النبي" فنخيِّر أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان ابن عفان ــرضي الله عنهمــ+[٣].

وفي رواية: =كنا في زمن النبي " لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي " نفاضل بينهم+[٤].

وكلا الحديثين نص في المسألة.

وقد روي آثار مستفيضة عن علي ÷ نفسه؛ ففي صحيح البخاري عن محمد بن الحنفية أنه قال: =قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله " قال: أبو بكر، قلت ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول عثمان قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين+[٥].

١ـ مجموع الفتاوى ٤/٤٢١.

٢ـ العقيدة الواسطية ص١٧١.

٣ـ البخاري (٣٦٥٥).

٤ـ البخاري (٣٦٩٨).

٥ـ البخاري (٣٦٧١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =وقد روي هذا عن علي بن أبي طالب من نحو ثمانين وجهاً، وأنه كان يقوله على منبر الكوفة، بل كان يقول: لا أُوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري؛ فمن فضَّله على أبي بكر وعمر جلد بمقتضى قوله ÷ ثمانين سوطاً+[1].

وجاء في الصحيحين عن ابن عباس ــرضي الله عنهماــ قال: =إني لواقف في قوم؛ فدعوا الله لعمر بن الخطاب، وقد وضع على سريره، إذا رجل من خلفي قد وضع مِرْفقه على منكبي يقول: رحمك الله، إن كنتُ لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك؛ لأني كثيراً ما كنت أسمع رسول الله " يقول: =**كنت وأبو بكر وعمر، وفعلت وأبو بكر وعمر، وانطلقت وأبو بكر وعمر**+.

فإن كنتُ لأرجو أن يجعلك الله معهما؛ فالتفتُّ فإذا هو علي بن أبي طالب+[2].

ثالثاً: ترتيب الخلفاء في الخلافة

أحق الخلفاء الأربعة بالخلافة بعد النبي" أبو بكر÷ لأنه أفضلهم وأسبقهم إلى الإسلام، ولأن النبي " قدمه في الصلاة، ولأن الصحابة ــرضي الله عنهمــ أجمعوا على تقديمه ومبايعته، ولا يجمعهم الله على ضلالة، ثم عمر÷ لأنه أفضل الصحابة بعد أبي بكر، ولأن أبا بكر عهد بالخلافة إليه، ثم عثمان ÷ لفضله، وتقديم أهل الشورى له، وهم المذكورون في هذا البيت:

علـــي وعثمــــان وســـعد وطلحـــة ... زبيــر وذو عــوف رجــال المشــورة

ثم علي ÷ لفضله، وإجماع أهل عصره عليه.

وهؤلاء الأربعة هم الخلفاء الراشدون المهديون الذين قال فيهم النبي ":

=**عليكم بِسُنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عَضُّوا عليها بالنواجذ**+[1].

١ـ مجموع الفتاوى ٤/٤٢٢.

٢ـ البخاري (٣٦٧٧)، ومسلم(٢٣٨٩).

وقال _عليه الصلاة والسلام_: =**خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء، أو ملكه من يشاء**+[٢].

فكان آخرها خلافة علي هكذا قال ابن قدامة × وكأنه جعل خلافة الحسن تابعة لأبيه أو لم يعتبرها حيث إنه ÷ تنازل عنها[٣].

فخلافة أبي بكر ÷ سنتان وثلاثة أشهر وتسع ليال من ١٣ ربيع الأول سنة ١١هـ إلى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ.

وخلافة عمر ÷ عشر سنوات وستة أشهر وثلاثة أيام من ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ إلى ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣هـ.

وخلافة عثمان ÷ اثنتا عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً من ١ محرم سنة ٢٤هـ إلى ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥هـ.

وخلافة علي ÷ أربع سنوات وتسعة أشهر من ١٩ ذي الحجة سنة ٣٥هـ إلى ١٩ رمضان سنة ٤٠هـ.

فمجموع خلافة هؤلاء الأربعة تسع وعشرون سنة وستة أشهر وأربعة أيام[٤].

١ـ رواه أحمد ٤/١٢٦ـ١٢٧، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وقال: «حسن صحيح»، والحاكم ١/٩٧ وصححه، ووافقه الذهبي.

٢ـ أخرجه أبو داود (٤٦٤٦)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٨٨٢): «حسن صحيح».

٣ـ انظر لمعة الاعتقاد لابن قدامة، شرح الشيخ محمد بن عثيمين ص١٤٢ـ١٤٣.

٤ـ انظر لمعة الاعتقاد لابن قدامة، شرح الشيخ محمد بن عثيمين ص١٤٢ـ١٤٣.

المبحث الثالث: مسائل في المفاضلة بين عثمان وعلي، وفي المبشرين بالجنة

أولاً: المفاضلة بين عثمان وعلي

أجمع السلف _كما مر_ على أن أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر _رضي الله عنهما_.

أما علي وعثمان فقد اختلفوا في أيهما أفضل، وهذه مسألة لا يضلل فيها المخالف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =وقد اختلفوا في عثمان وعلي _رضي الله عنهما_ بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر أيهما أفضل؛ فقدم قوم عثمان، وسكتوا، وربَّعوا بعلي، وقدَّم قومٌ علياً، وقوم توقفوا، لكن استقر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي+(1).

هذا حاصل الخلاف في المسألة: تقديم عثمان، تقديم علي، التوقف في تقديم أحدهما على الآخر.

وأشار شيخ الإسلام ابن تيمية × إلى ترجيح الرأي الأول وهو تقديم عثمان لأمور:

أحدها: أن هذا هو الذي دلت عليه الآثار الواردة في مناقب عثمان ÷.

الثاني: إجماع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة، وما ذاك إلا لأنه أفضل؛ فترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

الثالث: أنه استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي _كما سبق_ من أنهم قدموه في البيعة، وكان علي من جملة من بايعه، وكان يقيم الحدود بين يديه(2).

ثانياً: حكم تقديم علي على عثمان -رضي الله عنهما-

بعد أن تبين رجحان القول بتقديم عثمان ثم علي، واستقرار أمر أهل السنة على ذلك

١ـ الواسطية ص١٧٣.

٢ـ انظر شرح الواسطية للشيخ صالح الفوزان ص١٧٥ـ١٧٦.

لِسائل أن يَسْأَل فيقول: هل يضلل من يقدم علياً على عثمان؟

والجواب لا؛ فهذه مسألة لا يضلل من يخالف فيها؛ نظراً لاختلاف أهل السنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية × بعد أن ذكر الخلاف في هذه المسألة واستقرار أمر أهل السنة على تفضيل عثمان ثم علي ــرضي الله عنهماــ قال: =وإن كانت هذه المسألة ــمسألة عثمان وعليــ ليست من الأصول التي يُضَلَّلُ المخالف فيها عند جمهورِ أهلِ السنة+[١].

ثالثاً: حكم تقديم علي على غيره من الخلفاء الثلاثة في الخلافة

هذه المسألة مما يضلل بها المخالف؛ إذ لا يجوز تقديم علي÷ على غيره من الخلفاء الثلاثة في الخلافة، أو ادعاء أنه أولى منهم فيها.

روي عن سفيان الثوري × أنه قال: =من زعم أن علياً كان أحق بالولاية منهما ــيعني أبا بكر وعمرــ فقد خطَّأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار ــرضي الله عن جميعهمــ وما أراه يرتفع له مع هذا عمل إلى السماء+[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية × بعد أن ذكر مسألة تفضيل عثمان على علي ــرضي الله عنهماــ وأنها ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة قال: =لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة، وذلك لأنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله " أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله+[٣].

وخلاصة القول في مسألة تقديم علي على غيره من الخلفاء الثلاثة ما يلي:

١ــ من قدمه في الخلافة على أَيٍّ من الثلاثة فهو ضال.

١ـ الواسطية ص١٧٧.

٢ـ رواه أبو داود (٤٦٣٠).

٣ـ الواسطية ص١٧٧.

٢ــ من قدمه في الفضيلة على أبي بكر وعمر فهو ضال ــأيضاًــ.

٣ــ من قدمه في الفضيلة على عثمان فلا يضلل، وإن كان خلاف الراجح[١].

رابعاً: العشرة المبشرون بالجنة

المعَيَّنُونَ من أهل الجنة كثيرون، ومنهم العشرة المبشرون بالجنة.

وخصوا بهذا الوصف لأن النبي " جمعهم في حديث واحد فقال: =**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة**+[٢].

وقد سبق الكلام على الخلفاء الأربعة، وأما الباقون فجمعوا في هذا البيت:

سـعيدٌ وسـعدٌ وابـنُ عـوفٍ وطلحـةٌ ... وعـامرُ فِهْـرٍ والزبيـرُ المُمَـدَّح

فطلحة: هو ابن عبيدالله من بني تيم بن مرة أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام قتل يوم الجمل في جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ عن ٦٤ سنة.

والزبير: هو ابن العوام من بني قصي بن كلاب ابن صفية عمة رسول الله " انصرف يوم الجمل عن قتال علي، فلقيه ابن جرموز فقتله في جمادى الأولى سنة ٣٦هـ عن ٦٧ سنة.

وعبدالرحمن بن عوف: من بني زهرة بن كلاب توفي سنة ٣٢هـ عن ٧٢ سنة ودفن بالبقيع.

وسعد بن أبي وقاص: هو ابن مالك من بني عبد مناف ابن زهرة أول من رمى بسهم في سبيل الله مات في قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة، ودفن بالبقيع سنة ٥٥هـ عن ٨٢ سنة.

١ـ انظر شرح الواسطية للشيخ صالح الفوزان ص١٧٨.

٢ـ رواه أبو داود (٤٦٤٩) و (٤٦٥٠)، والترمذي (٣٧٤٨) و(٣٧٥٧)، وابن ماجة (١٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٠١٠).

وسعيد بن زيد: هو ابن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي ابن عم عمر بن الخطاب كان من السابقين إلى الإسلام توفي بالعقيق، ودفن بالمدينة سنة ٥١هـ عن بضع وسبعين سنة.

أبو عبيدة: هو عامر بن عبدالله بن الجراح من بني فهر من السابقين إلى الإسلام توفي في الأردن في طاعون عَمواس سنة ١٨هـ عن ٥٨ سنة[١].

وممن شهد له النبي "بالجنة: الحسن، والحسين، وثابت بن قيس بن شماس ــرضي الله عنهمــ.

قال النبي ": =**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**+[٢].

وقال " في ثابت بن قيس: =**إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة**+[٣].

١ـ انظر شرح لمعة الاعتقاد ص١٤٥ـ١٤٦.

٢ـ رواه الترمذي (٣٧٦٨)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٩٦).

٣ـ رواه البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩) و (١٨٧).

المبحث الرابع: فضائل الصحابة، ومراتبهم، وأسس البحث في تاريخهم

أولاً: فضائل الصحابة ومراتبهم

مر شيء من ذلك في فقرة ماضية، وفيما يلي مزيد بيان لذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية × في معرض كلام له عن اعتقاد أهل السنة: =ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح _وهو صلح الحديبية_ وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل.

ويفضلون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر _وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر_: =**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**+[1].

وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر النبي".

بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة+[2].

وهذا النص الجامع من شيخ الإسلام ابن تيمية × يتضمن عدداً من المسائل:

الأولى: قوله: =**ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم**+.

قوله: =**ويقبلون**+: أي أهل السنة.

و =**الفضائل**+: جمع فضيلة، وهي ما يفضل به المرء غيره، ويُعَدُّ منقبةً له.

و =**المراتب**+: الدرجات؛ لأن الصحابة درجات ومراتب.

الثانية: قوله: =**ويُفَضِّلون من أنفق من قبل الفتح _وهو صلح الحديبية_ وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل**+.

=**الحديبية**+: بئر قرب مكة، وقعت عنده البيعة تحت شجرة هناك حينما صد المشركون

١- رواه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

٢- العقيدة الواسطية ص١٧١.

رسول الله " وأصحابه عن دخول مكة، فبايعوه على الموت، وسميت هذه البيعة فتحاً؛ لما حصل بسببها من الخير والنصر للمسلمين.

والدليل على تفضيل هؤلاء قوله _تعالى_: [لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى] (الفتح: ١٠).

الثالثة: قوله: =**ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر _وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر_: =اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم+.**

يشير بذلك إلى مرتبة أهل بدر، وأنها من أعلى مراتب الصحبة.

وبدر هو المكان المعروف الذي كانت فيه الغزوة المشهورة، وكانت في السنة الثانية من الهجرة في رمضان، وسمى الله _تعالى_ يومها: يوم الفرقان.

فأهل بدر هم الذين جعل الله على أيديهم هذا النصر المبين، والفرقان الذي هاب العرب به رسول الله " وأصحابه، وكان لهم منزلة عظيمة بعد هذا النصر؛ فإن الله _عز وجل_ اطلع عليهم وقال:

=**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**+.

وقد اختلف العلماء بالمراد بالمغفرة في هذا الحديث، ومن أحسن من تكلم في توجيه ذلك العلامةُ ابن القيم × قال: =قول النبي " لعمر: =**وما يدريك أن الله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**+.

أشكل على كثير من الناس معناه؛ فإن ظاهره إباحة كل الأعمال لهم، وتخييرهم فيما شاؤوا منها، وذلك ممتنع.

فقالت طائفة، منهم ابن الجوزي: ليس المراد من قوله =**اعملوا**+ الاستقبال، وإنما هو للماضي، وتقديره: أَيُّ عملٍ كان لكم فقد غفرته.

قال: ويدلُّ على ذلك شيئان:

أحدهما: أنه لو كان للمستقبل كان جوابه قوله: =فسأغفر لكم+.

والثاني: أنه كان يكون إطلاقاً في الذنوب ولا وجه لذلك.

وحقيقة هذا الجواب: أني قد غفرت لكم بهذه الغزوة ما سلف من ذنوبكم.

لكنه ضعيف من وجهين:

أحدهما: أن لفظ: =**اعملوا**+ يأباه؛ فإنه للاستقبال دون الماضي، وقوله: =**قد غفرت لكم**+ لا يوجب أن يكون: =**اعملوا**+ مثله؛ فإن قوله: =**قد غفرت**+ تحقيق لوقوع المغفرة في المستقبل كقوله: [أَتَى أَمْرُ اللَّهِ] (النحل:١)، [وَجَاءَ رَبُّكَ] (الفجر:٢٢)، ونظائره.

الثاني: أن الحديث نفسه يردّه؛ فإن سببه قصة حاطب، وتجسُّسه على النبي " وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر لا قبلها، وهو سبب الحديث؛ فهو مراد منه قطعاً.

فالذي نظن في ذلك ــ والله أعلم ــ أن هذا خطاب لقوم قد علم الله ــ سبحانه ــ أنهم لا يفارقون دينهم، بل يموتون على الإسلام، وأنهم قد يقارفون بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب، ولكن لا يتركهم الله ــ سبحانه ــ مصرِّين عليها، بل يوفِّقهم لتوبة نصوح، واستغفار، وحسنات تمحو أثر ذلك.

ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم؛ لأنه قد تحقق ذلك فيهم، وأنهم مغفور لهم، ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم، كما لا يقتضي ذلك أن يعطلوا الفرائض وثوقاً بالمغفرة؛ فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة، ولا صيام، ولا حج، ولا زكاة، ولا جهاد، وهذا محال.

ومِنْ أوجب الواجبات التوبة بعد الذنب؛ فضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة، ونظير هذا قوله في الحديث الآخر: =**أذنب عبدٌ ذنباً فقال: أي رب، أذنبت ذنباً فاغفره لي، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب أصبت ذنباً فاغفره لي، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنباً آخر فقال: رب أصبت ذنباً فاغفره لي، فقال الله: علمَ عبدي أنَّ له رباً يغفرُ الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء**+[1].

---

١ ـ رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

فليس في هذا إطلاق وإذن منه ـ سبحانه ـ له في المحرمات والجرائم، وإنما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك إذا أذنب تاب.

واختصاصُ هذا العبد بهذا؛ لأنه قد علم أنه لا يصرُّ على ذنب، وأنه كلما أذنب تاب ـ حكمٌ يعمّ كل من كانت حاله حاله، لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر.

وكذلك كلُّ مَنْ بَشَّرَه رسول الله " بالجنة، أو أخبره بأنه مغفور له لم يَفْهم منه هو ولا غيره من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصي له، ومسامحته بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشد اجتهاداً وحذراً وخوفاً بعد البشارة منهم قبلها، كالعشرة المشهود لهم بالجنة.

وقد كان الصدِّيق شديد الحذر والمخافة، وكذلك عمر؛ فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيَّدة بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت، ومقيَّدة بانتفاء موانعها، ولم يَفْهَم أحدٌ منهم من ذلك الإطلاق الإذن فيما شاؤوا من الأعمال+[1].

الرابعة: قوله: =**بأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة+**.

هذا الكلام في شأن أصحاب الشجرة، وهم أهل بيعة الرضوان، وهي البيعة التي حصلت في الحديبية ـ كما سبق الحديث عنه قريباً ـ وقد ذكر لهم شيخ الإسلام ابن تيمية مزيتين:

إحداهما: أن لا يدخل النار أحد منهم، ودليل ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله يقول: =أخبرتني أم مبشر أنها سمعت النبي " يقول عند حفصة: =**لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها+**[2].

الأخرى: أن الله قد رضي عنهم، وهذ صريح القرآن كما في قوله ـ تعالى ـ: [لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ](الفتح:١٨).

وممن لهم سابقة وفضل ومزية أهل أحد، ومما جاء في ذلك ما أورده الإمام البخاري ×

١ـ الفوائد ص٣٤ـ٣٦.

٢ـ مسلم (٢٤٩٦).

في صحيحه حيث عقد باباً في كتاب المغازي قال فيه: باب: =الذين استجابوا لله والرسول+.

حدثنا محمد، حدثنا أبو معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة ــرضي الله عنهماــ [الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)] (آل عمران).

قالت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله " ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: =**من يذهب في إثرهم**+.

فانتدب منهم سبعون رجلاً قال: كان فيهم أبو بكر والزبير+[1].

ثانياً: أسس البحث في تاريخ الصحابة

يقوم البحث في تاريخ الصحابة، وما جرى بينهم من الفتن بعد استشهاد عثمان ــرضي الله عنهمــ وما حصل بين علي ومعاوية ــرضي الله عنهماــ على عدة أسس تتلخص فيما يلي:

١ــ أن نعتقد أن الصحابة خير القرون؛ لأن الله ــعز وجلــ زَكَّاهم، وكذلك رسوله".

٢ــ أن الكلام فيما شجر بينهم ليس هو الأصل، بل الأصل الاعتقادي عند أهل السنة والجماعة هو الكفُّ والإمساك عما شجر بينهم؛ ليسلم المرء من الوقيعة فيهم أو انتقاصهم.

٣ــ إذا دعت الحاجة إلى ذكر ما شجر بينهم، فلا بد من التحقق والتثبت في الروايات المذكورة حول الفتن التي وقعت بين الصحابة؛ ذلك أن هذه الروايات دخلها الكذب والتحريف؛ فوجب التحقق والتثبت.

٤ــ إذا صحت الرواية في ميزان الجرح والتعديل في شأن الصحابة، وكان في ظاهرها القدح فيهم ــ فَلْيُحْمَلْ ذلك على أحسن المحامل، وَلْيُلْتَمَسْ لهم أحسن المخارج والمعاذير.

٥ــ أن ما ثبت في ميزان النقد العلمي فيما شجر بين الصحابة ــ هم فيه مجتهدون؛ ذلك أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها تباينت اجتهاداتهم على ثلاثة أقسام:

١ـ البخاري (٤٠٧٧).

أ ــ قسم ظهر له بالاجتهاد أن الحق مع هذا الطرف، وأن مخالِفه باغٍ؛ فوجب على من ظهر له ذلك نصرةُ المحق؛ بناء على ما ترجح عنده.

ب ــ قسم عَكْسُ هؤلاء؛ حيث ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق مع الطرف الآخر؛ فوجب عليه نصرته، وقتال الباغي عليه.

ج ــ قسم اشتبهت عليه القضية، ولم يتبين له وجه الصواب؛ فاعتزل الفريقين، وهذا هو الواجب في حقه؛ لأنه لا يحل الإقدام على قتل المسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك.

فتلخَّص من ذلك كله أنهم ما بين مجتهدٍ مصيب فله أجران، ومجتهدٍ مخطئ فله أجر، وثالثٍ اشتبه عليه الحق؛ فآثر الاعتزال.

٦ ــ أن الصحابة ــ مع اجتهادهم فيها وتأولهم ــ قد حزنوا حزناً شديداً، وندموا لما آل إليه الأمر؛ إذ لم يخطر ببالهم أنه سيصل إلى ما وصل إليه.

٧ ــ أن الصحابة خير الناس حتى في حال القتال، والفتنة، والاختلافِ، فبرغم ما حصل بينهم إلا أنهم لم يكفِّروا بعضاً، بل كان بعضهم يترحَّم على بعض، ويأخذ العلم من بعض، بل كانوا يثنون على بعض، ويلتمسون المعاذير لبعض.

٨ ــ منهج أهل السنة والجماعة في باب الصحابة ــ وهو الحق ــ أنهم لا يعتقدون أن كل واحدٍ من الصحابة معصوم من كبائر الذنوب وصغائرها، بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولكن لهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم.

وما يُنكَر على بعضهم فهو جزء يسير ينغمر في بحر حسناتهم.

هذا في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور الاجتهادية التي إن أصابوا فيها فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد؟

هذه نبذة يسيرة حول أسس البحث في تاريخ الصحابة[1].

---

١ ـ انظر آخر الوسطية لابن تيمية، وعقيدة أهل السنة في الصحابة ص١٧ـ٩٤.

المبحث الخامس: مفهوم الآل، وعقيدتهم

أولاً: مفهوم الآل

أ- مفهوم الآل في اللغة: قيل في كلمة (آل) إن أصلها أهل، ثم قلبت الهاء همزة فقيل آل.

واحتجوا بأن الآل إذا صُغِّرت قيل: أهيل؛ فكأن الهمزة هاء كقولهم: هنرت الثوب وأنرته: إذا جعلت له علماً.

وقيل: بل هما أصلان، فالأهل: القرابة، والآل: هم الأتباع من قرابة أو غيرها، وهم ــأيضاًــ ذو قرابته مُتَّبِعاً أو غير مُتَّبع[1].

قال ابن منظور ×: =وقد روى الفراء عن الكسائي في تصغير آل: أُوَيْل.

قال أبو العباس: فقد زالت تلك العلة، وصار الآل والأهل أصلين لمعنيين+[2].

ب- مفهوم الآل في الاصطلاح: الآل في الاصطلاح هم آل بيت النبي".

وقد اخْتُلف في مفهوم الآل، وأصح ما قيل في ذلك أنهم:

ذرية النبي" وأزواجه، وأقاربه ممن تحرم عليهم الصدقة[3].

ويدل على هذا القول أدلة كثيرة تفيد بمجموعها المقصود بآل البيت.

ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً ــ وذكر الحديث وفيه: أذكركم الله في أهل بيتي ــ ثلاثاً ــ فقال حصين بن سَبْرَةَ: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل

---

١ ـ انظر لسان العرب لابن منظور ٣٨/١١ مادة (أول)، وانظر جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام لابن القيم ص١٠٤.

٢ ـ لسان العرب ٣٨/١١.

٣ ـ انظر مسألة التقريب د. ناصر القفاري ١٠٥/١، وانظر جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام لابن القم ص١٠٤ـ١٠٩، وآل رسول الله وأولياؤه بحث لخصه من منهاج السنة الشيخ محمد بن عبدالرحمن قاسم ص٥ـ٦، والشيعة وأهل البيت لإحسان إلهي ظهير ص١٣ـ ١٤.

بيته من حرم الصدقة بعده[١] قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس، قال: أكُلّ هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم..[٢].

وهذا يدل على دخول أقاربه وزوجاته في مفهوم أهل البيت.

وروى مسلم من حديث ابن شهاب عن عبدالله بن الحارث بن نوفل الهاشمي أن عبدالمطلب بن ربيعة أخبره أن أباه ربيعة بن الحارث قال لعبد المطلب بن ربيعة وللفضل ابن العباس ـرضي الله عنهماـ: ائتيا رسول الله " فقولا له: استعملنا يا رسول الله على الصدقات ـ فذكر الحديث ـ وفيه فقال لنا: =إن هذه الصدقة إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحل لمحمد، ولا لآل محمد+[٣].

وهذا يدل على دخول قرابته في مدلول =الآل+.

وفي حديث كعب بن عجرة÷ قال: سألنا رسول الله" فقلنا: يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟.. قال: =قولوا: اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد+[٤].

وفي حديث أبي حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله " قولوا: =اللهم صَلِّ على محمد وأزواجه وذريته..+[٥].

فهذا الحديث يفسر الذي قبله، ويبين أن آل محمد يشمل أزواجه وذريته[٦].

ومما يدل على دخول أزواجه في أهل بيته ـعليه السلامـ قوله ـتعالىـ في خطاب نساء نبيه " [وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً]

---

١ ـ أي إذا كان أزواجه من أهل بيته فقرابته أحق بهذه التسمية.

٢ ـ مسلم (٢٤٠٨).

٣ ـ انظر: الحديث بتمامه في مسلم (١٠٧٢).

٤ ـ صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ٤٠٨/٦.

٥ ـ المصدر السابق ٤٠٧/٦.

٦ ـ انظر جلاء الأفهام لابن القيم ص ١١٩ ـ ١٢٠.

الأحزاب ٣٣.

فهذه الآية ظاهرة الدلالة على أن زوجاته ﷺ من أهل بيته، ولهذا قال ابن كثير×: =الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي " داخلات في قوله ـتعالىـ: [إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً] فإن سياق الكلام معهن؛ ولهذا قال ـتعالىـ بعد هذا كله: [وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ] الأحزاب ٣٤[1].

وقال بدخولهن في ذلك جمع كبير من المفسرين[2]، وغيرهم[3].

ثم إن امرأة إبراهيم ولوط ـعليهما السلامـ من آلهما وأهل بيتهما بدلالة القرآن الكريم؛ فكيف لا يكون أزواج محمد" من آله وأهل بيته؟!

وفي صحيح مسلم أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: =خرج النبي" غداة عليه مرط مرحّل[4] من شعر أسود فجاء الحسن بن علي، فأدخله، ثم جاء الحسين، فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي، فأدخله، ثم قال: [إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً]+[5].

قال القرطبي×: =فهذه دعوة من النبي " لهم بعد نزول الآية، أحب أن يدخلهم في الآية التي خوطب بها الأزواج+[6].

---

١ ـ تفسير ابن كثير ٣/٥٠٦.

٢ ـ انظر: القرطبي١٤/١٨٢ ـ ١٨٤، والبحر المحيط لابن حيان ٧/٢٣٢، وانظر الكشاف للزمخشري ٣/٢٦٠، وتفسير أبي السعود ٤/٤١٧، ومفاتيح الغيب ٢٥/٢٠٩.

٣ ـ انظر منهاج السنة٤/٢١، والمنتقى ١٦٨ ـ ١٦٩، والدين الخالص ٣/٣٩٥، وانظر: د. علي السالوس «آية التطهير بين أمهات المؤمنين وأصحاب الكساء».

٤ ـ المرط: هو الكساء، والمرحل: هو الموشَّى المنقوش عليه صور رحال الإبل. انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/١٩٤.

٥ ـ مسلم (٢٤٢٤).

٦ ـ تفسير القرطبي ١٤/١٨٤.

فعلى هذا تشمل الآية الزوجات وأصحاب الكساء[1] =فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل بعض ما يجب إعماله، وأهمل ما لا يجوز إهماله+[2].

وبهذا قال جماعة من المحققين كالقرطبي[3]، وابن كثير[4]، وابن حجر[5] وغيرهم.

فعلى هذا يشمل مفهوم أهل البيت[6] ذريته " وأقاربه ممن تحرم عليهم الصدقة[7] وكذلك وكذلك أزواجه ".

بهذا المفهوم الواسع الرحب لأهل البيت يأخذ أهل السنّة، ويفترقون عمن يحصرهم بسبعة، أو اثني عشر، ويتناول بعض الصلحاء من أهل البيت بالسب والذم واللعن؛ بحجة أنهم تطاولوا على منصب الإمامة، ويعطي من يسميهم بـ: =الأئمة+ أوصافاً تتجاوز بهم منزلة البشر إلى منزلة خالق البشر ــ كما سيأتي ــ.

ثانياً: عقيدة آل البيت

---

١ ـ روى البيهقي بسنده عن أم سلمة قالت: في بيتي أُنزلت: ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت.. ﴾ قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي = والحسن والحسين فقال: هؤلاء أهلي قالت: فقلت: يا رسول الله أما أنا من أهل البيت؟ قال: بلى إن شاء الله» قال البيهقي: «هذا حديث صحيح سنده، ثقات رواته». الاعتقاد ص ١٦٤، وانظر: البغوي «معالم التنزيل» ٥٥١/٦ ـ ٥٥٢، المطبوع مع تفسير ابن كثير.

٢ ـ فتح القدير ٢٨٠/٤.

٣ ـ انظر تفسير القرطبي ١٨٢/١٤ ـ ١٨٤.

٤ ـ انظر تفسير ابن كثير ٥٠٦/٣.

٥ ـ قال ابن حجر عن هذا التفسير لأهل البيت: «فبذلك يجمع بين الأحاديث» فتح الباري ١٦٠/١١، وانظر التسهيل لابن جزي ٢٩٩/٣.

٦ ـ وقد ذهب بعض أهل العلم بأن المراد.. بآله ﷺ هم أتباعه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو الأتقياء من أمته. انظر أبو يعلى «المعتمد» ص ٢٥٧، وابن القيم: «جلاء الأفهام»: ص ١٠٩ـ ١١٩. وقد رد هذا ابن القيم؛ لأن رسول الله ﷺ =حدد أهل البيت بأوصاف كحرمة الصدقة عليهم وغيرها، وهذا لا يجوز أن يراد به عموم الأمة. انظر جلاء الأفهام ص ١٠٩ـ ١١٩.

٧ ـ اختلف أهل العلم فيمن تحرم عليهم الصدقة. انظر جلاء الأفهام: ص ١٠٩.

أئمة آل البيت متبعون لا مبتدعون، فهم يسيرون على وفق ما جاء في كتاب الله، وسنة رسوله ".

وعلى رأس هؤلاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ÷ وأبناؤه الحسن والحسين وابن عباس ــ رضي الله عنهم ــ ومن بعدهم من أئمة البيت الأطهار كالإمام السجاد، والحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق وغيرهم كثير ممن ساروا على نهج جدهم رسول الله".

فهم ــرضي الله عنهمــ متفقون على ما اتفق عليه سائر الصحابة، والتابعين لهم بإحسان في مسائل الاعتقاد، والتوحيد، والإيمان، وإنكار الشرك، والتحذير منه، وما جرى مجرى ذلك.

والكتب المشتملة على المنقولات الصحيحة مملوءة بذلك، كشرح اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام اللالكائي وغيره من الكتب التي ذكرت عقائد أهل البيت بأسانيدها.

وليس في أئمة أهل البيت مثل علي بن الحسين، وأبي جعفر الباقر وابنه جعفر ــ من ينكر الرؤية، ولا من يقول بالنص على عليٍّ، ولا بعصمة الأئمة الاثني عشر، ولا من يسب أبا بكر وعمر ــرضي الله عنهماــ.

بل إن الثابت عن علي وأئمة أهل البيت ــرضي الله عنهمــ إثبات خلافة الخلفاء الثلاثة، وإثبات فضيلة أبي بكر وعمر ــرضي الله عنهماــ[1].

---

١ ـ انظر آل رسول الله وأولياؤه ص١٢ للشيخ محمد بن قاسم، ومجموعة الرسائل والمسائل النجدية للشيخ عبدالرحمن بن قاسم ص٧٨ـ٧٩، وعقيدة أهل البيت للشيخ عبدالله بن جوران الخضير.

المبحث السادس: عقيدة المسلمين في آل البيت

مما لا شك فيه أن الأرومة[1] الهاشمية أشرف الأنساب والأحساب، ومحبة المؤمنين لبني هاشم تبع لمحبة النبي" فهي فرض واجب يؤجر المسلم عليه؛ لإسلام آل البيت، وفضلهم، وسابقتهم، وقربهم من النبي" ولحث النبي" ووصايته بهم.

والناس ينقسمون فيهم ما بين مُفرِط ومُفرِّط، والقول الرشيد فيهم إيجاب محبتهم، وهي من محبة النبي" بعيداً عن الإفراط والتفريط؛ فكلا جانبي الغلو ذميم.

ومنهم أمهات المؤمنين أزواجه في الدنيا والآخرة.

وآل البيت ــ وإن كانوا ذوي فضائل عظيمة، ومناقب جسيمة ــ يوجد من هو أفضل منهم لبعض الاعتبارات؛ لأنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله ".

هذا وإن لولايتهم شروطاً من أهمها:

ــ أن يكونوا مستقيمين على الإسلام، فإن كانوا كفاراً فلا محبة، ولا ولاية لهم.

ولو أغنت القرابة وحدها لأغنت عن أبي لهب.

ــ أن يكونوا متبعين لهدي النبي " كما جاء في صحيح مسلم: =ألا إنّ آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما وَلِيِّيَّ الله وصالح المؤمنين+[2].

وقد نص علماء السنة على هذا الوجوب في كتب العقائد، ومنهم الإمام الطحاوي في عقيدته ت =٣٢١+ والإمام البربهاري ت =٣٢٩+، والآجري في الشريعة ت =٣٦٠+ والإسفراييني ت =٤٧١+ والقحطاني في نونيته ت =٣٨٧+ وقول الموفق ابن قدامة المقدسي ت =٦٢٠+ في لمعة الاعتقاد، وشيخ الإسلام ابن تيمية في الواسطية ت =٧٢٨+ وابن كثير الدمشقي ت =٧٧٤+ في تفسيره، ومحمد بن إبراهيم الوزير اليماني ت =٨٤٠+ في إيثار الحق على الخلق، وصديق حسن خان ت =١٣٠٧+ في الدين الخالص، وعبدالرحمن ابن

---

١ ـ الأرومة: الشجرة.

٢ ـ مسلم (١٢٥).

ناصر السعدي ت =١٣٧٦+ في التنبيهات اللطيفة وغيرهم كثير[١].

ولهذا فإن أهل السنة: = يحبون أهل بيت رسول الله " ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله "حيث قال: =أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي+[٢][٣] وما صح في هذا من الأحاديث.

يقول أبو بكر الصديق ÷: =والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله " أحب إليّ أن أصل من قرابتي+[٤].

ويقول: =ارقبوا محمداً في أهل بيته+[٥].

ويشرح الإمام عبدالقاهر البغدادي × نظرة أهل السنّة إلى آحاد أهل البيت فيقول: =وقالوا ــيعني أهل السنّةــ بموالاة الحسن والحسين والمشهورين من أسباط رسول الله " كالحسن بن الحسن وعبدالله بن الحسن وعلي بن الحسين زين العابدين، ومحمد بن علي بن الحسين المعروف بالباقر.. وجعفر بن محمد المعروف بالصادق، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى الرضا، وكذلك قولهم في سائر أولاد علي من صلبه كالعباس، وعمر، ومحمد بن الحنفية، سائر من درج على سنن آبائه الطاهرين دون من مال منهم إلى الاعتزال أو الرفض ودون من انتسب إليهم، وأسرف في عدوانه وظلمه+[٦].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية مبيناً مذهب أهل السنّة نحو أهل بيته " فيقول: =آل بيت رسول الله " لهم من الحقوق ما يجب رعايتها؛ فإن الله جعل لهم حقاً في الخمس والفيء،

---

١ ـ انظر الثناء المتبادل بين الآل والأصحاب، إعداد مركز الدراسات والبحوث في مبرة الآل والأصحاب في الكويت ص١٨ـ١٩.

٢ ـ هذا جزء من حديث رواه مسلم عن زيد بن أرقم في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب فضائل علي رضي الله عنه: (٢٤٠٨).

٣ ـ مجموع الفتاوى: (١٥٤/٣)، وانظر «الإنصاف فيما يجب اعتقاده» للباقلاني: ص ٦٨.

٤ ـ رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ (٣٧١٢).

٥ ـ رواه البخاري (في الموضع السابق).

٦ ـ الفرق بين الفرق ص ٣٦٠.

وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله "، فقال لنا: =قولوا: اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد++[1].

وأهل السنة يتولون أزواج رسول الله " ويترضون عنهن، ويعرفون لهن حقوقهن، ويؤمنون بأنهن ــ رضي الله عنهن ــ أزواجه في الآخرة.

قال ابن قدامة ×: =ومن السنّة الترضي عن أزواج رسول الله " أمهات المؤمنين المطهرات المبرّآت من كل سوء، أفضلهن خديجة بنت خويلد وعائشة الصديقة بنت الصديق التي برأها الله في كتابه زوج النبي " في الدنيا والآخرة، فمن قذفها بما برّأها الله منه فقد كفر+[2].

وأهل السنة ــوهم يحبون أهل البيت، ويتولونهمــ لايعتقدون أن هذا الحبَّ يسقط عمن يحبهم التكاليف الشرعية، أو يكون هو السببَ الوحيدَ المنجي في الآخرة؛ فالقرآن لم يربط النجاة والهلاك بحب فلان أو بغضه بل بطاعة الله ورسوله، قال ــتعالىــ: [وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً] النساء:٦٩، وقال ــ سبحانه ــ: [بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ] البقرة: ١١٢.

والآيات في هذا المعنى كثيرة والسنّة زاخرة بما يؤكد هذا ويحتمه.

وقد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام أن الشرك يضر صاحبه ولو أحب من أحب من أهل البيت أو الصحابة.

قال ابن تيمية . في رده للحديث الموضوع: =حبُّ عليّ حسنة لا يضر معها سيئة..+ قال×: هذا القول كفر ظاهر يستتاب صاحبه، ولا يجوز أن يقول هذا من يؤمن بالله واليوم

---

١ ـ مجموعة الرسائل الكبرى، الرسالة السابعة، الوصية الكبرى ١/٢٩٧ ـ ٢٩٨.

٢ ـ لمعة الاعتقاد ص ٢٩.

الآخر[١].

ومن خلال ما مضى يتبين شيء من مفهوم آل البيت، وعقائدهم، والمعتقد الحق فيهم.

ويتبين خطأ من يحصرون أهل البيت في علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، ويخرجون أولاد علي غير الحسنين ــرضي الله عنهماــ ويخرجون من لا يوافق هواهم من أولاد الحسين.[٢]

وفي التعبير الصحيح الصريح أن هؤلاء لا يرون أهل البيت إلا نصف شخصية فاطمة، ونصف شخصية علي، ونصف شخصية الحسن، وبقية الأئمة التسعة عندهم من الحسين إلى الحسن العسكري العاشر المولود الموهوم، المزعوم الذي لم يولد قطعاً[٣].

إذاً فهؤلاء لا يقصدون بأهل البيت ــ أهل بيت النبوة، بل يقصدون بذلك علياً ÷ وأولاده المخصوصين المعدودين.

---

١ ـ منهاج السنّة ١٧/٣.

٢ ـ انظر الشيعة وأهل البيت للشيخ إحسان إلهي ظهير ص٢٠.

٣ ـ انظر الشيعة وأهل البيت ص٢٠.

المبحث السابع: دعوى اتِّباعِ آل البيت، والعلاقةُ بين الآل والأصحاب

أولاً: دعوى اتِّباع آل البيت

لا يكفي مجرد دعوى اتباع آل البيت، بل لا بد أن تكون تلك الدعوى حقيقة ماثلة لا كلمات تتردد على الألسنة دون أن يكون لها رصيد في الواقع.

وبناءاً على ذلك يقال: هل كان أهل البيت يبغضون أصحاب نبيهم ــ عليه الصلاة والسلام ــ؟.

وهل كانوا يشتمونهم، ويكفرونهم، ويتبرؤون منهم؟.

الجواب الصحيح عكس ذلك، فلقد كانوا يوالونهم، ويودونهم، ويبايعونهم على إمرتهم، ويجاهدون تحت رايتهم، ويأخذون من الغنائم التي تحصل من جراء جهادهم.

بل ويتصاهرون معهم؛ يتزوجون منهم، ويزوجونهم، ويسمون أبناءهم بهم، ويذكرون فضائلهم، ويتلقون العلم عنهم ــ كما سيأتي في الفقرة التالية ــ.

ثم هل كان أئمة أهل البيت يقولون بالبداء على الله ــعز وجلــ؟.

وهل كانوا يقولون بالغيبة، والرجعة، والتَّقِيَّة وغيرها من العقائد الباطلة؟.

الجواب لا؛ فأئمة أهل البيت مبرؤون من ذلك كله، وإنما ذلك من صنع الذين جعلوا حُبَّ أهل البيت دثاراً يتدثرون به، وستاراً يأخذون به بألباب السذج.

وإلا فكيف يزعمون ولاية أهل البيت، وهم يخالفون أوامرهم، ويأتون مناهيهم، ويبغضون أحباءهم، ويتوددون إلى أعدائهم؟!.

ثانياً: العلاقة بين الآل والأصحاب

آل البيت النبوي ممن لقي النبي" وآمن به، ومات على ذلك هم من جملة الصحابة، وأكابرهم؛ فهم آل بيت باعتبار، وصحابة باعتبار كأمير المؤمنين علي بن أبي طالب÷ وكابنيه الحسن والحسين، وابن عباس ــرضي الله عنهم أجمعين ــ.

ثم من جاء بعدهم من آل البيت ممن كانوا على منهج جدهم رسول الله ".

كل أولئك كانت علاقتهم ببقية الصحابة قائمة على أعلى ما يمكن أن تقوم علاقة بين البشر من أتباع الأنبياء؛ فهي علاقة ودٍّ حقيقية ماثلة للعيان، وليست حديثاً تتمضمض به الأفواه دون أن تتخلل منها مسلك الروح.

ومما يشهد لتلك العلاقة المتينة ما كان بين الآل والأصحاب من الحب في الله، والتراحم، والتزوار، والتذمم، والمصاهرة، وحفظ الحقوق، والثناء المتبادل، والوفاء المنقطع النظير، وتسمية بعضهم بأسماء بعض، واعترافهم لبعض في السابقة والفضل.

وهذه الصلة ثابتة في اعتقاد أهل السنة، وقد نقلوا في دواوينهم أخباراً يطول ذكرها في هذا الشأن، بل قد خص بعضهم هذا الموضوع بتأليف خاص كالدار قطني في كتابه: =**فضائل الصحابة ومناقبهم وقول بعضهم في بعض**+ وهو مخطوط.

والشوكاني في كتابه: =**إرشاد الغبي لمذهب أهل البيت في صحب النبي**+ وهو مخطوط.

وفي عصرنا الحاضر ألفت كتب في هذا الشأن، ومنها:

١ــ كتاب: =**رحماء بينهم**+: وهذا الكتاب يدور حول بعض ما جاء من التراحم بين آل بيت النبي" والصحابة ــ رضي الله عنهم ــ لفضيلة الشيخ القاضي صالح بن عبدالله الدرويش، ويقع في ٦٧ صفحة.

٢ــ كتاب: =**الثناء المتبادل بين الآل والأصحاب**+: من إعداد مركز الدراسات والبحوث في مبرة الآل والأصحاب في الكويت، ويقع في ٧٥ صفحة.

٣ــ كتاب: =**الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت، والصحابة ــ رضي الله عنهم**

ـ+ تأليف الشيخ أبي معاذ السيد بن أحمد بن إبراهيم، ويقع في ٢٢١ صفحة.

كل ذلك يفند ما يشاع من العداوة، والقطيعة بين الآل والأصحاب، وينفي دسائس التفرقة بين الأمة، تلك الدسائس التي حاول أصحابها افتعال الفجوة والجفوة بين الآل والأصحاب؛ لأجل تفرقة الأمة، وتمزيق أوصالها، وقطع حاضرها عن ماضيها.

ثم إن الآل والأصحاب بشر يعتريهم ما يعتري البشر، ولكنهم نالوا القِدْحَ المعلَّى من الكمال، والسؤدد، والمجَادة، وحسن التعامل حتى في حال الخلاف.

لذا فإن أهل السنة في موقفهم السامي من القرابة والصحابة لا يَخْرجون في وصفهم للآل والصحب عن المشروع؛ فلا يغالون في أوصافهم، ولا يعتقدون عصمتهم.

والأحاديث الصحيحة في دواوين السنّة شاهدة على هذا؛ ذلك أن الرعيل الأول كانوا بشراً وليسوا ملائكة؛ فهم لم يتخلوا عن طبيعة البشر بما فيها من قوة وضعف، وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبني الإنسان في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء[1].

---

١ ـ انظر مسألة التقريب ١/١٧٠.

الرسالة الثامنة عشرة

الإمامة والخلافة

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فلقد جاء الإسلام بنظام كامل شامل للحكم، صالح لكل زمان ومكان وحال وأمة؛ فالإسلام هو الرسالة الأخيرة، الباقية إلى قيام الساعة، التي لا تصلح الأحوال والأمم إلا بها.

وإن من سنن الله ــعز وجلــ في خلقه أن جعل أمور الناس لا تستقيم إلا بالإمامة والولاية والخلافة؛ فلا بد من حاكم ومحكوم، وسائس ومسوس: حاكمٍ سائسٍ يرعى مصالح العباد، ويحكمهم بشرع رب العباد، ويسير بهم على الطريقة التي تحقق العدل، وتستقيم بها الأمور.

ومحكومٍ مَسُوسٍ يَمتثل ما يُوَجَّهُ إليه من أوامر في غير معصية الله ــعز وجلــ.

وبهذا ضمن الإسلام للناس صلاح معاشهم ومعادهم.

وفيما يلي معالم في الإمامة والخلافة، وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم الإمامة والخلافة، وحكمها، وصلتها بالعقيدة.

المبحث الثاني: منزلة الإمامة، ومقاصدها.

المبحث الثالث: خلافة الخلفاء الراشدين، ومسائل في نظام الإمامة.

المبحث الرابع: وسطية أهل السنة في التعامل مع الأئمة.

المبحث الخامس: إنكار الإمامة.

فهذه المباحث، وما تحتها من مسائل هي محور الكلام في هذا البحث؛ فإلى تفصيل تلك المباحث.

المبحث الأول: مفهوم الإمامة والخلافة، وحكمها، وصلتها بالعقيدة

أولاً: مفهوم الإمامة والخلافة

أ_ **تعريفهما في اللغة: الإمامة في اللغة** مصدر الفعل أَمَّ: تقول: أَمَّهم وبِهم: تقدَّمهم، وهي الإمامة، والإمام كلُّ ما أُتُم به من رئيس وغيره[١].

وأصل الخلافة في اللغة: مادة خلف، تقول: خلف فلانٌ فلاناً إذا كان خليفةً له، ويقال: استخلف فلانٌ فلاناً: جعله مكانه.

والخليفة: الذي يخلف مَنْ قبله.

والخلافة: الإمارة، والخليفة: السلطان الأعظم[٢].

ب_ **التعريف الاصطلاحي:** قبل الدخول في التعريف الاصطلاحي يحسن التنبيه على أن **الإمامة والخلافة مترادفان؛** فهما يؤديان إلى معنى واحد، وقد أشار إلى ذلك غير واحد من العلماء كالنووي وابن خلدون _رحمهما الله_ وغيرهما[٣].

وعلى هذا فتعريف أيٍّ منهما تعريف للآخر.

أما **التعريف الاصطلاحي للإمامة:** فقد عرفت بتعريفات عديدة متقاربة منها ما يلي:

١_ **عرفها الماوردي × بقوله:** =الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة

١ـ انظر القاموس المحيط ص١٣٩٢.

٢ـ انظر لسان العرب ٨٣/٩ـ٨٤.

٣ـ انظر روضة الطالبين ٤٩/١٠ ، ومقدمة ابن خلدون ١٩٠.

الدين وسياسة الدنيا به+[١].

٢ــ وعرفها الجويني × بقوله: =الإمامة رياسة تامة، وزعامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا+[٢].

٣ــ وعرفها ابن خلدون × بقوله: =هي حَمْلُ الكافة على مُقْتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة؛ فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين، وسياسة الدنيا به+[٣].

ويكاد يكون تعريف ابن خلدون أشمل، وأعم.

ثانياً: حكم الإمامة وبيان ما تثبت به

الإمامة ثابتة الوجوب بالكتاب والسنة، والإجماع، والقواعد الشرعية.

وهو وجوب كفائي متوجه إلى أهل الحل والعقد باعتبارهم الممثلين للأمة، النائبين عنها في هذه المهمة العظيمة.

وإذا تقاعس أهل الحل والعقد عن ذلك لَحِقَ الإثمُ بِكُلِّ مَنْ له قدرةٌ واستطاعة حتى يسعى لإقامة هذا الواجب بحسب وسعه.

قال الله ــعز وجلــ: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُم] (النساء:٥٩).

١ـ الأحكام السلطانية للماوردي ص٥.

٢ـ غياث الأمم في التياث الظلم للجويني ص١٥.

٣ـ مقدمة ابن خلدون ص١٩٠.

قال الطبري × في تفسير هذه الآية: =أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الأمراء والولاة فيما كان له طاعة، وللمسلمين مصلحة+[١].

ووجه الاستدلال من هذه الآية: أن الله _عز وجل_ أوجب على المسلمين طاعة أولي الأمر منهم، وهم الأئمة.

والأمر بالطاعة دليل على وجوب نَصْب ولي الأمر؛ لأن الله _تعالى_ لا يأمر بطاعةِ مَنْ لا وجود له، ولا يَفْرِضُ طاعةَ مَنْ وجودُه مندوبٌ إليه؛ فالأمر بطاعته يقتضي الأمر بإيجاده؛ فدل على أن إيجادَ إمامٍ للمسلمين واجبٌ عليهم[٢].

وجاء في صحيح مسلم عن النبي " قال: =من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية+[٣].

أي بيعة الإمام، وهذا واضح الدلالة على وجوب نصب الإمام؛ لأنه إذا كانت البيعة واجبة في عنق المسلم، والبيعة لا تكون إلا لإمام _ فإن نَصْبَ الإمام واجب[٤].

والأدلة من الكتاب والسنة كثيرة جداً، والمقام لا يسمح بالتفصيل.

أما الإجماع على وجوب نصب الإمام فقد نقله عدد غير قليل من العلماء، وأول ذلك إجماع الصحابة _رضوان الله عليهم_ على تعيين خليفة للنبي " بعد

١ـ تفسير الطبري ٤٩٧/٧.

٢ـ انظر الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة د. عبدالله الدميجي ص٤٧.

٣ـ مسلم (١٨١٥).

٤ـ انظر الإمامة العظمى ص٥٠.

وفاته قبل تجهيزه ودفنه.

قال ابن حجر الهيتمي ×: =اعلم أن الصحابة _رضوان الله عليهم_ أجمعوا على أن نصب الإمام بعد انقراض زمن النبوة واجب، بل جعلوه أهم المهمات؛ حيث اشتغلوا به عن دفن رسول الله _عليه السلام_+[١].

أما القواعد الشرعية فدلت على وجوب الإمامة، ومن أصرح القواعد في ذلك القاعدة القائلة: **=ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب+.**

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =يجب أن يُعْرَفَ أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها؛ فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع؛ لحاجة بعضهم إلى بعض+[٢].

ويقول معللاً ذلك: =لأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد، والعدل، وإقامة الحج، والجمع، والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا يتم إلا بالقوة والإمارة+[٣].

ثالثاً: صلة الإمامة والخلافة بالعقيدة

الإسلام شريعة وعقيدة، وكلٌّ لا يتجزأ، والذي يعنينا في هذا الصدد، ما يتعلق بموضوع الإمامة، وهل هي من موضوعات العقيدة أو من موضوعات الفقه؟

١ـ الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة لابن حجر الهيتمي ص١٥.

٢ـ منهاج السنة ١/١٤٦، والسياسة الشرعية ص٦٣.

٣ـ السياسة الشرعية ص١٦١.

والحق أن لها جوانبَ عقديةً، ولها جوانب فقهية، ولها جوانب تاريخية، ولذلك فعلماء السلف ـرحمهم اللهـ عند ذكرهم لعقائدهم يذكرون ذلك، فلا نكاد نجد أحداً ذكر عقيدته إلا وينص على التربيع بالخلفاء الأربعة، وأن ترتيبهم في الخلافة على ترتيبهم في الفضل، وينصون على الصلاة خلف كل إمام بر أو فاجر، وعلى الجهاد والحج معه، وعلى تحريم الخروج على الأئمة، وعلى السمع والطاعة لهم في غير معصية.

وهذه كلها من مباحث الإمامة، ولذلك نجد المؤلفين في العقيدة يَنصون على باب الإمامة في أواخر كتبهم في العقيدة.

كما أن العلماء يوردون ذلك في مسائل العقيدة للرد على الانحرافات والبدع التي نشأت حول هذا الموضوع، كبدعة الروافض واعتقاداتهم الفاسدة في الإمامة، وأنها من أركان الدين، واعتقاد العصمة، والغيبة، والرجعة، وعلم الغيب ونحو ذلك في أئمتهم؛ فيذكرها علماء السلف للرد عليهم، وتبيين مخالفتهم في ذلك.

ويذكرون بدعة الخوارج في وجوب الخروج على الأئمة الفسقة، ونحو ذلك.

ومما يجعلها من المسائل المتعلقة بالعقيدة في العصر الحاضر هو إنكار بعض المنتسبين للدين أنها من الدين، وهذه من أخطر المسائل الفكرية المعاصرة ـكما سيأتي الحديث عنها في فقرة آتيةـ.

أما الجوانب الفقهية في موضوع الإمامة فكثيرة: من ذلك شروط الأئمة، وكيفية اختيار إمام المسلمين، وأهل الحل والعقد، وشروطهم، وعددهم، والشورى وأحكامها، والبيعة وأحكامها، ونحو ذلك.

أما الجوانب التاريخية في الموضوع: فهو دراسة الموضوع من ناحية سيرة

الخلفاء الراشدين، ثم مَنْ بَعْدَهم ــرضوان الله عليهمــ والأحداث التي حصلت في عهودهم، والنتائج والعبر والأحكام المستخلصة من ذلك.

ولذلك فموضوع الإمامة هذا من أدلة الترابط والتلازم بين الأحكام العقدية والفقهية، وأن كلاً منها ملازم للآخر وقائم عليه، ولذلك فقد جعل الله ــعز وجلــ طاعة الأئمة والنصح لهم وترك الخروج عليهم بغير مسوغ شرعي ــ من العبادة التي يثاب فاعلها، ويعاقب تاركها بالعذاب الأخروي يوم القيامة.

المبحث الثاني: منزلة الإمامة، ومقاصدها

أولاً: الإمامة ـ في حد ذاتها ـ وسيلة لا غاية

فهي وسيلة إلى إقامة أمة تقف نفسها على الخير، والعدل، تحق الحق، وتبطل الباطل، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله.

ثانياً: الإمامة ليست من أصول الدين

فأهل السنة يرون أن مسألة الإمامة ليست من أصول الدين التي لا يسع المكَلَّفَ الجهلُ بها.

بخلاف مفهوم الإمامة عند بعض الطوائف كالشيعة الإمامية ـ مثلاً ـ فالإمامة هي الأصل الذي تدور عليه أحاديثهم، وترجع إليه عقائدهم، وتَلْمَسُ أثره في فقههم، وأصولهم، وتفاسيرهم، وسائر علومهم؛ فهم ـ على سبيل المثال ـ يرون أن الإمامة مَنْصِبٌ إلهيٌّ كالنبوة، وأنها تثبت لعلي÷بعد النبي"ويرون عصمة الأئمة، وحصر الإمامة باثني عشر إماماً وهم:

١ ـ علي بن أبي طالب÷ولد قبل البعثة بعشر سنوات، واستشهد سنة أربعين.

٢ ـ الحسن بن علي (الزكي) (٣ ـ ٥٠هـ) .

٣ ـ الحسين بن علي (سيد الشهداء) (٤ ـ ٦١هـ).

٤ ـ أبو محمد علي بن الحسن (زين العابدين) (٣٨ ـ ٩٥ هـ).

٥ ـ أبو جعفر محمد بن علي (الباقر) (٥٧ ـ ١١٤ هـ).

٦ ـ أبو عبدالله جعفر بن محمد (الصادق) (٨٣ ـ ١٤٨ هـ).

٧ ـ أبو إبراهيم موسى بن جعفر (الكاظم) (١٢٨ ـ ١٨٣هـ).

٨ ـ أبو الحسن علي بن موسى (الرضا) (١٤٨ ـ ٢٠٢ أو ٢٠٣ هـ).

٩ ـ أبو جعفر محمد بن علي (الجواد) (١٩٥ ـ ٢٢٠ هـ).

١٠ــ أبو الحسن علي بن محمد (الهادي) (٢١٢ ــ ٢٥٤هـ).

١١ــ أبو محمد الحسن بن علي (العسكري) (٢٣٢ ــ ٢٦٠هـ).

١٢ــ أبو القاسم محمد بن الحسن (المهدي).

وهذا هو الحجة ــبزعمهمــ ويرون أنه ولد سنة ٢٥٦هـ، وغاب غيبة صغرى سنة ٢٦٠هـ، وغيبة كبرى سنة ٣٢٩هـ، وسيظل حياً إلى يوم القيامة؛ حتى لا تخلو الأرض من حجة وإلا لساخت .

ويعتقدون بأن الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري ــ حي غائب منتظر، وسيعود ليملأ الأرض عدلاً ومعروفاً وإحساناً كما ملئت ظلماً وجوراً وطغياناً.

ويرون أن الإمامة ركن من أركان الدين كالشهادتين والصلاة والزكاة.

كما أنهم لا يرون إيمان من لا يقر بالإمامة، بل يرون أن مُنْكِرَ الإمامةِ شرٌّ من اليهود والنصارى، وأنه لا يَسَعُ أحداً العذرُ بالجهل بالأئمة، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك، فيرون أن من لم يعرف إمامه لم يعرف الله ــعز وجلــ.

ويرون أنه لا بد أن يكون في كل عصر إمامٌ هادٍ.

ويرون أن الأئمة هم أولو الأمر الذين أمر الله بطاعتهم[1].

ثالثاً: مقاصد الإمامة

---

١ ـ انظر مختصر التحفة الاثني عشرية، تحقيق وتعليق محب الدين الخطيب ص١١٦ـ١٢٣، وعقيدة الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية، دراسة في ضوء الكتاب والسنة د.علي السالوس ص٢٨ـ٣٣، ونظرية ولاية الفقيه، دراسة وتحليل ونقد د. عرفان عبدالفتاح ص١٠ـ١٤، وأصول مذهب الشيعة د.ناصر القفاري ٦٥٣/٢ـ٦٥٧، والشيعة الإمامية الاثنا عشرية في ميزان الإسلام ربيع بن محمد ص١٣٥ـ١٤٢ و١٦٣ـ١٧٣.

مر في الفقرة الماضية أن الإمامة وسيلة لا غاية؛ فهي وسيلة إلى مقاصدَ معينةٍ يستطيع الإمام ـ بما له من صلاحيات خاصة ـ أن يحقق ما يعجز عن بلوغه آحادُ المسلمين.

ويمكن إجمال مقاصد الإمامة بما يلي ـ مع ملاحظة أن بعضها داخل في بعض ـ:

١ـ إقامة أمر الله ـ عز وجل ـ في الأرض على الوجه الذي شرع.

٢ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ٣ـ حفظ الدين، ونشره، والدعوة إليه.

٤ـ دفع الشبه والبدع والأباطيل. ٥ـ حماية البيضة (الحوزة) وتحصين الثغور.

٦ـ إقامة الحدود، وتنفيذ الأحكام. ٧ـ سياسة الدنيا بالدين.

٨ـ نشر العدل، ورفع الظلم. ٩ـ جمع الكلمة، ونبذ الفرقة.

١٠ـ نشر الأمن، وتأمين السبل.

١١ـ القيام بعمارة الأرض، واستغلال خيراتها فيما هو صالح للإسلام والمسلمين. ١٢ـ بث العلم، ورفع الجهل.

هذه هي مقاصد الإمامة على وجه الإجمال، أما التفصيل فلا يتسع له المقام[1].

١ـ انظر الإمامة العظمى ص٧٩ـ١١٢.

المبحث الثالث: خلافة الخلفاء الراشدين، ومسائل في نظام الإمامة

أولاً: خلافة أبي بكر الصديق ÷

خلافة أبي بكر÷ ثبتت باختيار المسلمين، ومبايعتهم له؛ فكثير من النصوص دلت على أن المسلمين اختاروه، ولم يختاروا غيره، ودلت على رضا الله ورسوله بذلك، ودلت على أنه أفضل الأمة بعد نبيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ×: =التحقيق أن النبي " دل المسلمين على استخلاف أبي بكر، وأرشدهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله، وأخبر بخلافته إخْبارَ راضٍ بذلك حامد له، وعزم على أن يكتب بذلك عهداً ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه؛ فترك الكتاب اكتفاءاً بذلك؛ فلو كان التعيين مما يشتبه على الأُمة لبيَّنه رسول الله " بياناً قاطعاً للعذر، لكن لما دلهم دلالات متعددة على أن أبا بكر هو المتعين، وفهموا ذلك حصل المقصود، ولهذا قال عمر ابن الخطاب في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار: =وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر+ رواه البخاري ومسلم...+[1].

إلى أن قال: =فخلافة أبي بكر الصديق دلت النصوص الصحيحة على صحتها وثبوتها ورضا اللهِ ورسول الله" له بها، وانعقدت بمبايعة المسلمين له، واختيارهم إياه اختياراً استندوا فيه إلى ما علموه من تفضيل الله ورسوله بها، وأنها حق، وأن الله أمر بها وقدَّرها، وأن المؤمنين يختارونها، وكان هذا أبلغ من مجرد العهد بها؛ لأنه حينئذ

١ـ منهاج السنة ١٣٩/١.

يكون طريق ثبوتها العهد.

وأما إذا كان المسلمون قد اختاروه من غير عهد، ودلت النصوص على صوابهم فيما فعلوه، ورضا الله ورسوله بذلك _ كان ذلك دليلاً على أن الصديق كان فيه من الفضائل التي بان بها عن غيره ما علم المسلمون به أنه أحقهم بالخلافة؛ فإن ذلك لا يحتاج إلى عهد خاص+[١].

فابن تيمية × _إذاً_ يرى أن الرسول " لم يُصْدِرْ عنه أمر إلى المسلمين بأن يكون أبو بكر هو الخليفة من بعده، وإنما علم من الله _سبحانه_ أن المسلمين سيختارونه؛ لمزاياه التي يتمتع بها، ويفوق بها غيره[٢].

ثانياً: خلافة علي بن أبي طالب ÷

خلافة أمير المؤمنين علي ÷ ثبتت باختيار المسلمين، ومبايعتهم له، وليست نَصِّيَّة، ولم يَدَّعِ هو ذلك، بل هو براء مما تنسبه إليه الشيعة؛ فالشيعة يرون أن الإمامة تثبت بعد النبي" مباشرةً بلا فَصْلٍ ولا تراخٍ لعلي ÷.

ومقتضى هذا الأصل _وإن لم يُصَرَّح به_ عدم شرعية إمامة الخلفاء الراشدين الذين سبقوا عليّاً في منصب الخلافة والإمامة؛ باعتبار أن خلافتهم ثبتت بالشورى والانتخاب، وهو _كما يرون_ دليلٌ ظَنِّيٌّ لا يثبت به _أصلاً_ ما عُلم من الدين بالضرورة، وهي مسألة الإمامة.

١ـ منهاج السنة ١/١٣٩ـ١٤١.

٢ـ انظر الإمامة العظمى ص١٣٢.

وقد ترتب على هذا الأصل ـ تاريخياً ـ أن أية خلافة سياسية غير تلك التي هي للإمام المعصوم المعيَّن إلهياً ـ إنما هي خلافة باطلة، وسلطة جائرة[١].

ثالثاً: شرعية تولية الخلفاء الراشدين

مما لا مرية فيه ثبوت شرعية الطرق التي تمت بها مبايعة وتولية الخلفاء الراشدين، فخلافة عمر كانت بنص من أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ.

وخلافة عثمان كانت باجتماع من أهل الحل والعقد المعيَّنين من قبل عمر ÷.

وخلافة علي ÷ كانت باجتماع من أهل الحل والعقد غير المعينين.

رابعاً: مسائل في الإمامة

فيما يلي ذكرٌ لبعض المسائل في الإمامة على سبيل الإجمال.

١ ـ أن الذي يقوم باختيار الإمام هم عقلاء الأمة، وعلماؤها ـ أهل الحل والعقد ـ فلا دخل للعامة، والدهماء في الاختيار.

ولذلك لا يختار العقلاء عادةً إلا الأعقل والأصلح لهذا المنصب الخطير[٢].

٢ ـ مشروعية الاستخلاف؛ فمن طرق انعقاد الإمامةِ العهدُ من الخليفة السابق إلى من يختاره من المسلمين، ويراه لائقاً بهذا المنصب من بعده؛ فإذا أحس الخليفة بقرب أجله، وأراد أن يستخلف على القوم أحدهم فإنه يقوم بمشاورة أهل الحل والعقد فيمن يختاره؛ فإذا وقع رأيه على شخص معيَّن يصلح لهذا المقام،

---

١ ـ انظر الإمامة العظمى ص٥٦٦.

٢ ـ انظر الإمامة العظمى ص٥٦٦.

ووافقه أهل الحل والعقد فإنه يعهد إليه من بعده[١].

٣ــ البيعة: تعني إعطاء العَهْدِ من المبايِعِ على السمع والطاعة للأمير من غير معصية، في المنشط والمكره، وفي العسر واليسر، وترك منازعته، وتفويض الأمور إليه[٢].

٤ــ نكث البيعة: البيعة واجبة في عنق المسلم متى وجد الإمام المستحق لها، وهي داخلة في العقود والعهود التي نصَّت الشريعة على وجوب الوفاء بها؛ وبناءً على ذلك فإنه لا يجوز نكث البيعة[٣].

وسيأتي مزيد بيان لذلك عند الحديث عن الخروج على الأئمة.

٥ــ طريق القهر والغلبة ليست من الطرق الشرعية: وإنما تنعقد بها الإمامة؛ نظراً لمصلحة المسلمين؛ كما في خلافة عبدالملك بن مروان حين قتل ابن الزبير، وتمت له الخلافة[٤].

٦ــ يجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل: فلا يشترط في الإمام أن يكون أفضل أهل زمانه، وإنما ذلك من باب الأولى.

وكما لا يشترط إمامة الأفضل لا يشترط كذلك العصمة في الإمام من باب أولى[٥].

---

١ ـ انظر الإمامة العظمى ص١٨٤.

٢ ـ انظر لسان العرب ٢٦/٨، ومقدمة ابن خلدون ص٢٠٩، والإمامة العظمى ص١٩٩.

٣ ـ انظر الإمامة العظمى ص٢١٠.

٤ ـ انظر الإمامة العظمى ص٢٢٢.

٥ ـ انظر الإمامة العظمى ص٢٩٦ـ٣٠٨.

خامساً: واجبات الإمام

على الإمام واجبات كثيرة وقد مر شيء من ذلك عند الحديث عن مقاصد الإمامة.

ومنها ــزيادة على ما مضىــ:

١ــ استيفاء الحقوق المالية، وصرفها في مصارفها الشرعية.

٢ــ اختيار الأكفياء للمناصب القيادية.

٣ــ الإشراف على تدبير الأمور وتفقد أحوال الرعية.

٤ــ الرفق بالرعية، والنصح لهم، والبعد عن تتبع عوراتهم[1].

سادساً: حقوق الإمام

للإمام على رعيته حقوق كثيرة تعينه على القيام بواجباته، ومنها:

١ــ السمع والطاعة في المنشط والمكره، وحين الأثرة في غير معصية الله ــعز وجلــ.

وهذه الطاعة ليست مشروطة بكونه عادلاً، بل ولو كان فيه فسق، وفجور، وجور.

٢ــ النصرة، والتقدير، وإنزاله منزلته اللائقة به.

٣ــ المناصحة للولاة، والدعاء لهم بالصلاح، ومداراتهم، والبعد عن مداهنتهم وإغراقهم بالإطراء الكاذب.

٤ــ التعاون معهم على البر والتقوى.

---

١ ـ انظر الإمامة العظمى، ص٣٣٤ـ٣٣٦ـ٤٢٠.

٥ـ إقامة الجمع والجماعات والأعياد والجهاد معهم ولو كانوا فجاراً.

وسيأتي مزيد بيان لهذه الفقرة والتي سبقتها فيما سيأتي من فقرات[1].

سابعاً: مشروعية الشورى

وأنها واجبة عند اختيار الإمام، أما في تدبير شؤون الرعية فهي مستحبة؛ فإنه ينبغي للإمام أن يشاور، وليس ذلك واجباً عليه.

كما أنه إذا استشار فليس ملزماً باتباع مستشاريه؛ لأنه هو المسؤول الأول عن تصريف الأمور؛ فيتحمل وحده كافة التبعات[2].

ثامناً: لا يجوز الخروج على الأئمة

وهو نقض بيعتهم، وشق عصا الطاعة لهم من قوم لهم شوكة ومنعة بتأويل سائغ ـ كما تقرره كتب الفقه ـ.

وحكم ذلك أنه من الكبائر، ويسمى الخارجون على الإمام بغاةً، وتجرى عليهم أحكام أهل البغي[3].

وسيأتي مزيد بيان لهذه الفقرة.

---

١ ـ انظر الإمامة العظمى، ص٣٧٥.

٢ ـ انظر الإمامة العظمى، ص٤٢٣ـ٤٦٤.

٣ـ انظر الإمامة العظمى، ص٤٩٠ـ٥٤٨.

المبحث الرابع: وسطية أهل السنة في التعامل مع الأئمة

وهذا المبحث جِمَاع لكثير مما مضى من المباحث؛ **فأهل السنة والجماعة وسط في التعامل مع الأئمة** بين المفْرطين والمفَرِّطين، فليسوا كالمفْرطين الغلاة، الذين يدينون بالخروج على أئمة الجور، ويرون أنهم ـ وحدهم ـ هم سبب الشر والفساد، وأن الخروج عليهم كفيل بإصلاح الأحوال.

وذلك كحال الخوارج الذين يرون أن الفساد سببه الولاة، وأن الخروج عليهم واجب متعين، وأن الوسيلة الوحيدة للإصلاح عندهم ـ كما يشهد تاريخهم ـ هو الخروج على أئمة الجور، بل ربما خرجوا على أئمة العدل، كما فعلوا مع علي÷[1].

وكحال المعتزلة الذين جعلوا الخروج على الأئمة أصلاً من أصول دينهم[2].

وليسوا كالمُفَرِّطين المداهنين، المتخاذلين، المخذلين، الذين سكتوا عن ظلم الولاة، وتركوا نصحهم، والإنكار عليهم، بل ربما زينوا لهم باطلهم، وسوَّغوا لهم ظلمهم، وفسادهم، وربما أنكروا على من ينكر عليهم ولو بالحكمة والموعظة الحسنة.

وليسوا كالمدَّاحين، المنافقين، الذين يغالون في الولاة، ويمدحونهم بما ليس فيهم، وربما ادّعوا لهم العصمة، وخلعوا عليهم صفات لا تليق إلا برب العالمين، وأطاعوهم بكل ما أمروا به حقاً كان أو باطلاً.

كما فعل الوزير الرافضي ابن العلقمي مع آخر بني العباس المستعصم، عندما

١ـ انظر الفصل في الأهواء والملل والنحل، لابن حزم ٢٣٧/٤ ـ ٢٣٨، والتكفير جذوره ـ أسبابه ـ مبرراته، د. نعمان السامرائي ص٢٧ ـ ٣٢.

٢ـ انظر المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها د.عواد المعتق، ص٢٧٣ ـ ٢٧٦.

غشّه، وخدعه، وزيّن له باطله وسوء عمله، وأشار عليه بتقليص جيشه، ثم بعد ذلك قاده إلى الهاوية عندما أشار عليه بأن يخرج بخاصته للتفاوض مع =هولاكو+ زعيم التتار، ثم بعد ذلك تمكن =هولاكو+ من الخليفة وقتل من معه، فكان غنيمة باردة له ولجنده، ثم بعد ذلك فعل التتار ببغداد ما فعلوا.

وقل مثل ذلك في شأن النصير الطوسي الرافضي الذي كان يدبّج القصائد الطوال في مدح الخليفة الآنف الذكر، وعندما تمكن =هولاكو+ أشار الطوسي عليه بقتل الخليفة[1].

وقل مثل ذلك في شأن كثير ممن يؤلهون الولاة، ويخلعون عليهم صفات الربوبية والألوهية، كما قال ابن هانئ الأندلسي في مدح المعز لدين الله العبيدي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار[2]

وكما علل أحدهم زلزالاً حدث في مصر في عهد أحد السلاطين قائلاً:

ما زلزلت مصر من سوء يراد بها لكنها رقصت من عدله فرحا[3]

أما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالحق، وتعاملوا مع ولاة الأمور على وفق ما جاء في الشرع.

فهم يدينون لولاة أمورهم بالسمع والطاعة، في المنشط والمكره، وفي العسر واليسر، وعلى أثرة عليهم، ما لم يؤمروا بمعصية، فإن أمروا بمعصية فيرون أن لا سمع ولا

١ـ انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٢٢٦ ـ ٢٣٢.

٢ـ ديوان ابن هانئ الأندلسي ص١٤٦.

٣ـ البيت لمحمد بن عاصم، انظر وفيات الأعيان لابن خَلِّكان ٤/١٠٣.

طاعة؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإنما تكون الطاعة بالمعروف.

كما أنهم يدينون بالنصيحة لولاة الأمر، ويتعاونون معهم على البر والتقوى وإن كانوا فجّاراً؛ لأن هدفهم الوحيد تحصيل المنافع وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ فلا يمتنعون من إعانة الظالم على الخير، وترغيبه فيه، فيشاركون الأئمة الظلمة في الخير، ويفارقونهم في الشر.

ولذلك فهم يرون إقامة الجمع والجماعات والأعياد معهم، ويرون أن الجهاد ماضٍ إلى قيام الساعة مع كل برّ وفاجر[1].

ثم إنهم لا ينزعون يداً من طاعة، ولا ينازعون الأمر أهله، ولا يرون أن الأئمة يتحملون مسؤولية كل منكر وفساد، نعم هم يتحملون المسؤولية الكبرى، ولكن كل مسلم عليه مسؤولية يجب أن يقوم بها حسب قدرته واستطاعته.

كما أنهم لا يدينون بالخروج على أئمة الجور ـفضلاً عن أئمة العدلـ إلا إذا رأوا كفراً بواحاً عندهم فيه من الله برهان، وكان لديهم قوة ومنعة، ولم يترتب على الخروج مفسدة أعظم؛ لئلا يجرّوا الأمة إلى البلايا والرزايا.

ثم إنهم أبعد الناس عن إغراق الولاة بالمديح الكاذب، والإطراء القاتل الذي يدخل الغرور في قلوب الولاة، ويورثهم الإعجاب بالنفس،وتناسيَ العيوبِ، وظنَّ الكمال، فلا يعرفون بذلك مواطن الخلل، ولا يسعون في علاجها.

إضافة إلى ذلك فأهل السنة لا يرون المداهنة في الدين، ولا مهادنة المعتدين والظالمين، ولا يتوانون في الاحتساب على أئمة الجور، ولا يجبنون عن الصدع بكلمة الحق حسب ما يستدعيه المقام، وتقتضيه المصلحة، لا يداهنون بذلك أحداً، ولا

١ـ انظر التنبيهات اللطيفة لابن سعدي ١٠٤.

يخافون في الله لومة لائم.

على أنهم لا يرون أن يقوم بذلك الواجب كلُّ أحد بعينه، إلا أنه لا بد أن يقوم به من يقوم من العلماء وذوي البصيرة والحكمة؛ حتى ينتفي الحرجُ عن الأمة.

ويرون أن الأئمة لهم حق التوقير، والتقدير، وإنزالهم منزلتهم اللائقة بهم.

وخير مثال تطبيقي لتعامل أهل السنة مع ولاة الأمر ما قام به الإمام أحمد ابن حنبل × إبان القول بفتنة خلق القرآن؛ فلقد أوذي، فلم تَلِنْ له قَناةٌ، ولم يَفُتَّ له عضد، ولم يتوان عن قول الحق، بل صدع به، وتحمّل تبعات ذلك.

وفي الوقت نفسه، لم يأمر أتباعه بالخروج على ولاة الأمر، بل نهاهم عن ذلك، وحذرهم أشد التحذير.

ومن الأمثلة على ذلك ما كان من أمر شيخ الإسلام ابن تيمية × فلقد أوذي من قبل السلطة بسبب نشره لعقيدة السلف، وتقريره لها، ورده على سائر الطوائف والفرق الضالة، وسجن بسبب ذلك، ولاقى الويلات إثر الويلات، فما سكت عن الحق، وما تخلى عما يدعو إليه، كما أنه لم يأمر بالخروج على الأئمة، بل كان شديداً في التحذير منه[1].

١ـ انظر شرح السنة للبربهاري ص٢٨ ـ ٢٩، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ٥/٣٥ ـ ١٧، وأعلام السنة المنشورة، للشيخ حافظ الحكمي ص١٨٩ ـ ١٩١.

المبحث الخامس: إنكار الإمامة

إنكار الإمامة من أعظم المسائل خطراً وضرراً، وقد ظهر ذلك جلياً في العصر الحاضر، **وقد كان عملياً ونظرياً**.

أما الجانب العملي فكان على يد مصطفى كمال أتاتورك الذي ألغى الخلافة الإسلامية في تركيا، وأعلن العلمانية؛ فحطَّم بذلك الخلافة والدولة الإسلامية العظمى.

أما الجانب النظري فكان على يد الشيخ علي عبدالرازق.

وبرغم ما في هجمة أتاتورك وجنايته على الإسلام من الضراوة والقسوة والشراسة ـ فإن جناية علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) أشد وأخطر؛ ذلك أن صنيع أتاتورك ردة صريحة، وخروج على الإسلام بقوة السلطان؛ فلا يكون لها أثر إلا بقدر بقاء القوة.

أما صنيع علي عبدالرازق فقد كان محاولة للتغيير في أصول الإسلام، ومسلماته.

وهذا ـ بلا ريب ـ يفعل فعله، ويمتد أثره؛ ليصبح هو التفسير الصحيح لعلاقة الإسلام بالسياسة والحكم.

وحينئذ توصد الأبواب ـ لو قُدِّر لهذه المحاولة أن تنجح ـ في وجه الإسلام، ويُحال بينه وبين القيادة والتوجيه لحياة الأمة المسلمة.

لقد كان كتاب علي عبدالرازق أول كتاب يقدمه رجل ينتمي إلى الإسلام، بل والعلم والقضاء معلناً عن نفسه بلا مواربة، مقدماً فيه الفكر العلماني في جرأة لا تعرف الحياء، ولا الخجل.

ولم تكن كتابته مجرد فقرة قصيرة أو طويلة، بل ولم تكن مجرد مقال طويل يُنشر في إحدى الصحف.

وإنما كان كتاباً كاملاً يعرض منهجاً كلياً في معرفة الإسلام، وعلاقته بالحكم.

ومما يحسن التنبيه عليه أن الحكومة الكمالية حين ألغت الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م ــ أصدر المجلس الوطني التركي رسالة شرح فيها وجهة نظر في إلغاء الخلافة.

إلا أن الرأي العام في العالم الإسلامي لم يقابل هذا العمل بالارتياح، بل أخذ بعض مفكري وعلماء الإسلام يتطارحون الرأي في إقامة الخلافة الإسلامية.

أما الرسالة التي أصدرها المجلس التركي فقد كانت بعنوان (الإسلام وسلطة الأمة) أو (الخلافة وسلطة الأمة).

وقد تُرجمت إلى العربية، وطُبعت بمطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٢٤م[١].

وبعد صدور هذا الكتاب سنة ١٩٢٥م أصدر علي عبدالرازق كتابه المذكور، وكان حينئذ قاضياً بمحكمة المنصورة الشرعية الابتدائية.

ويُلاحظ أن بين اسمي الكتاب ومضمونهما تشابهاً، إلا أن الكتاب الأول لم يبلغ ما بلغه كتاب علي عبدالرازق من القدح في علاقة الإسلام بالسياسة.

ومما يوضح الشبه بين الكتابين أنه قد جاء في كتاب (الإسلام وسلطة الأمة) ص٥ ما نصه: =إن هذه المسألة ــ الخلافة ــ دنيوية وسياسية أكثر من كونها مسألة دينية، وإنها من مصلحة الأمة نفسها مباشرة، ولم يرد بيان صريح في القرآن الكريم، ولا في الأحاديث النبوية في كيفية نصب الخليفة وتعيينه، وشروط الخلافة ما هي

---

١ ـ انظر الاتجاهات الوطنية د.محمد محمد حسين ٢/٦٨.

...+.

وقال علي عبدالرازق في ص١٦ ما نصه: =إنه لعجب عجيب أن تأخذ بيدك كتاب الله الكريم، وتراجع النظر فيما بين فاتحته وسورة الناس، فترى فيه تصريف كل مثل، وتفصيل كل شيء من أمر هذا الدين [مَا فَرَّطْنَا فِيْ الكِتَابِ مِنْ شيء] ثم لا تجد فيه ذكراً لتلك الإمامة العامة، أو الخلافة.

إن في ذلك لمجالاً للمقال! ليس القرآن وحده الذي أهمل تلك الخلافة، ولم يتصد لها، بل السنة كالقرآن _أيضاً_ وقد تَرَكَتْهَا، ولم تتعرض لها+.

وفي رسالة المجلس الوطني التركي ص٤ ما نصه: =إن الفرقة المسماة بالخارجية تنكر وجوب الخلافة، وتقول إن أمر نصب الخليفة وتعيينه ليس واجباً على الأمة الإسلامية، بل هو جائز، ووجوده وعدم وجوده سيان+.

ويقول علي عبدالرازق في ص٣٣ ما نصه: =فكيف وقد قالت الخوارج: لا يجب نصب الإمام أصلاً، وكذلك قال الأصم من المعتزلة، وقال غيرهم _أيضاً_ كما سبقت الإشارة إليه.

وحسبنا في هذا المقام نقضاً لدعوى الإجماع أن يثبت عندنا خلاف الأصم والخوارج وغيرهم، وإن قال ابن خلدون: إنهم شواذ+.

وهكذا ردد علي عبدالرزاق في كتابه ما جاء في رسالة المجلس الوطني التركي، وزاد عليها شيئاً من فساد الفهم، وسوء الأدب في حق النبي " وحق كبار الصحابة.

وقد قابلت الدوائر الاستعمارية والمراكز التبشيرية المسيحية كتاب علي عبدالرازق بالترحيب والتصفيق، وذلك لخشيتها من كل فكرة ترمي إلى تكتل العالم الإسلامي، وارتياحها إلى نشر مثل هذه الآراء الخبيثة التي ضمنها علي عبدالرازق كتابه، تلك الآراء التي تخدم أهداف الاستعمار وتحقق آماله في السيطرة على الشعوب

الإسلامية، وإذلالها إلى الأبد.

وقد تُرجم إلى الإنجليزية، وعُدَّ أحدَ المراجع الأساسية لعلم الاجتماع الإسلامي في دراسة الجامعات الأمريكية على الخصوص للإسلام وتعاليمه[1].

وقد كشف المؤلف عن خبيئة نفسه الخبيثة في حديثه مع مراسل صحيفة (البورص إجبسيان) حينما سأله هذا المراسل:

ــ هل يمكن أن نعتبرك زعيماً للمدرسة؟

فأجاب: لست أعرف ماذا تعني بالمدرسة؟ فإن كنت تريد بهذا أن لي أنصاراً؛ يسرني أن أصرح لك أن الكثيرين يرون رأيي، لا في مصر وحدها، بل في العالم الإسلامي بأسره.

وقد وصلتني رسائل التأييد من جميع أقطار العالم التي نفذ إليها الإسلام.

ولا ريب أني رغم الحكم، لا أزال مستمراً في آرائي وفي نشرها؛ لأن الحكم لا يعدل طريقة تفكيري+.

=وسأسعى إلى ذلك بكل الوسائل الممكنة كتأليف كتب جديدة، ومقالات في الصحف، ومحاضرات، وأحاديث+.

والآراء التي أراد علي عبدالرازق أن ينشرها بين المسلمين، ويُؤلف فيها الكتب تتلخص في الطعن في حكومة النبي " واتهام كبار الصحابة بأشنع التهم.

ولم يكن من بين هذه الآراء الحض على مكافحة الاستعمار، والجهاد في سبيل الاستقلال والحرية، ولا عجب في ذلك؛ فبيت عبدالرازق كان في ذلك الوقت من

---

١ ـ انظر الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار، د.محمد البهي ص٢٣٢، والإمامة العظمى ص٧١.

البيوت العريقة في خدمة الاستعمار؛ فقد أنشأ حسن عبدالرازق حزب الأمة سنة ١٩٠٨م لمحاربة الحركة الوطنية، وبعد سنة ١٩١٩م انضم آل عبدالرازق إلى حزب الأحرار الدستوريين الذي كان يعمل مع الإنجليز.

وسواء كان الكتاب المنسوب لعلي عبدالرازق من تأليفه هو ـ كما هو مدون على غلاف الكتاب ـ أو كان من تأليف بعض المستشرقين كما يذهب إلى ذلك آخرون[1] فإن الذي يعنينا هنا أن نقول: إن العلمانية أعلنت الحرب بغير مواربة على النظام السياسي الإسلامي، وبدأت جولتها معه، التي ربما خُيِّل لأتباعها أنها الجولة الأولى والأخيرة.

لقد كان صدور ذلك الكتاب المنبوذ والذي يعني عند مؤلفه ومن يشايعه إسقاط الخلافة والقضاء عليها من الناحية الشرعية ـ عام ١٩٢٥م، أي بعد عام واحد من

---

١ ـ قد ذهب إلى ذلك الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية الأسبق؛ حيث قال: «علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس له فيه إلا وضع اسمه عليه فقط».

وقد نقل ذلك د.محمد ضياء الدين الريّس في كتابه (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) ص٢١١، واستظهر له بالعديد من القرائن، حيث توصَّل إلى أن مؤلف الكتاب أحد إثنين إما المستشرق مرجليوث اليهودي الذي كان أستاذاً للعربية في بريطانيا، وتدل كتاباته على أنه كان صهيونياً معادياً للإسلام والمسلمين.

أو أنه توماس أرنولد المستشرق المعروف.

وقد ذهب علي عبدالرازق إلى بريطانيا، وبقي فيها عامين. انظر الإسلام والخلافة ص١٧٥.

إسقاط الخلافة والقضاء عليها واقعياً من قِبَلِ أتاتورك وأتباعه.

وبصدور ذلك الكتاب بدأت وقائع الجولة الأولى _الظافرة بإذن الله_ من أهل الحق في الرد على أهل الباطل وضلالاتهم، وحمي الوطيس، وانتصب للحق أهله ودعاته، وظهرت الردود تلو الردود؛ لترد على الكائدين كيدهم في نحورهم، ولِتفضحَهم أمام أجيال الأمة المعاصرة واللاحقة، وتبين خيانتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ومتابعتهم لأولياء الشيطان من اليهود والنصارى الحاقدين.

فقام بالرد عليه السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار، وكذلك الشيخ محمد شاكر[1] وكيل الأزهر سابقاً، وكذلك الأستاذ أمين الرافعي.

وقد أفتى بعض كبار العلماء من أمثال الشيخ محمد شاكر، والشيخ يوسف الدجوي، والشيخ محمد بخيت، والسيد محمد رشيد رضا بِردَّةِ علي عبدالرازق مؤلف الكتاب المذكور.

كما ألف كبار العلماء كتباً في الرد عليه: فألَّف الشيخ محمد الخضر حسين (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) وألَّف الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية في وقته (حقيقة الإسلام وأصول الحكم) كما ألَّف الشيخ محمد الطاهر عاشور كتاب (نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم).

ومن قبل ذلك فقد عقدت له محاكمة في الأزهر من قبل هيئة كبار العلماء برئاسة الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي شيخ الجامع الأزهر وعضوية أربعة وعشرين عالماً من كبار العلماء، وبحضور علي عبدالرازق نفسه، وقد تمت مواجهته

---

١ ـ وهو والد العلامة الشيخ أحمد شاكر.

بما هو منسوب إليه في كتابه، واستمعت المحكمة لدفاعه عن نفسه، ثم خلصت الهيئة إلى القرار التالي: =حكمنا؛ نحن شيخ الجامع الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالماً معنا من هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ علي عبدالرازق أحد علماء الجامع الأزهر والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية ومؤلف كتاب (الإسلام وأصول الحكم) من زمرة العلماء.

كما حكم مجلس تأديب القضاة الشرعيين بوزارة الحقانية (العدل) بالإجماع بفصله من القضاء الشرعي+[1].

وإليك فيما يلي شيئاً من التفصيل عن تلك المحاكمة التي جرت؛ فقد انعقدت هيئة كبار العلماء برئاسة المرحوم محمد أبي الفضل الجيزاوي، شيخ الجامع الأزهر في ذلك الوقت، صباح الأربعاء ٢٢ المحرم سنة ١٣٤٤هـ (١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥م) وكان عدد أعضائها أربعة وعشرين عالماً، ولما مثل علي عبدالرازق أمام الهيئة حياها بقوله =السلام عليكم+ فلم يرد عليه أحد، وبعد مناقشة طويلة أصدرت الهيئة حكمها بإدانة المتهم، وإخراجه من زمرة العلماء.

ويترتب على الحكم المذكور: محو اسم المحكوم عليه من سجلات الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى، وطرده من كل وظيفة، وقطع مرتباته في أي جهة كانت، وعدم أهليته للقيام بأية وظيفة عمومية، دينية كانت أو غير دينية.

أما حيثيات الحكم، فيمكن إيجازها فيما يلي:

١ــ أن الشيخ علياً جعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة، لا علاقة لها

---

١ ـ تحطيم الصنم العلماني لمحمد بن شاكر ص١٤ـ١٥.

بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا.

وقد ردت الهيئة على هذا الزعم الباطل بأن الدين الإسلامي هو إجماع المسلمين على ما جاء به النبي " من عقائد، وعبادات، ومعاملات لإصلاح أمور الدنيا والآخرة، وأن كتاب الله تعالى وسنة رسوله "، كلاهما مشتمل على أحكام كثيرة في أمور الدنيا، وأحكام كثيرة في أمور الآخرة.

وقالت الهيئة: وواضح من كلامه _المؤلف_ أن الشريعة الإسلامية عنده شريعة روحية محضة، جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط، وأن ما بين الناس من المعاملات الدنيوية وتدبير الشئون العامة فلا شأن للشريعة به، وليس من مقاصدها.

وهل في استطاعة الشيخ أن يَشْطُرَ الدين الإسلامي شطرين، ويلغي منه شطر الأحكام المتعلقة بأمور الدنيا، ويضرب بآيات الكتاب العزيز، وسنة رسول الله" عرض الحائط؟!

٢_ ومن حيث إنه زعم أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي " كان في سبيل الملك، لا في سبيل الدين، ولا لإبلا غ الدعوة إلى العالمين.

فقد قال: =... وظاهر أول وهلة أن الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة إلى الدين، ولا يحمل الناس على الإيمان بالله ورسوله+.

ثم قال: =... وإذا كان " قد لجأ إلى القوة والرهبة، فذلك لا يكون في سبيل الدعوة إلى الدين وإبلا غ رسالته إلى العالمين، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان في سبيل الملك+.

على أنه لا يقف عند هذا الحد، بل كما جوز أن يكون الجهاد في سبيل الملك، ومن الشئون الملكية _ جوز أن تكون الزكاة والجزية والغنائم، ونحو ذلك في سبيل

الملك _ أيضاً _.

وجعل كل ذلك على هذا خارجاً عن حدود رسالة النبي " لم ينزل به وحي، ولم يأمر به الله _ تعالى _.

والشيخ علي لا يمنع أن يصادم صريح آيات الكتاب العزيز، فضلاً عن صريح الأحاديث المعروفة، ولا يمنع أنه ينكر معلوماً من الدين بالضرورة.

وذكرت الهيئة الآيات الواردة في الجهاد في سبيل الله، والآيات الخاصة بالزكاة، وتنظيم الصدقات، وتقسيم الغنائم، وهي كثيرة.

٣_ ومن حيث إنه زعم أن نظام الحكم في عهد النبي"كان موضع غموض، أو إبهام، أو اضطراب، أو نقص، وموجباً للحيرة.

وقد رضي لنفسه بعد ذلك مذهباً، هو قوله: =إنما كانت ولاية محمد "على المؤمنين ولاية رسالة غير مشوبة بشيء من الحكم+.

وهذه هي الطريقة الخطيرة التي خرج إليها، وهي أنه جرد النبي"من الحكم.

وما زعمه الشيخ علي مصادم لصريح القرآن الكريم، فقد قال الله _تعالى_: [إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ] ثم أوردت الهيئة آيات كثيرة تتضمن معنى الآية السابقة، وتنحو نحوها.

٤_ ومن حيث إنه زعم أن مهمة النبي" كانت بلاغاً للشريعة مجرداً عن الحكم والتنفيذ.

ولو صح هذا لكان رفضاً لجميع آيات الأحكام الكثيرة الواردة في القرآن الكريم، ومخالفاً _أيضاً_ لصريح السنة.

ثم أوردت الهيئة كثيراً من الأحاديث التي تهدم مزاعم المؤلف، وختمت ذلك

بقولها: =فهل يجوز أن يقال بعد ذلك في محمد" إن عمله السماوي لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معاني السلطان وإنه لم يكلف أن يأخذ الناس بما جاءهم به، ولا أن يحملهم عليه؟!+.

٥ــ ومن حيث إنه أنكر إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام، وعلى أنه لا بد للأمة ممن يقوم بأمرها في الدين والدنيا.

وقال: إنه يقف في ذلك في صف جماعة غير قليلة من أهل القبلة، يعني بعض الخوارج والأصم؛ وهو دفاع لا يبرئه من أنه خرج على الإجماع المتواتر عند المسلمين، وحسبه في بدعته أنه في صف الخوارج، لا في صف جماهير المسلمين.

٦ــ ومن حيث إنه أنكر أن القضاء وظيفة شرعية، وقال: إن الذين ذهبوا إلى أن القضاء وظيفة شرعية جعلوه متفرعاً عن الخلافة، فمن أنكر الخلافة أنكر القضاء.

وكلامه غير صحيح، فالقضاء ثابت بالدين على كل تقدير، تمسكاً بالأدلة الشرعية التي لا يستطاع نقضها.

٧ــ ومن حيث إنه زعم أن حكومة أبي بكر، والخلفاء الراشدين من بعده ــرضي الله عنهمــ كانت لا دينية، ودفاع الشيخ علي بأن الذي يقصده من أن زعامة أبي بكر لا دينية أنها لا تستند على وحي، ولا إلى رسالة ــ مضحك موقع في الأسف، فإن أحداً لا يتوهم أن أبا بكر÷ كان نبياً يوحى إليه حتى يُعني الشيخ علي بدفع هذا التوهم.

لقد بايع أبا بكر ÷ جماهير الصحابة من أنصار ومهاجرين على أنه القائم بأمر الدين في هذه الأمة بعد نبيها محمد".

وإن ما وصم به الشيخ علي أبا بكر÷ من أن حكومته لا دينية، لم يُقْدِمْ على

مثله أحد من المسلمين؛ فالله حسبه، ولكن الذي يطعن في مقام النبوة، يسهل عليه كثيراً أن يطعن في مقام أبي بكر وإخوانه الخلفاء الراشدين ــرضي الله عنهم أجمعين ــ.

هذه خلاصة الحيثيات التي بنت عليها هيئة كبار العلماء حكمها السالف الذكر.

ومنذ ذلك الحين لم تنقطع الكتابات في الرد على كتاب علي عبدالرازق سواء كان ذلك على هيئة كتاب، أو مقال.

وقد حاول بعضهم مساندة علي عبدالرازق، وإعادة وجاهته وقدره عند الناس؛ فبعد اثنين وعشرين عاماً غيرت هيئة كبار العلماء رأيها في الشيخ علي عبدالرازق؛ فبعد أن كان سنة ١٩٢٥ كافراً خارجاً على الإسلام، منكراً لكثير مما ورد في القرآن والسنة، إذا هو في سنة ١٩٤٧ مؤمن يستحق العطف، ويستوجب العفو؛ انظر إلى ما نشرته صحيفة الأهرام في ٢٦ــ٢ــ١٦٤٧ تحت عنوان (العلماء يلوذون بالعرش في مسألة علي عبد الرازق بك) وهو:

=عندما أصابت الأزهر تلك الصدمة التي نزلت فجأة في شيخه الأكبر المغفور له الشيخ مصطفى عبدالرازق اتجهت نية كبار العلماء إلى تكريم ذكراه في شخص شقيقه الأستاذ علي عبد الرزاق بك، وذلك بأن يلوذوا بالسُّدَّة الملكية ملتمسين عفوا مليكاً عن أثر القرار الذي اتخذته هيئة كبار العلماء من قبل؛ فما اختمرت هذه الفكرة حتى أخذت سبيلها إلى التنفيذ، وأُعِدَّت صيغة الالتماس الذي يرفع في هذا الشأن، وحمله إلى القصر العامر جماعة كبار العلماء وأعضاء المجلس الأعلى للأزهر+.

=ومما هو جدير بالذكر؛ أنه روعي في رفع هذا الالتماس أن تتقدم به الهيئتان

العلمية والتنفيذية في الزهر: تمثل الأولى جماعة كبار العلماء، وتمثل الثانية المجلس الأعلى للأزهر، وأن يكون الملاذ في ذلك؛ هو جلالة صاحب العرش، بعد أن تبين أن جماعة كبار العلماء لا تملك بوضعها الحالي أن تتخذ قراراً جديداً بإلغاء قرارها الأول في مسألة الأستاذ علي عبد الرزاق بك؛ إذ إن مثل هذا القرار يجب أن يصدر بأغلبية ثلثي أعضائها، على أن يكون من بينهم شيخ الأزهر، وذلك يقضي قراراً من عشرين عضواً، على حين أن الأحياء من أعضاء الجماعة لا يبلغون هذا العدد+.

هذا ما نشرته الصحف ٢٦ـ٢ـ١٩٤٧، ومنه نرى أن علماء الأزهر، بما فيهم هيئة كبار العلماء كانوا مدفوعين من تلقاء أنفسهم إلى طلب العفو عن علي عبد الرزاق، وأن هيئة كبار العلماء لم يتوافر فيها العدد القانوني الذي يمكنها من إلغاء قرارها الصادر في١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥؛ فلذلك لجأت على الملك.

والحقَّ أن هذا كله محض كذب وافتراء؛ فقد أراد الملك فاروق أن يعين علي عبدالرزاق وزيراً للأوقاف؛ فأمر شيوخ الأزهر بأن يقوموا بهذه الحركة؛ فأطاعوا.

وفي يوم ٣ مارس سنة ١٩٤٧ نشرت الصحف مرسوماً بتعيين علي عبدالرزاق وزيراً للأوقاف.

والعجب أن يكون تكريم ذكرى مصطفى على حساب الدين؛ هذا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى القرار الصادر سنة ١٩٢٥. وإلى الضجة الهائلة التي أحدثها علماء الأزهر حول الكتاب ومؤلفه.

وعلى كل حال فإن الكتاب لقي وما زال يلقى الهوان، والرد عند كل مسلم أومضت في قلبه بارقة إيمان، وإخلاص.

بل إن بعض من تحمسوا للكتاب أول أمره، عادوا إلى مناوأته، وتخطئته.

بل إن علي عبد الرازق نفسه عندما عرض عليه قبل وفاته عام ١٩٦٦م إعادة طبع الكتاب مرة أخرى رفض ذلك، كما أنه لم يحاول من قبلُ الردَّ على منتقديه وخصومه[١]

١ـ ومع ذلك فإن هذا الكتاب يلقى رواجاً عند من يقولون بآرائه، ويبعث ما بين الفينة والفينة.

ولكنه ما إن يبعث إلا ويقيض الله من يدفع زيغه، أو يعيد طبع ما رُد به باطله.

ومن أحسن الردود التي كشفت عوار ذلك الكتاب ما خطته يراعة الإمام الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله في كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) الذي أُعيدت طباعته مؤخراً بتحقيق ابن أخيه الأستاذ علي الرضا الحسيني.

= فلقد «تناول هذا الكتاب نقض ما جاء في كتاب الإسلام وأصول الحكم مما يخالف المبادئ الإسلامية، ويحود عنها بطريقة تدل على رسوخ قدم الأستاذ السيد محمد الخضر في العلوم الإسلامية والعربية، وتضلعه منها تضلعاً يجعله في صفوف كبار العلماء الباحثين الذين يعرفون كيف يصلون بالقارئ إلى الحق الناصع في رفق وسهولة، دون أن يرهقوا ذهنه، أو يحرجوا صدره.

فأدلة ناصعة، ولغة بينة، وقصد في التعبير من غير غموض أو إبهام، وأدب صريح، وخلق متين يدل على أن صاحبه ممن تأدبوا بالأدب الإسلامي، وتشبعوا به، وفهموا معنى قوله ـتعالى ـ: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ثم حسن ترتيب وتنسيق في المناقشة وسوق الأدلة.

=

= لا يدع في نفس القارئ مجالاً للشك، ولا يترك شبهة تتردد في صدره دون أن يقضي عليها قضاءاً نهائياً.

كل ذلك في تواضع العالم الصادق النظر، النزيه الغرض، الذي لا يقصد من بحثه وجدله إلا إحقاق الحق وإزهاق الباطل». مجلة (المكتبة) شهرية أدبية تبحث عن المؤلفات وقيمتها العلمية ـ الجزء الثاني من السنة الثانية الصادر في رمضان ١٣٤٤هـ.

وخير تقديم، وتقريظ للكتاب أن يقدم ويقرظ نفسه بنفسه.

وكتابة الإمام محمد الخضر حسين مرآة لقلم بليغ، ونفس طاهرة، وعقل حصيف، وكتاباته جوامع الكلم، وحكم بالغات صيغت باللفظ العذب، والسبك الجيد، إذا تُليت على الأسماع ركنت إليها النفوس لطهارتها وصدقها، وإذا قرأها القارئ عاش في روضة علمية ساحرة.

إن الإمام محمد الخضر حسين عالم جليل يغرف العلم من بحر لا ساحل له.

= ويُعتبر كتاب (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) أهم المراجع للرد على كتاب علي عبدالرازق.

وإذا فرح الضالون المضلون بكتاب (الشيخ القاضي الشرعي) فقد فرح المؤمنون الصادقون بكتاب الإمام الصالح، وشتان بين الضلال والهدى، وبين الشر والخير.

وإليك مقدمة ذلك الكتاب، تلك المقدمة التي تُبين عن شيء من مكنونات الكتاب ونفائسه.

قال الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله: «أحمد الله على الهداية، وأسأله التوفيق في البداية والنهاية، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد المبعوث بأكمل دين وأحكم سياسة، وعلى آله وصحبه، وكل من حرس شريعته بالحجة أو الحسام، وأحسن الحراسة.

=

وقع في يدي كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ علي عبدالرازق، فأخذت أقرؤه قراءة من يتغاضى عن صغائر الهفوات، ويدرأ تزييف الأقوال بالشبهات.

وكنت أمر في صحائفه الأولى على كلمات ترمز إلى غير هدى، فأقول: إن في اللغة كنايةً ومجازاً، ومعميات وألغازاً، ولعلها شغفته حباً حتى تخطَّى بها المقامات الأدبية إلى المباحث العلمية.

وما نشبت أن جعلت المعاني الجامحة عن سواء السبيل تبرح عن خفاء، وتناديها قوانين المنطق فلا تعبأ بالنداء.

= وكنت ـ بالرغم من كثرة بوارحها ـ أُصبِّر نفسي على حسن الظن بمصنِّفها، وأرجو أن يكون الغرض الذي جاهد في سبيله عشر سنين حكمة بالغة، وإن خانه النظر فأخطأ مقدماتها الصادقة.

= وما برحت أنتقل من حقيقة وضاءة ينكرها، وهي أشبه بمقدماته من الماء بالماء، أو الغراب بالغراب.

فوَّق المؤلف سهامه في هذا الكتاب إلى أغراض شتى، والتوى به البحث من غرض إلى آخر، حتى جحد الخلافة وأنكر حقيقتها، وتخطى هذا الحد إلى الخوض في صلة الحكومة بالإسلام.

وبعد أن ألقى حبالاً وعصياً من التشكيك والمغالطات ـ زعم أن النبي ـعليه السلامـ ما كان يدعو إلى دولة سياسية، وأن القضاء وغيره من وظائف الحكم ومراكز الدولة ليست من الدين في شيء، وإنما هي خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها، ومسَّ في غضون البحث أصولاً لو صدق عليها ظنه لأصبحت النفوس المطمئنة بحكمة الإسلام وآدابه مزلزلة العقيدة مضطربة العنان.

=

كنا نسمع بعض مزاعم الكتاب من طائفة لم يتفقهوا في الدين، ولم يحكموا مذاهب السياسة خبرة، فلا نقيم لها وزناً، ولا نحرك لمناقشتها قلماً، إذ يكفي في ردها على عقبها صدورها من نفر يرون الحطَّ في الأهواء حرية، والركض وراء كل جديد كياسة.

كنا نسمع هذه المزاعم فلا نزيد أن نعرض عمَّن يلغطون بها حتى يخوضوا في حديث غيره.

أما اليوم وقد سرت عدواها إلى قلم رجل ينتمي للأزهر الشريف، ويتبوَّأ في المحاكم الشرعية مقعداً ـ فلا جرم أن نسوقها إلى مشهد الأنظار المستقلة، ونضعها بين يدي الحجة، وللحجة قضاء لا يستأخر، وسلطان لا يحابى، ولا يستكين.

= لا أقصد في هذه الصحف إلى أن أعجم الكتاب جملة، وأغمز كل ما ألاقيه فيه من عوج، فإن كثيراً من آرائه تحدثك عن نفسها اليقين، ثم تضع عنقها في يدك دون أن تعتصم بسند، أو تستتر بشبهة.

وإنما أقصد إلى مناقشته في بعض آراء يتبرأ منها الدين الحنيف، وأخرى يتذمر عليه من أجلها التاريخ الصحيح.

ومتى أميط اللثام عن وجه الصواب في هذه المباحث الدينية التاريخية ـ بقي الكتاب ألفاظاً لا تعبر عن معنى، ومقدمات لا تتصل بنتيجة.

= والكتاب مرتب على ثلاثة كتب، وكل كتاب يحتوي على ثلاثة أبواب، وموضوع الكتاب الأول: الخلافة والإسلام، وموضوع الكتاب الثاني: الحكومة والإسلام، وموضوع الكتاب الثالث: الخلافة والحكومة في التاريخ.

=

وطريقتنا في النقد أن نضع في صدر كل باب ملخص ما تناوله المؤلف من أمهات المباحث، ثم نعود إلى ما نراه مستحقاً للمناقشة من دعوى أو شبهة، فنحكي ألفاظه بعينها، ونتبعها بما يزيح لبسها، أو يحل لغزها، أو يجتثها من منبتها.

وتخيَّرنا هذا الأسلوب لتكون هذه الصحف قائمة بنفسها، ويسهل على القارئ تحقيق البحث، وفهم ما تدور عليه المناقشة، ولو لم تكن بين يديه نسخة من هذا الكتاب المطروح على بساط النقد والمناظرة.

انظر كتاب (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) ص٩ـ١١.

الفهرس